

في ألف عام

دكتور محمد عبد المنعم خفاجي   دكتور على على صبح

الطبعة الثالثة

مزيدة ومحققة ومنقحة

الجزء الثانى

الناشـر

المكتبة الأزهرية للتراث

(٩) درب الأتراك - خلف الجامع الأزهر الشريف - ت: ٢٥١٢٠٨٤٧

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

الحمد لله الذى هذب النفوس بمبادئ الإسلام، وطهر القلوب بنور الإيمان، وشرح الصدور بهدى القرآن: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُوْلَٰئِكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٢٢) اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٢، ٢٣].

والصلاة والسلام على سيدنا محمد ﷺ فضله على العالمين كافة بالعلم والشريعة الإسلامية: ﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد ﷺ وعلى آله وأصحابه وأتباعه رضى الله عنهم أجمعين.. وبعد:

فهذا هو الجزء الثانى من موسوعة **«الأزهر فى ألف عام»** فى طبعته الثالثة المزيدة والمحققة والمنقحة والتى تتناول شيوخ الأزهر بالتفصيل والصور، والفضل يرجع إلى العالم العلامة الأستاذ الدكتور عبد الله سلامة نصر وقد ذكرنا فى نهاية الجزء الأول السبعة الأوائل من شيوخ الأزهر، ويبدأ هذا الجزء **«الثانى»** من الثامن وهو الإمام الأكبر الشيخ محمد الحفنى، حتى ينتهى الجزء بفضيلة الإمام الأكبر الشيخ الدكتور محمد الفحام **«التاسع والثلاثين»**، ثم يبدأ الجزء الثالث بفضيلة الإمام الأكبر الشيخ الدكتور عبد الحليم محمود **«الأربعين»**.

ومن حق شريعة الإسلام السمحة والأزهر الشريف الذي دعا إلى الوسطية الإسلامية أن نرفع هذه الموسوعة إلى الله عز وجل لتكون شكراً لله تعالى على ما

منحنا من شـرف التلمذة على يد هؤلاء الأعـلام وما قـدموه للبـشرية والحـضارة الإسلامية والإنسانية والعالمية من علوم ومعارف، أشاد بسبقها العالم كله، وشهدوا له بأنه أول مـؤسسـة جامـعـية فى العـالم، فـقد بددت بمنارات الأزهر الشـريف الظلمات والجـهالات فى الشرق والغرب، والله تـعالى أسأل أن يتقـبل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم وهو نعم المولى ونعم النصير

أ.د على على صبح

١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م

❁❁❁

٨- فضيلة الشيخ الإمام محمد الحفنى[١]



تقديم: أول ما قدمه الأزهر للناس وللعالم.. روح التسامح والتكافل، والبعد عن التعصب، ونبذ الصراعات المذهبية، وتشجيع حرية الفكر للفرد والجماعة، ولم تكن أى بلد أو دولة أخرى قادرة على أن تسبق مصر فى هذا المجال -من تشجيع الحريات والعبادات والابتعاد عن التعصب المذهبى- فمصر هى الأرض التى اهتدى فيها الإنسان منذ فجر التاريخ إلى حقيقة وحدة الإله، بدليل اقتناعه بالحياة الآخرة، والخلود الدائم، فلم يقبل الوثنية، وحطم حواجز الزمان والمكان، فعلى تراب أرض مصر.. مشى إبراهيم الخليل أبو الأنبياء، وعاش يوسف هاديا، والوادى المقدس طوى فى بقعة غالية من أرض مصر الطيبة -نزلت الرسالة على موسى، وإلى شعب مصر جاء عيسى بن مريم ساعيًا إلى الخير والإيمان، فأكرمه شعب مصر، وعلى أرض الكنانة، انتشرت الدعوة الإسلامية، بالمثل الطيب، والقدوة الصالحة، والرؤية التاريخية الثاقبة لدور الإنسان ورسالته- على الأرض.. إلخ.. سلسلة من الإيمان متصلة، وجهاد فى سبيل الله والحق، وكفاح صادق من أجل القيم النبيلة والمبادىء السامية. تروى تاريخ الأزهر، وتدون جزءاً من تاريخ مصر وتقوم شاهداً على عبقرية الشعب، وعظمة المكان.. والأزهر هو رائد التقدم والازدهار فى كل عصر، وعنوان لقدرة الشعوب الإسلامية فى كل مكان -على السبق الحضارى والإنجاز العلمى.

والأزهر هو أرفع مؤسسة علمية وتربوية فى العالم الإسلامى، لأن الأمم لا تصنع المجد وتكتب التاريخ إلا بالعلم والفكر، والعلماء الصالحون هم القادرون وحدهم على رسم صورة المستقبل وكسر حاجز الزمن.

والعالم ينتظر من الأزهر الكثير، فهو على أبواب مرحلة جديدة من مراحل

(١) عودة إلى التراجم التفصيلية لشيوخ الأزهر وهى إضافات جديدة، سبق منها فى الجزء الأول سبعة انتهت بالإمام السابع الشيخ عبد الله الشبراوى.

النمو والتطور، ويتطلع إلى مزيد من المشاركة الأزهرية فى مواجهة التحديات والصعاب التى تواجه طريقنا فى الحاضر والمستقبل، إن العالم يتطلع إلى مضاعفة الجهد الذى يبذله علماء الأزهر الأجلاء لتأمين الفكر الإسلامى، ضد المفاهيم الدخيلة المدمرة لتقريب علوم الدين إلى عقول الشباب.. كما يتطلع العالم إلى مشاركة أزهرية نشطة فى بحث قضية الثقافة فى مصر والمجتمع الإسلامى على امتداده.. فى وقت يتصارع فيه القديم والحديث وتصطدم فيه النظرية بالواقع، وتتزايد أهمية العلم باعتباره قيمة فى حد ذاته، وليس فقط كوسيلة للتقدم وصنع الحضارة.. العالم ينظر إلى دور الأزهر المرموق ورجاله فى التصدى للمشاكل الاجتماعية والاقتصادية التى تواجه مجتمعاتنا الحديثة، والبحث عن حلول تتفق مع عقيدتنا ومبادئنا وتتناسب مع قدراتنا، ولا تصطدم بالبيئة التى نعيش فيها، والآمال التى نسعى إلى تحقيقها ونحن كلنا نتطلع إلى الدور الأكبر للأزهر وخريجى الأزهر فى العالم الإسلامى على امتداده بنشر الثقافة الدينية. ويجب أن يتعمق فى وجداننا مفهوم الانتماء الوطنى لأن حب الوطن من الإيمان. وسنجاهد لاعلام كلمة الله ما دام فينا عرق ينبض ونفس تؤمن بالله.

- ونعود لإكمال الحديث عن سلسلة شيوخ الأزهر الأجلاء.

*** نسبه وبيئته ونشأته وتوليه المشيخة:**

ولد فضيلة الشيخ الإمام محمد بن سالم الحفنى الشافعى الخلوتى الحسينى سنة ١١٠٠هـ- ١٦٨٩م.

ببلدة «حفنا» من قرى بلبيس محافظة الشرقية، وتولى منصب مشيخة الأزهر سنة ١١٧١هـ- ١٧٥٧م.

واستمر شيخًا للأزهر مدة عشر سنوات -قال عنه الجبرتى «كان رحمه الله قطب رحى الديار المصرية»، ولا يتم أمر من أمور الدولة وغيرها إلا باطلاعه وإذنه». وكعادة أهل القرية.. أن يذهب الصبى إلى الكتاب لحفظ القرآن الكريم. وقد كان؛ فبيئته بيئة صالحة ونبته نبت طيب.. وفى الرابعة عشرة من عمره وفد للقاهرة وأكمل تعليمه بالأزهر.. وأخذ العلم عن أشهر علمائها، واجتهد حتى أصبح أمهر طلاب عصره، وأقرأهم ودرس وأفاد فى حضرة مشايخه وأجازوه

بالإفتاء والتدريس، ومن أشهر مشايخه العلامة الشيخ محمد البديرنى الدمياطى. الشهير بابن «الميت» أخذ عنه التفسير والحديث.. وإحياء علوم الدين «للغزالى» والكتب الستة -والمعاجم الثلاثة الكبير والأوسط والصغير» للطبرانى، وصحيح ابن حبان والمستدرك للنيسابورى، وحلية الأولياء لأبى نعيم -وقد حاز الشيخ الإمام محمد الحفنى على ثقافة واسعة وثقلته التجارب العديدة، وزكته الصوفية السامية واجتمعت فيه عناصر التوفيق كلها، وقلما تجتمع فى إنسان إلا إذا لاحظته العناية الربانية.. فهو شريف حسينى من جهة أم أبيه السيدة -ترك بنت السيد سالم بن محمد بن على بن أبى طالب، وهذه ميزة تذكر للشيخ «الحفنى»، وتوضع على رأس مزاياه، فإن الانتساب للإمام الحسينى، انتساب لجده سيد المرسلين -محمد ﷺ- وهو شرف لصحبته فى الدنيا والآخرة، وكان الانتساب للرسول عليه الصلاة والسلام فى هذا الزمن يلزم صاحبه بالتمسك بسنته الشريفة، والالتزام بتقوى الله، ليتفق هذا مع شرف نسبه الكريم. وكما ذكرنا أنه حفظ القرآن الكريم حتى سورة الشعراء وله من العمر أربع عشرة سنة، وبناء على نصيحة الشيخ البشبيشى حيث أتم حفظ القرآن وأرسله والده للأزهر بناء على ذلك.. ثم اشتغل بحفظ المتون فحفظ «الفية بن مالك» فى النحو والصرف -والسلم والجوهرة والرحبية وأبى شجاع وغيرها من المتون.. وفى الثانية والعشرين من عمره. كان قد تبحر فى علوم النحو والفقه والمنطق والحديث والأصول. وعلم الكلام، وبرع فى العروض، وظهرت مواهبه الأبية فى الشعر وفنونه- بالفصحى والعامية- كما ظهرت براعته فى النثر طبقًا للأسلوب السائد فى عصره، فأذن له مشايخه وأجازوه بالإفتاء والتدريس فى هذه السن المبكرة، وأما تجاربه العديدة التى مرت به فى بداية حياته. فإنه ذاق مرارة الفقر فلم تزله قلة اليد. ثم ذاق حلاوة الغنى، فلم تبطره الثروة ولا الغنى، بل كان قمة فى العطاء والسخاء.. وعلى الرغم من مناصبه العديدة، ووصوله إلى أعلى المناصب وذروة المجد. فإنه كان متواضعا جم الحياء كريم النفس رحب الصدر، متمسكًا بالخلق وبالمروءة والوفاء وله هيبته ووقار لا يكاد أحد يسأله لمهابته وجلالته، فهو مهيب الشكل عظيم اللحية أبيضها.. وكأن على وجهه قنديل نور.

وكان دائم الأصغاء لكل من يحدثه ولو تحدث معه بالخزعبلات. . فكان يتبسط مع محدثه، وقد ترجم «الجبرتى» عن حياته فى يومياته ترجمة مستفيضة استغرقت ست عشرة صفحة من القطع الكبير، وكما ذكر آنفا أنه كان فقيراً فى بداية حياته، فكان ينسخ بعض الكتب، وكان ذلك يكلفه الجهد والوقت، ونتيجة لتقواه وورعه وتعلقه بحب الله أقبلت عليه الدنيا وفتحت عليه كنوزها وتمثل فيه قول الله سبحانه وتعالى ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٢-٣].

آثاره العلمية وتأثيره ومكانته:

فى ريعان الشباب تاقت نفس الشيخ الحفنى إلى سلك الصوفية. فأخذ يتردد على زاوية الشيخ شاهين الخلوتى بسفح الجبل، ويمكث فيها الليالى متحنثا متعبدا. ثم أخذ العهد بعد الثلاثين من عمره على الشيخ: أحمد الشاذلى المغربى المعروف «بالقرى» وعرف أتباعها «بالقربا شيلية» نسبة إلى السيد على أفندى قره باشى أى «أسود الرأس»، ثم تلقى الطريقة -الخلوتية- عن شيخها العلامة. . الإمام السيد مصطفى بن كمال الدين. ولما جلس الشيخ «الحفنى» للتدريس بالأزهر وغيره. التف حوله الطلبة وذاع صيته، وشهد له علماء عصره بالتقدم والرسوخ، ووصفه الجبرتى بأنه: «الإمام العلامة الهمام أو حد زمانه علما وعملا، أدرك ما لم تدركه الأوائل، المشهور له بالكمال والتحقيق على تقدمه على كل فرق شمس الملة والدين.

وكان الشيخ العلامة مصطفى العزيزى إذا رفع إليه سؤال، يرسله إليه، وقد لهجت الألسنة بذكره فى عصره، وتناقل عنه الناس روايات عديدة عما منحه الله إياه من كرامات، وقد زاده كرمه مكانه وحبا فى نفوس الناس وقلوبهم، وكانت له صدقات وصلات خفية. . ولا ينقطع ورود الناس إلى بيته ليلاً ونهاراً وباختصار فقد أقبلت عليه الناس طولاً وعرضًا -كل من طلب منه شيئًا وجده. وكان رزقه من فيض الإله سبحانه.

وتسابق العلماء فى عصره إلى إجازته والكتابه عنه. فقد ألف العلامة الشيخ حسن المكى. . كتابا فى مناقب الشيخ الحفنى ونسبه.

كما ألف العلامة الشيخ الدمنهورى كتابًا آخر فى مناقب الشيخ ومدائحه، وكان الأمراء والولاة يلهجون بكراماته ومناقبه، وقيل لبعض الأمراء: إن الإمام الشيخ الحفنى من عجائب مصر فقال: «بل قل من عجائب الدنيا» وقد أفاض الجبرتى فى ذكر سلوكه الصوفى وترقيته على يد شيخه ورحلته إلى بيت المقدس، وعمن أخذ الطريقة على يد الشيخ الحفنى من أعلام الصوفية ومنهم الشيخ عبد الله الشرقاوى وهو الشيخ الثانى عشر للأزهر -فيما بعد وغيرهم من أقطاب التصوف فى ذلك الزمان، وكما استجاره العلماء، وكما كتبوا عنه كذلك لهج الشعراء بمدحه وصاغوا فيه القصائد المسهبة، فقد قالوا فيه قصائد تفيض رقة وعذوبة مئات القصائد الطويلة والقصيرة تغنى بها الشعراء والأدباء فى مدحه.. والمقام لا يتسع فمن أرادها فلينظرها فى أماكنها، وكان الشيخ الإمام يتمتع بموهبة أدبية ظهرت فى شعره ونثره، وكان يوجه طلابه إلى دراسة المصادر العلمية العميقة، مثل الأشمونى فى النحو والصرف وجمع الجوامع فى أصول الفقه للسبكى، وغير ذلك من الأصول العلمية.

مؤلفاته ومصنفاته:

وإذا ما تركنا هذه النفائس وولينا وجهنا شطر مصنفاته من المتون والشروح والحواشى.

رأيناها أكثر إثاره، فإن الشيخ لم يدع علمـا من العلوم المعروفة فى عصره، إلا وضرب فيه بسهم وافر، وهذه هى بعض مؤلفاته.

١- الثمرة البهية فى أسماء الصحابة البدرية فى التاريخ.

٢- حاشية على شرح الأشمونى لألفية ابن مالك فى النحو.

٣- أنفس نفائس الدرر حاشية على شرح همزية البوصيرى.

٤- حاشية على السمرقندى، على الرسالة العضدية للإيجى فى علم الوضع الحديث.

٥- حاشية فى جزءين على الجامع الصغير للسيوطى فى الحديث.

٦- رسالة فى التقليد فى الفروع فى أصول الفقه.

٧- حاشية على شرح الفوائد الشنشورية للشنشورى على الرحبية فى المواريث.

٨- حاشية على السبط فى الجبر والمقابلة.

٩- شرح المسألة الملفقة فى تحليل المطلقة -ثلاثًا.

١٠- سند الحفنى الكبير أورد فيه سنده لبعض الأحاديث والأوراد وغيرها.

والحق أن الرجل كان الناس يأتونه وكانت نفحات ربه تتوالى عليه.. فكان كثير الانقطاع لله سبحانه وتعالى وثيق الصلة به. مثله فى هذا المثل: الطبرانى والعينى والسخاوى. يتساءل الناس كيف اتسعت أوقاتهم لتأليف هذه الكتب، والحفنى واحد من هؤلاء الربانيين.

وفاته:

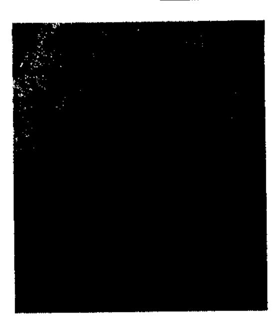
عندما يأت قضاء الله ونهاية الأجل، فلا راد لقضاءه ففى يوم من أيام الله وهو يوم السبت قبل ظهر يوم ٢٧ من ربيع الأول سنة ١١٨١هـ رحل ذلك الجسد الطاهر إلى رحاب ربه العظيم، ودفن يوم الأحد بعد أن أدى الحاضرون عليه صلاة الجنازة فى الأزهر الشريف فى مشهد مهيب فيه خشوع ورهبة. وكان يوم هول كبيرا ووقف الجميع على قبره يبكون حتى تحجرت المآقى وجفت الدموع.. ليس اعتراضا على قضاء الله -ولكن حزنا لهذا الفراق المؤلم، ولأنه كان سندا للفقراء والضعفاء والمظلومين..

فسلام الله عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا[1].

❁❁❁

(١) صوت الأزهر: بقلم وريشة د. عبد الله سلامة نصر صـ١٠ فى ٣٠/ ٣/ ٢٠٠٧م.

٩- فضيلة الشيخ الإمام عبد الرءوف السجينى



تقديم: وقد لبث الأزهر فى كل العهود فضلاً عن صبغته الجامعية، وعن إقامة الصلوات فيه.. فقد ظل مركزاً لكثير من المظاهر والمناسبات الرسمية الأخرى.. ومن ذلك مركز المحتسب، وكان منصب المحتسب من أهم المناصب الدينية، وهو الثالث بعد قاضى القضاة، وداعى الدعاة فى العصر الفاطمى، وعمله يتناول الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

وأيضًا كان الأزهر مركز الاحتفال الرسمى بالمولد النبوى الشريف.. ففى اليوم الثانى عشر من ربيع الأول، يركب القاضى بعد العصر ومعه الشهود إلى الجامع الأزهر، ومعهم فرق ورجال.. يوزعون صوانى الحلوى التى أعدت بقصر الخليفة لتوزع على الناس وأرباب الرسوم مثل: قاضى القضاة، وداعى الدعاة وقراء الحضرة، والخطباء وغيرهم، فيجلسون فى الجامع حتى يكمل القراء ختم القرآن - الختمة الكريمة.

وفى العهد الفاطمى، وقبل إنشاء المشهد الحسينى فى سنة ٥٤٩هـ، كان هذا الحفل من أجل المظاهر للمذهب الشيعى الذى أسسته الدولة الفاطمية، ورتبت له.

يخطب الخطباء، ويقرأ القراء وينشر الشعراء ويمدح المادحون.. وهكذا سيظل الأزهر مركز إشعاع حضارى ودينى، والصدر الواسع الحنون لكل الناس، ونبراسا ومحرابا مقدسا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.. ولقد ازداد مهابة وأهمية فى ظل وعهد الرجل الحكيم الحليم الصابر فضيلة الشيخ الإمام أ.د. سيد طنطاوى شيخ الأزهر حفظه الله وأدام بقاءه فخرا وعزا وشرفا للأزهر وللإسلام والمسلمين.

نسبه وبيئته ونشأته وتوليته للمشيخة:

هو الإمام العلامة الفقيه النبيه شيخ الإسلام، وعمدة الأنام، الشيخ عبد الرءوف بن محمد بن عبد الرحمن بن أحمد السجينى الشافعى الأزهرى وتاسع شيوخ

الأزهر، وكنيته «أبو الجود» لشدة كرمه، ولد عام ١١٥٤هـ- ١٧٤١م فى قرية من قرى محافظة الغربية، تسمى «سجين» ولهذا نسب إليها. هكذا ذكره الجبرتى فى تاريخه.. نشأ الإمام «السجينى» فى بيت كله علم وفضل فحفظ القرآن وتلقى عن أبيه وعن عمه الشيخ شمس الدين السجينى.. العلم بالأزهر.

وكان من العلماء المشهورين، كما كان والده أيضًا من العلماء المشهود لهم -فهو فقيه أصولى شافعى- ويظهر أنه كما وضحنا- سليل أسرة اشتهرت بالعلم ويذكر الجبرتى فى حديثه عن الشيخ «السجينى» أن العلامة «الشيخ محمد السجينى، والد الإمام، كان إذا مر بحلقة درسه خفض من مشيته، ووقف قليلاً، وأنصت لحسن تقديره ثم يقول: «سبحان الفتاح العليم»، كما وصف الجبرتى والد الإمام بأنه «الأستاذ العالم العلامة شيخ المشايخ محمد السجينى الشافعى» إلخ وقد خلف عمه بعد موته فى تدريس «منهج الطلاب» للأنصارى، وكان من الكتب المقررة فى المذهب الشافعى، وتولى شياخة رواق الشراقوة بالأزهر قبل أن يتولى مشيخة الأزهر فالإمام السجينى -هو رابع شيخ من شيوخ الأزهر- شافعى المذهب يتولى مشيخة الأزهر، فقد سبقه من الشافعية الشيخ الإمام «البرماوى» والإمام «الشبراوى» والإمام «الحفنى» أما السابقون له من المالكية، فخمسة هم الإمام «الخراشى» الإمام «النشرتى» والإمام «القلينى» والإمام «محمد شنن» والإمام «الفيومى».

وبعد أن تولى مشيخة الأزهر عام ١١٨١هـ- ١٧٦٧م قادها بحكمة وشهامة وسار فيها بقوة واقتدار، وقابل الإهمال بصرامة، وقد اشتهر ذكره قبل ولايته لمشيخة الأزهر. بسبب أحداث كثيرة: ذكر الجبرتى بعضا منها، وهذا يدل على أن للشيخ منزلة مرموقة عند العامة والخاصة، وقد ذكرت المصادر التاريخية، أن مدة توليته للمشيخة كانت قصيرة لا تتجاوز السنة الواحدة، ومع ذلك فقد كانت له مكانة فى نفوس كل المصريين، حكامًا ومحكومين.. وهناك عدد من المزايا التى أهلته لتبوأ المكانة التى تفرد بها بين علماء عصره.. ومنها أن أباه محمد بن عبد الرحمن السجينى، كان أحد الصدور المحققين، والوجوه المدققين، وأنه كان يحب العلماء ويسمع عنهم، ولا جدال فى أن الإمام «السجينى» قد استفاد من هذا الوالد وقبس الكثير من معارفه.. ومن مزايا الإمام السجينى أيضًا: أنه تتلمذ على الإمام الشيخ محمد الحفنى، وهو أحد الأئمة الذين سبقوه إلى مشيخة الأزهر،

والذين اعتلوا أريكته زمنا طويلاً، حوالى خمسة وأربعين عاماً. وكان الأزهر فى عهده محل تقدير وتوقير، لا من العلماء والطلاب فحسب.. بل من رجالات الحكم فى البلاد وعلى رأسهم على بك الكبير، الذى أراد أن يوجه حملة حربية إلى الوجه القبلى، وكان الشيخ أحد أعضاء حكومته فرفض توجيه هذه الحملة، وأمام إصراره على وجهة نظره لم يجد على بك بدا من النزول على رأيه، وعدم العودة على إرسال هذه الحملة مرة أخرى، ولا شك أن الإمام «السجينى» قد تأثر بالإمام «الحفنى» ونسج على منواله فى كثير من الشئون المالية، فقد ذكر «الجبرتى» أنه كان حازمًا فى مزاولة شئون منصبه «وقد سبق أن ذكر الشيخ «الحفنى» كان جوادًا كريمًا، لا ينقطع الناس عن زيارة بيته ليل نهار.

ويبدو أن الإمام «السجينى» قد كان ممن أخذوا عنه هذه السنة، وأنه ما سمى «بأبى الجود» إلا من أصل ذلك.. ومع أن المصادر لم تتحدث عن ثروته وقصر المدة التى قضاها على أريكة المشيخة، قد صرفت أقلام المؤرخين عن الخوض فى سيرته واستقصاء المناقب الكثيرة التى كان يمتاز بها على غيره.

مؤلفاته وموقف المؤرخين منها:

لم يتحدث المؤرخون ولا المترجمون عن تصانيف الإمام «السجينى» ولم يذكروا عنها شيئًا، وهناك أمور، وأسباب ربما يكون الشيخ من النوع الذى يؤثر إيداع العلوم فى صدورهم، على تقيدها فى القراطيس، وأن يكون قدوة عملية لطلابه فى السلوك والتدريس، ويظهر أيضًا فى عدم تأليفه كتبًا أنه من النوع الذى يؤثر الاعتماد على الحفظ دون التدوين، وذلك اقتداء بالسلف الصالح من أصحاب الرسول ﷺ الذى كانوا لا يستريحون لتدوين العلم.. والكل يعلم أن حديث الرسول الله ﷺ كان يحفظ متنا وسندا، وكان لا يطلق لقب الحافظ على أحد من الناس إلا إذا بلغ عدد ما يحفظ من الأحاديث مائة ألف متن وسند. وأيضًا لم يكتب المؤرخون عن تلاميذه الذين تعلموا على يديه، ولم تشر المصادر إلى اسم أى منهم فى وقت ذكروا عنه أنه شيخ الشافعية دون منازع، وليس من المعقول ولا من المقبول، أن يقدموه عليهم، ولا يكون له من التلاميذ، من يشدون أزره ويعضدون زعامته، وقد كان التلاميذ فى هذا العصر هم الذين ينحازون إلى الشيخ حتى يجلسوه على كرسى المشيخة «وهناك دليل على هذا الاغفال، فقد أغفلت

المصادر شيوخه ولم تترجم منهم إلا لأبيه وابن أخته الذى جاء فى ترجمته ما نصه» العمدة العلامة والحبر الفهامة قدوة المتصدرين ونخبة المتفهمين، النبيه المتفنن، الشيخ محمد بن إبراهيم بن يوسف «الهيثمى السجينى الشافعى الأزهرى، الشهير بأبى الإرشاد.. ولد سنة ١١٥٤هـ وحفظ القرآن وتفقه على الشيخ المدابغى.. والبراوى، والشيخ عبد الله السجينى، وحضر دروس الشيخ عبد الله السجينى، وحضر دروس الشيخ الصعيدى وغيره من العلماء. وأجازه أشياخ فى العصر، وأفتى ودرس وتولى مشيخة رواق الشراقوة بالأزهر. بعد وفاة خاله الشيخ عبد الرءوف ونتيجة التدخل الأجنبى فى شئون البلاد، تحدث فترات ركود اقتصادى وثقافى وسياسى، ويحجم المؤرخون عن تدوين ما يحدث فى تلك الفترة، ويفضلوا الكتابة عن الشخصيات المهمة، وعن الأدباء والعلماء وليس أهمالاً وإنما هو القهر والظلم وتكميم الأفواه من المستعمر، ويتمثل ذلك فى قول الشاعر:

يا قوم لا تتكلموا فإن الكلام محرم ناموا ولا تستيقظوا ما فاز إلا النوم

ولقد أغفل التاريخ الكثير من علماء الأزهر، ولم يسجلوا لهم ولم يكتبوا عنهم، ولذلك لم نجد لهؤلاء. إلا أسماءهم فقط، فالتاريخ ما أهمله وما أعجبه.

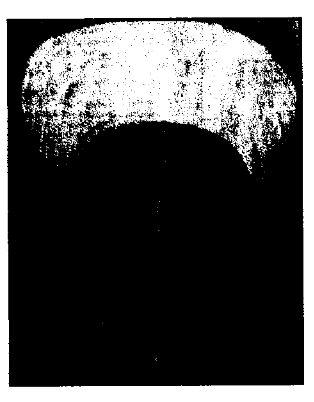
وفاته:

وبعد فهذه آثاره من حياة الإمام الشيخ السجينى وهى وإن كانت قصيرة، فإنها تدل على أن الرجل كان إداريًا من الطراز الأول، ولم يكن أقل من سابقيه علما وفقها، واستحقاقًا للوظائف التى شغلها، وعلى رأسها مشيخة الأزهر، وقد سبق وعرفت أن السبب فى قلة ما كتب عنه، هو قصر المدة التى تولى فيها المشيخة، والتى لم تستمر أكثر من سنة، فقد انتقل إلى جوار ربه صاحب الرحمة ومالك الملك فى ١٤ من شوال سنة ١١٨٢هـ- ١٧٦٨م وصلى عليه جمع غفير فى الجامع الأزهر من العلماء والأمراء والطلاب، ورجالات الدولة، ومشى الناس فى جنازته فى موكب غفير رهيب، وبكاه البعيد والقريب.. ودفن هذا الجسد الطاهر بجوار عمه الشمس السجينى بأعلى البستان غفر الله له وتغمده بواسع رحمته وأسكنه فسيح جناته، والسلام عليه يوم ولد يوم يموت ويوم يبعث حيا[1].

---

(١) صوت الأزهر: بقلم وريشة د. عبد الله سلامة نصر صـ١٠ فى ٦/ ٤/ ٢٠٠٧م.

١٠- فضيلة الشيخ الإمام أحمد بن عبد المنعم صيام الدمنهورى الأزهرى



تقديم: كل العالم بشتى معتقداته، يعترف بفضل الأزهر، فهو الجامع والجامعة. الذى أمضى أكثر من ألف عام كفاحًا فى ميادين العلم والمعرفة، والثقافة، خدمة للإنسانية وللأمة الإسلامية: حفظ تراثها ودافع عنها وحماها من عاديات الزمن، وأنقذها من العواصف التى هبت عليها فى فترات متعاقبة، عبر تاريخها الطويل، إنه الأزهر.. إنه النور الهادى والمرشد الأمين للأمة الإسلامية، والمنارة الثقافية، تستمد منها علومها على تنوعها وكثرتها.

ولقد حفظ الأزهر للعالم.. المعارف الإنسانية فى حقبة تاريخية طويلة وأسهم فى حضارته إسهامًا لم يغفله التاريخ فى مجالات الحياة.. إن رسالة الأزهر فى ذاتها تبعث من تراث الفكر الإسلامى الأصيل، وبالرغم من أن الأزهر فى مصر -مواطن مصرى- ومصر تحمل كل أعبائه. فقد عمل للإنسانية وللعروبة والإسلام، فكان المنارة الهادية التى تتجه إليها أنظار المسلمين، كان وما يزال مصدر إشعاع دينى وعلمى سام، وكان فى الوقت نفسه -رباطًا قويًا بين مصر والشعوب العربية والإسلامية.

إننا لا ننسى علماء الأزهر وقد جلسوا على مدى هذه الحقبة البعيدة منذ عشرة قرون -تعليمًا ودرسًا- ووفاء للأمة الإسلامية- كيف عرفوا أمور دينهم وتفقهوا فيه. وإن الأزهر ليذكر من أبنائه وعلمائه: «عز الدين بن عبد السلام -صاحب كلمة الحق والرأى الشجاع، وابن دقيق العيد، الفقيه المتمكن من علوم الشريعة، والبلقينى، والسبكى، والمنذرى، والحافظ العراقى، وابن حجر العسقلانى، والمناوى، وابن عبد الوهاب المالكى، وابن الحاجب، والقرطبى، والزيلعى، وابن هشام المصرى، وابن عقيل» وغير هؤلاء مئات ومئات ومئات فى كل جيل، وعلى مر الأجيال والقرون، الذين قدموا الكثير فى علوم القرآن والتفسير، والفقه،

والحديث، والأصول، والتاريخ والأدب، وعلوم اللغة، والطب، والرياضيات، والفلسفة، والفلك، وغيرها من الدراسات العقلية والنقلية.

إن الكثير من تراث الإسلام حفظه وجلاه، بجهابذة صادقين من علماء الأزهر، وقدموه للمسلمين نقيًا ذكيًا فى كتب عظيمة اتخذها ويتخذها المسلمون مراجع دراستهم، وينتفعون بها فى دينهم ودنياهم.

إن رسالة الأزهر ليست من الرسالات المحلية.. إنها رسالة تتجاوز توصيل المعرفة للفرد والجماعة.. إلى تنمية العلاقة بين الشعوب العربية والإسلامية، باعتبارها أمة واحدة، تجمعها أخوة الإسلام «إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون» وقال سبحانه: «إنما المؤمنون أخوة» هذا العمل الذى يقوم به الأزهر.. لهو عمل رفيع.. فقد انتشر أبناؤه وعلماؤه فى جميع آفاق العالم الإسلامى وغيره.. روادا يحملون رسالة العلم. وينشرونها فى كل مكان.. إن الأزهر فى كنف مصر الآن فى هذا العصر الذى نكتب فيه هذا المقال فى عهد فضيلة الإمام الأكبر أ.د. محمد سيد طنطاوى امتد واشتد وتبوأ المكانة السامية الرفيعة، على كل جامعات مصر. ففيه الجامعة التى تضم جميع الكليات العلمية على شتى فروعها الدينية واللغوية، وعلوم وطب وهندسة وزراعة وغيرها.. ولقد انتشرت المعاهد الأزهرية فى مصر كلها. وزادت حتى بلغت الآلاف.. وهى التى تقوم عليها تلك الكليات، وهذه المعاهد تجاوزت الحدود المصرية فقامت فى عدد من الأقطار الإسلامية، هذا هو الأزهر.. وهذا واجبة من النهوض بتصحيح الأخطاء التى ينسبها المغرضون إلى الإسلام، ويرد المفاهيم الخاطئة إلى صوابها، ويرد على الكتب والنشرات داخليًا وخارجيًا، لا سيما التى تحتوى على السم فى الدسم، فتنشر المفتريات، وتثير الشبهات، فى هذه الأيام وتلك الآونة بالذات تشب رءوس الفتنة مرة أخرى. وهذا ديدن طبقة المتطاولين والمتشدقين، والذين يحاولون المساس بالقمم من عمالقة الأزهر الشريف، والإسلام الذى يتمثل فى فضيلة الإمام الأكبر د. سيد طنطاوى شيخ الأزهر، وتناسوا إنجازاته العظيمة للإسلام والمسلمين وللأزهر والأزهريين، وصدفة كنت فى مكتب فضيلته صبيحة الاحتفال بالمولد النبوى.. والكلمة الرائعة البليغة الجامعة التى ألقاها أمام وفود العالم الإسلامى

وبحضور رئيس الجمهورية. على الهاتف اتصل به أحد الشخصيات الدولية المهمة، يشكره ويشيد بما قاله فضيلته.

الحوار كان يمس هموم العالم الإسلامى، يتحدث فضيلته ويرد فى مرارة وأسى على حال المسلمين -وبخاصة أصحاب الأقلام المغرضة، ويتعجب!! ماذا جرى للناس، فى هذه الأيام!!؟؟ يسمعون الباطل فيصدقونه وبدون تفكير، ويسمعون ويرون الحق والصدق فيكذبونه.. لقد فسدت النفوس، وانقلبت المعايير.. ولا أدرى لصالح من!!؟؟

إنه لن يغير الأزهر تلك الشوائب.. إنه غثاء السيل. ويجب أن يعلموا أن الأزهرى -مواطن مصرى- يعتز بالله ربا وإن مصر له مقر- ويعرف حقها عليه- كما كانت وتقوم بواجبها نحو أزهرها الشريف تحمده وتسانده وترجيه لها وللمسلمين عامة على اختلاف لغاتهم وألوانهم وأوطانهم.

ولقد سقت وأتيت بهذا التقديم لارتباطه ارتباطا واضحًا جليًا بسيرة فضيلة الإمام الشيخ «الدمنهورى» والذى نواصل الحديث عنه ضمن سلسلة شيوخ الأزهر.

*** نسبه ومولده ونشأته وبيئته وتوليه للمشيخة هو الشيخ الإمام -أحمد بن عبد المنعم بن يوسف بن صيام الدمنهورى الأزهرى:**

ولد فى سنة «١٠٠١هـ- ١١٨٩م» ببلدة دمنهور الغربية وهى بلد تقع غرب الدلتا، وهى الآن عاصمة محافظة البحيرة.. وهى إحدى المدن المصرية الكبيرة ذات التاريخ الواسع، والحضارة العريقة، ذكر صاحب الخطط التوفيقية أن أهل الشيخ «الدمنهورى» اهتموا به لما وجدوا فيه من النبوغ المبكر وسرعة الحفظ فقد حفظ القرآن الكريم قبل العاشرة، ثم التزم بالشروط التى يشترطها الأزهر فى الانتساب إليه -من حفظ القرآن كله، وقدر من العلوم مثل الخط والحساب والإملاء، وإن الصبى كان يتيمًا ولا كفيل له، وهذا لا يمكنه من العيش بعيدًا عن بلده، إلا فى حالة واحدة وهى الالتحاق بالأزهر. لأنه هو وحده الذى يكفل لمن ينتسب إليه بالدراسة وطلب العلم، وتوفير شتى مطالب الحياة، التى يتشوق إليها

«الدمنهورى وأمثاله» وذهب للأزهر الذى هو بغية كل طالب علم -وإذا عرفنا أنه قد أقام فى بلدته عشر سنوات، وتقلد المشيخة عشر سنوات أخر ولقى ربه وهو فى الحادية والتسعين تقريبًا، فإنه يكون قد قضى فى طلب العلم إحدى وسبعين سنة غالبًا. وهذا ما يفسر لنا أكثر العلوم التى ذاكرها واستوعبها وحصلها ووفرة المصنفات التى ألفها، وهذا القدر الكبير من الشيوخ الذين استمع إليهم أو تلقى عنهم.

وقد تولى مشيخة الأزهر بعد وفاة الإمام التاسع للأزهر الشيخ «السجينى» ١١٨٢هـ اعتلى أريكة الإمامة خليفته وعماد الشافعية من بعده الإمام الشيخ «أحمد الدمنهورى» ١١٨٢هـ- ١٧٦٨م وقد أفاض المؤرخون فى الحديث عنه وتتبع أعماله وآثاره، وما ذلك إلا لعلمه الواسع وفضله الشامل ومزاياه التى قليلاً ما تجتمع فى غيره.

آثاره العلمية وتأثيره ومكانته:

اشتغل الرجل بالعلم وجد فى تحصيله، واجتهد فى تكميله، وأجازه علماء المذاهب الأربعة -سمحوا له بتدريس الفقه على المذاهب الأربعة- ولهذا سمى «بالمذاهبى» أى العالم بالمذاهب الفقهية الأربعة المعروفة، مع أن علماء عصره كان كل واحد منهم يلتزم مذهبًا واحدًا، محاولاً اتقانه. وكانت له حافظة وذاكرة عجيبة، ومعرفة فى فنون غريبة. . كما أنه أفتى على المذاهب الأربعة.

كان الإمام «الدمنهورى» فذا بين علماء عصره بثقافته الواسعة الشاملة لألوان المعارف، فقد كانت ثقافته الدينية واللغوية عميقة، كما كان دراسًا متضلعًا فى العلوم الرياضية والهندسية والفلكية والطبية والفلسفية، وهذا أمر عجيب فى عصره الذى كان ينفر من العلوم غير الدينية. . والمعروف أن الإسلام يدعو للتأمل فى ملكوت السماوات والأرض ويهيب بالمسلمين جميعًا أن يدرسوا جميع آيات الله الكونية فى مجالات العلوم والفنون والفلسفة والآداب. ولهذا كان الإمام «الدمنهورى» سابقًا لأوانه أو متأخرًا عنه، فقد عرف الإسلام فى أزهى عصوره الفقيه الطبيب، والفقيه الفلكى، والفقيه الفيلسوف، والفقيه الرياضى، وفى العصر

الحـديث. . أنشأ الأزهر كلـيات الطب والهندسـة والزراعـة والإدارة والمعامـلات والصيدلة واللغات إلخ.

ولقد تحـدث الإمام «الدمنهـورى» عن نفسه فى مـذكراته وعن طريق دراسـته، فيقول فى سنده: «أخذت عن أستاذنا الشيخ -على الزعترى- «خاتمة العارفين بعلم الحساب واستخراج المجهولات، وما توقف علـيها، كالفرايض والميقات وقد أخذت عنه وسيلة ابن الهـائم ومعونته فى الحـساب، والمقنع لابن الهائم أيضًـا، ومنظومة الياسميـن -فى الجبر والمقابلة والمنحرفات للسـيط الماردينى فى وضع «المزاول» قياس الظل -ودرس كتـاب الموجز فى اللمـحة العفـيفة فى أسـباب الأمراض وعـلاتها، وبعضا من قانون ابـن سينا، إلخ فقد درس وقرأ كثيـرًا من كتب الطب، والمقام لا يتسع لذكر كل دراساتـه، فإنها كثيرة جدًا، من أرادها فلينظـرها فى مواطنها، وقد أورد الجبرتى: أسـماء شيوخـه والكتب التى درسها عليهم، وأجـازوه بها، وذكرنا بعضا منها آنفًا، وهى تشمل علوم الفـقه والعلوم الدينية واللغوية والتصوف وعلوم اللغة -وتـناول «الجبرتى» بالـتفصـيل فى مذاكـراته: ألوان العلوم والفنون فى ذاك العصر، وقد درسها الإمام الدمنهورى، وتفنن فيها وترك مصنفات عديدة فى دراسة هذه العلوم، وكانت بينه وبين الجـبرتى مناقشة فى دراسة العلوم والـفنون العلمية، والتأليف فيها، وسنرى من مؤلفاته الكثير من الكتب دليلاً على هذه الثقافة الواسعة بالنسبة لعصره المتخلف، وما سبقه من عصور وما تلاه[1].

أورد الجبرتى عن أسمـاء شيوخه، وأسماء الكتب التى درسـها عليهم وأجازوه بها. وقد ذكـرنا بعضا منهـا أنفا، وهى تشمل علوم الفقـه، والعلوم الدينية: من توحيـد وتفسيـر وحديث، ومواريث وتصـوف، وعلوم لغة. . من نحـو وصرف وبلاغة وأدب، وعلوم الرياضة والهندسة إلخ.

وتناول الجبرتى بالتـفصيل فى مذاكراته ألوان العلـوم، والفنون المعروفة فى هذا العصر، إلا وقد درسها الإمام «الدمنهورى» وتفنن فيها، وترك مصنفات عديدة فى دراسة الفنون العلمية، والتأليف فيها، وسـترى من مؤلفاته الكثير من الكتب دليلاً على سعة علمه، ودليلاً على هذه الثقافة الواسعة الفاهمة بالنسبة لعصره.

(١) صوت الأزهر: بقلم وريشة د. عبد الله سلامة نصر صـ١٠ فى ١٣/ ٤/ ٢٠٠٧م.

مكانته:

لقد تحدث المؤرخون عن الإمام -الدمنهورى- فى أكثر من موضع عن مكانته العظيمة، ومنزلته الاجتماعية. . منها أنه تولى مشيخة الأزهر بعد وفاة الشيخ الإمام «السجينى» وكان ذو شخصية قوية، ولهذا هابته الأمراء والولاة. . ولكونه كان فصيح اللسان قوالاً للحق، آمرا بالمعروف، سمحا بما عنده من الدنيا. . ولقد قصدته الملوك من كل صوب وكلهم كانوا يحترمونه، وكان جهير الصوت عظيم الهيبة، عزوفًا عن المظاهر الصاخبة التى تلهى عن تحصيل العلم، وتلهى عن تتبع المعرفة، ولأجل هذا كان لا يحضر الكثير من المناسبات والمجالس والجمعيات التى كانت تنعقد فى المناسبات المختلفة من أفراح واستقبالات وغير ذلك، والناس لم يعتادوه إلا قارئًا فى كتاب، أو ملقيًا درسًا، أو معدًا لمؤلف يكتب. . وذهب للحج -مع الركب المصرى «الوفد» وأتى رئيس مكة وعلماؤها لزيارته، وعاد إلى مصر، ومدحه كثير من الشعراء وكانت للإمام «الدمنهورى» مميزات انفرد بها عن غيره فى أنه كان ذا حافظة قوية، ومروياته الحديث بسنده وغيره من العلوم لهى خير شاهد على صدق ذلك. . حيث إنه ممن وهبهم الله هذه النعمة، وأيضًا مع أنه شافعى المذهب كان، متبحرا فيه، وفى صدارة علماء الشافعية فى الأزهر وغيره!! فقد كان عالمها بالمذاهب الأخرى، لدرجة أن أصحابها أذنوا له بتدريسها والفتوى والتصنيف فيها. وكان له يوم الجمعة من كل أسبوع درس فى مسجد الإمام الحسين. وكان سمحا بما لديه من حطام الدنيا. . سخيا فى ماله ينفق ويعطى بكثرة فيما أعطاه الله من الدنيا. . ولو تتبعنا سيرة الرجل وفهمنا ما يدور فيها من أنه كان عزوفًا عن المظاهر الصاخبة التى تلهى. وتشغل عن تحصيل العلم، وأنه كان لا يحضر كثيرًا من المجالس والاجتماعات والجمعيات وهذا قلل من كثرة محادثاته فى عامة الناس. . والواقع المعروف. . أن الرجل الإمام «الدمنهورى» كان ينشر علمه ويتحدث به مع من يستحق ذلك. والدليل على ذلك خطبه ومحاضراته «فى المسجد الحسينى» وإلا لما عرفناه ولما وصل لنا علمه على صفحات التاريخ والذى نخبر عنه الآن.

والدليل الثانى شيوخه الذين زاد عددهم عن خمسة وأربعين شيخًا من أكابر العلماء -ذكر هذا فى «عجائب الآثار» ومما سبق يمكننا أن نعرف السبب فى

اعتداد شيخنا الإمام «الدمنهورى» بنفسه وسعة علمه وكثرة معارفة وشهرة شيوخه، وتنوع ثقافاته، حتى يخيل لمن يدرس سيرته أنه دائرة معارف تمشى على قدمين، وقد وجه إلى علماء عصره الأسئلة الخمسة المشهورة التى سنوردها ضمن مؤلفاته.

مؤلفاته ومصنفاته:

من خلال سيرة الإمام «الدمنهورى» تعرفنا أنه غزير العلم متنوع الثقافات، وقبل الكلام عن مؤلفاته نشير إلى الأسئلة الخمسة التى تحدى بها العلماء فى عصره والتى أعطاها له -على بك الكبير- وقال له: «اعطها للعلماء الذين يترددون عليك ليجيبونى عنها، إن كانوا يزعمون أنهم علماء»، قال الجبرتى: «إن هذه وإن كانت من عويصات المسائل إلخ.. ثم ذكر إن الشيخ «الدمنهورى» أجاب عليها وألف فيها رسالة من أرادها فلينظرها فى «عجائب الآثار» ج ٣ نذكرها بإيجاز. المسألة الأولى فى أبطال الجزء الذى لا يتجزأ.

٢- ما معنى قول ابن سيناء: «ذات الله نفس الوجود المطلق.

٣- ما معنى «معرفة الله واجبة بالعقل مع أن المجهول من كل وجه يستحيل طلبه».

٤- ما معنى: «أن ما مات من المسلمين لسنا نتحقق موته على الإسلام».

٥- «هل الاستثناء فى الكلمة المشرفة.. متصل أو منفصل -هذه هى المسائل الخمسة المتحدى بها العلماء. ونعود إلى مؤلفاته ومصنفاته وهى كثيرة ومتعددة تربو على الأربعين مصنفًا -نذكر بعضها على سبيل المثال لا الحصر.

١- كشف اللثام عن تحدرات الأفهام فى البسملة والحمدلة.

٢- حلية اللب المصون فى شرح الجوهر المكنون -فى البلاغة.

٣- اللطائف النورية فى المنح الدمنهورية.

٤- نهاية التعريف بأقسام الحديث الضعيف.

٥- شرح الأوفاق العددية -استنباط آفاق المستقبل عن طريق الأعداد.

٦- عقد الفرائد بما للمثلث من فوائد.

٧- رسالة عن الحياة، فى استنباط المياه «جيولوجيا».

٨- القول الصرح فى علم التشريح «طب».

٩- تحفة الملوك فى علم التوحيد والسلوك.

١٠- الزهر الباسم فى علوم الطلاسم.. سحر «انظر الخطط التوفيقية».

وفاته:

روى عن الرسول «عليه الصلاة والسلام» ما معناه: «اتقوا فراسة المؤمن، فإنها ترى بنور الله»، حدث قبل وفاة الإمام «الدمنهورى» بقليل. وكانت العلاقة بين الجبرتى والإمام الدمنهورى على أشدها. فقد التقيا ذات يوم، وتعرف كل منهما على صاحبه وعندها بكى الإمام «الدمنهورى» وعصر عينيه، وصار يضرب بكفيه ويقول: «ذهب إخواننا ورفقاؤنا، وجعل يقول: يا ابن أخى: ادع لى.. وبعدها انقطع بالمنزل قبل وفاته.. وقد اعطى للجبرتى الإجازة أن يذكر عنه كل مروياته، وأعطاه برنامج شيوخه، وما نقله قبل ذلك.. وداهم الشيخ المرض وانقطع فى بيته لا يخرج للناس إحساسًا بدنو أجله.

وبعد فهذه عجالة يسيرة سطرناها فى ترجمة هذا الإمام الجليل، والحق أنه يحتاج فى الكتابة عنه إلى مجلد كبير خاص به -لتجميع شمائله- واحتواء فضائله، وفى يوم غابت شمسه عن الأعين، لبى هذا العالم الجليل نداء ربه، يوم العاشر من شهر رجب سنة ١١٩٢هـ ١٧٧٨هـ بعد سنوات كفاح ونضال من أجل الإسلام والأزهر وفى طلب العلم ونشره، واستمر تسعين عامًا وتزيد. انتقل إلى جواره ربه سبحانه صاحب الملك والملكوت.. وحمله الناس على أكتافهم من مسكنه وبيته فى بولاق.. فى مشهد حافل جدًا متجهين به إلى الأزهر الشريف ليودعه الوداع الأخير.. وحضر جنازته العامة والخاصة، وصلى عليه الناس فى الأزهر وشيعت جنازته، فى موكب مهيب، ودفن بالبستان- رحمه الله وغفر له وأدخله فسيح جناته، مع الصديقين. والسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيًا[١].

---

(١) صوت الأزهر: بقلم وريشة د. عبد الله سلامة نصر صـ١٠ فى ٢٠/ ٣/ ٢٠٠٧م.

١١- فضيلة الإمام الشيخ أحمد موسى العروسى



يقول الله سبحانه وتعالى ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، وقد صدق الله وعده فحفظ كتابه العزيز على مر السنين والأيام ناصعا صحيحا، قوى الحجة سليم العبارة لم يحرف منه حرف، ولم تضع منه كلمة أو حرف وتشاء العناية الإلهية أن يكون الأزهر الشريف أحد الحصون الحافظة لكتاب الله، منذ إنشائه فهو الحصن الذى حافظ على القرآن الكريم، وعلومه، وتوضيح ما يرمى إليه، وتبيين إعجازه بالشرح، وتحليل أسلوبه تدريسا وتأليفًا ومحاضرات تلقى فى الجامعات والأندية والمؤتمرات والمساجد إلخ.. إضافة إلى ما يتطلبه شرح كتاب الله الحكيم.. من مصادر وروافد نابعة من أصول الفكر الإسلامى.. وأول هذه المصادر حديث رسول الله ﷺ وعلوم التشريع الفقهى، مع فنون اللسان العربى وكل ما ازدهر به التراث الفكرى الإسلامى، وكل ما ألمت به المكتبة العربية من نور يضىء إلى صراط الحق القويم.

ودائما كل الذين كتبوا وأرخوا له يصفون الأزهر «بالشريف» فيقولون الأزهر الشريف وهو وصف صادف الحقيقة، لأن الأزهر ينادى بأشرف الرسالات حين يدعو إلى مبادئ الإسلام، فى عالم تصطرع فيه الفتن، وتضطرم فيه الأحقاد نتيجة فتنة الحضارة الأوروبية الوافدة، والتى دخلت أو انجرفت إليها أمم بعدت عن سبيل العدل، فقامت الحروب الباغية الظالمة، ودمرت مدنا وعواصم وقرى، وأبادت شعوبا بدون رحمة وسالت الدماء وتناثرت الأشلاء جورا وظلما دون عدل وارتكابا لما حرمه الإسلام من عدوان على الآمنين. ومن رسالة الأزهر أنه يدعو الناس جميعا إلى العدالة والإنصاف، ويعلنها دائما صريحة «ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حى عن بينة».

والأزهر دائما يبحث عن الحقيقة، ويفند الشبهات، ومن هنا تقوم بعض الاختلافات بين العلماء فى فهم العبارات، وهذا أمر طبيعى لا يدعو إلى المخاصمة

أو الشقاق. كما أن اختلاف الرأى فى بعض الأحكام التى لم يرد فيها نص صريح ثمرة طبيعية للاجتهاد المتواصل. ومن سنة الحياة أن يوجد المفكر المجدد والمفكر المحافظ فى وقت واحد؛ ليحدث التوازن المنشود بين الآراء، لأنه ربما يندفع المجدد إلى تسرع عاجل، فيجد من الرأى الآخر من يقف لحمايته من الشطط والغلو وإذا ما وقف باحث عالم عند أحكام معينة دون نظر إلى متطلبات العصر، ومعالجة قضاياه، وأنزل حكم الإسلام عليها هيأ الله من ينير الطريق لاستئناف المسيرة وهكذا كان الأزهر الشريف على مر العصور المتلاحقة محتضنا أصحاب التجديد وذوى العقول المتفهمة لروح العصر، واستدلالهم بالأدلة المدعمة بالحجة والبرهان، ومن هنا كثرت مؤلفات علماء الأزهر فى بعث اليقظة والنشاط.

وإذا كانت مصر الإسلامية هى مهد الأزهر وبيته العتيق، فإن هذا البلد الكريم كان الموئل الوحيد لعلوم الإسلام بأزهره الشريف بعد سقوط بغداد، فقد كان هجوم التتار من الشرق وسقوط الأندلس من الغرب مؤثرا وسببا فى ضياع كثير من التراث العلمى لأئمة الإسلام، لكن علماء الأزهر إذ ذاك نهضوا يكتبون الموسوعات ويؤلفون المجلدات، ليجمعوا الكثير من هذا التراث المتبدد، ووجد علماء الإسلام من جميع بلاده فى مصر الأمن والأمان والملاذ لهم، فأتوا إلى الأزهر ليشاركوا علماءه كفاحهم الفكرى واستقبلتهم مصر مرحبة مكرمة؛ لأن الإسلام أمة واحدة، والمسلم للمسلم كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا.. فازدهر النشاط العلمى فى الأزهر ازدهاراً يانعًا وحفظ الخلف آثار السلف بالتدوين والتدريس من علوم التشريع واللسان والأدب وما لا يحصى من علوم الدين والدنيا، ونحن اليوم نقوم بتسجيل نبذة عن تاريخ شيوخ الأزهر الأجلاء مستلهمين ماضيهم الحى فى الدعوة إلى التساند والتآزر والتشاور الجاد فى شئون الإسلام وهموم المسلمين، لأن الأحداث الراهنة فى العالم الإسلامى الآن.. تدعو العلماء إلى أن يأخذوا دورهم القيادى فى التوجيه والإرشاد ودائما نناشد ونقول ليس من المعقول أن يتصارع المسلمون وتسيل دماؤهم بأيديهم ويقف العلماء مكتوفى الأيدى دون سعى للتوجيه والتوعية، ونوضح أن هذا الصراع إنما هو لصالح الأعداء فقط.

والأزهر الشريف أبو الجامعات العالمية التى تقدمها فى ركب الثقافة والتعليم الهادف والنقاش الحر، مع طهارة الضمير، وحرية الفكر وما تزال مؤلفاتهم الخالدة تنطق بأسمائهم والأزهر بمبعوثيه شاركوا فى البعث الحضارى فى العالم كله فى التوجيه وإحياء تراث الإسلام ﴿**يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا**﴾ [البقرة: ٢٦٩].. ونعود للحديث عن الإمام الحادى عشر الشيخ «العروسى».

مولده ونشأته وبيئته وتوليه للمشيخة

هو الإمام الشيخ شهاب الدين أبو صلاح أحمد بن موسى بن داود العروسى الشافعى الأزهرى.. ولد سنة ١١٣٣هـ- ١٧٢١م بقرية منية عروس.. تابعة لمركز أشمون محافظة المنوفية، وإلى هذه القرية ينتسب وعلى الرغم من صغر هذه البلدة فإنها كانت مسقطا لرءوس كثير من العلماء العاملين والأولياء الصالحين الذين جمعوا بين الدين والدنيا. حفظ الإمام «العروسى» القرآن الكريم وتعلم قسطا من العلوم التى تؤهله للانتساب للأزهر، ثم غادر قريته الصغيرة وسافر للقاهرة ليلتحق بالأزهر الشريف، حسب رغبته ورغبة ذويه، ومن هذا الوقت كرس وقته وجهده لتحصيل العلوم على شتى أنواعها وألوانها من مناهج ومقاصد، وكان الأزهر فى هذه الأيام يموج بعشرات العلماء الذين وصفهم أمير الشعراء بعد ذلك بقرون قائلا:

كانوا أجل من الملوك جلالة وأعز سلطانا وأكرم مظهرا

وأحب العلوم على اختلاف أنواعها فتفوق فى العلوم الدينية واللغوية كما تفوق فى الرياضيات وعلوم الفلك والمنطق ومال إلى الصوفية فأخذ العهد على يد «الشيخ البكرى» ودرس كل علم على مشاهير عصره، ولازم الشيخ أحمد الصعيدى ملازمة دائمة فكان يلخص دروسه ويوضح ما غمض منها ويشرحها للطلاب وهو عمل المعيد بالنسبة للأستاذ الآن فى الجامعات، كان عالما محققا حقق الكثير من كتب التراث، وكان يكره السطحية فى العلم، ويوصى تلاميذه بالتعمق فى قراءة أمهات الكتب وكان تلميذا للإمام الدمنهورى الإمام العاشر للأزهر وقد درس «البخارى»

عن الشيخ أحمد الملوى كما درس تفسير البيضاوى والجلالين على الشيخ النبراوى سابع شيوخ الأزهر، ومختصر ابن جمرة و«الشمائل النبوية» للترمذى كما تفقه على يد كثير من العلماء والفقهاء والمقام لا يتسع لذكرها «ينظر عجائب الآثار . للجبرتى» ولقد اتصف الإمام العروسى بصفات أستاذه وشيخه الشيخ الصعيدى، فكان يعتبر من مشايخ الإسلام وعالما من الأعلام شديد الشكيمة فى الدين يصدع بالحق، ويأمر بالمعروف وإقامة شرع الله، محبا للاجتهاد فى طلب العلم، ويكره سفاسف الأمور معتزا بكرامة العلم، ويعرف قدره وكان الحكام يخشونه ويقدرون نصحه ويحتملون لومه، كان لطيف المعشر دمث الخلق واسع البيان.

يقول الجبرتى: إن الشيخ «العروسى» لازم والده وأخذ عنه وقرأ عليه الرياضيات والجبر والمقابلة، وكتاب الرقائق ثم جذبته نزعة الصوفية إلى الاتصال بالقطب «الشيخ العريان» فوثق صلته به وأحبه ولازمه، واعتنى به الشيخ وزوجه إحدى بناته وبشره بأنه سيسود وسيكون شيخا للأزهر وظهر ذلك بعد وفاته وقد تولى فعلا المشيخة بعد وفاة أستاذه الشيخ الدمنهورى فى ١١٩٢هـ. ١٧٧٨م وقد قابل هذا المنصب بصبر وتسامح وعفو وتواضع حتى رفعه الله وأكرمه.

مكانته وآثاره العلمية

تبوأ الشيخ الإمام العروسى منزلة سامية بعلمه وصلاحه وتقواه، وكان كثيراً ما يتدخل لتصفية ما ينشب بين الحكام والعلماء من نزاع، فقد توسط بالنصح بين الأميرين «إبراهيم بك ومراد بك».

وكان الأمراء يستشيرونه ويستفتونه فى الملمات ولا يتردد فى نصيحة الحكام ولومهم أحيانا، وحدثت أحداث كثيرة فى عهده منها فتنة القبلين وحكاية جند الأرمان مع الجنود المصريين واعتداء أحمد أغا على أهل الحسين من أرادها فلينظر فى تاريخ الجبرتى وقتاله لقطاع الطرق فى أيام الحج.

ولقد كان الإمام العروسى عطوفا على الطلبة، ومحبا للخير فى كل الأمور وله مواقف مشرفة، فحين اشتد الغلاء أمر السلطان بأن يضع تسعيرة جبرية للأقوات للناس، وأعلن ذلك على الناس.

مؤلفاته ومصنفاته

يبقى أمامنا التراث العلمى للإمام العروسى وهو غزير جدا غير أن اشتغاله بالتدريس والحفاظ على حل مشاكل الناس قد قلل من نشاطه العلمى فى التأليف والتصنيف ولم يذكر له من المصنفات سوى القليل يقول الجبرتى: لازمت الإمام العروسى عندما كان يدرس كتاب «المغنى لابن هشام» حتى أكمله وشرح الجوامع والسمرقندية وشرح رسالة الوضع وغير ذلك من هنا يتضح أن الإمام كان يدرس النحو وأصول الفقه والبلاغة وغير ذلك من العلوم العقلية والنقلية وكان رحمه الله يصوغ الشعر بالأسلوب الشائع فى عصره فكان يكتبه فى مقدمات الكتب «تقريظ» ويجامل به الأصدقاء مدحا، وله موشحات غزلية تغنى بها المغنيون.

وقد لهج الشعراء بمدحه والإشادة به، ورثوه بعد مماته بمرثيات طويلة حزينة منها مرثية «إسماعيل الخشاب» شاعر ذاك العصر نقتطف منها:

تغير وجه الدهر وأزور جانبه ... وجاءت بأشراط المعاد عجائبه

فمالى لا أدرى المدامع حسرة ... وأفق سماء المجد تهوى كوابه

إلى أن يقول:

إمام هدى للهدى كان انتدابه ... فلا كان يوم فيه قامت نواديه

وهذه القصيدة ذكرها الجبرتى كاملة فى «عجائب الآثار» جـ٤.

ومن آثاره العلمية إضافة لما سبق وما كتبه عنه تلاميذه:

١- شرح نظم التنوير فى إسقاط التدبير للشيخ الملوى.. فى التصوف.

٢- حاشية على «الملوى» على السمرقندية فى البلاغة.. ذكر ذلك الجبرتى ورغم صلاحه وتقواه ومهابته فقد كان يتشعر الشعر ليسهل به على الطلاب بعض العلوم.

وفاته:

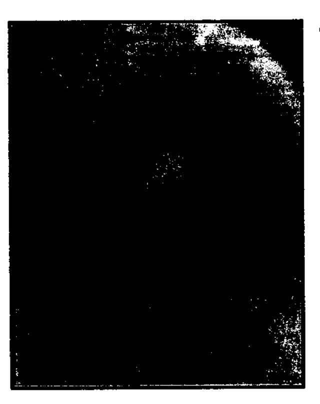
كان الإمام العروسى إذا تحدث كأنه يتنفس الدر، وإذا رأيته لقيت منه ما يسعد ويسر. محقا للحق ومعينا للمظلوم.. وظل الإمام العروسى شيخا للجامع الأزهر

بلا منازع ورئيس العلماء بالاتفاق باذلا قصارى جـهده خادما للشعب.. ولقد لبى نداء ربه فى ٢١ شعـبان سنة ١٢١٨هـ وقـيل سنة ١٢٠٨هـ ١٧٩٣م ودفن بمدافن صهره الشيخ العـريان بعد أن صلى عليه فى الجامع الأزهر جمع غفـير من الخاصة والعامة والأمراء والولاة، وقد حمل إلى مثواه الأخير فى جنازة حضرها القراء فى موكب مهـيب بكاه الناس جميعا غفـر الله له وجازاه ما يستحـقه على ما بذل فى سبيل الإسلام والمسلمين وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا)[1].

❁❁❁

(١) صوت الأزهر: بقلم وريشة د. عبد الله سلامة نصر ص١٠ فى ٢٧/ ٤/ ٢٠٠٧م.

١٢- فضيلة الإمام الشيخ عبد الله الشرقاوى



حين تنادى المغرضون من ذوى الضمائر المدخولة بأن الأزهر قد لزمه الجمود والتقليد فيما تركه من آثار، فهذا قول غير صحيح ينقصه الدليل والبينة، وحجب للحقيقة الصادقة.. وأمامنا ما يدحض هذه الافتراءات. لأن من يدرس المؤلفات العلمية «لأعلام الأزهر» فى شتى نواح الفكر الإسلامى تدل على اضطراد النمو العقلى منهجا وتصويرا وتعبيرا، ومعنى ذلك أن التأليف الأزهرى لم يجمد أو يثبت على طريقة واحدة أو نظام واحد.. بل تابع التطور الحضارى المثقف، متابعة واعية، فهو يأخذ من الجديد ما ينفع البشرية دينيا وحياتيا ومعيشيا، ويقدم من التراث ما يقوم الاعوجاج والفساد الخلقى، ويدفع إلى السداد.

وإذا كان الأزهر فى صميم اختصاصه قائما على الذود عن مبادئ الإسلام والدعوة لها بالمنطق والحجة الدامغة، فهذا من أقوى الأدلة التى تدفعه للحذر مما يتسلل من شبهات مغرضة، تحاول أن تطمس حبات اللؤلؤ تحت ضباب كثيف يحجب حقائق الإسلام الصادقة، وهذا الحذر الواعى قد ينقلب تحديا جهريا يعلن عن الحقيقة.. إذا وجد الأزهر من بعض المغرضين المتطفلين على المساس بالتراث، ويريدون الكيد له محاولين إخفاء السم القاتل فى العسل المصفى وهنا يجد الأزهر أنه لا مناص من الوقوف وبشجاعة لرد هذا الهجوم المغرض. على المتظاهرين بالتجديد لغرض فاسد فى نفوسهم. وإما رجلا مأجورا من آخرين كما يحدث من بعض أجهزة الإعلام فى هذه الأيام بحجة حرية الفكر، فيتطاولون على رموز الدين والعقيدة لبلبلة أفكار ضعاف النفوس وضعاف الإيمان والدين، يثور الأزهر ثورته الصادقة.. حين يرى المدعين لهذه الحرية ينحرفون بها عن طريقها المستقيم فيضمرون الشر، ويظهرون الألفاظ الخادعة ليخفوا خلفها باطلا مهلكا، وهنا لا

مفر للأزهر من تمحيص الباطل فيقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ومن جهة أخرى تسمع من يرمى الأزهر بالجمود والتقليد بغيا وظلما وبدون علم، وقد فاته أن الجمود الحقيقى ليس فى نصرة الثابت الصحيح من الرأى القديم، بل فى اتباع خصوم الإسلام، الذين لووا رؤوسهم عن الحقائق، ولووا الحقيقة عن وجهتها، الصحيحة، ولينقلوا حقيقة الإسلام إلى طريق آخر، ولكى ترد بالبرهان الواضح على من ينكرون على الأزهريين قوة الرأى والحجة، وشمول النظر والفكرة وبعدها، فإننا ندعو إلى مراجعة التراث الأزهرى منذ إنشاء هذا المعهد الخالد.. لأطرح سؤالا: هل التزم علماء الأزهر فى تأليفهم العلمى طريقا واحدا لم يحيدوا عنه منذ ألف عام، أو أن هذا التأليف الخصب المزدهر قد تابع الرقى المنهجى متابعة بعيدة فى شتى فروع العلوم الإسلامية ويجب على الناقد البصير أن يدرس مؤلفات الأزهر فى العصور السابقة من فاطمية، أيوبية، مملوكية، عثمانية، حتى ينتهى بدراسته إلى عصرنا الراهن، وهنا يجد أن لكل عصر خصائصه الواضحة، وطرقه التى بلغت عظمة الكمال فى رأى أصحاب النظرة الصادقة، والفكر الرشيد، ولو لم يكن الأزهر لضاع التراث الإسلامى بعد أن تبدد أكثره فى المحن الداميةوهجوم المغول والتتار، وسقوط الخلافة العباسية وتشريد أبناء الأندلس من ديارهم.. لقد التزم علماء الأزهر فى تلك العصور أن يكتبوا الموسوعات العلمية ليحفظوا التراث الإسلامى وغيره حتى رأينا من هؤلاء الأعلام من ألف الكتاب الواحد فى ثلاثين جزءا من الأجزاء الحافلة، وحتى رأينا شروح القرآن والحديث تتجاوز الآلاف من الصفحات فى دقة وشمول واستيعاب، ثم جاء العصر العثمانى فكان الأزهر وحده هو مصدر النور العلمى للعالم الإسلامى كله، وقد كافح الأزهر المحن والخطوب التى كانت من الممكن أن تقوض بناء الإسلام كله لولا حمية الدين، وحماسة العقيدة فى مستقبل الإسلام، كان علماء الأزهر حينئذ يؤلفون ويكتبون ويحاضرون دون أى معونة أدبية أو مادية من الدولة العثمانية، فحفظوا الحقائق العلمية، حتى أسلموها لجيلنا فى العصر الحديث واضحة بارزة، وعلى الذين ينكرون التجديد فى الأزهر المعاصر أن يقارنوا بين مؤلفات الأمس واليوم فى جميع العلوم وشعبها.

وهذا ما نراه واضحا جليا فى دور الأزهر المناضل فى وجه هؤلاء الغلاة المنحرفين وردوا عليهم ومنهم إمامنا «الشيخ الشرقاوى».

الإمام الشيخ عبد الله الشرقاوى مولده ونسبه وبيئته وتوليه للمشيخة:

هو الإمام الشيخ عبد الله بن حجازى بن إبراهيم الشافعى الأزهرى الشرقاوى ولد بقرية «الطويلة» بالقرب من قرية القرين فى محافظة الشرقية سنة ١١٥٠هـ - ١٧٣٧م ونسب إليها.. حفظ القرآن فى طفولته فى بلدة القرين. حيث نشأ بها وتطلع إلى المعرفة فدرس قسطا من العلوم التى تؤهله للانتساب للأزهر، ثم غادر قريته إلى القاهرة حيث انتسب للأزهر وتلقى الدروس على أشهر علماء الأزهر وأعلامه فى علوم الدين والدنيا معا حتى بلغ القمة، وصار يفتى فى مذهبه «الشافعى»، ويرجع إليه فى حل غوامضه، وكان على درجة عالية فى الإلقاء والتحرير، ومال بفطرته الطبيعية إلى التصوف ثم اتصل بالصوفى الشيخ الكردى ولازمه كبار العلماء فاستفاد خبرة.

وتولى مشيخة الأزهر بعد الشيخ العروسى ١٢١٨هـ ١٧٩٣م وقيل ١٢٠٨هـ وفى حياته ألمت بمصر أحداث جسام إذ أتت الحملة الفرنسية، وما يصاحبها من قتل ودسائس ومغامرات ومؤامرات ولكن الشيخ بحكمته تغلب على هذا ولقد تولى المشيخة فى مرحلة من أهم مراحل التاريخ المصرى وكان فى مقدمة زعماء الشعب وواحد من أعضاء مجلس الشورى العشرة الذين تقرب بهم نابليون للشعب المصرى، فقد عاش الثورة وانتفاضتها وأبلى بلاء حسنا فى حفاظه على الأزهر وحمايته، وارتفع إلى زعامة المقاومة الشعبية وطلب من الحاكم العدل بين الناس ورفع الظلم وإقامة الشرع وإبطال المكوس «الضرائب» ونزل الحاكم على رغبته كتابة وأمر نابليون أن يؤدى للعلماء التحية العسكرية إجلالا واحتراما لهم ولقد تأثر نابليون أولا بسلوك علماء الأزهر وعلى رأسهم الشيخ الشرقاوى وتكرر إعجاب نابليون بالإسلام وتعاليم النبى محمد عليه الصلاة والسلام وبخاصة بعد عودته من الشام أعلن فيه أنه يحب الدين الإسلامى ويعظم النبى ﷺ ويحترم القرآن ويقرأ منه كل يوم بإتقان ومراده أن يبنى مسجداً عظيماً بمصر لا نظير له فى الأقطار الأخرى وأن يدخل فى دين النبى المختار ﷺ.

وكان نابليون كثيرا ما يعلن رغبته فى اعتناق الإسلام، ويذكر أن فى استطاعته حمل جنوده على اعتناق الإسلام بناء على أمره، ثم طلب من شيوخ الأزهر فى

إحدى الجلسات أن يصدروا فتوى، يدعون فيها الشعب المصرى أن يقدموا له الطاعة والولاء، فتصدى له الشيخ الشرقاوى طالبا تنفيذ وعده باعتناق الإسلام وحبب إليه هذه الخطوة وزينها فى قلبه وقال له: «إذا اعتنقت الإسلام انضوى تحت لوائك مائة ألف جندى عربى وتستطيع أن تفتح بهم الشرق.

آثاره العلمية وتأثيره ومكانته

كان الشيخ الشرقاوى يستغل مكانته فى الشفاعة لدى الفرنسيين فى دفع الأذى عن زعماء الشعب وذوى المكانة فيهم وكثيرا ما كان يقف فى وجه الفرنسيين ولأنه رأى فيهم الخطر الداهم على مصر فيجب التصدى لهم.

واكتشف الفرنسيون أخيرا أنه يتجاوب مع الثورة ضدهم فاعتقلوه، مع غيره من الزعماء فى سجن القلعة لكن سرعان ما أخرجوه لحاجتهم إليه، وحاول نابليون التقرب إليه بكل السبل ومع أن الفرنسيين فتكوا بالآلاف من سكان القاهرة وفرضت عليهم الضرائب الباهظة؛ وقتلوا لفيفا من علماء الأزهر وطلابه لكن مع هذا نبهت أذهان العلماء وتنبه الشيخ الشرقاوى إلى المدنية الحديثة والعلوم المتطورة التى جاءت بها الحملة الفرنسية واكتشاف حجر رشيد وقارنها بالتخلف الذى عليه مصر والولايات التابعة للحكم العثمانى وعلم نابليون أن الشيخ الشرقاوى يتلقى رسائل سرية من الخليفة العثمانى ولما قتل القائد كليبر قبض على الشيخ الشرقاوى واسموه رجل السياسة الهادئ الذى جنب شعبه كثيرا من النكبات وكان نابليون وخلفاؤه يزورون الشيخ الشرقاوى فى بيته ويبالغون فى الحفاوة به على الرغم من عدم اطمئنانهم له نظرا لمكانته العلمية وشعبيته.

وبعد رحيل الحملة الفرنسية عانت البلاد من ظلم وطغيان العثمانيين والأكراد والمماليك وأخذ الجميع ينهبون ويستبيحون الحرمات فضج الناس بالشكوى ولجأوا للشيخ الشرقاوى فقاد مجموعة العلماء وآلاف المواطنين وأعلن عزل الوالى خورشيد وتولية محمد على واقره السلطان وكانت أول مرة يختار الشعب زعيمه لكن محمد على كان طاغيا لا عهد له ولا أمان.

ومن أعمال الشيخ الشرقاوى أنه بنى رواق الشراقوة وعمل على سلامة الأزهر لأن الأزهر وديعة فى يديه فيجب الحفاظ عليها؛ فكان يهادن الأعداء أحيانا خوفا وحرصا على سلامة الأزهر.

مؤلفاته وتصانيفه

للشيخ الشرقاوى مؤلفات كثيرة نذكر بعض منها:

١- التحفة البهية فى طبقات الشافعية، ضمنه تراجم الشافعية حتى سنة ١٢٢١هـ ورتبه على حروف المعجم، وتوجد منه نسخة خطية بدار الكتب المصرية.

٢- العقائد المشرقية فى التوحيد.

٣- الجواهر السنية فى شرح العقائد المشرقية مخطوط.

٤- حاشية الشرقاوى.

٥- حاشية على شرح الهدهدى.

٦- شرح حكم ابن عطاء الله السكندرى.

وقد بلغت مؤلفات الإمام الشيخ الشرقاوى ما يزيد على العشرين مؤلفا، وذلك رغم التيارات السياسية العنيفة التى خاضها ولقد ألف بجانب ذلك رجالا من أعلام العلماء من فقهاء ومحدثين وجميع كتبه بدار الكتب المصرية ومكتبة الشريف.

وفاته:

وأخذ ينشر العلم ويدرسه ويناضل ضد الظلم ويمنعه حتى وافته المنية ولقى ربه يوم الخميس ٢ شوال ١٢٢٧هـ وصلى عليه بالأزهر جمع كبير ودفن فى مدفنه الذى بناه لنفسه فى وقف السيدة «الخاتون خونر طفاى» فى الصحراء بجوار مسجد له بناه، وقصر بناه للصوفية لحبه لهم وقد أصدر الوالى فرمانا بإقامة مولد سنوى له واحتفل الناس بهذا المولد وأقاموا فيه الموائد وحضره جمع كبير من الفقهاء والعلماء والمشايخ والأعيان.

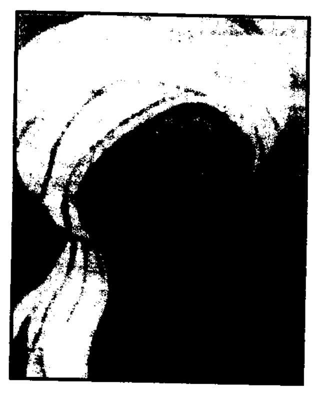
ولقد أشاد الجبرتى فى وصف مدفنه الفخم وبعد الصلاة عليه فى الأزهر حمل إلى مدفنه المذكور فى تابوت.. غفر الله لإمامنا الفاضل وجزاه الله خيرا عن مواقفه الشجاعة بجانب الحق وأهل الحق، وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا وسلام عليه فى الخالدين[1].

❁❁❁

---

(١) صوت الأزهر: بقلم وريشة د. عبد الله سلامة نصر ص١٠ فى ٤/ ٥/ ٢٠٠٧م.

١٣- فضيلة الإمام الشيخ محمد الشنوانى



كلمة حق سجلها التاريخ حيث إن الإمام الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الأزهر تقابل يوما مع مصطفى النحاس باشا، وحبب إليه أن يكون الاحتفال بالعيد الألفى -للأزهر الشريف- أن يبايع الناس الملك فاروق، على أن يحضر الملك حفلا فى الجامع الأزهر، يدعى إليه زعماء الأمة الإسلامية، ثم يتولى شيخ الأزهر إلقاء الكلمة الرئيسية فى الاحتفال، ثم يبايع شيخ الأزهر الملك باسم علماء الأزهر وزعماء العالم الإسلامى، بيعة الولاء والطاعة، على أن يبذل الملك وسعه فى الاحتكام إلى الشريعة الإسلامية فى سائر جوانب الحياة الاجتماعية والاقتصادية، وبذلك تعود لمصر -عن طريق هذا التصرف الكريم- زعامتها للعالم الإسلامى والعالم العربى على حد سواء، وهذا رأى سليم واضح لا لبس فيه ولا التواء، من فضيلة الإمام الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الأزهر. . غير أن النعرة الحزينة وما وراءها، أبت لهذه الخطوة الكريمة أن تأخذ سبيلها إلى التنفيذ، وتصبح حقيقة يرضى عنها الإسلام ويعتز بها المسلمون، واستندت المعارضة على أن هذا التقليد «كنسى» يعمل به فى الغرب، وليس للمسلمين متابعة الغرب، لأن فى الغرب رجال الدين خلاف عامة الناس، فهم معه -خاصة فى الديانة النصرانية- أى طبقتين رجال دين ورجال دنيا ويجب أن نعرف تماما ونوضح أن المقصود برجال الدين عندنا هم المسلمون جميعا، سواء فى ذلك الأزهريون وغير الأزهريين، والأزهريون لهم امتياز فى هذا المجال، لأنهم مرجع للنصوص الشرعية فى إطار الأصول الأربعة «طاعة الله والرسول ﷺ أولى الأمر -أهل الحل والعقد- فى مواضع ثقة الأمة من العلماء ورؤساء الجيش والمصالح العامة، كالتجارة والزراعة والصناعة والعمال والأحزاب، والرابع هو القياس، وعلى هذا فالأزهر أحد أصول هذه الثلاثة يقوم عليها بناء المجتمع الإسلامى القوى المتماسك بمعنى أنه لا عبودية إلا لله، وهذه

هى رسالة الأزهر التى يدعو إليها الناس، واستحال على المذهبية الضيقة -بفضل الأزهر- أن تجد لها فى بلادنا مكانا تلجأ إليه، وتنشر فيه الفتن والأحقاد، فالأزهر مازال وسيظل يدعو للبر والتعايش مع كل الأديان، فملأ الصدور بالمحبة والمودة..

ولو أن البعض اعترض على تطوير الجامع الأزهر إلى جامعة الأزهر بزعم أن هذا التطوير اعتدى على العلوم الدينية الإسلامية التى كان يستمدها المسلم من دراسته فى الجامع الأزهر قبل التطوير.. لكن الأزهر لم يغفل هذا.. فادمجت بعض المواد الأزهرية وكذا المواد العلمية، وأصبح من الميسور أن يجمع الطالب المسلم والطالبة المسلمة بين الثقافة الدينية الإسلامية وبين الثقافة العلمية العملية التجريبية، وهذا ما عرفت أهميته بالنسبة لبلاد كالهند، لا يستمتع المسلمون فيها بحق التعليم العالى فى الجامعات، فهم فى تلك البلاد ضائعون كما فى كثير من البلاد التى لا تدين حكوماتها بالإسلام، ومن هنا بدأت فكرة تطوير الجامع الأزهر إلى جامعة الأزهر لإعطاء الفرصة للطالب المسلم من جميع الأجناس، ولكن كان قد فات الأزهر أن يجرى الاحتفال بعيده الألفى على السنة التى أرادها الإمام الشيخ مصطفى المراغى فقد أتت الوسيلة وتم الاحتفال بالعيد الألفى فى عهد الرئيس حسنى مبارك وتحققت أمنية الشيخ المراغى رحمه الله وفى ذلك من الخير ما لا يخفى على بصير وأن الله لن يتخلى عن الأزهر العتيق وجامعته المباركة.

الإمام الثالث عشر الشيخ محمد الشنوانى نسبه ونشأته وتوليته للمشيخة:

هو الإمام الشيخ محمد بن على بن منصور الشنوانى الشافعى الأزهرى ولد بقرية شنوان الغرب ونسب إليها، وهى من قرى محافظة المنوفية، وفى هذه القرية حفظ القرآن، ثم ارتحل للأزهر ليحقق أمله فى الالتحاق به، وتلقى علومه على كثير من أعلام عصره، وتفقه على أيديهم يقول عنه «الجبرتى» هو شيخ الإسلام الفقيه العلامة والنحوى المعقولى، كان مهذب النفس، متواضعا مع الانكسار والبشاشة لكل أحد من الناس، ويقول كان عند فراغه من الدروس يغير ثيابه ويكنس المسجد وينظف القناديل ويعمرها بالزيت ولم يناقش غيره فى التدريس، وإنما قنع بإلقاء دروسه بالجامع المعروف، بـ«الفكهانى» بالعقادين قريبا من داره، فأقبل عليه الطلاب وانتفعوا بآرائه وتوجيهاته كما انتفعوا بأخلاقه وآدابه ويتهافت على علمه الآخرون.

فلما توفى الشيخ الشرقاوى اتجهت إليه الأنظار، تهرب وغاب بعيدا عن بيته لكن الباشا الوالى أمر القاضى أن يجمع العلماء لاختيار شخص خال من الأغراض والشبهة، فوقع الاختيار عليه فأمر الجند بالبحث عنه وأوكل إليه المشيخة بعد رفض شديد من «الشنوانى»، لكن الوالى أصر عليه وجعله شيخا للأزهر، وذلك فى شوال سنة ١٢٢٧هـ- ١٨١٢م ونزل فى دار أخرى أوسع من داره لتناسب المنصب الجديد وكان عزوفا عن زيارة الأمراء وكبار الشخصيات مع أنه كان من قادة الشعب واشترك فى مقاومة الحملة الفرنسية، وقد حاول الوالى أن يستولى على أرض الدولة، وأن يتخذ من العلماء مطية حيث أفهمهم أنه سيترك أرضهم يزروعونها بمعرفتهم، لكن الإمام «الشنوانى» تصدى له وطالبه بالإفراج عن الأوقاف المحبوسة للطلبة والأراضى الأخرى، والشيخ «الشنوانى» كان عالما كبيرا لأنه تتلمذ على أيدى كبار العلماء مثل الشيخ الصعيدى والدرديرى، وقرأ الدروس وأفاد الطلاب ونال شهرة علمية فى علوم النقل والعقل، وكان متبحراً فى علوم اللغة كما كان مولعا بعلم الكلام والرياضيات وكما ذكر أن الشيخ لم يسع للمشيخة، وإنها هى التى سعت إليه، وأنه أشفق منها على نفسه وما لبثت تلاحقه حتى أنشبت أظافرها فيه، وتغيرت حاله من فقر إلى غنى ومن ضيق إلى سعة، ولكنه بقى يلقى دروسه ويؤدى خدماته إلى نهاية أجله، ومعنى هذا أن الشيخ كان منصرفا إلى الأزهر وأهله ومن سوء الحظ أنه لم يدم فى المشيخة طويلا لعلته ولسقمه.

آثاره العلمية ومؤلفاته:

ترك الإمام الشنوانى بعض المصنفات نوجزها فيما يلى:

١- حاشية على شرح «جوهرة التوحيد» وهى منظومة فى علم التوحيد للشيخ إبراهيم اللقانى، وشرحها ابنه الشيخ عبد السلام فى كتابه «إرشاد المريد» وكتب عليه الشنوانى حاشيته التى وصفها الجبرتى بأنها جليلة مشهورة بأيدى الطلبة.

٢- الجوار السنية بمولد خير البرية وهى مقتطفات جمعها من كتب مشايخه وغيرهم «على مولد المدابغى» وتوجد منها نسخة خطية بدار الكتب المصرية.

٣- حاشية الشنوانى على مختصر البخارى لابن أبى جمزة ومنه نسخة خطية بدار الكتب المصرية.

٤- ثبت الشنوانى وهو إجازة أجاز بها تلميـذه «مصطفى بن محمد المبلط» قال فيها عن تلميذه هذا: «لازمنى مدة مديدة وسنين عديدة حضوراً وسماعًا حتى غزا علمه.. ثم التمس منى الإجازة وكتابة السند فأجبته لذلك بشرط ألا يترك الإفادة، ومنه نسخة خطية بالمكتبة -التيمورية- بدار الكتب المصرية.

٥- حاشية على السمرقندية -فى علوم البلاغة.

٦- حاشيته على «العضدية» فى آداب البحث.

وفاته:

وبقى طول حيـاته فى سمتـه المتواضع، وأقبلت عليـه الدنيا فلم يهنا بها فـقد اعترته الأمراض وعاودته الأسقام، فكلما اشتد عليه المرض لزم بيته وإذا ذهب عنه عاد إلى عمله وهكذا.

حتى لبى نداء ربه يوم الأربعاء ١٤ محرم سنة ١٢٣٣هـ ١٨١٨م وصلى عليه فى الأزهر الشريف وحمل فى جنازة مـهيبة إلى قبره فى ترب المجـاورين رحمه الله ورضى عنه وحـشره مع النبيـين والصديقـين والشهـداء والصالحـين وحسن أولئك رفيقا[١].

❁❁❁

(١) صوت الأزهر: بقلم وريشة د. عبد الله سلامة نصر ص١٠ فى ١١/ ٥/ ٢٠٠٧م.

١٤- فضيلة الإمام الشيخ محمد شمس الدين العروسى



الكتاتيب والمساجد والمدارس والمعاهد والجامعات، كلها أماكن ومقار للتعليم، عندنا فى أوطاننا الإسلامية، وكلها احتضنت ثقافتنا الذاتية الخاصة بنا، وكلها أيضا جزء مشرق من تاريخنا، وجانب مهم من حضارتنا ورسالتنا، بل هى الأساس لوحدة أمتنا على اتساع رقعتها مكانا وزمانا، ولقد قدمت هذه الأماكن الزاد الروحى والفكرى. وربطت الخلف بالسلف والشرق بالغرب، وأزاحت الفروق بين الدول الإسلامية، فإذا المسلمون جميعا يلتفون حول كتاب ربهم وسنة نبيهم مرتبطين بأخلاقهم وتقاليدهم، ويعبرون بلغتهم عما يدور فى نفوسهم وشخصيتهم وأمتهم، فأصبحت كل أمورهم واضحة للصديق والعدو على سواء ٠ مثلا- لو سايرنا التاريخ لوجدنا أن الأتراك نجحوا فى الاستيلاء على «القسطنطينية»، مع أنهم لم يستطيعوا حماية الأندلس ،لكنهم أوقفوا الزحف الصليبى على العالم الإسلامى بضعة قرون، ومع قدرتهم العسكرية، فقد فشلوا فشلا ذريعا فى سياستهم داخل العالم الإسلامى الذى حكموه دهرا، فتراجعت حضارة الإسلام والثقافة العربية، وهى شريان الحياة الإسلامية، ونظر المسلمون يمنة ويسرة شرقا وغربا. . فإذا الأزهر، وحده وبعض المعاهد المشابهة هى التى بقيت وحدها تمد العالم الإسلامى بالمعرفة التى تحتاجها الأمة الكبيرة.

والواقع أن «الجامع الأزهر هو المأوى والمستقر الذى آلت إليه علوم الدين واللغة» وأصبحت مصر بفضل «الأزهر» العاصمة الثقافية للعالم الإسلامى كله. . واتجه الطلاب من كل فج إلى الأزهر، ولم تتوقف الخطط الخبيثة لإنزال الأزهر من مكانته ومنعه من تأدية مهمته الخطيرة ،وبهذا يسهل على الذئاب التهام «الفريسة» ونحن نعتقد أن القرآن الكريم باق ما بقيت الحياة على هذا

الكوكب وأن المسلمين باقون ما بقى القرآن الكريم، وأن الأزهر باق ما بقى فيه ولاء للإسلام.

إن الاستعمار يخاصم بعنف كل عمل له صبغة إسلامية، ويشتد غضبه إذا رأى الثقافة الإسلامية تملك زمام التوجيه، أو رأى الأزهر يخرج علماء أوفياء لدينهم وهذا الموقف الحقود يفرض علينا مزيدا من الحذر فى حماية أنفسنا وتحصين قلاعنا واكتشاف ما يكيده المستعمر لنا، وواجبنا تصحيح أخطائنا لنسد الفجوات التى دخل لنا منها ليدنس حمانا وأعراضنا.

والتعليم فى صدر الإسلام لبى حاجات الأمة تربويا وتشريعيا، وبقدرة فائقة استطاع تكوين أجيال ناضجة، وأجيال تعطى أكثر مما تأخذ.. فالواجب علينا دراسة تاريخ الأمم لنعرف عنهم طريقة أسلوبهم، وكيف دبروا لهدم الإسلام فى الأندلس وفى تركيا، وكيف ابتلعت أمريكا وروسيا جميع دول العالم، ولم نسمع أن دولا غربية تقاتلت مع جاراتها كما نفعل نحن، وتوجد دول فى قارة إفريقيا ديانتها الأولى الإسلام ودستورها الإسلام، وقسمت إلى خمسين دولة، ولم نعرف عنها شيئا.. هذه حقيقة ورسالة محمد ﷺ لجميع الدنيا كلها.. فكيف نجهل هذه البلاد وما فيها؟ فقد نلوك ألسنتنا ونقول: إن رسالتنا عالمية، دون أن نسعى لهذا العالم، ونتصل به.

وأين كنا حين اكتشفت الأمريكتين واستراليا، ووضع المستعمرون الإنجليز طابعهم المادى على تلك القارات، ثم جاءوا يطرقون أبوابنا بخيلاء واستعلاء ليعلمونا ما لم نكن نعلم. إن القرآن الكريم يأمرنا بالسير من خلال العقل والبحث فى التاريخ يقول سبحانه: ﴿ **أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا** ﴾ [الحج: ٤٦].

والحق أن المشرفين على التعليم الأصلى منذ زمن بعيد فرطوا فى حقوق الإخوة الإسلامية، حيث فرطوا فى دراسة الأجناس التى اعتنقت الإسلام، وغضوا أبصارهم عن قضاياها، وانشغلوا بمشكلاتهم الداخلية، وهذا مما لا يخفى على أحد، وأحب التنبيه إلى أن كل قصور فى تعليم العلوم المدنية لا يزيد دارسى الدين

إلا خبالا، لأن الإسلام دين لا ترسخ قواعده، ولا تنضج معارفه إلا فى جو علمى واسع الآفاق، ولا أدرى كيف يفهم القرآن العظيم وحديث رسول الله ﷺ رجل لم يدرس علوم الأرض والسماء وما بينهما والذى أحب أنبه إليه أن الأزهر يجب أن يستيقظ لأن سلفنا ومنهم شيوخ الأزهر الذين كلفنى فضيلة الإمام برسم صورهم والكتابة عنهم عرضوا الإسلام من مصادره النقية الذكية، وجعلوا ثقافته ترجح غيرها بالفقه الواعى فى شتى الميادين.. فهل يستيقظ دعاة التعليم الدينى قبل أن يفوت الأوان.

ونواصل الكتابة عن الإمام الشيخ محمد شمس الدين العروسى -الرابع عشر من شيوخ الأزهر.

نسبه ونشأته وبيئته وتوليه للمشيخة

هو الشيخ الإمام محمد بن الإمام أحمد بن موسى بن داود العروسى.. ولد بالقاهرة حيث يعيش والده شيخ الأزهر الأسبق وليس فى «منية عروس» كما ولد والده لأنه كان قد فارقها منذ وقت بعيد، والمصادر الموجودة حاليا لا تشير عن بداية حياة الإمام العروسى الابن عن نشأته وبداية تربيته لكن الغالب ولا مجال للشك فيه، إنه حفظ القرآن الكريم، ودرس شطرا من المواد التى ينتسب بها للأزهر، وذلك على يد أبيه، الذى كان حلم حياته أن يدخله الأزهر، ويجعله أحد علمائه الأفذاذ، الذين تشد إليهم الركاب ويجتمع على حلقاتهم الطلاب، وقد تحقق له ما أراد، فانتسب ولده للأزهر ودرس على علمائه الكبار وتنقل بين حلقاتهم، وفيها حلقته التى كان يحضرها فى حياة والده، ثم خلفه عليها بعد وفاته أى حل محله فى التدريس لطلبته، وكان شغوفا بالدرس ويواصل التدريس لطلبته من الصباح حتى المساء، ولعل هذا هو الذى شغله عن التأليف، وكان يمتاز بالمرونة واللباقة ويتضح لنا هذا من موقفه من الفتنة التى ثارت حول ذبائح أهل الكتاب (انظر تاريخ الجبرتى ج٧).

والمعروف أن الإمام العروسى هو ابن شيخ الأزهر حيث تولى أبوه مشيخة الأزهر من قبله ويفصله عن مشيخة أبيه شيخان هما الشيخ الشرقاوى والشيخ الشنوانى.

ولما مات الشيخ الشنوانى اتفق العلماء بالإجماع على إمامته للأزهر وتقلد المشيخة بالإجماع وليس الخلع من الوالى ومن الأعيان وزعماء الشعب، وتولى المشيخة سنة ١٢٣٣هـ ١٨١٨م.

آثاره العلمية ومكانته ومؤلفاته

لقد كان الإمام العروسى الابن شغوفا بالبحث والدرس حتى أنه كان يأتى الأزهر مع الفجر ولا يفارقه حتى الليل. وكان حسن الإلقاء، غواصا وراء المعانى، ولهذا كان الطلبة يهرعون إليه من ساحات الأزهر والمدارس التابعة للأزهر، لينهلوا من معارفه العذبة، وعلومه المتنوعة ولما تولى مقاليد المشيخة لم تشغله عن دروسه، ولم تصرفه عن أداء ما كان يؤديه نحو تلاميذه على الرغم من أن جلوسه على كرسى المشيخة استمر اثنتى عشرة سنة ولأنه كان مشغولا بالدرس والتدريس كما ذكرنا، فلم يتسع له الوقت الكافى للتأليف لهذا لم يترك وراءه غير مصنف واحد أجازه تلميذه على بن عوض البرديسى الجروجاوى ١٣٨٠هـ وهو مخطوط فى دار الكتب المصرية رقم ٥١١ «مصطلاح الحديث» قال فى أوله بعد البسملة حمدا لمن تفضل علينا بالإنعام وبعد فإن دراسة العلم من اسمى المطالب، فلذا لما طلب منى على الجرجاوى أن أخبره بجميع مروياتى وبما يجوز لى وعنى روايته من تفسير وحديث وغيرهما من منقول ومعقول فأجزته؛ لذلك وكتب «فى آخر الإجازة، رزقنى الله وإياه الهداية والحفظ والرعاية إنه سميع قريب والرسالة بخط الشيخ الإمام مزيلة بخاتمة.

والإمام الشيخ العروسى لم يؤلف كتابا ولا مصنفا وله عذره، لأن الأعباء الملقاة على كاهله ومنها عبء المشيخة أكبر من أن يتحمله رجل واحد إلا بعون من الله، وله مكانة ومزايا عديدة كثيرة انفرد بها وحده منها أنه إمام ابن إمام ومنها أنه نال ثقة الوالى والشعب والعلماء، وأجمعوا جميعا على تقديره وتوقيره.

ومنها أن شهرته لم تكن تابعة لشهرة والده وإنما كانت من جده وكسبه، ومهما اثنينا على الإمام العروسى وأكثرنا من الإطراء عليه وذكر مفاخره فلن نوفيه حقه.

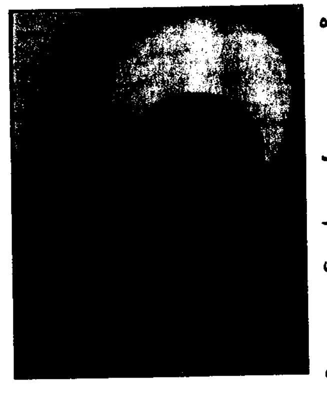
وفاته:

وقد لبى الإمام العروسى نداء ربه راضيا مرضيا فى ١٢٤٥هـ ١٨٢٩م وصلى عليه وقرئت خاتمة القرآن الكريم ثم حمل إلى قبره فى جنازة مهيبة شارك فيها الخاصة والعامة وذهبت هذه النفس المطمئنة إلى ربها راضية مرضية والسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا[١].

❁❁❁

(١) صوت الأزهر: بقلم وريشة د. عبد الله سلامة نصرو ص١٠ فى ١٨/ ٥/ ٢٠٠٧.

١٥- فضيلة الإمام الشيخ أحمد الدمهوجى



الحلقة الأولى: والكلام متصل عن الأزهر ودوره فى حياة الإسلام والمسلمين.

«فى سنة واحد وعشرين من الهجرة، كانت توجد فى القاهرة ثلاثة مساجد جامعة، لعل بعضها كان أكبر من الأزهر مساحة، وأكثر منه بهاء ورونقا، إلا أن الأزهر بقى دون غيره من المساجد عامرًا بالمصلين، وزوايا العلم والطلاب يقدمون عليه من كل حدب وصوب، لالتماسهم المعرفة فيه على أيدى شيوخه، وتم بناء الأزهر فى عامين وثلاثة أشهر، وافتتح للصلاة فى يوم الجمعة ٧ من رمضان «٣٦١هـ- ٩٧٢م» وقد توسط مدينة القاهرة، عاصمة دولة الفاطميين، وقد سبقه إلى الوجود - مسجد عمرو بن العاص- الذى عرف بأكثر من اسم: «البيت العتيق -جامع مصر- مسجد أهل الراية» ثم عرف أخيرًا بمسجد عمرو بن العاص» ثم انتقل الحكم إلى العباسيين، فبنوا وسط الفسطاط، مسجدًا جامعًا كبيرًا، ثم انتقل الحكم إلى ابن طولون، وبنى مسجده المشهور فكان ثالث مسجد جامع، وكان جامع عمرو أحق المساجد بأن يبقى على مر التاريخ أكبر جوامع المسلمين فى مصر. ومع أن الجامع الأزهر، تأخر ثلاثة قرون ونصف القرن عن سابقيه، وأذن الله أن يولد، بعد أن زالت ممالك وتغيرت دول، وتعاقبت على مصر عهود، والأزهر فى مكانه تتسع مساحته وتجدد أبنينه، ويرتفع ويكثر عدد طلابه، ويرتفع شأن علمائه، وينتشر أسمه فى الآفاق، ولكن الذين أرخوا للأزهر، وكتبوا عنه لا يدرون لماذا بقى الأزهر وكيف يسمونه؟؟

١- أيكون مسجدًا جامعًا يؤمه المصلون. ويرقى منبره الخطباء وأعظم الأئمة.

٢- أم يكون جامعة علم يتلقى فيه علوم الإسلام من تفسير وحديث وفقه، ومنطق وعلوم كلام، ولغة ونحو وصرف وبلاغة وأدب وعروض.

٣- أم يكون مركزًا من مراكز الفكر تناقش فيه مشكلات الدين، وأمور المسلمين.

٤- أم يكون دار قضاء يجلس فيه قاضى القضاة يفصل فى الأقضية، وينصف المظلومين من الظالمين بحكم الشرع.

٥- أم هو سجل لتاريخ الأمتين الإسلامية والعربية، يحفظ وقائع حياتهما، وما تتطور من شئونهما، ويروى للناس تاريخهما المجيد.

٦- أو هو كل هذا وفوق هذا.

إن مآثر الأزهر من مآثر الروح الإسلامية الخالدة على مر الأزمنة والدهور بحلوها ومرها، ولن تنطفىء هذه الأنوار ولن يندثر تاريخها. . هذا هو الأزهر: عالم فسيح ينطوى على جهد إسلامى متواصل، فى كل دروب الحياة. فى العلم والسياسة، ومناهج الشرع والدعوة للخير، وفى مقاومة الغزاة من الشرق والغرب من مغول وتتار وصليبيين وفرنسيس، مسلحين بكل أنواع وصنوف القهر والقوة، أتوا إلينا بعد أن اكتسحوا أمامهم الممالك والدول والبلاد.

هذا هو الأزهر: الذى أريد تجاهله، بعد أن تغير الحال، وأناخ فى الدهر والزمن على دول الإسلام. . وملأ القلوب حب الدنيا، وعلى أنقاض حضارة الإسلام نبتت حضارة الغرب الجديدة، منبثقة عن نور الإسلام، مغايرة لنمطه فى كل شىء مجردة من كل مشاعر الإنسانية، فقد آمنت بالعلم المادى الذى يدرس المادة، ويعرف تطوراتها، وسخروا كل ما طالته أيديهم، من كنوز الأرض، ورصدوا لذلك العقول الذكية التى لا تعرف الفشل، وبهذا دانت لهم الدنيا بهذه القوة التى نحس أثرها، وهم يعرفون أسرارها، فإذا هم أقوى الأمم وأغناهم، ونزعوا ما فى أيدينا من مال، وما فى أوطاننا من ثروة، وكبلونا بالضعف حتى لا نحاول استعادة ما فقدناه. . ولو فزع منا عالم نشط استحوذوه إلى جانبهم وأغروه بكل وسائل الإغراء ووفروا له كل وسائل العمل والإبداع، ولو حاول هذا العالم أن يخدم وطنه أو يقدم مساعدة علمية. . قضى عليه بأى أسلوب. وهذا ليس بخاف على أحد، علماؤنا طردتهم أوطانهم، ولهذا تنزل على رءوسنا الضربات، كلما انتهينا

من حرب، أوقعونا فى الأخرى وأقاموا بيننا السدود والفواصل -بخبث ومكر- ومع أننا أمة واحدة دين واحد، ولغة واحدة، وأرض واحدة.

هذه الفواصل وتلك السدود لبنتها وبناؤها وأساسها آفات قاتلة:

الآفة الأولى: مدى الإعجاب بالحضارة الحديثة، والحياة الممتعة، التى توفر أسباب الراحة والرفاهية وصنوف اللذة والمتعة، وكل المباهج الدنيوية التى لا يحصيها عدد. فأورثوا فى نفوسنا الخور والفتور فى الهمة والضعف النفسى، فإن الذى يعيش فى هذه الحياة لا يمكن أبدًا أن يفكر فى جهاد أو كفاح ضد الأعداء.

الآفة الثانية: الكراهية الشديدة لكل ما عندنا، واحتقار شديد لكل ما تركه أجدادنا من ثقافة وأساليب عيش الرجال والأقوياء.. حتى التوت السنتنا فبات من الصعب علينا التحدث والتكلم بلغتنا.

ونواصل الحديث عن شيوخ الأزهر نبراس حياتنا.

الإمام الخامس عشر من شيوخ الأزهر -الشيخ الإمام أحمد الدمهوجى.

هو الإمام الشيخ أحمد زين على بن أحمد الدمهوجى الشافعى الأزهرى -نسب إلى قرية «دمهوج» لأن الظاهر أن أسرته كانت تقييم بها، وإن كانت ولادته بالقاهرة، وفيها حفظ القرآن الكريم، ودخل الأزهر، ودرس على كبار علماءه، وكان شغوفًا بتحصيل العلم، ولهذا انقطع للبحث والدرس، وقرية «دمهوج» التى نسب إليها الإمام مسقط رءوس أبائه وأجداده، وهى وإن لم يكن لها تاريخ حافلاً فى المصادر، إلا أنها كانت فى زمن ما ذات شأن -وقبل أن يتولى الشيخ «الدمهوجى» منصب شيخ الأزهر- ظل المنصب شاغرًا لمدة ستة أشهر بعد وفاة الشيخ العروسى، والمؤرخون لم يناقشوا فى كياسته وحسن تعرفه فى سياسته وقدرته على حل المشكلات.

وتولى الشيخ «الدمهجوى» المشيخة إلا أن مدة ولايته كانت قصيرة، فلم تسلط عليه الأضواء ولم يجذب إليه الأبصار -أضف إلى اهتمامه بالدرس والتدريس، والعبادة أغلب الليل قد شغله عن التأليف والتصنيف، والمؤرخون لم يذكروا عن حياته إلا القليل، وهذا راجع إلى زهده وتواضعه، وبعده عن مشاغل الحياة ومظاهرها، دائم الصلاة بمسجد الأزهر، يقول صاحب «الخطط» فى مذكراته «إنه تولى مشيخة الأزهر وله من العمر سبعون عامًا وذلك سنة ١٢٤٦هـ- ١٨٣٠م

وظل بها مدة ستة أشهر فقط، حيث توفاه الله سبحانه- والمشهور عنه. أنه كان حسن الصورة وجميل الهيئة، أنيق الهندام، ذا هيبة ووقار، يجله كل الناس من يعرفه ومن لا يعرفه -حكامًا ومحكومين وهناك وثيقة مهمة تؤيد ذلك ذكرها صاحب «كنز الجواهر» تحمل دلالات تشير إلى كيفية تولى الإمام «الدمهوجى» مشيخة الأزهر أهمها:

١- أن الحاكم كان حريصًا على إرضاء علماء الأزهر، وفى هذا يقول الوالى: «إن أقصى مرامنا راحة فقهاء الجامع الأزهر».

٢- أن الحاكم كان يأخذ برأى كبار الفقهاء.

٣- أن الحاكم كان حريصًا على تيسير كل وسائل المعونة لمن ولاه مشيخة الأزهر، حيث لاحظ تقدم العمر للشيخ «الدمهوجى» ويحتاج لمن يعاونه فى تحمل أعباء المشيخة ومنصبها.. والوثيقة مع هذا تعطينا صورة لأسلوب الكتابة فى عصر الشيخ « الدمهوجى» تهم الباحثين فى تاريخ الأدب وتطور أسلوب النثر. كما تهم المؤرخين والمهتمين بالعلوم الإدارية. وقد أثبتها صاحب «كنز الجواهر» من أرادها كاملة فلينظرها -وهى تشمل كيف تولى الإمام «الدمهوجى» المشيخة.

آثاره العلمية ومؤلفاته:

والإمام «الدمهوجى» كان ذا مآثر شتى، ومفاخر متنوعة، ومنها على سبيل المثال.. أنه كان لبيبا أديبًا يشد انتباه كل من يسمعه، ويجذب محدثه نحوه، وأنه كان لا يمل التدريس لطلابه، فقد كان يأتى حلقة درسه عند تنفس الصبح، ولا يغادرها حتى تغرب الشمس، وكان طلابه لا يسأمون ذلك، ولا يقلون شغفا عنه بمتابعة كل ما يقول حرصًا على ما يستفيدونه من علمه، وما يقطفونه من ثمار العلم ولا يجدونها عند غيره، فهو بحر لا ساحل له ولا قرار، ولأنه أدرك عددًا كبيرًا ممن جلسوا على كرسى المشيخة وغيرهم من كبار العلماء وتتلمذ عليهم، واستفاد منهم، وعددهم كثير، وقد شهدوا له واثنوا عليه وعلى علمه ودينه وخلقه، ولولا ذلك لما اختاره لمنصب المشيخة، ولا جلس على هذا المكان السامى، ويذكر من أرخوا للشيخ «الدمهوجى» أنه لم يحبس وقته وجهده على

تحصيل العلم وتدريسه فقط. . وإن كان هذا عملا مشكوراً يستحق الثناء عليه والجزاء من الله سبحانه، وإنما كان يخصص وقتًا يخلو فيه لعبادة ربه ليلاً ويشكر ربه على نعمائه فحياته كانت مقسمة بين تحصيل العلم وتدريسه، والانقطاع لعبادة الله سبحانه، وظل هكذا رغم الأعباء الجسام الملقاة على كاهله، ولهذا لم يستطع أن يشارك فى الاجتماعات العامة أو الخاصة.

مؤلفاته:

لم تكن للإمام «الدمهوجى» مؤلفات تستوعب ثقافته، وتحفظ نتاجه، ويكفيه ما خلفه من التلاميذ الذين تخرجوا على يديه، وأفادوا من منهجه فى كسب المعارف المختلفة والعلوم المتنوعة. . ولم يكن «الدمهوجى» هو أول الأئمة الذين شغلهم التدريس عن التأليف. فقد سبقه إلى ذلك الأئمة من قبله مثل: «النشرتى - والقلينى -وشنن- والسجينى» وكان لتلاميذهم الأثر الذى لا ينكر فى نشر علومهم، وإذاعة معارفهم، وقد كان أبو حنيفة النعمان أشهر الرجال فى هذا المجال. . فقد صرفه التدريس عن التأليف، وتولى أبو يوسف ومحمد وظفر وغيرهم من أصحابه نشر مذهب أبى حنيفة، فألفوا الكتب الكبيرة والمبسوطات الكثيرة، التى كان رجال المذهب يشربون من مناهلها حتى اليوم، ولم يكن أبو حنيفة وحده الذى سلك هذا المسلم، فقد كان السيد جمال الدين الأفغانى، وهو أمة وحده فى الزود عن الدين الإسلامى، والدفاع عن مبادئه.

وفاته:

ظل تلاميذه عشاق حلقته الذين ورثوا العلم عنه ونشروه حتى لبى الإمام الدمهوجى نداء ربه، ليلة عيد الأضحى بعد إتمام الحجيج الوقوف بعرفات سنة ١٢٤٦هـ- ١٨٣٠م.

وصلى عليه بالأزهر الشريف -وحمل إلى قبره فى ترب المقطم، فى جنازة جليله مهيبة، سار خلفه فيها الخاصة والعامة.

وذهبت هذه النفس الطاهرة المطمئنة إلى ربها راضية مرضية -إلى جنة الرضوان، والسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا[1].

---

(١) صوت الأزهر: بقلم وريشة د. عبد الله سلامة نصر ص١٠ فى ٢٥/ ٥/ ٢٠٠٧م.

١٦- فضيلة الإمام الشيخ حسن محمد العطار



المقال السادس عشر. والكلام متصل على الأزهر ودوره.. فى المقال السابق.. ذكرت أن أسباب تأخرنا، راجع إلى ثلاث آفات، ذكرنا اثنتين، وهذه الثالثة.. وهى أشد وأكبر، وتجمع الآفتين السابقتين، وأعنى بهما الثقة بالنفس، والأمل فى المستقبل، والرغبة فى التغيير، والرضا بالأمر الواقع، والفرح بالقليل والقناعة بالأدنى، والثقة بالعدو، والبعد عن الأهل وذوى القربى، وقد أصاب المسلمين عامة والمصريين بخاصة.. ما أصاب الدول صاحبة المجد والسلطان الأصيل، فانطفأت مصابيح علمها الذى علم الإنسانية على مدى أجيال من عهد الفراعنة، مروراً بالإغريق والرومان، وانتهاءً بالعهد الأعظم وهو العهد الإسلامى الذى تعلمت أوروبا من مساجده فى شبه جزيرة سيبريا وإيطاليا وجزر البحر المتوسط تعلموا أصول العلم التطبيقى، والبحث والتجربة، كنا المصدر، وأصبحنا عالة على علوم الغرب، وأقام المستعمر الغازى سدًا منيعًا حتى لا نواصل تحصيل المعرفة، ولا نظفر منها إلا بالقشور، لنظل تابعين لهم نحن وأبناءنا المثقفين، مجرد موظفين فى دواوين الحكومة لعدم إيجاد وسائل العلم من معامل وأبحاث وأموال، مثل الذى توفره أوروبا وأمريكا لأبنائها وأعوانها وعلمائها وتلاميذها وتعاقبت الأزمنة والحكام على مصر، وحدثت فترات ركود علمى عام، إلا الأزهر بقى محتفظًا بصفته العلمية، وندوات أهل الفكر التى يتبادل فيها الأدباء والقراء ما تجود به قراءاتهم، واستمر متمتعًا بهيبته وجلاله، ومقصد علماء المسلمين والعرب من كل فج وصوب، وعدد علماء الأزهر الأجلاء، مثل الحافظ بن حجر، وأبى عباس القلقشندى -صاحب صبح الأعشى- ومؤرخ مصر لكبير -تقى الدين المقريزى- صاحب الخطط الشهيرة. وهو الذى نعتمد عليه فى بحثنا، وغيرهم كثير.. وعادت مصر كلها إلى سابق قوتها فى كل

المجالات، وكان الأزهر واسطة العقد، وظفر بالموارد والمعونات، وأفاد الأزهر من التجربة الفكرية والأدبية، وارتفاع الروح المعنوية، وصعود نجم مصر، ولا يفوتنا ابن خلدون، كان من بين الوافدين إلى مصر وحاضروا فى الأزهر وقد سجل ابن خلدون ذلك بنفسه، وهذا لمجرد التدليل على دور الأزهر الشريف فى النهضة العلمية والفكرية والوطنية.

ونواصل الحديث عن الإمام السادس عشر الإمام الشيخ حسن محمد العطار.

نسبه ونشأته وتوليته المشيخة:

هو الإمام الشيخ حسن بن محمد بن العطار من أصل عربى لكنه ولد بالقاهرة سنة ١١٨٠هـ وقيل ١١٨٢هـ -١٧٦٨م نشأ فى كنف والده الشيخ محمد، وكان عطارًا فقيرًا ملمًا ببعض العلوم، فكان يصطحب ابنه معه إلى حانوته ويعلمه البيع والشراء، لكن الطفل كان حاد الذكاء، شغوفًا بالعلم، واسع الآمال، وكانت الغيرة تأخذه عندما يرى أقرانه من الصبية يترددون على الأزهر لحفظ القرآن وللدراسة، فذهب من وراء أبيه خفية معهم فحفظ القرآن فى مدة وجيزة، وعلم أبوه بأمره، فأعانه على التعليم، فألحقه بالأزهر، وجد فى تحصيل العلم على كبار العلماء والمشايخ أمثال: «الشيخ الأمير والشيخ الصبان» وظهر نبوغه وغزارة علمه وتنوع ثقافته فى زمن قصير، هيأه لتولى التدريس بالأزهر، ولم يقنع بالعلوم المعروفة والمألوفة فى عصره، بل درس الهندسة والرياضة، وتعمق فى دراسة الفلك، قال فيه الشيخ محمد شهاب الشاعر -وهو من معاصريه:

«إنه كان آية فى حدة النظر وقوة الذكاء، وكان يزورنا أحيانًا ليلاً، ويتناول الكتاب دقيق الخط الذى تصعب قراءته فى شدة ضوء النهار، فيقرأه على ضوء القمر أو السراج الخافت -ويستعير المجلدات الضخمة، ويعيدها بعد أسبوع وقد استوعبها وعلق عليها- ومن صفاته أنه كان طويل القامة واسع الصدر بعيد ما بين المنكبين، أشم أسمر اللون خفيف اللحية، قال فيه الجبرتى: «إنه قطب الفضلاء، وتاج النبلاء، ذو الذكاء المتوقد، والفهم المسترشد، الناظم الناثر، الملم بالعلوم النقلية والعقلية والأدبية بحظ وافر».

عاصر احتلال الفرنسيين لمصر، فاستفاد من علماء الحملة، وارتحل إلى الشام، وأوروبا واتسعت دائرة معارفه وشملت كثيراً من الثقافات العقلية والنقلية، وأنه أجاد كثيراً من اللغات كالتركية والفرنسية، والألبانية، وزار كثيراً من أوطان العرب، حتى عد نموذجًا يحتذى للعالم الأزهرى، المتنوع الثقافات، ويعد بحق رائداً من رواد النهضة الحديثة، تتلمذ على يديه جيل من الرواد: كرفاعة الطهطاوى ومحمد الطنطاوى، وكان شعاره إن بلادنا لابد أن تتغير أحوالها، ويتجدد بها من المعارف ما ليس فيها». . وقد تولى مشيخة الأزهر بعد أن ذاع صيته وذلك فى سنة ١٢٤٦هـ، ١٨٣٠م.

آثاره العملية وتأثيره:

للإمام العطار هوامش كثيرة على كتب الطب غاية فى الروعة، ودرس التشريح، وأتقن الرصد للنجوم، واتصل بعلماء الحملة الفرنسية مع أنه ذهب إلى أسيوط محتجًا عليهم لاحتلالهم البلاد. وكان معه عدد كبير من العلماء، وعانى كثيراً من المتاعب فى حياته- وأثناء تواجده بأسيوط أصاب البلاد مرض الطاعون الذى كان يحصد عشرات الآلاف فى اليوم، فوصفه فى رسالة غاية فى البيان والبلاغة. وعاد للقاهرة بعد أن استقر الأمن، وكان يرى فى مجىء الحملة الفرنسية إلى مصر مكسبًا علميًا، لأنها فتحت عيون العلماء على حقائق علمية كبيرة كانت خافية، وكان يلقى محاضراته فى كل بلد يزوره، وأقبل على دروسه العلماء والطلاب، وأسندت إليه «جريدة الوقائع المصرية» وأعلن رأيه الحر، ودعا إلى إدخال العلوم الحديثة، وحث على الرجوع إلى أمهات الكتب، وعدم الاكتفاء بالحواشى، وهو الذى دعا «رفاعة الطهطاوى» إلى تسجيل كل ما تقع عليه يده من ذخائر الكتب خلال بعثته فى فرنسا -كما شجعه على الترجمة، وأسس «مدرسة الألسن» وعالج علوم الجغرافيا معالجة جديدة، واهتم بالخرائط وكان خلية دائبة يدرس ويصنف المؤلفات ويشرح الكتب، ودفع طلابه وحثهم على الابتعاد عن التراكيب اللغوية العقيمة، وتحرير الكتابة من قيود الصنعة، التى شاعت فى عصور الانحطاط، ورغم ظلم محمد على باشا -وطغيانه- فقد كان يجل الشيخ العطار ويستشيره وأطلق يده فى النهضة العلمية، وجدد فى الشعر العربى، وفتح الطريق

أمام شعـراء النهضة «كالبـارودى وشوقى وحافظ» ومن أهم أمنياته وبـرامجه، أنه نادى بالإفادة من أئمـة العلماء القـدامى، وعدم الاقتـصار على المتـأخرين منهم، المتبـعين للتقليد والمحـاكاة، فقال: «مـن تأمل ما سطرناه وما ذكرناه من التـصدى لتـراجم الأئمة الأعـلام، عـرف أنهم مع رسوخ قـدمـهم فى العلوم الشـرعيـة، والأحكام الدينية، لهم اطلاع على غيرها من العلوم، حـتى فى كتب المخالفين فى العقائد والفروع، وقد انتهى الحال فى زمن وقعنا فيه من تقليد ونقل علوم، وجدنا أن نسبتنا إليهـم كنسبة عامة زمنهم، فإن قصـارى جهدنا هو النقل عنهم بدون أن نخترع شيـئًا من عند أنفسنا، وليتنا نصل إلى هذه المرتبة، بل اقـتصرنا على النظر فى كتب محصورة.

هذه النصيحة الجادة المبكرة تلقفها تلامذته من بعـده أمثال الشيخ محمد عباد الطنطاوى -وتلميذه النابغـة- رفاعة الطهطاوى، ومازال العلماء يتلقفـونها جيلاً بعد جيل، حتى أتت أكلها، وأثمرت ثمـارها فى العصر الحديث، والمثل أمامنا واضح جلى -فى إمـامنا أ. د سـيد طـنطاوى شيخ الأزهر الحـالى، وأسـاتذة جامعـة الأزهر والجامعات الأخرى: ولا ننسى المفكر العظيم الشـيخ الشعراوى وقد طبـقوا تطبـيقًا عـلميًا كل مـا درسوه وجـددوا فيمـا يعالجـون من أبحاث ودراسات حتى ولو تناولت موضوعات قديمـة واجتهدوا فى النصوص الشرعية كى تواكب حياة الناس».

وكان الإمـام العطار إذا بدأ درســه ترك كبـار العلماء حلقـاتهم، وأقبلوا علـيه مستفيدين من علمه ومستزيدين من ثقافاته، حيث قام أيضًا بشرح تفسير البيضاوى وعلق عليه بطريقـة مشوقة جذبت إلى حـلقته كثيـرًا من العلماء والطلاب، ودفع تلميذه رفـاعة الطهطاوى لتدريس الحديـث والسنة بطريقة المحاضرات دون التـقيد بكتاب خـاص أو نص معروف وبذلك أثار الإعـجاب، ولفت نظر الوالى محـمد على باشا فأسند إليـه أمورًا مهمة إضافة إلى تمتـعه بشخصية قوية وعـزيمة صارمة وتمسك بالحـرية وحرية العلم، وأمـا أدبه فقـد كان أديبًـا بارعًا فى النـثر والشـعر والخطابة، وله مؤلفات كثيرة فى كل الفنون والآداب سنوردها لاحقًا. . ومن كلامه فى وصف بعض الشخصيات البغيضة بشعره قائلاً:

إنى لأكره فى الزمان ثلاثة متفاضلاً ... ما إن لها فى عدها من زائد

قرب البخيل وجاهلاً متفاضلاً ... لا يستحى وتودد ابن حاسد

ومن الرزية والبلية أن ترى ... هذه الثلاثة جمعت فى واحد

ولقد أحب أهل مكة الشيخ الإمام العطار ورجوه أن يقيم بينهم ليخلف فيهم ابن حجر الهيتمى كى ينتفعو بعلمه ووضعوا أمامه مميزات ومغريات كثيرة للموافقة.. وسمع تلاميذه بذلك فعلقوا به، وهددوا بترك الدراسة فرجع عن رأيه وبقى فى مصر.

مؤلفاته ومصنفاته:

كان الشيخ الإمام.. واسع المعرفة، عميق الثقافة، غزير الإنتاج، وقد ظهرت آثاره العلمية وشمائله الخلقية فى تلاميذه الأعلام، بوضوح رائع، وللشيخ مؤلفات وآثار كثيرة طواها النسيان، أو تبددت مع ما تبدد من آثار.. ظهر منها ما يزيد على الأربعة والعشرين مؤلفًا نذكر بعضها بإيجاز.. ومن أراد التفصيل فلينظرها:

١- حاشية العطار على الجواهر المنتظمات فى عقود المقولات.

٢- حاشية العطار على التهذيب للإمام الخبيصى.

٣- حاشية العطار على جمع الجوامع فى أصول الفقه.

٤- حاشيته على شرح الأجرومية والسمرقندية.

٥- ديوان العطار يجمع مئات القصائد.

٦- نبذة فى علم الجراحة والطب... إلخ.

وفاته:

كان الشيخ العطار عالمًا جليلاً ذائع الصيت فى مصر وسائر الأقطار، وأديبًا فريدا وشاعرًا مجيدًا حميدًا السجايا متواضعًا، زاهدًا، وجيها أينما وجد.. وقد يخيل أن حياته كانت ناعمة هادئة.. إلا أنه عانى من الأخطار والأسفار، لكن مع كل ذلك تحقق ما كان يصبوا إليه، ولقد لبنى نداء ربه الكريم سنة ١٢٥٠هـ - ١٨٣٤م وحمل إلى مثواه الأخير فى جنازة مهيبة.. فسلام على الإمام العطار فى الأولين والآخرين وسلام عليه يوم يقوم الناس لرب العالمين[١].

---

(١) صوت الأزهر: بقلم وريشة د. عبد الله سلامة خضر ص١٠ فى ١/٦/٢٠٠٧م.

١٧- فضيلة الإمام الشيخ حسن القويسنى

ومازال الكلام متصلاً عن الأزهر ودوره الرائد. إن الذين يكتبون عن الأزهر الشريف، صادقين مخلصين فى كل ما يكتبون ويقولون، ونحن نكن لهم كل تقدير واحترام وحب.. وإنى أكتب عن الأزهر وشيوخه الأجلاء، وإنى لست ندا لأحد من الذين يكتبون حيث لا أساوى بجانبهم شيئًا.. إنما أكتب حبًا وتقديرًا أيضًا لعلى أحظى برفقة رجاله الأبرار.. فالأزهر هو الإشراقة الوضاءة التى حفظت على الدين الإسلامى صفاءه بتقديم العقيدة المبرأة الخالية من الزيف والأهواء، وحفظت على المسلمين سلامة مصادر التشريع.. وإن نسيت.. لا أنس مواقف شيوخه -وإن نسى الناس- يوم وقفوا فى وجه المغول والتتار، والتاريخ خير شاهد على هذه الأحداث، ولو لم يكن للأزهر فى تاريخه إلا هذا لكفاءة عزا وفخراً.

أضف إلى ذلك موقفه أمام نابليون، والإنجليز -كل أملى فى حياتى أن يواصل الأزهر برجاله خطاه، فأمامهم طريق طويل، ومسئوليات يجتازون اليوم أخطر مرحلة فى عصرهم. إن تاريخهم الطويل، لقد تكالب عليهم أعداؤهم، ولم يبق إلا الله والأزهر ورجاله، وهم فاعلون، لأنهم أجدر الناس بإثبات أن الأزهر هو الأزهر المعهود، ورجاله هم الأمل المرتجى، ولهم السمع والطاعة، فإذا قالوا تصغى لهم الدنيا بأكملها، وآن للمسلمين أن يفيقوا وأن يسمعوا ويطيعوا.

إن أسلوب «جامعة السربون» فى فرنسا. وتعتبر من معاهد العلم فى الغرب- إنما أتبعت فى أسلوبها العلمى الذى اشتقته من أسلوب الأزهر، وهو الأسلوب الذى حفظ على الأزهر مكانته، وعلى رجاله منزلتهم، ومن حولهم طلاب العلم المتفتحة عقولهم، لما يتلقونه عن شيوخ أوقفوا حياتهم للعلم وبذلوها عن رضا وسخاء فى سبيل الدفاع عن الإسلام وأهله.

والمتـتبع لتـاريخ الأزهر يرى أن الله سبـحانه -جلت قـدرته- أودع فى الأزهر الشـريف روحًـا غـريبـة فى حـالتى الضـعف والقـوة. . فـإذا ضـعف. أثر فى الجماهير، وتطلعت إليه، وانتظرت فـاعليته فى هذه الأحداث، وتعلقت به وكلها إحساس به!!

وإن قوى، فأعلن وصـرح وأهاب، فإن الجماهير له مطواعـة مستجيـبة منفذة، وما ذلك إلا لأن البـذرة لاتزال حية فى قلوب مـشايخه، وفى قلوب الجمـاهير، والإيمان ساكن فى القلوب دائمًا لا يتـعرض للفناء أبدًا، ولهذا سيظل الأزهر هو الأزهر. مصدر النور والإشعاع، والمحافظة على سلامـة العقيدة، كما تلقيناها من السلف. . وما على رجال الأزهر إلا مـضاعفة الجهد. . وليقـف فى مواجهة كل منحرف عن الصواب وكل مغـالط ومكابر. . فيلاحقه بالحجة تلو الحـجة، والبيان وراء البيان -والدليل أمامنا واضح جليًا. فها هو فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر د. سيد طنطاوى يرد على المكابرين والمغالطين فى الـدين الإسلامى والعقيدة على صفحات الصـحف وأجهزة الإعلام، ووهب نفسه للتـصدى بكل حسم لمحاولات الخروج عن ثوابت الدين والعقيدة والمتطاولون على الرسول والصحابة، وعلى من ألف كتاب «جناية البخارى» للأستاذ زكرا أوزون -وغير ذلك كثير- وكذا الاشتراك والتـفاعل مع الأحـداث على صعـيد العـالم الإسلامى كله. . ويحـذر ويخطط ويدعو وليس غـير ذلك. . لأن هذا قدره الذى قدره الله له. . وأمـام قدر الله لا مفر. . نريد أن نسـمع صوت «الشيخ الخراشى، والشنوانـى - والدمهوجى ونرى إقدام الشرقاوى. . وكل من شرفت بهم ساحات الأزهر، وأعمدته ومبناه، التى لم تستطع حادثات الزمن أن تنال منهم.

ونواصل الحديث عن الإمام السابع عشر الشيخ حسن القويسنى.

نسبه ونشأته وتوليه المشيخة:

هو الإمام بـرهان الدين حسن بن درويش بن عـبد الله بن مطاوع القـويسنى - أفـضل علماء عـصره- ولد الإمـام القويسنى فـى قويسنا وهى قـرية تابعة لمركـز الجعفـرية التابع لمحافظة الغـربية، وهذه القرية أبنيتـها من الآجر، وبها جـامعان

كبيران، ولو أن التاريخ لم يحدثنا عن النشأة الأولى للإمام القويسنى، لكن المعروف والطبيعى أنه حفظ القرآن الكريم فى قريته ثم تقدم للأزهر واندمج مع طلابه، والمشهور أنه كان كفيف البصر. ويلاحظ أن الدراسة وقتها كانت تابعة لإرادة الطالب وظروفه، فهو الذى يختار. الحلقة ويختار شيخه الذى سيدرس عليه مع ترتيب جدولى للمواد والكتب، فلا يدرس الطالب كتابا قبل السابق له والمترتب عليه، وكانت شهادة الشيخ لتلميذه هى الفيصل، ولم تكن الشهادة تعطى كيفما اتفق، وإنما كانت تابعة لمعايير معروفة ومدروسة، أما نسب الشيخ القويسنى ففيه اختلاف. فقد ظهر فى القرن الثالث عشر الهجرى: ثلاثة من العلماء يحملون اسم الشيخ حسن القويسنى، الأول ورد بدون ذكر الأب والجد، وله إجازة خطية بدار الكتب المصرية «مصطلح الحديث» أجاز بها أبا السعود عبد الرحمن الصعيدى الطهطاوى.

الثانى: حسن العلوى بن داود بن عبد الله القويسنى، وله بدار الكتب، استجازه أجاز بها «داود أحمد القلعى».

أما الثالث وهو شيخ الأزهر الإمام برهان الدين حسن بن درويش بن عبد الله بن مطاوع القويسنى المتوفى ١٢٥٤هـ ولا ندرى أيهما يكون الشيخ.. ولا نملك دليلا علميا يحدد شخصيته، ولكنه اشتهر باسم «البرهان القويسنى الشافعى» قال صاحب «كنز الجواهر» أنه عالم عامل تقى، مدقق محقق، وأنه تولى مشيخة الأزهر بعد الإمام «العطار» سنة ١٢٥٠هـ ــ ١٨٣٤م ومكث بها أربع سنين وكان مهيبا جدا قوى الشخصية عند الأمراء وغيرهم، ذا عقل راجح ولسان وذكاء وذهن متوقد ورغبة قوية فى تحصيل العلم والمعارف، وكان لا يسمع حديثا إلا حفظه ولا مقالا إلا وعاه، ورسخ فى ذاكرته، ويعيدة كما هو من غير نقص، والمعروف فى أمثاله ممن حرموا نعمة البصر فتجد فيهم هذه الميزة، مثل: المصرى وبشار، وأحمد بن محسن، وهذا سر من أسرار الله سبحانه وتعالى. ولقد اختاره الوالى باجماع العلماء وعدم وجود من يملأ الفراغ بعد الشيخ «العطار» إلا الشيخ «القويسنى» وهذا يدل على مكانته العلمية.. وزيادة على هذا أنه تتلمذ على شيوخ علماء كبار، منهم «العروسى» والدمهوجى والعطار، وكان رحمه الله زاهدا متصوفا وقورا

عزيز النفس عالى الهمة، مع أنه كان فقيرا معدما، وأراد الوالى أن ينعم عليه بشىء من متاع الدنيا، فأبت نفسه ذل؛ امتدحه كثير من الشعراء. بشعر يفيض فصاحة وبلاغة -ذكر ذلك- صاحب الخطط، وكذا الجواهر.

آثاره العلمية وتأثيره ومصنفاته

تخرج على يد الإمام الشيخ القويسنى -كثير من أعلام العلماء، من أشهرهم الشيخ الباجورى، والذهبى، والبنانى» ومن ألمع تلاميذه- رفاعة الطهطاوى- حيث درس له جمع الجوامع أصول الفقه، ومشارق الأنوار، فى الحديث ومن حفدته الشيخ «حسن القويسنى» شيخ رواق ابن معمر، وربما يكون هو أول الثلاثة الذين أشرنا إليهم فى المقدمة.

وعلى الرغم من كف بصره، فقد كان يزاول مهام منصبه، ويدير شئون الأزهر بكل اقتدار، كما كان يزاوله المبصرون.. وهذا دليل على رعاية الله.

ولقد قمت برسم صورته تخيلا طبقا لهذه الصفات وكما ورد فى سيرته الذاتية ولانشغال الشيخ «القويسنى» بالتدريس لم يتفرغ للتأليف أو التصنيف، ومع ذلك فقد ألف بعض المؤلفات منها»:

١- شرح للسلم -فى المنطق- لمؤلفه عبد الرحمن بن محمد الصغير، وهو مطبوع وله شرح مازال مخطوطا باليد بدار الكتب «نسختان» ٢٨٦٩- ٤١١٤.

٢- سنن القويسنى- منه نسخة خطية بدار الكتب.

٣- رسالة فى المواريث وعلم الفقه.

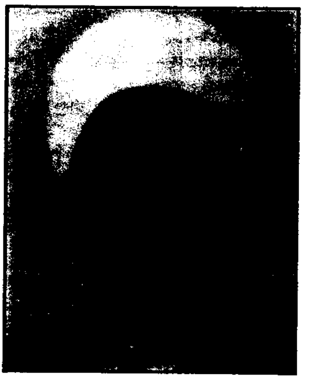
وفاته:

وقد لبى الشيخ «حسن القويسنى» نداء ربه سنة ١٢٥٤هـ- ١٨٣٨م ودفن بمسجد الشيخ على البيومى بعد أن صلى عليه بالأزهر، وأجريت له المراسيم المعتادة لامثاله، تغمده الله برحمته، وأسكنه فسيح جناته، والسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا[١].

---

(١) صوت الأزهر: بقلم وريشة د. عبد الله سلامة نصر ص١٠ فى ٨/٦/٢٠٠٧م.

١٨- فضيلة الإمام الشيخ «أحمد السفطى»



ونواصل الحديث عن دور الأزهر الرائد. فى الأمة الإسلامية.

إن الأزهر الشريف هو معهد العلم وموطنه، وهو فى نفس الوقت رائد التربية الإسلامية حقًا، ولئن كان للعلم والعلماء مكانتهم فى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ فإن للتربية دورها الذى لا يخفى، وكم اهتم الأزهر، ولا يزال يهتم - فإنى أتمنى أن يضاعف علماؤه جهودهم فى ميدان التربية لأنها التطبيق العملى لكل ما يتلقاه علماؤه وطلبته من علم، وهذا ليس كلامى، ولكنه توجيه رسول الله ﷺ الذى قال ما معناه **«الإيمان ما وقر فى الصدر، وصدقه العمل والذى وقر فى الصدر»**.

هو العلم بالدين، وما يترتب عليه، ويؤكد هذا أو يكذبه. هو تصرف المسلم الذى أقر بالشهادتين.

ولا شك أن الأزهر ورجاله على قمة المعاهد الدينية فى العالم الإسلامى كله، وأثره فى المسلمين أبلغ من غيره -والمسلمون جميعًا فى كل الدنيا.. يعرفون أنه إذا قويت مصر، فالعالم الإسلامى هو المستفيد من هذه القوة.. والراسخ والأكيد أن مصر، لن تقوى ماديًا أو أدبيًا إلا إذا قوى الأزهر ورجاله!! وأثر فى كل جوانب الحياة لأن الأزهر هو المنارة الهادية.. والجماهير ترقبه وتتبع خطواته.. فعلى الأزهر أن يتحمل العبء.. بكل همومه وأثقاله، والله جلت قدرته، مانح الأزهر ومن فيه العون التام. على أن يقوموا بتأدية ما كلفوا به من هذه المهمة الغالية. والله ناصرهم.

إن انتشار الفرق والأفكار الحزبية التى تعارض الإسلام فى مصر، تحت شعار -حرية الرأى- هذا الشعار مرفوض، وبعيد عن الحقيقة، ولا منجاة منه.. إلا أن تبرز فاعلية الأزهر فى هذا المجال، وهى: «لا حرية لمخلوق فى مخالفة ما أمر به الخالق». لأن هذه الحرية مدمرة، وتنشر الفوضى بين الناس بدون ضابط ولا رابط.

إن المؤلفات وحدها لا تكفى.. بل مزيد من العمل، الذى يوقف كل متمرد على تعاليم الإسلام «فالحق أحق أن يتبع». وأزهرنا كفيل بأن يؤدى دوره الرائد الفعال فى هذا المجال.

إن اختيار الله سبحانه لبعض عباده أن يكونوا شيوخًا فى الأزهر، اختيار له قدرة، وله عظمته، وكل من هيأه الله لهذا المكان».

ياليت كل طوائف المسلمين ينخرطون تحت لواء الأزهر. ويجتمعون على كلمة سواء، فهم القدوة على مر العصور. وقد يكون فيم كتبت ما لا يرضى. والله وحده الذى يعلم مدى حبى للأزهر ورجاله وتقديرى لهم -وأنا منهم- وبخاصة حبى وتقديرى لشيخه الجليل أ. د. سيد طنطاوى الذى وهب نفسه وحياته وقلمه دفاعًا عن الإسلام والمسلمين. إنى كلما اقتربت منه أشعر بقدر المعاناة و الحمل الثقيل على كاهله.. إنها هموم أمة بأكملها.. مناضلاً من أجلها.. لكن «الله أعلم حيث يجعل رسالته». ونواصل الحديث عن الإمام الثامن عشر للأزهر.

الإمام الثامن عشر الشيخ: أحمد السفطى

نسبته وبيئته ونشأته وتوليته للمشيخة:

هو الصائم القائم العالم الإمام الجليل الشيخ أحمد بن عبد الجواد السفطى الشافعى الأزهرى.. نسبة إلى قرية «سفط» العرفاء، وهى قرية من ضواحى الفشن محافظة بنى سويف، وشهرته أحمد الصائم، والمعلومات عنه قليلة جدًا. وقد يلتبس على الباحثين من كتاب التاريخ، اسمه باسم الشيخ عبد الله بن أحمد الشافعى «السفطى» صاحب العقد الثمين فيما يتعلق بأمهات المؤمنين ألفة سنة ١٢٢٣هـ، اسم الشيخ مصطفى السفطى، المولود سنة ١٢٥٠هـ والمتوفى سنة ١٣٢٧هـ ولا صلة لأحدهم بالآخر وكذلك وإن كان الثلاثة عاشوا فى القرن الثالث عشر الهجرى، فى هذه المسألة: وهى أن الثلاثة كانوا يحملون لقب «السفطى» وأعتقد أن المسألة واضحة الآن، وأصبح التمييز بينهم سهلا».

ولد «الشيخ «السفطى» أوائل القرن الثالث عشر الهجرى، وقدم للأزهر وتلقى العلوم على كبار مشايخه، وفى مقدمتهم الشيخ محمد بن محمد السنباوى الشهير بالأمير الكبير متوفى سنة ١٢٣٢هـ والذى أجازه بجميع ما دونه فى ثبته «راجع

ثبت الأمير» ٧٤٧ -مصطلح الحديث- دار الكتب المصرية- وعلى غيرهم، واشتغل بالتدريس حتى ولى مشيخة الأزهر سنة ١٢٤٥هـ ١٨٣٨هـ وقد هناه الشعراء بتوليه مشيخة الأزهر، والشعراء عادة ما يبالغون فى المدح لأنهم يعبرون عما تجود به مشاعرهم، ومشاعر الجماهير فى معظم الأحوال. وقال بعض الشعراء فى مدحه:

الآن تثبت للهنا ولائم ... ينفى بها لاح ألح ولائم

لا غرو أن خطب العلا بنفوسهم ... قوم هو بين الكرام أكارم

فتمنعت وأبت سواه وأرخت ... وكان الخليق بى -المصلى الصائم

وكان، مشهوراً بالصلاح، وظل شيخًا للأزهر لمدة تسع سنوات، والمصادر لم تعطنا صورة واضحة لحياته، وغير كافية عن أعماله ومصنفاته، ولم يعرف ما هى الأسباب التى من أجلها سلك المؤرخون هذا المسلك، على الرغم من طول مدة جلوسه على كرسى المشيخة --تسع سنين- وهى كافية لتوضيح ذكره ومزاياه وأثاره.

وربما تكون العلة كما حدث مع بعض شيوخ الأزهر السابقين «أنه لا يحب الظهور لكثرة انقطاعه لعبادة ربه».

لقد بلغ الشيخ الإمام «السفطى» مبلغًا ومنزلة كبيرة فى الفقه الشافعى. لم يبلغها أحد من معاصريه، وأن العلماء لم يختاروه للمشيخة من أجل هذه الميزة فقط، وإنما اختاروه لمزايا كثيرة.. منها هذه الميزة، وأنه إذا جن الليل خلا إلى ربه يناجيه ويشكره، وفى الصباح يصوم. متعبداً بالليل صائمًا بالنهار.

ومع هذا كله، فإنه كان يؤدى شئون منصبة فى كفاءة، لأن الله سبحانه يبارك فى وقته ويعينه على أداء عمله، وشأنه فى ذلك شأن كثير من العلماء، الذين تركوا تصانيف كثيرة وموسوعات ضخمة، لو قسمت على سنى حياتهم ما اتسعت لبعضها.

أما الشيوخ الذين تتلمذ عليهم. الشيخ «السفطى» فهم كثيرون.. منهم الشيخ «الشنوانى، والدمهوجى والأمير» فيهم الفقيه، والأديب، والعالم، وأما تلاميذه من بينهم.. الباجورى، والعروسى الحفيد، والعباسى المهدى -وهؤلاء جميعًا قد تقلدوا مشيخة الأزهر.. وما الفوه ينسب له.

وللإمام السفطى مآثر ومزايا متعددة.. منها أنه لبث تسع سنين على كرسى المشيخة، كان حريصًا فيها على رفع شأن الأزهر، وتوفير الكرامة لعلمائه وطلابه.

مصنفاته ومؤلفاته..

لقد أغفلت المصادر ضمن ما أغفلته من تاريخه مؤلفاته، ذكر منها مصنفين:

١- إجازة منه للشيخ أحمد بن محمد الجرجاوى والشهير بالمعرف، كان موجودًا سنة ١٢٦٧هـ أجازه بها بجميع ما تجوز له روايته ممن تلقاه عن أساتذته، ومنهم الشيخ محمد بن أحمد الأمير الكبير «بما فى ثبته» أولها بعد البسلمة «نحمدك اللهم بمحامد لا انقطاع لإسنادها، ونشكرك على النعم يؤذن الحمد بازديادها» وتوجد منه نسخة خطية بخط الشيخ الإمام بتاريخ ٥ ربيع الآخر ١٢٥٤هـ رقم ٥١٢ مصطلح الحديث -دار الكتب المصرية.

٢- إجازة أخرى من الشيخ الإمام «السفطى» أجاز بها الشيخ حسنين أحمد الملط الحنفى، أولها بعد البسملة «نحمدك على نعم لا انقطاع لإسنادها، ونصلى على سيدنا محمد ﷺ هادى الأمة» وآخرها، قد أجزت ولدنا المذكور بما يجوز لى وعنى روايته وما تلقيته من المشايخ. بشرط المراجعة وسؤال أهل العلم، ولا يقدم على شىء إلا بعلم حكم الدين» وتوجد منه نسخة بخط المؤلف الإمام كتبها فى ١٨ محرم سنة ١٢٦٢هـ والشرط الذى اشترطه الإمام فى هذ الإجازة يدل على ورعه وتقواه، وأمانته.. وهذان المصنفان يعبران عما كان للرجل من شأن فى دنيا العلوم والفنون من جهة، وما كان له من التفوق على زملائه وعلماء عصره من مذهب الشافعية من جهة ثانية.

وفاته:

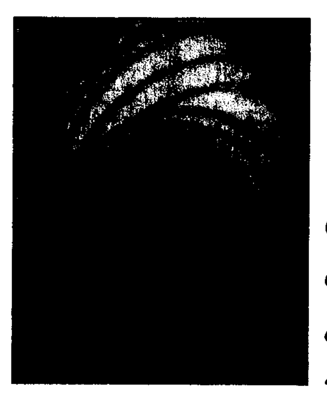
وقد وافاه الأجل المحتوم سنة ١٢٦٣هـ ١٨٤٧هـ فلبى ندا ربه راضيًا مرضيًا، وصلى على فى الأزهر الشريف، ثم دفن بقرافة المجاورين فى جنازة تليق بجلال قدره وحسن عمله، وسار خلفه فى جنازته الخاصة والعامة من الناس. غفر الله له وأسكنه فسيح جناته.

وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيًا[١].

---

(١) صوت الأزهر: بقلم وريشة د. عبد الله سلامة نصر صـ ١٠ فس ١٥/٦/٢٠٠٧م.

١٩- فضيلة الإمام الشيخ إبراهيم الباجورى



ونتابع دور الأزهر الشريف وواجب علمائه الأبرار:

انشغل الناس فى هذه الآونة العامة والخاصة منهم.. ونحن اليوم فى دراستنا لمراجع تاريخ دولة الإسلام، نقدم الشك على اليقين فى كل ما نقرأ ولا نكاد نقطع بالصحة لأى خبر نقرأه، أو نص نلقاه، وما جرى من تشكيك وتضليل وطعن فى كل ما هو إسلامى وعلى الباحث الاتجاه لتاريخ الطبرى لينظر بنفسه ما آل إليه مصير دول الإسلام، والنزاع على الخلافة بين العلويين والعباسيين.

وعلى طول تاريخ المسلمين لم يتورع أى حزب أو طالب سلطان، عن الاستشهاد بالقرآن الكريم لتأييد نفسه، والكيد لأعدائه، الظالم يستشهد بالقرآن والمظلوم يستشهد بالقرآن، وكل منهم يزعم أنه على الحق.. والمصيبة والداهية، أنهم بعيدون عن الصواب، وكلهم يعرف حقيقة نفسه، وإن إخفاها عن الناس.

إن القرآن عظيم، ووقعه فى النفوس عميق، وعندما تبتر الآية أو تؤخذ جمل منها، لتستخدم فى أغراض دنيوية بعيدة عن الدين، ليجرى خلفها السذج والدهماء من الناس.. وقد وقع لنا فى أيامنا هذه، ونالنا منه بلاء عظيم إن القرآن العظيم هدى ونور، ومن الظلم لأنفسنا أن نستخدم الهدى والنور فى تأييد الضلال والجهل وقضايا الجهال.. ونواصل الحديث عن الإمام التاسع عشر للأزهر الشريف.

الشيخ إبراهيم الباجورى نسبه ونشأته وبيئته وتوليته للمشيخة:

هو الإمام الشيخ إبراهيم بن محمد بن أحمد الشافعى الباجورى. نسبة إلى بلدة الباجور، وأشتهر بهذه التسمية، وولد بها سنة ١١٩٨هـ- ١٧٨٤م، وهى إحدى مدن محافظة المنوفية، وصفها صاحب الخطط أنها قرية تقع فى الجنوب الغربى لترعة الباجورية، وبها خمسة جوامع كبيرة.. فى كل واحد منها ضريح

من ينسب إليه، وفيها معامل زجاج وحدائق ذات فواكه، وأسواق، وأرضها تروى من النيل، وتشتهر بزراعة القطن «المنوفى»، وفيها علماء كثيرون تأثر بهم «الباجورى»، منهم والده «البرهان الباجورى»، وهو على هذا نرى أنه نشأ فى بيئة علمية من شأنها إنجاب العلماء والعباقرة، وقد نشأ الباجورى تحت رعاية والده، حيث حفظ القرآن الكريم، وجوده عليه، وقدم إلى الأزهر لطلب العلم سنة ١٢١٢هـ، وترك القاهرة فترة الاحتلال الفرنسى، ثم عاد إليها، ثم جد واجتهد فى طلب العلم وداوم عليه، وتتلمذ على أعلام علماء الأزهر، مثل الشيخ محمد الأمير الذى أجازه بجميع ما ورد فى «ثبته»، وتتلمذ على الشيخ «الشرقاوى -والقويسنى» وهو أكثر الشيوخ الذين داوم معهم فى طلب العلم، وفى وقت قصير ظهرت عليه علامات النبوغ -فدرس ودرَّس للطلاب، وألف فى علوم مختلفة، وكان يقضى وقته من أول النهار حتى العشاء، مع الطلاب يدرس لهم، ويؤلف الكتب، وإذا فرغ من هذا جلس يرتل القرآن بصوت جميل شجى يسعى لسماعه مئات الناس.

وتولى مشيخة الأزهر سنة ١٢٦٣هـ- ١٨٤٧م واستمر فى التدريس مع القيام بشئون المشيخة، وكان يمتاز بالهيبة والوقار، والحرص على كرامة العلماء، وكان السلطان عباس الأول يحضر دروسه أحيانًا كثيرة بالأزهر ويقبل يده.

آثاره العلمية وتأثيره:

وبعد فترة وجيزة تألقت مواهب الشيخ الباجورى وهو ما زال شابًا وشهد له شيوخه بالصدارة فى العلوم المختلفة الإسلامية والعربية والثقافية، فقد تفوق فى العلوم الشرعية وبخاصة الفقه الشافعى الذى كان فيه بحرًا لا ساحل له ولا قرار. ونجمًا ساطعًا فى سماء العلوم الإنسانية وغيرها.

ومن هنا جلس للتدريس فى الأزهر والمدارس التابعة له، وأصبحت له حلقة يؤمها الطلاب من كل مدينة وقرية، ويتوافد عليها العلماء من كل مذهب ومشرب، والسر فى انفراده دون زملائه هو: دقة العبارة والإشارة، وفصاحة اللسان والبيان، وسعة علومه وثقافته المتنوعة، وظل هكذا -بعد توليه المشيخة أيضًا.

وتوالت فى زمنه أحداث كثيرة، فلقد أقعده المرض، وضعف الشيخ «الباجورى» عن إدارة شئون مشيخة الأزهر، وتصريف أمورها -صدر أمر بتعيين أربعة وكلاء لمساعدته على القيام بأعباء وظيفته. واجتمع العلماء، واختاروا كلا من «الشيخ أحمد العدوى -الشيخ إسماعيل الحلبى، والشيخ خليفة الفشنى، والشيخ مصطفى الصاوى».

وجعلوا الشيخ مصطفى العروسى رئيسًا عليهم.. واحترامًا للشيخ الإمام «الباجورى» لم يعين أحد مكانة فى المشيخة حتى لقى ربه.

وقد تخرج على يده طائفة كبيرة من علماء الأزهر -من أبرزهم «رفاعة الطهطاوى» الذى لازمه ودرس عليه- شرح الأشمونى- وتفسير الجلالين وما إلى ذلك.

تصنيفاته ومؤلفاته:

ومصنفات الإمام الباجورى شاهد صدق وواقع حق، على سعة علمه وقد سجلها المؤرخون بأنها تزيد عن الثمانية والعشرين مصنفًا، فى علوم عديدة وثقافات متعددة، ومن أهم كتبه ومؤلفاته.

١- تحفة المريد على جوهر التوحيد، حاشية على متن السنوسية.

٢- حاشية على شرح السعد للعقائد النسفية.

٣- منح الفتاح على ضوء المصباح فى النكاح -فقه شافعى.

٤- تعليق على الكشاف، فى تفسير القرآن الكريم.

٥- الدرر الحسان فيما يحصل به الإسلام والإيمان.

٦- حاشية الباجورى -فقه شافعى.

ومن أراد المزيد من هذه المؤلفات الجيدة فكلها موجودة بدار الكتب المصرية - باسم المؤلف.

وفاته:

لقد كرس فضيلة الشيخ الباجورى حياته من أجل الأزهر ورفعته، حتى أقعده المرض، وحال بينه وبين ما يريد.

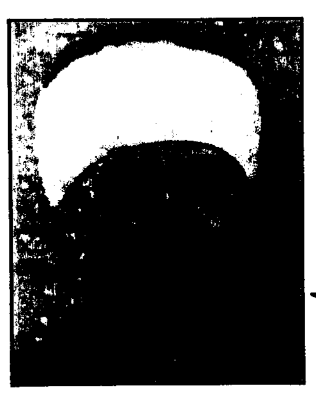
وقد لبى الشيخ الباجورى -نداء ربه سنة ١٢٧٧هـ -١٦٨١م وصلى عليه فى الأزهر، وأجريت له المراسم المعتادة، من قبل زملائه من العلماء وتلاميذه النجباء، ثم حمل على أعناق الرجال فى جنازة مهيبة، تتفق وجهاده فى سبيل رفعة الأزهر وطلابه وعلمائه، وهكذا رحل عالمنا الجليل إلى مثواه الأخير، وهذه هى نهاية كل حى.. بعد أن ملأ الدنيا علما ونورا.

رحمه الله وتغمده بواسع رحمته وأسكنه فسيح جناته وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا(١).

❁❁❁

(١) صوت الأزهر: بقلم وريشة د. عبد الله سلامة نصر صـ١٠ فى ٢٢/٦/٢٠٠٧م.

٢٠- فضيلة الإمام الشيخ مصطفى العروسى



فى المقال السابق وضحنا عدم استعمال آيات القرآن فى المجادلات السياسية ودور الأزهر الرائد فى هذا الصدد، وهنا نوضح أهمية ربط الدنيا بالدين، ونسترشد ببعض كتابات الدكتور محمد عمارة التاريخية، ودور الأزهر -ذلك الجامع والجامعة الذى اقترن قيامه بقيام مدينة القاهرة، وبعد ما كانت مصر ولاية من ولايات الخلافة العثمانية، أصبحت مركزًا للخلافة.. فكانت مركز الإشعاع، والقوة العظيمة المستحقة، للقيام بهذا الدور الجديد بعد بناء الأزهر مباشرة.. وبدأ العلماء بإلقاء الدروس العلمية فيه، وبهذا أصبح الأزهر جامعة علمية ومنارة فكرية، وقبلة للعلماء والطلاب من كل أنحاء الدنيا، بمختلف الأجناس واللغات، والأزهر بهذا وقف.. حاميًا لمصر والإسلام والمسلمين على امتداد القرون، وتوالى الدول، وتغير أنظمة الحكم، وما تبعها على مر السنين والأيام، والأزهر باق يزداد رسوخًا، ويتفاعل دوره ضياء وتوهجًا، لأنه تمسك بعنصرين مهمين: هما كيان هذه الأمة وسبب بقائها، فلقد احتضن الأزهر اللغة العربية لغة الإسلام والمسلمين واحتضن الإسلام نفسه. فبهذا أصبح الحامى والحارس لرسالة الإسلام وكتاب الله، وسنة رسول الله، وعظمت مكانة الأزهر فى حياة الناس وقلوبهم.

وأريد أن أشير إلى نقطة أساسية فى مقالى هذا، طرحتها فى هذا الوقت بالذات، لأوضح: أن الحضارة الغربية والخصوصية الفكرية لها، وبطابعها المادى المتميزة به، أنها غير مفيدة «بالنظرة المؤمنة» للكون، بمعنى أنها تفصل «الدين عن الدنيا -أو الدنيا عن الدين» وتحرير الدولة بأجمعها من الدين، وابعاد كل ما هو دينى، أو المعتقدات الدينية، من طريق العقل فى جميع الميادين، ويريدون إدخال مصر، وجرها وراءهم فى هذا المنطق لأن مصر الأزهر هى الرائد للعرب وللمسلمين، ولتوضيح هذا.. أسوق بعض الأحداث التاريخية لربط الموضوع..

عندما دخل الصليبيون بلادنا مقاتلين مخربين، ليس معهم فكر، وليست لديهم مواهب حضارية، لا يملكون سوى الجهل والحقد والتخريب، وعندما قوى وطننا العربى والإسلامى، وأنجب فرسانا، وأبطالاً، وأخرجوا هؤلاء الغزاة من الوطن مدحورين، لم يترك الصليبيون أى أثر حضارى يدل عليهم، من هنا تعلمت دول الاستعمار درسا خطيراً، من السابقين، فجاءوا معهم بغزو فكرى وعقلى مع الغزو العسكرى أى فرضوا فكر المنتصر، بجانب أدوات الدمار الحربى التى اخترعتها تلك الحضارة، كما فعلت فرنسا بقيادة نابليون، إن الغزو الفكرى أشد آلاف المرات أثرا، من الغزو العسكرى فبأدوات الدمار تفتح الأرض، وتقبض على زمام الدولة، وبالمغامرين ورؤوس الأموال والتجار، يتم نهب ثروات العالم الإسلامى وامتصاص خيراته، وإفقار شبابه.. وبالقواعد العسكرية، يتحول عالمنا إلى «هامش» يحقق الأمن للمحتل، على حساب بلاد الإسلام، وأراد الغرب أن يدخل أفكاره السامة تحت مفهوم كلمة «حضارة» ليصبح الفكر الإسلامى والعربى تحت أسرهم، وينسلخ المسلم عن طابعه الحضارى العربى الإسلامى المتميز، فيتحول هو الآخر إلى هامش للحضارة الأوروبية المنتصرة عليه.

لقد رأى دهاقتة الاحتلال، كى ينجحوا فى سحق الشخصية القومية للعرب والمسلمين، وتحويل هذه الأمة إلى «هامش» لحضارة الغرب.. وهذا هو الضمان لتأييد النهب الاقتصادى لبلادنا، ولتبقى هذه البلاد قواعد لأمن الغرب، حتى بعد زوال الاحتلال المسلح «أنظر العراق وباقى الوطن العربى». وبهذا وقعنا جميعًا تحت الأسر الاختيارى للغرب ومنذ البداية.. كان الأعداء على وعى تام بأن اللغة العربية والدين الإسلامى هما حصن هذه الأمة عبر تاريخها الطويل وخلال كل الصراعات التى خاضتها.. فمنذ ظهور الإسلام عقد التاريخ لواء القيادة للأمة العربية، وتوحد العرب ضد ما فرض عليهم من مخاطر وتحديات، فاتجهت سهام الغرب إلى «العربية والإسلام» واتجهت إلى الحصن الحصين لهما وهو الأزهر الشريف، وكان الدور الرائد الذى قام به الأزهر الشريف فى أخطر ميادين صراع أمتنا ضد الغزو الاستعمارى الحديث.

ونواصل الحديث عن الإمام العشرين مصطفى العروسى شيخ الأزهر.

نسبه وبيئته ونشأته وتوليه للمشيخة:

هو الإمام الشيخ مصطفى بن محمد بن أحمد بن موسى بن داود العروسى ينسب الإمام العروسى وآبائه من قبله إلى منية عروس والآن تسمى «منيل العروس» وهى إحدى القرى التابعة لمركز أشمون محافظة المنوفية وهى قرية عريقة يكفيها فخرا انتماء البيت العروسى إليها.. وهو بيت أنجب ثلاثة أئمة تقلدوا جميعًا مشيخة الأزهر.

أما الإمام «مصطفى العروسى» الذى نحن بصدد الحديث عنه.. فقد ولد بالقاهرة ١٢١٣هـ- ١٧٩٨م وحفظ القرآن على أبيه والتحق بالأزهر وتلقى العلوم المختلفة على كبار علمائه منهم أبوه الذى كان علما من أعلامه وقمة من قممه ومن مشايخه أيضًا الإمام الشيخ «الباجورى -والسفطى- والقويسنى- كلهم تقلدوا منصب شيخ الأزهر» ومن كان هؤلاء هم شيوخه فلا بد أن يكون مثلاً.. فى سعة العلم وتنويع المعرفة وهذا ما حدث.. فقد كان آية فى تفتح الذهن وتألق الموهبة وكثرة التجارب، ولولا عزله الذى لا مبرر له.. من الخديو إسماعيل لجنى الأزهر وأهله أشهى الثمار على يديه، ولبلغت الحركة العلمية غايتها التى لا تدرك.

ولما تقدم بالإمام الباجورى السن وأقعده المرض وكثرت الأحداث فى عهده صدر قرار بإقامة أربعة وكلاء للقيام بأعباء المشيخة يرأسهم الشيخ العروسى وظلت إدارة الأزهر منوطة بهم إلى أن توفى «الباجورى»، وتقلد الشيخ العروسى مشيخة الأزهر ١٢٨١هـ- ١٨٦٤م وكان قد ترك التدريس بالأزهر إلى أن ولى المشيخة فعاد للتدريس.. وكان مشهوراً بالتزام الدقة وقوة الشخصية والحرص على النظام وكانت لا تأخذه فى الحق لومة لائم، فهابه المشايخ، وخافه الطلبة، ومضى فى طريق الإصلاح بعزم وصرامة، فأبطل كثيراً من البدع الشائعة والخرافات فى ذاك العصر وكادت أن تشوه صورة الإسلام وتعاليمه، وتحجبها عن الأبصار من هذه البدع.. إن كثيراً ممن كان يحفظ القرآن اتجهوا للتكسب به بصورة غير مرضية.

وكان فريق آخر يجلسون للتدريس فى الأزهر وليست لديهم الكفاءة لمزاولته فكان يزورهم فى حلقات الدرس ويسمع إليهم ويناقشهم.. ويطرد من ليس كفؤا

للتدريس.. ولا يصلح لهذه الوظيفة.. ولـم يكتف بهذا وإنما عزم على عقد لجنة امتحان لكل من أراد أن يتصدى للتدريس فى الأزهر، والمدارس التابعة له. وهكذا برزت شخصية الرجل وشدة عـزيمته وقوة إرادته وظهر للعلماء والطلاب أنهم فى عهـد جديد لا مكان فـيه للكسـالى والخامليـن، وقد أثار هذا الاتجـاه الإصلاحى نفوس بعض الحـاقدين عليـه.. وخافوا على مـستقـبلهم فبـدأوا بمحاربة الرجل، والوشاية به، وخوفوا المسئولين فى البلاد من جرأته وقوة شخصـيته، وكان يرأس البلاد فى تلك الآونة «الخـديو إسماعيل» الذى كـان يخشى أى ثورة شعبـية ضده نتيجة تورطه فى أخطاء جسيمة والديون التى أوقع فيها مصر.

فقام الخديو بعزل الإمام العـروسى من منصب مشيخة الأزهر، وارتكب الخديو بعمله هذا خطأ جسيمًا لم يسبقه إليه أحد، وكان سببًا فى عزله من الولاية.

ولم تذكر المصـادر التاريخية سـببًا لهـذا العزل غير المسـبوق.. ومن المعلوم أن لمنصب شيخ الأزهر جلاله وهيبته فى نفوس الحكام والشعب وكان قرار العزل أيضًا مفاجأة لم يتوقعها الشيخ نفسه.

وربما يتبادر إلى الأذهان أن العـزل راجع إلى مسألة المتسـولين بالقرآن، ومع ما فعله من امـتحان مـن أراد التدريس بالأزهر من العلماء وغـيرهم مما دفع الجـميع للاتصال بالحكام ليـحموهم من صرامـة الشيخ وحزمه، وهذا رأى غـير مستـقيم بدليل أن الشيـخ الذى أتى بعده وهو الشيخ العـباسى المهـدى قد تمسك بامتـحان العلماء وغيرهم عند التدريس ومنع المتـسولين أيضًا، ونفذ ذلك، لكن المطلع على تاريخ هذه الفتـرة من تاريخ مصر يرى السبب الأول والأخـير هو استبـداد الحاكم الخديو إسماعيل وطغيانه وجبروته وارتكابه كثيرًا من المظالم وهذا بإيعاز من انجلترا وفرنسا ضد الأزهر وشيوخه، وأن الأزهر لن يـقف صامتًا.. والحاكم الطاغية، لا يستريح لوجود شخصيات قوية حوله وشيوخ الأزهر لا يرضون الظلم للشعب ولا بد من خروج المحتلين.. ثم كانت الثورة العرابية ضد الخديو وعزله بعد ذلك.

ولقد بادر الخديو بعـزل الإمام العروسى لما رأى فيه من القوة والتمـسك بتعاليم الإسلام، ومقـاومة البدع والخرافـات، فخاف أن يقوم بثورة شـعبية وبخـاصة بعد وقوع الدولة فى الإفلاس، ثم أتت تعاليم جمال الدين الأفغانى.

آثار العلمية وتأثيره:

إن للأزهر ولشيوخ الأزهر الاحترام والتقـدير فى مصر.. بل العالم كله، وإنها لكبيرة أن يعزل الحاكم كبير شيوخ الإسلام والعالم الإسلامى، والمعروف أن جميع الديانات القائمة الآن تقدر وتـعرف قدر زعمائها الروحيين، فـلا سبيل إلى عزلهم ولا الإساءة إليهم، بأى حال.. والحمد لله إن لمنصب شيخ الأزهر مكانته العظمى فى نفوس المسلمين، فهو قـمة باذخة تتطلع إليها الأنظار.. ونحن نعلم أن للأزهر كرامـته ولا يحـتاج إلى أحـد. فله أوقاف طائلة تغـنيه بحيـث لا تطمع فيـها أى مؤسسة أخرى.

والمعروف أن الشيخ الإمـام مصطفى العروسى درس لكثير مـن الطلبة والعلماء ولو أن المصادر لم تحدد أسماءهم نتيجـة الارتباك السياسى، فى ذاك العصر لكنهم كانوا على نهجه فى سعة العلم والرغبة فى الإصلاح وتطوير الأزهر.

مؤلفاته ومصنفاته:

للشيخ الإمام مصطفى العروسى مؤلفات كثيرة نشير إلى بعضها ومن أراد المزيد منها فلينظرها فى مكانها مطبعة بولاق:

١- حاشية على شرح الشيخ زكريا الأنصارى للرسالة القشيرية فى التصوف فى أربعة أجزاء مطبعة بولاق.

٢- كشف الغمة وتقييد معانى أدعية سيد الأمة.

٣- القول الفصل فى مذهب ذوى الفضل.

٤- العقود الفرائد فى بيان معانى القصائد..

٥- أحكام المفاكهات.

٦- الأنوار البهية.

٧- الفوائد المستحسنة.

٨- الهـداية بالولاية -شـرح آية ﴿وَمَـا أَرْسَلْنَا مِن قَـبْلِكَ مِن رَّسُـولٍ وَلا نَبِيٍّ﴾ [الحج: ٥٢].

وفاته:

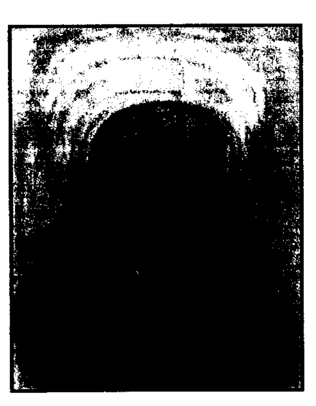
بعد هذه الأحداث الجسام لزم الإمـام الشيخ العروسى منزله، وقد تعرض لألم نفسى لا حد له، وظل فى منزله ست سنوات عجافًا، وهو الرجل صاحب النفس الكبيرة والهمة العالية، لم تثنه الأحداث، ومرت به كل هزيمة، لأنه مؤمن بقضاء الله وقــدرة ومع تضاعف الآلام تضــاعفت وطأة المرض، وانزوت نفـسه، وكـان عزاؤه فى هذا الصـبر والسلوان هو طمعه فى ثواب الله، وحـسن العاقبة وابـتغاء وجه الله الكريم.

والشهادة أن الإمـام العروسى هو أحد هؤلاء الذين جمـعوا بين الخوف من الله والرجاء فيه والعـمل من أجله، ولقد وافته منيته ورحل هذا الجـسد الطاهر النحيل بعد ست سنوات من قعوده فى بيته، وقد صمتت المصادر عن ذكر اليوم الذى لقى فـيه ربـه إلا أنه توفى فى سنة ١٢٩٣هـ- ١٨٧٦م، ولم يذكـر التـاريخ أين دفن؟ وهل صلى عليه فى الأزهر وأجريت له المراسيم المعـتادة؟ على أساس أن عزله كان ظلمًـا وبدون سبب. لكن كل مـدخر له عند الذى لا تضـيع عنده الودائع.. ولا يضيع أجر من أحسن عملاً فسلام على الشيخ العروسى يوم مولده ويوم موته ويوم يبعث حيا وحشره مع الصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا»[1].

❁❁❁

(١) صوت الأزهر: بقلم وريشة د. عبد الله سلامة نصر صـ١٠ فى ٢٩/٦/٢٠٠٧م.

٢١- فضيلة الإمام الشيخ محمد المهدى العباسى



نواصل دور الأزهر الرائد، ودور شيوخه فى الأمة الإسلامية.. وقد أشرنا آنفًا إلى أن الغرب يريد فرض حضارته وتعاليمه على مصر بما فيها الأزهر، لأنه هو أكبر مؤسسة علمية قامت فى الشرق كله قبل كل الجامعات.. وأوعز المستعمر -وما زال حتى عصرنا الحاضر- إلى الحكام بالتدخل فى عزل أو تنصيب شيوخ الأزهر وهذه ظاهرة خطيرة لم تسبق.

ولقد أحكم المحتل قبضته على أجهزة الدولة إداريًا، ونجح فى جعل حضارته هى المعيار ومصدر المشروعية. وبدأ تنفيذ خطته بواسطة أذنابه تحت مسمى «المستشرقون» وكتاباتهم ومؤلفاتهم ودراساتهم التى غزت جامعاتنا الحديثة بأفكار مسمومة وأثرت فى عقليتنا، وفى قوانيننا التشريعية، وفى القضاء، بدلا من «فقه المعاملات» الذى أبدعه علماؤنا، وامتدت أفكار الغرب إلى كل الآداب والفنون، والإعلام بجميع فروعه وبهذا اقتربنا كثيراً من حضارتهم، وابتعدنا كثيراً عن وسطية الإسلام، التى وازنت بين «العقل والنقل» وبين الشريعة والحكمة، وبين كتاب الله والكون، وأضحت صحفنا، وأزياؤنا، وإعلامنا تقليدا أعمى للغرب، وخلعت المرأة عندنا ثوب الحياء، وغيرت صورتها العربية الإسلامية، لتسلك درب المرأة الغربية «المسترجلة» الغارقة فى أدوات الزينة، والشهوة ونشأت الأحزاب السياسية والأنظمة الغربية، وسادت اللهجة العامية فى الحديث والحوار بدلاً من لغة القرآن.. وهكذا شهدت بلادنا موجات طوفانية من الزحف الفكرى، ولوثت به عقول الصفوة من أبناء هذا الوطن فى جامعاتنا التى مشت فى ركاب المستعمر، فظل الأزهر رابضا فى موقعه متحصنا بالعربية والإسلام، مدافعا عنهما، ورافضا لكل ألوان التغريب لأكثر من قرن، ووقفت بجانب الأزهر كل المؤسسات والتنظيمات الرافضة، وجاهدت من أجل الإسلام والدولة الإسلامية، واستطاع المستعمر محاصرة الأزهر رغم نضاله

لكن لفترة وجيزة لقد عاش الأزهر حياة مصر والعروبة والإسلام كائنا حيا يتفاعل معها يقوى بقوتها، ويضعف بضعفها، فلما كانت العصور الوسطى، وسيطر المماليك الأعاجم على الدولة!! ذبلت الحضارة، وتوقف الإبداع الثقافى والفنى.. وتوقف التعليم، وأثر كل ذلك على «العربية والإسلام».

ولما سيطر العثمانيون انحدرت مرحلة التعليم إلى الأسوأ، وضعفت بذلك أسلحة الأزهر، وضعف عن المقاومة نتيجة ما أصاب العثمانيين أيضًا خلال الغزو الصليبى أضف إلى ذلك أن العثمانيين انتزعوا من مصر أبرز صناعها وعلمائها ومبدعيها فى مختلف الفنون والصناعات، وأبرز الفقهاء ونهب التحف والآثار والنفائس، وأخذوا هذا كله اغتصابا إلى تركيا، وتعطلت كل هذه الصناعات فى مصر وانقلب الحال.. وأصاب الأزهر الضعف وذهبت فاعليته.. وأخذ الولاة يتلاعبون بالأزهر، ويفرضون سيطرتهم على شيوخه، وهذا ما سنراه فى الحديث عن الإمام الحادى والعشرين للأزهر الشريف الشيخ المهدى العباسى وما حدث مع سابقه الشيخ العروسى وما سيحدث مع لاحقه.. ونتابع الحديث عن الشيخ محمد المهدى العباسى.

نسبه وبيئته ونشأته وتوليه المشيخة:

هو الإمام الشيخ محمد بن محمد أمين بن محمد المهدى العباسى الحنفى يقول المؤرخون: إنه جد فى طلب العلم وجد فى تحصيله حتى صار أحد فحوله الذين كان يضرب بهم المثل فى تفتح الذهن وسعة العلم وتنوع المعرفة، وأجمع العلماء على ترشيحه ليكون شيخًا للأزهر، لكن الوالى اختار الشيخ «الشنوانى» وأقبلت الدنيا على الرجل وصار من أكبر الأغنياء وكذلك كان ابنه محمد الأمين الذى هو ابن الإمام الذى نتحدث عنه وبصدد البحث عن سيرته الطيبة والحديث عن هذه الأسرة متشعبى الفروع والمكان والوقت لا يتسعان لهذا.. والمراجع موجودة لمزيد من المعرفة.

ولد شيخنا الإمام المهدى العباسى بالإسكندرية ١٢٤٣هـ - ١٨٢٧م وأقام فيها حتى الثانية عشرة من عمره، وفيها حفظ نصف القرآن الكريم وفى سنة ١٢٥٥هـ حضر للقاهرة وحفظ النصف الثانى منه فى الأزهر، وبعد عام واحد التحق بالأزهر الشريف، ودرس العلوم الشرعية واللغوية على مشاهير علمائه منهم الشيخ «السقا، والشيخ خليل الرشيدى».

وكما وصفه المؤرخون أنه ربع القامة أقرب إلى الطول مليح الوجه منور الشيبة معتدل القامة، ذو هيبة ووقار، ومات عن ثروة طائلة ورثها عن أبيه وجده ونماها وكان بيته مفتوحا أمام الجميع ولم تخل مائدته من الطاعمين.

وفى الحادية والعشرين من عمره قلده إبراهيم باشا منصب الإفتاء، وانعقد لذلك مجلس فى القلعة حضره حسن باشا، والشيخ العروسى وغيرهما من العلماء والوجهاء.

وكان المهدى يجمع بين الإفتاء والتدريس، وكان يتمتع بذكاء حاد وبتحصيل وافر من العلم، ولقد كان لتوليته منصب الإفتاء، دافعًا له على القراءة والبحث والدرس حتى بلغ مكان الصدارة بين العلماء، وأصبح جديرًا بمنصب الإفتاء مع التزامه بالأمانة والعفة والدقة، فاشتهر بين الناس بالأمانة والحزم وعدم ممالأة الحكام.

وفى سنة ١٢٨٧هـ- ١٨٧٠م تولى مشيخة الأزهر وجمع بينها وبين وظيفة الإفتاء وذلك فى احتفال بهيج يليق باحترام هذا المنصب أقامه له الخديو.

آثاره العلمية وتأثيره:

وقد خطا الأزهر فى عهد الشيخ المهدى خطوات واسعة على طريق التقدم والازدهار، فقد أعاد رواتب العلماء التى قطعت فى عهد الأمير عباس، وصرفها لمن بقى منهم على قيد الحياة، ومن ماتوا منهم جعلها لورثته الطالبين للعلم والمدرسين.. وكانت هذه الرواتب تصرف من خزانة الدولة.. وأصبح لهذا العمل الطيب من الشيخ المهدى أثره البالغ فى محبته من العلماء والتفافهم حوله.

وكما ذكرنا سابقًا أن التدريس فى الأزهر كان مباحًا لكل من يجد فى نفسه الأهلية له، وهذا أعطى الفرصة لمن يستحق ومن لا يستحق!! فاستصدر المهدى قانونًا لعقد امتحان لكل من يريد التصدى للتدريس فى الأزهر، ووضعت لذلك المناهج والكتب.. ويمتحن الطالب أمام لجنة كبيرة من العلماء بجانب سمعة المدرس الطيبة.. وحسن سلوكه.. والشهادة له بذلك من شيوخه.. وإذا نجح الطالب تكتب له شهادة ترفع للخديو للتوقيع، وتخلع على المدرس خلعة، ويؤذن له بالتدريس فى الأزهر.

وألقت هذه النهضة أشعتها على الأزهر وعلى علمائه، فقد ظهر -جمال الدين الأفغانى- وغيره الكثير وكذا الطلاب من بعده.

والشيخ المهدى لم يتجاوب مع ثورة عرابى.. فعزل عن المشيخة وأحل محله الشيخ الامبابى وبقى الشيخ المهدى مفتيا ثم استقال أخيرًا من الإفتاء ومن المشيخة جميعًا.

ويعتبر الشيخ الإمام المهدى العباسى أول حنفى يتولى مشيخة الأزهر وأول من سن قانون امتحانات التدريس بالأزهر، وأول من جمع بين منصبى الإفتاء والمشيخة فى وقت واحد، وهو أول من عاد إلى شياخة الأزهر مرة أخرى بعد عزله عنها.. من غير استقالة مسبقة ولم يمالئ الحكام فيما يريدون لصالحهم، ويعتبر كل طلاب الأزهر فى عهده هم طلابه وتلاميذه.

وكان الشيخ المهدى صارما فى التمسك بالحق والدفاع عنه، وكان شديد المحافظة على كرامته وكرامة منصبه، ولم يهزه أى تهديد، ولم يحاب بدينه، وأصبح مرجعًا رسميًا للحكومة فى الإفتاء، بعد مناقشة طويلة أمام الخديو ومجلس العلماء.. وقد ولى المهدى الإفتاء حوالى اثنين وخمسين عامًا، وتقلد كرسى المشيخة ثمانية عشر عامًا. وكان دقيقًا فى اختيار القضاة الشرعيين ورجال الإفتاء، ويتحرى فيهم النجابة والذكاء والتقوى والصلاح والعلم، وكان يحميهم من تدخل الحكام ويشد أزرهم، ثم ألفت الحكومة لجنة لاختيارهم من وزارة الحقانية «وزارة العدل» وكان الشيخ يستشار فى عظائم الأمور ومعضلاتها لم ترتق إليه أى شائبة أو شبهة أو خطأ.. كان يراجع الفتوى مرارًا وتكرارًا.. ويدرس الحكم دراسة علمية دقيقة حتى أصبحت لديه ملكة ملهمة فى الإفتاء وبصيرة نافذة فى دقائق الشرع.

تصانيفه:

للشيخ المهدى مصنفات كثيرة لم يطلعنا التاريخ عنها.. منها:

١- الفتاوى المهدية فى الوقائع المصرية.. وتضم علما غزيرًا وثروة فقهية طائلة توجد بالقاهرة ثمانية أجزاء كبيرة، وتعتبر من أهم المصادر فى الإفتاء.

٢- رسالة فى تحقيق ما اشتهر من تلفيق فقه حنفى.

٣- رسالة فى مسألة فقه حنفى.

وفاته:

لقد لازم الإمام المهدى المرض قبل سنوات من وفاته، وامتحنه الله بمرض الفالج وبقى الشيخ بداره فترة حتى أعيد إلى الإفتاء.. وقد وافته منيته الساعة الخامسة من ليلة الأربعاء ١٣ رجب ١٣١٥هـ- ١٨٩٨م عن اثنين وسبعين عامًا وأذن المؤذنون على المآذن إعلاما بوفاته وحزن الناس لوفاته حزنا شديدًا وتكاثرت الوفود والحشود على داره لتشييع جنازته، حتى بلغ عددهم أكثر من ٤٠ ألف رجل، وبلغ عدد المصلين عليه نحو خمسة آلاف ودفن بقرافة المجاورين فى زاوية الشيخ الحفنى إلى جوار أبيه وجده، وشيع إلى مثواه الأخير فى جنازة مهيبة بعد أن أجريت له المراسيم المعتادة لشيوخ الأزهر الشريف، تغمده الله بواسع رحمته وأسكنه فسيح جناته.

ورثاه كثير من شعراء عصره وجمع الشيخ عثمان الموصلى هذه المراثى فى كتاب ورثاه بعضهم بقوله:

عليه دمع الفتاوى بات منحدرا ... وللمحابر حزن ضاق عن حد

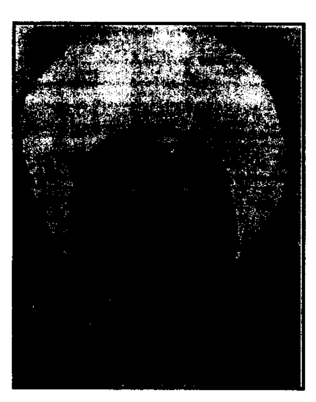
فيها المسائل قد باتت تؤرخه ... مات المجيب الإمام المفتدى المهدى

فسلام عليه فى الأولين والآخرين[1].

❁❁❁

(١) صوت الأزهر: بقلم وريشة د. عبد الله سلامة نصر صـ١٠ فى ٦/ ٧/ ٢٠٠٧م.

٢٢- فضيلة الإمام الشيخ شمس الدين الإنبابى



نواصل دور الأزهر الشريف ودور شيوخه فى رفعة الإسلام والمسلمين.. وإذا بحثنا فى التاريخ وخضنا فيه لوجدناه حزينًا مؤلمًا، وبخاصة مصر دون بلاد المسلمين لأنها درة الشرق، فكانت مطمع الطامعين من الشرق والغرب، فلقد اغتصب سلاطين الأتراك.. النفائس والتحف والآثار، من المساجد والقصور والأضرحة، وحملتها قوافل الجمال إلى الاستانة بتركيا.. وبعد أن كان الأزهر يرسل القضاة من مصر إلى العالم، انعكس الأمر، وأسند القضاء فى مصر إلى العالم، انعكس الأمر، وأسند القضاء فى مصر للأتراك، فأصبح -الحاكم- القاضى والجلاد، وبجهل وحمق دمر العصر العثمانى كل المدارس التى بنيت بمصر فى العصر الأيوبى، وهى التى كانت الامتداد الفكرى والمادى للأزهر.. كل هذا أصبح هباء بسبب التعنت الجاهل.. يقول صاحب الخطط: لقد أهملت المدارس، ونهبت الأوقاف الخاصة بها، وامتنع الصرف على المدرسين، والطلبة فتعطل العلم والتعليم وتركها الطلاب، وعم الاضطراب وتوقفت العلوم، وبيعت الكتب، والرخام والأبواب، والشبابيك، التى كانت تعد من التحف النادرة، وأصبحت الأماكن خرابا - حدث هذا عندما لم يستطع الناس دفع الضرائب، فيهدمون وينهبون كل ثمين، وانعكس الفقر المادى والفكرى الذى تميز به -العصر العثمانى- على الأزهر، فزادت بذلك غربته عن العلوم التى أبدعها السلف، وازدهرت الحضارة فى تلك العهود السابقة، باختصار شديد فلقد توقف الإبداع، وأغلق باب الاجتهاد.. وعندما دخل الاستعمار الغربى غازيًا مصر بقوته وسلاحه وجد الأزهر أشبه ما يكون بفارس مثخن بالجراح، مع تراكم التراب والصدأ، متراكمًا عليه سلاحه ومع ذلك لم يستسلم الأزهر.. وحصن موقعه ضد التغريب، فنجا لأكثر من قرن ونصف تقريبًا، ضد ما هو غربى وضد ثقافته.

والأمر المدهش والمثير للإعجاب.. أن الأزهر فى معركته هذه التى قاوم بها التغريب استخدم كل أسلحته السلبى والإيجابى منها على حد سواء.. فتمسك أغلبية علماء الأزهر بالنقل والنصوص والمأثورات واعتصم بالتراث القديم، بخلاف العلماء الذين اتجهوا لحضارةالغرب، واستخدام العقل فيما لا يضر، ومع رجحان هذه الكفة إلا أن الأزهر حافظ على «العربية والإسلام». لقد كان لهذا الموقف «المحافظ» على القديم والمتسم بالجمود. كما سمى وقتها كان هو المنطق الذى أفرزته ظروف الصراع، فالمحافظة على «الذات» بما فيها من سلبيات خير من فقدها بالكلية، وبقاء القديم على علاته أولى من سيادة ثقافة المستعمر، الذى يهدد بسحق الشخصية القومية وحضارتها.. كان هذا منطق أهل المحافظة على القديم، والوقوف به إلى حد الجمود ضد التغريب وربما يكون منطقًا وجيهًا.. لكن محتاج إلى نظر!

لكن البعض الآخر من علماء الأزهر النابهين والداعين للتجديد والسير فى ركاب الحضارة المفيدة. وذكرنا منهم: الشيخ الشبراوى، والشرقاوى، والعطار وغيرهم.. ظهر لهم أن التمسك بالقديم فيه مخاطر كامنة خطيرة ليست فى صالح الأزهر، ومقاومة الحضارة الغربية ستزيد من توقف الفكر العلمى وهذا ليس من مبادئ الإسلام الداعى للحضارة والتقدم فشرعوا فى وضع مناهج مناسبة وينبهون قومهم إلى ضررة «التجديد» باعتباره هو الطريق الأكثر أمنًا فى الحفاظ على ذاتية الأمة والنجاة بمستقبلها من ذوبانها فى حضارة المحتل الغازى. فرأوا لابد من تقديم البديل الذى ينافس ما يقدمه الغربيين، فنأخذ من حضارتهم ما يفيد، وهذا لا يتعارض مع جوهر الإسلام، وإبداع المسلمين فى عصر الازدهار، فلقد أبصر أعلام التيار التجديدى هذه الحقيقة: وطرحوا عدة تساؤلات:

١- إنك إذا لم تجدد فقه المعاملات وتطوره بالاجتهاد.. فستدفع الناس تحت الضرورة والاحتياج إلى البديل - ستدفعهم لتبنى القوانين الوضعية، على ما فيها من مخالفة للشريعة والدين.

٢- وإذا لم تجدد فى أساليب الكتابة وتطوير «العربية» كى تستوعب فكر العصر وعلومه، فإنها بذلك تفتح الباب واسعًا لدعاة «التغريب» لتدريس العلوم بلغة «الفرنجة» واتباع الغرب وأساليبه فى التعبير.

٣- وإذا نحن لم نجدد فى فكرنا الإسلامى وتخليصه من سذاجة العصور المظلمة، وخرافاتها، فإن الغرب سيستولى على عقول الناشئة من أبنائنا ودخولهم فى «اللادينية» وهناك أمور كثيرة قديمة لابد من تغييرها، لتتقدم بها أمتنا، ولا نستطيع حصرها هنا.

وهكذا فكر المجددون من علماء الأزهر، وسارعوا للوقوف ضد تيار المحافظة والقديم، وتعرض لهذا الأمر الكثير من العلماء والكتاب.. ونواصل الحديث عن فضيلة الإمام الشيخ شمس الدين محمد بن محمد الإنبابى.

«نسبه.. نشأته.. بيئته.. توليته المشيخة»:

هو الإمام الشيخ شمس الدين محمد بن محمد بن حسين الانبابى الفقيه الشافعى، وهو منسوب إلى بلدة «أنبابه» بفتح الهمزة وضمها، «أنبوبة» من مادة «نب» وذلك لما يزرع فيها من العصب، فإن الأنبوبة ما بين عقدتين منه. والمعروفة الان باسم «إمبابة» وتقع على الشاطئ الغربى للنيل فى مواجهة الزمالك.. وهى تابعة لمحافظة الجيزة وعلماؤها كثيرون، ونسب الشيخ إلى «أنبابة» لأن والده عاش فيها فترة من حياته، وكان والده من كبار التجار، فورث عنه حبه للتجارة، ولكن تابع الدراسة فيها، وكانت له وكالة لتجارة الأقمشة وهى الغورية حتى الان وتعرف باسمه.

ولد بالقاهرة سنة ١٢٤٠هـ ١٩٨٢م بدأ حياته كصبية عصره يحفظ القرآن الكريم وبعض المتون، ثم بدأ دراسته بالأزهر سنة ١٢٥٣هـ وتتلمذ على كبار شيوخه، فاذنوا له بالتدريس فى الأزهر والمدارس التابعة له، وذلك لما كان يمتاز به من العلم الغزير، ومن حسن الإلقاء وجودة التعبير، وكانت له حلقة كبيرة يتوافد عليها الطلاب والعلماء على السواء، وتقول المصادر إنه بدأ دروسه بالنحو وبالكتب الصغيرة أولاً ثم أخذ يتدرج حتى وصل إلى الموسوعات.. وكان لا يدرس كتابًا حتى يكتب عنه تقريرًا مساويًا له فى حجمه.. وأنه كان خيرًا سمح السجاياكريم الخلق يقابل السيئة بالحسنة، إلا لو كان شيئًا يمس الأزهر.. مشهورًا بالتقوى والصلاح وحب الخير، معينًا للضعفاء والمحتاجين.

وفى يوم الأحد ١٩ محرم سنة ١٢٩٩هـ ١٨٨٢م. تم تعينه شيخًا للأزهر، وهذا أثناء الثورة العرابية، وأنعم عليه السلطان عبد الحميد، برتبة شرفية، ولم

تطل مدته فى المشيخة حيث قدم استقالته، على إثر حوادث ثورة، «عرابى» وفى يوم ٣ ربيع أول ١٣٠٤هـ صدر قرار بتعيينه مرة ثانية شيخًا للأزهر، وظل بها تسع سنوات، حتى استقال منها لظروف صحية ٢٥ ذى الحجة ١٣١٢هـ وكرمه الخديو عباس وأرسل إليه رسالة رقيقة يشكره فيها وفى أثناء ولايته الثانية للمشيخة أنعم عليه الخديو عباس بالنيشان العثمانى من الدرجة الأولى.

أثاره العلمية وتأثيره:

على الرغم من أنه لم يكن مؤيدًا للحركة الإصلاحية التى كان يدعو إليها: «المهدى العباسى، والأفغانى والشيخ العروسى ومحمد عبده، وغيرهم، ويرى أنه ينبغى أن يكون التدريس فى الأزهر وفى المدارس التابعة له.. «مقصوراً على العلوم اللغوية والدينية»، فإنه لم يكن يرفضها تماما، وإنما كان يرى أنها من فروض الكفاية التى إذا قام بها البعض سقطت عن الجميع.. ومع ذلك، فقد أفتى بجواز دراسة العلوم الحديثة.. وكان الشيوخ يحرمونها، وتعد هذه أيضًا من مكارهه.. والشيخ الأنبابى باشر وظائف كثيرة، منها: أمانة الفتوى فى عهد الشيخ «العروسى» والوكالة عنه، فى إدارة الأزهر وغيره، وتعيينه رئيسًا لعلماء المذهب «الشافعى» بعد وفاة الشيخ «السقا».

وأما تلاميذه فهم كثيرون من خيرة علماء الأزهر وطلابه فى زمنه، وما ذلك إلا لكثرة علومه، وخلوها من التعقيد.

ومن تلامذته على سبيل المثال: الأئمة «حسونة النواوى، وأبو الفضل الجيزاوى وعلى البلاوى»، وهؤلاء تولوا مشيخة الأزهر، وغيرهم كثير.

مصنفاته ومؤلفاته:

لقد ترك الإمام، «الأنبابى» ثروة علمية عظيمة فى شتى العلوم والفنون المعروفة فى ذاك الوقت.. فلم يكن يترك كتابًا من الكتب الدراسية المشهورة إلا علق عليه بالشرح والحاشية والتقرير.. يقول صاحب «مر آة العصر» «كل هذه الرسائل والحواشى والتقارير.. أتت بجليل الفوائد، ودلت على غزارة مادة واضعها وسعة اطلاعه».

كما ترك ثروة مالية طائلة.. أوقفهـا على وجوه الخير، كذلك ترك ثروة علمية فيها خير كثير.

هذه المصنفات تزيد عن تسـعة وأربعين مصنفًـا، إضافة إلى الرسائـل وفتاوى فقهية عديدة، ومن أرادها فلينظرها.. نذكر بعض مصنفاته بإيجاز:

١- شرح شذور الذهب.

٢- تقرير على حاشية السجاعى، على شرح قطر الندى فى النحو.

٣- تقرير على حاشية «العطار» الأزهرية.

٤- تقرير على حاشية الصبان، على شرح الأشمونى.

٥- مختصر السنوسى «رسالة فى شرحه».

٦- رسالة فى مداوات مرض الطاعون.

وفاته:

فى أخريات حياته: أصيب الشـيخ الإمبابى بالشلل، فقدم استقالتـه من مشيخة الأزهر لعدم تمـكنه من القيام بـعمله، وجلس فى بيـته، وعكف على قـراءة كتب الصحاح وعلى كتاب الشفاء فى السيرة النبـوية، للقاضى عياض - حتى آتته منيته ليلة السبت ٢١ شوال سنة ١٣١٣هـ ١٨٩٦م عن عمر يناهز الرابـعة والسبعين وقد وقف مكتبته وما يملك من عقار فى وجوه الخير.

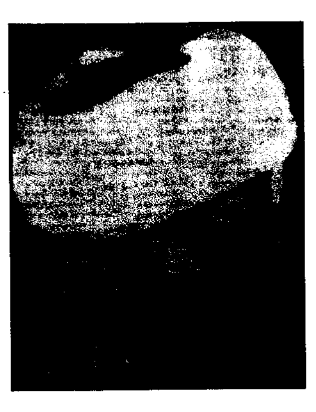
ودفن بقرافة المجاورين، وقـد حزن الناس عليه كثيرًا، بخاصة جـمهور العلماء وقد رثاه. الشعراء، بقصائد عديدة.

وشيع إلى مثـواه الأخير، فى جنازة مهـيبة، بعد أن أجريت لـه المراسم المعتادة لشيوخ الأزهر، والعلماء الكبار، غفر الله له.. وأسكنه فسيح جناته[١].

❁❁❁

(١) صوت الأزهر: بقلم وريشة د. عبد الله سلامة نصر صـ١٠ فى ١٣/ ٧/ ٢٠٠٧م.

٢٣- فضيلة الإمام الشيخ حسونة النواوى



ومـواصلة لدور الأزهر الشـريف وريادته للأمـة الإسلامـية والإسلام، وشيـوخه الأعلام وجـهودهم فى المنهج الحضارى للأزهر نقـول إنه قد دبت بوادر التجديد على يد المشايخ «العطار والإنبابى والشبراوى» والناظر فى تاريخ العصر المغولى يرى أنه أثر فى الأزهر تأثـيراً كبيراً، وكان العلماء ولهم عذرهم، مضـطرين أن يجتمعوا بكل لهفة على ما لديهم من المعلومات، خـوفًا عليها الضياع، بعد أن دمرت كـتب التراث، بالإحراق والإغـراق، شرقًا وغربًا فلجأ علماء الأزهر إلى إيجاز هذه العلوم فى متـون شديدة الاختصار والتركيز، لا تفهم إلا بالشرح، ثم جمعوا فى شـروحهم ما يتصل بالموضوع أو لا يتصل، لكن الهدف حل ألفـاظ المتون بجانب بعض الموسـوعات العلميـة المنوعة، منظمة أو غـير منظمة.. وبعـض كتب التراجم والتـاريخ، وتأصل هذا -وللأسف فى الأزهر- ولم يستفد من العلوم والثـقافات الجديدة، فبقى محصـوراً فى دائرة محدودة من الجديدة، فبقى محصوراً فى دائرة محدودة مـن كتب وعلوم معينة، ولم ينظر للنهضة الأوروبية لكن فى عهـد بعض شيوخـه انبعثت على فكر جـديد، بل إن بعض الأزهريين كانوا ينظرون إلى الشـيوخ الذين بعـثوا إلى باريس نظرة ريبـة واستـهتـار.. والذين نظروا للتجديد قلة، ولقد حدثت مجادلات عنيفة بين الشيخ المهدى العباسى المستنير الفكر، وأخرين المتـمسكين بالقديم، وكـما ذكرنا، أن من المجـددين الشيخ المهدى العـباسى الإمام الثانى والـعشرين للأزهر ثم بعد ٣٥ عـامًا، أتى الشيخ «المراغى» أشهـر شيوخ الأزهر المجددين وأقـواهم شخـصية وكـان الجو الأزهرى قـد تغير كـثيـراً، وجذور الإصلاح قد بدأت فى عهد الشيخ محمد عبده وسنذكر هذا فى حينه بإذن الله.

والشيخ الإمـام «العطار» بين لنا أن تيار التـجديد مهم جـداً، وأن الإسلام هو أصل هذه الحضـارة، وأنها مهـمة أيضًـا لفهم علوم الشريعـة، وإذا تأملنا فى فكر

علمائنا السابقين نجد أنهم كانوا مع رسوخ قدمهم فى العلوم الشرعية لهم اطلاع كامل على العلوم الأخرى لدرجة أن المخالفين فى العقائد كتبوا عن الشيخ العطار إلا نقف عند العلوم -النقلية- ويكون هذا قصارى ما نصل إليه.. بل يجب أن نبتكر ونخترع شيئًا يفيد حالة العصر، وتطوره، ولا يقف النظر عند كتب نكررها طول عمرنا، ولا ننظر فى غيرها.

ولقد وعى -رفاعة الطهطاوى- تراث أمته، وعرف أن العلماء فى تراثنا الحضارى لم يكونوا هم الفقهاء فقط.. بل يجب امتزاج علوم الحضارة بعلوم الشريعة، فالأزهر هو الوحيد والكفيل بتحقيق الآمال، ومعرفة سائر العلوم البشرية.

واليوم وبعد قرن ونصف القرن من الطهطاوى نتساءل: ترى لو وضعت أفكار الرجل فى ميزان التطبيق أكان هناك مجال لما حدث؟! فى ازدواجية مؤسساتها التعليمية التى أتاحت للغرب نصيب الأسد فى فرض ثقافاته..

ونواصل الحديث عن الإمام الثالث والعشرين للأزهر.

فضيلة الشيخ حسونة عبد الله النواوى الحنفى.

ولد الشيخ حسونة النواوى ١٢٥٥هـ ١٨٣٩م فى بلدة «نواى» من أعمال مركز ملوى وقد نسب إلى بلدة «نواى» حيث نشأ وتربى فيها وهى من قرى صعيد مصر وحفظ نصف القرآن توطئة وتمهيدًا للالتحاق بالأزهر.. حيث إن الأزهر وقتها كان لا يشترط حفظ القرآن كله للقبول به، وكان يطالب بإكمال حفظه بعد الالتحاق.. وارتحل إلى القاهرة وتقدم للأزهر، وانخرط ضمن طلابه، ودرس العلوم على مشاهير علمائه، ومنهم الشيخ «الإنبابى» فدرس عليه «المعقول - فى المنطق والفلسفة» والشيخ عبد الرحمن البحرى، فتلقى عنه الفقه الحنفى وغيرهما كثير، وتميز بقوة الجد والتحصيل، وظهرت عليه علامات النجابة والذكاء، وهو مازال صغير السن، ولما فرغ من الدراسة جلس لتدريس أمهات الكتب العلمية، فأقبلت عليه جموع الطلاب ولفت إليه الأنظار، فاختاره القائمون على الأزهر فعينوه لتدريس الفقه فى جامع محمد على بالقلعة، واسترعى انتباه القائمين على نظارة المعارف «وزارة التربية والتعليم» فعينوه إلى جانب عمله بالمسجد أستاذًا للفقه بدار

العلوم ودراسة الحقوق -كلية الحقوق- وكلية دار العلوم، فقام بعمله خير قيام، وكانت له وظيفتان أخريان، الافتاء، وعضوية المجلس الأعلى للمحاكم الشرعية، وتولى مشيخة الأزهر بعد مرض الشيخ «الإنبابى» انتدب الخديو الشيخ «النواوى» وكيلاً للأزهر، ثم صدر قرار بعد ذلك بتعيينه شيخًا للأزهر ١٣١٣هـ ١٨٩٦م ثم تولى الإفتاء ١٣١٥هـ ثم عضوا فى المجلس العالى بالمحكمة الشرعية مع بقائه شيخًا للأزهر، ولقد صدر قرار الخديو بإبعاده عن مشيخة الأزهر، وذلك بسبب وقوفه ضد الخديو لأجل إصلاح المحاكم الشرعية، وضد القانون الصادر بذلك إضافة إلى منع الذهاب للحج احتجاجًا بوجود وباء أنذاك، وهناك أمر آخر وهو الخلاف بين رئاسة الوزراء والوزراء وبين الشيخ وشاع الخبر، وأقبل العلماء وزعماء الشعب، على دار الإمام الشيخ «حسونة» أفواجًا يلهجون بفضله، وتمسكه بدينه، ووقوفه بصلابة ضد الطغيان، وحفاظًا على حرمة الأزهر، وكرامة رجال الدين.

وإن البدعة التى افتراها الخديو إسماعيل وهى خلع شيخ الأزهر جعلت الحكام يستهينون بهذا المنصب الكبير، وقد حاول الخديو حمل الشيخ على قبول اقتراح تعديل المحاكم الشرعية فأبى الشيخ بشدة وصلابة.. فتألم الخديو لذلك، فأصدر قرار بعزله وتولية ابن عمه، عبد الرحمن النواوى، مشيخة الأزهر، وتوفى خلال شهر من ولايته للمشيخة، فعين الخديو الشيخ سليم البشرى، لكنه استقال بعد ثلاث سنوات من منصبه وهكذا ظل منصب شيخ الأزهر فى تأرجح مؤلم ومؤسف، ثم أعيد الشيخ الإمام «حسونة النواوى» إلى رئاسة مشيخة الأزهر ١٣٢٤هـ، لكنه سرعان ما آثر ترك المنصب بعد وقت قليل لاختلال الأحوال ويأسه من الإصلاح فاستقال ١٣٢٧هـ وعلى هذا فلقد تقلد مشيخة الأزهر مرتين الأولى ١٣١٣هـ والثانية ١٣٢٤هـ.

آثاره العلمية ومكانته وتأثيره

لقد عاش الشيخ حسونة النواوى، حياة كريمة، ولم يعهد عليه ما يشين دينه ودنياه، بل عرف بالعفة وعلو الهمة ونقاء اليد، ووقوفه أمام الحكام مواقف كريمة ولم يتملقهم، ولقد كان الشيخ من أبرز الداعين لإصلاح الأزهر، وإدخال العلوم الحديثة إليه، وكان الجو مهيأ له، فقد ظهر فى مصر «جمال الدين الأفغانى ومحمد

عبـده» ووافقهـما الشـيخ النواوى لهذا النداء، وبدأ يدرس نظام الأزهر وأوضـاعه وانتهت هذه الدراسة بمشـروع شامل صدر به قانون اشتمل على ٦٢ مـادة فى ستة أبواب «انظر كنز الجواهر والأعلام للزركلى»، ولقد كان لوجود الشيخ محمد عبده ضمن أعـضاء مجلس الإدارة، وتعاونه المخلـص مع الشيخ النواوى أثره فى وضع قـواعد للانتسـاب والانتظام، وأحقـيـة العلماء والـطلاب فى المرتبات والأجـور والمكافأت وتنسيق قواعد التدريس والإجـازات العلمية، وإدخال العلوم الحديثة من الرياضة والهندسة وغيرها إلى رحاب الأزهر مرة ثانية، وكانت قد هجرته منذ زمن طويل وبقيت مقتصرة على العلوم الشـرعية واللغوية، وبإدخال هذه العلوم أعادت للأزهر منزلته المرموقة للأخذ بشئون الدين والدنيا.

وعلى الرغم من الفوائد الجليلة من دخـول العلوم الحديثة للأزهر، فـقد كانت المعارضـة لها شديدة وحـجة المعارضـين والمانعين.. هى الخوف على هذا المعـهد العالمى، الذى كرس حياته الطويلة، لحراسة الدين واللغة أن يصبح مدرسة لترويج المعارف الغربية ونشـر حضارتها، ولهذا خصصت جـوائز سخية لمن يدرس العلوم الحديثـة، وأنشأ الرواق العبـاسى من ثلاثة طوابق واشتمـل هذا الرواق على سائر الخدمات من «إدارة، خدمات طبية، أماكن أمن، مكتبة، مكان للإدارة».

وأصبحت مـصابيح الأزهر تضاء بالغاز بدلاً من الزيت فـكانت أزهر ضياء.. وهكذا بلغ الأزهر فى عهد النواوى مبـلغًا عظيمًا من التقدم والرفعة وكـثر الإقبال على الأزهر من شتى أنحـاء العالم ومنح وسام العلوم والفنون من الطبـقة الأولى بمناسبة الاحتفال بالعيد الألفى للأزهر.

مصنفاته:

على الرغم مما لاقـاه الشـيـخ حسـونة الـنواوى من مـحن وشـدائد من الولاة والحكام.. من ولاية للمشيخة ثم عزل ثم ولاية على الرغم من هذا، فإنه ترك لنا مصنفات كثيرة وصلنا بعضها منها:

١- سلم المسترشـدين فى أحكام الفقه والدين.. وقد لفـت الأنظار إليه خارج الأزهر فقـررت نظارة المعارف «الـتربية والتـعليم» تدريسـه على طلاب مدارسـها

والكتاب عبارة عن جزئين جمع فيه الأصول الشرعية مع الرقائق الفقهية بإيضاح شاف وكذا المدارس الأميرية قد درسته لتلاميذها.

٢- وله غير هذا الكتاب كتب عديدة ورسائل كثيرة وكلها جيدة الصنع.

٣- قانون تنظيم الأزهر ويعده الباحثون من الذين صاغوا اللجنة الفنية أنه مهم جدًا.

٤- ولقد نبغ من تلاميذه لفيف من نجباء الطلاب وتولوا مناصب كبرى فى الإدارة والقضاء الشرعى.

٥- أنشأ مكتبة الأزهر والرواق العباسى.

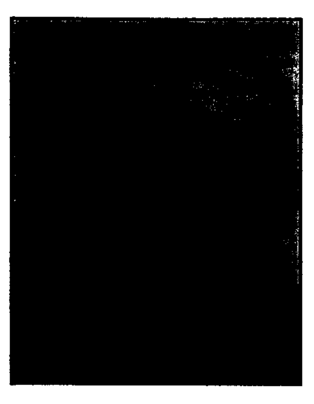
وفاته:

ولزم الإمام الشيخ حسونة النواوى داره حيث يلتقى بأصحابه وأنصاره ومحبيه حتى لقى ربه راضيًا مرضيًا فى صباح يوم الأحد الموافق ٢٤ شوال ١٣٤٣هـ ١٩٢٤م ودفن بقرافة المجاورين، وحزن الناس عليه كثيرًا، وصلى عليه بالأزهر وأجريت له المراسم الرسمية، وشيع إلى مثواه الأخير فى جنازة مهيبة حضرها الخاصة والعامة من جمهور العلماء فجزاه الله أحسن الجزاء.. ﴿**يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي**﴾ [الفجر: ٢٧ - ٣٠]. وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيًا[١].

❁❁❁

(١) صوت الأزهر: بقلم وريشة د. عبد الله سلامة نصر صـ١٠، فى ٢٠/ ٧/ ٢٠٠٧م.

٢٤- فضيلة الإمام الشيخ عبد الرحمن القطب النواوى



نواصل الحديث عن دور الأزهر الرائد، ودور شيوخه الأجلاء فى رفعة الإسلام والعلم، حتى لا يقع القانون المصرى والقضاء تحت تأثير القانون الأجنبى، ولم يستطيع الأزهر أن يحافظ على الاستمرار فى ربط تيار الاجتهاد الفقهى الذى يجعل الشريعة تلبى احتياجات العصر، لأن الدولة استجابت لتأثيرات الحضارة الغربية، وكان «الطهطاوى» وقتها فى فرنسا، فطلبت منه الدولة أن يترجم القانون الفرنسى ليحتكم إليه الشعب المصرى وغيره، ولكن الطهطاوى، كتب ليذكر مصر كلها. والأزهر - بتراثهم الإسلامى فى فقه المعاملات، ويدعو إلى تطوره، بالاجتهاد كى يلبى احتياجات العصر، فلا يجب أن نقع تحت تأثير القوانين الغربية التى لا تناسب ديننا الحنيف.. قال: «لو انتظما المعاملات الفقهية وجرى العمل بها، لما أخلت بالحقوق.. وتشريعنا صالح لكل زمان ومكان، وسهل العمل به لكل من وفقه الله لذلك من ولاة الأمر المستيقظين، وإن من دقق النظر فى كتب الفقه الإسلامى، ظهر له أنها لا تخلو من تنظيم الوسائل النافعة.. من المنافع العمومية. فتوجد فيه أبواب المعاملات الشرعية.. فى التجارة مثلاً الشركة -والمضاربة- والقرض إلخ. وعلى هذا.. فلسنا فى حاجة إلى قانون الغرب.. والإسلام وضع القواعد السليمة لكل أمور الدين والدنيا معًا. والرجل كان صريحًا فى دعوته فى الاستفادة من الحضارة الغربية فيما يتفق وإسلامنا والمحافظة على تميزنا «الفكرى والثقافى» ويجب أن نبتعد عن فكر الغرب «المادى» المنكر للوحى والشرع، لأن هذا أمر خطير جدًا، فلا نقع فيه، وضلال الغرب المخالف لسائر الكتب السماوية.. ولو تتبعنا الغرب فى فلسفته هذه التى يحاول أن يضع لها أدلة تؤيدها.. لكنها كلها أدلة محشوة بالبدع والضلالات، وليس لنا أن نعتمد على ما يحسنه «العقل» أو يقبحه كما كانت

تقول بعض الفرق فى كتب التوحيد، فما حسنه العقل فهو حسن، وما قبحه فهو قبيح، إنه خطأ فاحش فالعقل يخضع أحيانًا كثيرة لرغبات الإنسان فما يستحسنه اليوم يراه قبيحًا غدًا. فالاعتماد الصحيح على ما يراه الشرع -حسنًا وقبحًا- فتحسين النواميس الطبيعية لا يعتد به. إلا إذا قرره الشرع.

و«العقل» المراد به هنا وتحسينه وتقبيحه للأشياء هو العقل الغربى المنكر للنقل - القرآن والسنة، لأنه لا يحترم وجود الوحى -لكن العقل الذى يريده الإسلام، والدائرة التى يتحرك فيها، أنه العقل الذى ارتبط بالنقل، وتآخى معه فى هداية الإنسان، هذا الذى تتميز به حضارتنا وثقافتنا الإسلامية، والتى يجب علينا أن لا نتخلى عنها أبدا.

ولقد كان «محمد عبده» من أبرز أعلام التيار التجديدى فى تاريخنا الحديث.. ومصر وقتها واضحة تحت نير الاحتلال الإنجليزى، ومن النتاج الطبيعى أن يقلد المهزوم المنتصر عليه تقليدًا أعمى، بخاصة -الشكليات والسلبيات وهذا أمر خطير أيضًا- حيث عجز تيار «المحافظين على القديم» أمام سلطة الاحتلال وتيار المدنية الزائفة، وأصبحنا أمام «موقفين: قديم جامد -وحضارى يتناقض مع مبادئنا - فلابد من موقف ثالث: نادى به «محمد عبده» وهو:

١- تحرير الفكر من قيد التقليد، وفهم الدين على طريقة السلف. قبل ظهور الخلاف، والرجوع إلى المصدر الأصلى، وهو التشريع الإسلامى، والموازنة بينه وبين «العقل» صديق العلم، الباحث فى أسرار الكون.

٢- إصلاح أساليب اللغة العربية وتحريرها.

٣- التمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب وبين ما للشعب عليها من حقوق العدالة.

وتأسيس النهضة الحضارية على الدين لا يعنى الوقوف على علوم الشريعة وحدودها.. وعلى ولاة أمور المسلمين تجديد الدين والدنيا معًا.. وبهذا ينهض المسلمون.

هذه صفحات مشرقة من مطالب شيوخ الأزهر وما سجله تاريخهم العظيم.. ولقد كان للأزهر فى هذا الميدان شرف الرفض والمقاومة.. وشارك فى الحالتين من

أبنائه «المجددون والمحافظون» وهذا ما سنرى جزءا منه فى حديثنا عن الإمام الشيخ «عبد الرحمن القطب النواوى».

نسبه ونشأته وبيئته وتوليته المشيخة:

هو الإمام الشيخ عبد الرحمن القطب النواوى.. وهو من أقارب الشيخ الإمام «حسونة النواوى» السابق ذكره «ابن عمه» وكلاهما من بلد واحد، وينتسبان إليه، وكلاهما ولد سنة ١٢٥٥هـ ١٨٢٩م.

وقد ولد الشيخ «عبد الرحمن» بقرية «نواى» حفظ القرآن الكريم فى هذه القرية، ورحل للأزهر وأكمل حفظ القرآن الكريم، وأكب على تحصيل العلم ومواصلة مذاكرة دروسه بجد واجتهاد حتى شهد له العلماء بالنبوغ والتفوق. ولم يتصدر للتدريس فى الأزهر والمدارس التابعة له. وإنما آثر الوظائف العامة خارج الأزهر، ويعتبر الشيخ «النواوى» من شيوخ الأزهر الذين لم ينصفهم التاريخ وقد تتلمذ على كبار مشاريخ العلماء فى عصره، أمثال: الشيخ عبد الرحمن البحراوى، والشيخ إبراهيم السقا، والشيخ الإنبابى، والشيخ عليش، وغيرهم.

ومن المعروف أن مشيخة الأزهر. قد نشأت على أيدى العثمانيين، وأنها قد أحيطت من قبلهم بهالة كبيرة من الأبهة والجلال -وذلك تقديرًا للعلم والعلماء. وأن اختيار من يتقلدها كان مرجعه «أن يترشح من قبل لجنة كبيرة من العلماء، وأن أولياء الأمور والأمراء لم يكن لهم دخل فيها -غير أنهم يضعون هذا الاختيار موضع التنفيذ والموافقة، وهكذا إلى أن جاء عصر الظلم والظلام، وابتدع الخديو إسماعيل بدعة عزل العلماء، وتنصيب من يريد من الشيوخ -ومع كل هذا الإرهاب والتهديد، لم يرضخ لرغباته ونزواته أى شيخ من شيوخ الأزهر، بل كان يقدم استقالته برغبته.. وينال ثقة الجميع من العلماء والشعب، ولقد وقع الاختيار على الإمام الشيخ عبد الرحمن القطب النواوى ليكون شيخًا للأزهر لما عرف عنه بالنزاهة والعلم والعدل، وقد نال ثقة الجميع. وذلك فى شهر المحرم سنة ١٣١٧هـ ١٩٠٠م وقيل سنة ١٣٤٣هـ وهذا التاريخ غير مطابق للواقع وغير صحيح وربما خطا مطبعى.

آثاره العلمية وتأثيره:

بعد أن تخرج الشيخ القطب النواوى -فى الأزهر- شغل عدة مناصب قضائية منها:

١- أمانة فتوى مجلس الأحكام، مساعدًا للشيخ «البقلى».

٢- توليه قضاء مديرية الجيزة.

٣- قضاء مديرية «محافظة الغربية».

٤- رئيس المحكمة الشرعية الكبرى بالقاهرة، ثم نقل إلى قضاء الإسكندرية.

٥- نقل إلى الإفتاء فى وزارة الحقانية «وزارة العدل».

٦- توليته مشيخة الأزهر -وقد نال ثقة الجميع فى كل ما تناوله من أعمال.

٦- إلقاء بعض المحاضرات فى الموضوعات المتصلة بعمله فى بعض المناسبات.

مؤلفاته:

لم نعثر له على مؤلفات، ولأنه كما ذكرنا.. من شيوخ الأزهر الذين لم ينصفهم التاريخ، ولعل عمله فى سلك القضاء ومنصب الإفتاء، شغله عن التدريس والتأليف، فلم تسنح له الفرصة لذلك، وكان رحمه الله مشهودًا له بالعلم والعدل والنزاهة، ومشهورًا بالحزم، وبعد البصيرة.

ومن الذين لم ينصفهم التاريخ من شيوخ الأزهر، ومنهم الشيخ عبد الرحمن القطب النواوى هذا... ثم الشيخ: «سليم البشرى، والشيخ على محمد الببلاوى، والشيخ أحمد الشربينى، والشيخ محمد أبو الفضل الجيزاوى»، وسنتحدث عنهم بعون الله تعالى.

وفاته:

ومن الجدير بالذكر الصلة الوثيقة بينه وبين الخديو إسماعيل.

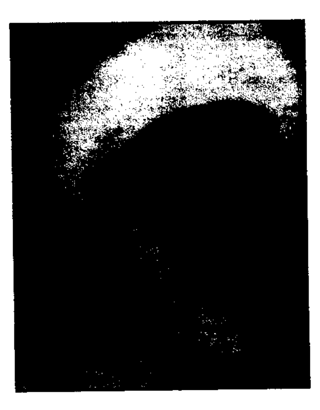
وسبحان الله العظيم، ولا راد لقضاء الله، فقد ترك الشيخ «النواوى» القاهرة، متنقلاً من منصب إلى منصب، ومن بلد إلى بلد، ثم يشاء السميع العليم أن

تعاجله منيته وهو فى القاهرة بعد توليه المشيـخة.. والتى لم يمكث فيها غير شهر واحد حيث تولاها فى شـهر المحرم -وتوفى إلى رحمة الله فى السـابع والعشرين من شهر صفـر سنة ١٣١٧هـ ١٩٠٠م وأجريت له المراسم، وصلى عليه بالأزهر، ونقل إلى مثـواه الأخير، فى قـرافة المجاورين مـع ابن عمه. غـفر الله له وأدخله فسيح جناته وتغمده بواسع رحمته.. مـع الصديقين والشهداء والصالحين. وحسن أولئك رفيقًا[١].

❁❁❁

(١) صوت الأزهر: بقلم وريشة د. عبد الله سلامة نصر صـ ١٠ فى ٢٧/ ٧/ ٢٠٠٧م.

٢٥- فضيلة الإمام الشيخ سليم بن فراج البشرى



نواصل الحديث عن دور الأزهر الرائد وشيوخه، فى صنع حضارة الأمة الإسلامية وموقفه من حضارة أوروبا.. وأن المسلمين لو آمنوا بأنفسهم واتبعوا ما قرره الأولون، من ثوابت العقيدة فى «القرآن الكريم» الذى جاء به الوحى على الرسول ﷺ، وما قرره الآخرون، بأن ذلك للدين وهذا للدنيا.. ولقد اعتبر الأزهر أن الحضارة الغربية خطر يهدد الأمة، وأثبت التاريخ ذلك، وأصبحت صفحات مشرقة يعلو بها الأزهر، ويزهو على المؤسسات والمجتمعات التى سقطت فى يد الغرب وتحت سيطرته، وهذا الصراع بين الأزهر وبين التغريب هو فى الحقيقة.. صراع بين حضارة الإسلام المتميزة بالوسطية والتى وازنت بين «الدين» و «الدنيا»، وبين «الحكمة» و «الشريعة»، وبين «العقل» و «النقل»، وبين «المادية» و «الإيمان»، وبين «الفرد» و «المجتمع»، وبين «المسلم» و «الحربى»، وبين «الشك» و «اليقين»، إنها هى قصة صراع بين حضارتنا هذه ضد حضارة الغرب المادية، حضارة العنف والنفعية، والتنازع على البقاء، هذا هو الواقع الأليم، الذى يعيشه العالم اليوم.. مسلمون وغيرهم، واقع ملئ بالدروس، ولا ندرس إلى أين نحن ذاهبون وراء المادة.. وإن أولى المؤسسات التى ترشد وتنصح الأمة لتجنب هذا الخطر.. هو الأزهر.. إن الأزهر وما حدث فيه من تطوير.. لقد تفرد بشرف مقاومة الضلال لأكثر من قرنين من الزمان، لجدير بالتمسك بمنهج الإسلام منهج الوسطية.. وهناك مئات الأمثلة لرسالة الأزهر العالمية، وهناك العديد من المعاهد والمراكز الدينية، تنتشر فى أرجاء العالم، تتحدث كلها عن الأزهر ومكانته العلمية، وما يقدمه من علوم تغذى الروح والعقل معا، وتلك هى رسالة الأزهر، التى حرص على أدائها طوال القرون العشرة، وما زال يواصل المشوار، والأيام تمر والأزهر يتطور، ويتطور الزمن، فلم يقف جامداً على القديم.. ويتحول من معاهد إلى

كليات وجامعات، تدرس فيها جميع المناهج قديمها وحديثها، إنها سنة الله فى الحياة.. وفى ظروف التقدم المادى، والإنجازات الحضارية المذهلة يقف الأزهر مستمدًا قوته من تاريخه العظيم وسمو شجرته المنبثقة من جذور عميقة، يشارك العالم الإسلامى فى صحوته على هدى العقيدة ومنهاج الشريعة، وهذا هو الدور الذى يجب أن تسير عليه جامعاتنا فى العالم الإسلامى.. إذا أردنا أن نتصدى لقيادة هذا العالم الحائر؛ لنصل إلى طريق السلام والرخاء، ويجب ألا ننسى أن الإسلام دين عمل وإنتاج.. هو دين تنمية وتعمير، ولا يعرف التكاسل والتراخى.

ولهذا قام المهتمون بالتطوير من شيوخ الأزهر.. فسار التطوير فى المعاهد الأزهرية جنبًا إلى الكليات، حتى يكون فى جامعاته العناصر الصافية من أبنائه الأساسيين التى نعتمد عليها.. وهنا يقدم الأزهر للعالم الإسلامى وغيره نماذج جديدة رائعة للطبيب المسلم، والمهندس المسلم البارع، والزراعى والصيدلى، والصحفى، والإعلامى.. وغير ذلك فى كل ما جد من علوم وتخصصات، وهنا يحقق الأزهر رسالته فى العلم والدعوة إلى الإسلام فى العالم وغرس التدين العلمى فى نفوس الشباب.

ونواصل حديثنا عن الإمام الخامس والعشرين للأزهر.. وهو: الشيخ سليم بن فراج البشرى.

مولده ونسبه وبيئته وتوليه المشيخة:

هو فضيلة الإمام الشيخ سليم بن فراج بن السيد سليم بن أبى فراج البشرى نسبه إلى «محلة بشر» إحدى قرى شبراخيت بمحافظة البحيرة.. ولد بها ١٢٣٨هـ- ١٨٣٢م.. وقد عاش يتيما حيث توفى والده وهو فى السابعة من عمره، وكفله أخوه الأكبر السيد عبد الهادى البشرى.

ولما بلغ التاسعة من عمره كان قد حفظ القرآن الكريم كله وجوّده.. ثم قدم إلى القاهرة واحتضنه خاله «السيد بسيونى البشرى» وهو من شيوخ ضريح السيدة زينب رضى الله عنها وتعلم على يد خاله مبادئ العلوم، وظل معه مدة عامين، درس فيهما عليه وعلى غيره من العلماء الذين كانوا يحضرون المسجد، درس

قراءات القرآن الكريم وبعد ذلك التحق بالأزهر، وهو ما زال تحت رعاية خاله، واتصل بكبار العلماء وتلقى منهم.. حيث درس الفقه المالكى وهذا المذهب يأخذ به معظم سكان منطقة البحيرة، وظل يواصل الدراسة بالأزهر تسع سنوات كاملة، ومن شيوخه الأعلام الشيخ الحنانى والشيخ عليش والشيخ الباجورى وأمثالهم كثير.

وكان الحنانى يعتبر من شيوخ الشيخ البشرى وأستاذًا له.. كان يقرأ كتابًا من أمهات الكتب على متقدمى الطلبة «دراسات عليا» وعندما وصل شرح نصف الكتاب أدركه الفالج، وبقى الشيخ الحنانى أشهرًا وهو فى فراش المرض والطلبة فى انتظاره، فلما أحس بشىء من الراحة طلب أن يحمل إلى مجلس علمه، وقال الحنانى لطلبته: إنى ذاهب وليست لى قدرة الآن على تحصيل العلم.. وإنى مستخلف عليكم إتمام درسى أجدر الناس به وأمسك بيد الشيخ سليم البشرى، وأجلسه فى مجلسه.. فأتم الكتاب على غرار شيخه، وظل يباشر التدريس بعدها، فظهر نبوغه وذاع أمره وتهافتت عليه الطلبة، وتخرج على يديه جماعة من كبار العلماء.. منهم الشيخ محمد راشد إمام «المعية السنية» والحاشية «الخديوية» والشيخ «بسيونى البلبياتى» والشيخ محمد عرفة وغيرهم من أفاضل العلماء، ونبغ الشيخ فى علوم كثيرة وبخاصة فى علوم الحديث نبوغا كبيرًا، أبلغه درجة كبار المحدثين واتجهت إليه أنظار الباحثين من العلماء والطلبة.

توليته المشيخة:

وبعد بضعة أعوام صدر الأمر بتعيينه شيخًا ونقيبًا للسادة المالكية وهو من أكبر مناصب الأزهر، وظل شيخًا للمالكية، حتى لقى ربه.. ولقد وقع عليه الإختيار ليكون شيخًا للأزهر.. فاعتذر عن عدم قبول هذا المنصب، وبالغ فى الاعتذار محتجًا بكبر سنه وضعف صحته، ولكنه أمام الإلحاح الشديد قبل المنصب وصدر الأمر بتعيينه شيخًا للأزهر فى ٢٨ صفر ١٣١٧هـ- ١٩٠١م ولقد تولى الشيخ البشرى منصب شيخ الأزهر مرتين الأولى التى أشرنا إليها ولبث فيها أربع سنوات تقريبًا أظهر فيها من سداد الرأى وقوة الحزم، ومضاء العزيمة، ما لا يتفق عادة لمن كان فى سنه.. واستقال نتيجة اضطراب الأحوال وأمور لم يقبلها، سنذكرها

لاحقًا، وذلك فى ٢ ذى الحجة ١٣٢٠هـ- ١٩٠٤م وعين بدلاً منه الشيخ البيلاوى وتم تعيينه مرة ثانية شيخًا للأزهر ١٩٢٧هـ ١٩٠٩م وظل فيها إلى حين وفاته ١٣٣٥هـ.

آثاره العلمية وتأثيره:

واصل الشيخ البشرى حركة الإصلاح وإلقاء الدروس والتصنيف العلمى... ولزم فراشه مريضًا مدة حولين كاملين، لم ينقطع فيهما الطلبة عن الذهاب إليه فى بيته بحى البغالة بالسيدة زينب فكان يلقى عليهم دروسه صباح كل يوم.. ولما أتم الله شفاءه عين شيخًا لمسجد «السيدة زينب» فقرأ فيه أمهات الكتب، والتف حوله الطلبة وتابعوا دروسه، وكثرت أعدادهم، ولما اتجهت النية إلى إصلاح الأزهر فى عهد الشيخ حسونة النواوى كان فى مقدمة العلماء الذين وقع عليهم الاختيار لعضوية مجلس الأزهر مع الشيخ محمد عبده والشيخ عبد الكريم سليمان وغيرهما من كبار العلماء وكان عضواً بارزًا فى المجلس ومن أسباب تقديم استقالته أنه حدث أن اختار أحد العلماء وهو الشيخ أحمد المنصورى شيخًا لأحد أروقة الأزهر. ولم يكن الحاكم راضيًا عن ذلك، وطلب منه العدول عن تعيينه، فأبى الشيخ الإمام الرجوع عن اختياره!! وكان جريئًا عندما قدم استقالته أول مرة، فلم يترك درس العلم، ولم يحاول أحد أن يزحزحه عن مكانه، وفى عهده طبق نظام امتحان الراغبين للتدريس بالأزهر، وقال كلمته فى عزة وإباء: «إن كان الأمر لكم فى الأزهر دونى فاعزلونى، وإن كان الأمر لى دونكم فهذا الذى اخترته، ولن أحيد عنه» وغضب الحاكم غضبًا شديدًا وبخاصة أمام حاشيته، فأرسل إلى الشيخ قائلاً: «إن تشبثك برأيك قد يضرك فى منصبك» قال الإمام: «إن رأيى لى ومنصبى لهم ولن أضحى لهم بما يدوم فى سبيل ما يزول» وقدم استقالته.. وعين الشيخ البيلاوى والشيخ الشربينى بعده.. ثم أعيد الشيخ حسونة النواوى.. ثم صدر الأمر بإعادة الشيخ البشرى مرة ثانية كما أشرنا سابقا، وكان الإمام الشربينى حازمًا فى إدارته وعلى الرغم من الأعباء الكبيرة التى كان يتحملها فى مباشرته لمشيخة المالكية ومشيخة الأزهر فإنه ظل يباشر دروسه فى الأزهر كما ظل يباشر

التدوين والتصنيف وقيادة الحركة الإصلاحية بعزم وحسم وظهرت آثار ذلك كلها فى عهده حتى أصبح معظم مدرسى الرياضة فى عصره من علماء الأزهر بعد أن كادت صلة الأزهر بهذه العلوم تنقطع تمامًا.

ومن أمثلة شجاعته واعتزازه بنفسه أنه عقب استقالته ذهب فى اليوم التالى إلى الأزهر ليلقى دروسه على طلابه فقرأ درس «التفسير والحديث» الذى حضره يومئذ نحو خمسمائة عالم وباقى الطلبة الذين لم يحص عددهم.

وكان حريصًا على لزوم بيته ولم يخرج منه إلا لإلقاء الدروس.. وساءت الأحوال فى الأزهر واضطربت الأمور، فاضطر ولاة الأمر إلى اللجوء إليه ليعود إلى منصبه شيخًا للأزهر، ليعالج هذه الاضطرابات.. فاشترط أن تجاب جميع طلباته فورًا وهى: أن تقوم الحكومة بإكرام العلماء والطلبة والتوسع فى أجورهم وأرزاقهم، ورد حقوقهم إليهم، فتقرر زيادة المرتبات للعلماء عشرة آلاف جنيه سنويًا، أى ما يساوى اليوم عشرة مليارات جنيه توزع بالتساوى عليهم، وسهل أمورهم الحياتية.

وظل الإمام يكافح ويجاهد فى النهوض بالأزهر حتى نال الحظوة لدى السلطان والحكومة فمنحه نيشان المجيدى الأول وكذا الوشاح الأكبر من وسام النيل ومن عادته الاستيقاظ مبكرًا دائمًا يتهجد ثم يوقظ أهله فيفطر ويلقى عليهم بعض الدروس.. ومن الغريب أنه لم يقبض مرتبه فى حياته ولا مرة ويترك ذلك لمن يثق فيهم، وكل ما كان يقع فى يده من بضعة جنيهات كل شهر ينفقها على الفقراء.. هؤلاء هم علماء الأزهر وشيوخه!!

مؤلفاته وتصانيفه:

وكما ذكرنا أن الشيخ سليم البشرى كان أحد رواد النهضة والتجديد فى الأزهر وتحقق على يديه خير كثير، وكانت له مجموعة من الحواشى فى العقائد والنحو وغيرهما، تشهد له بالعمق والدقة، وذكر صاحب «كنز الجوهر» إن للإمام البشرى مؤلفات قيمة كتبها، لكنه لم يذكر لنا هذه الكتب، ولعلها مقدمات لبعض الكتب المهمة فى علوم الحديث الذى اشتهر به مثل كتاب «هدى السارى» فهو مقدمة ذات قيمة مسهبة لكتاب فتح البارى على شرح صحيح البخارى، وكلاهما -لابن

حجر- ونقل مقدمة ابن خلدون لكتابه «فى التاريخ» ومن الكتب التى صنفها نشير إلى بعضها:

١١- حاشية تحفة الطلاب على شرح رسالة الآداب.

٢- حاشية على رسالة الشيخ عيسى فى التوحيد.

٣- المقامات السنية فى الرد على القادح فى البعثة النبوية رد فيها على الملحدين، مخطوط بدار الكتب.

٤- عقود الجماعة فى عقائد أهل الإيمان توجد منه نسخة خطية بدار الكتب.

٥- الاستئناس فى بيان الأعلام وأسماء الأجناس، وهو مصنف فى النحو.. اعتمد عليه المدرسون فى الأزهر.

٦- شرح نهج البردة.

وفاته:

بعد أن قام بنهضة علمية وإصلاحية ورفع الكثير عن كاهل العلماء والطلاب فقد وافته المنية ولقى ربه بعد أن جاوز التسعين من عمره ١٣٣٥هـ- ١٩١٦م فحزن عليه الناس كثيرًا عامتهم وخاصتهم ولقد رثاه شاعر النيل حافظ إبراهيم بقصيدة بليغة مؤثرة قال فى مطلعها:

أيدرى المسلمون بمن أصيبوا ... وقد واروا «سليما» فى التراب

هوى ركن «الحديث» فأى قطب؟! ... لطلاب الحقيقة والصواب

فما فى الناطقين فم يوفى ... عزاء الدين فى هذا المصاب؟

قضى الشيخ المحدث وهو يملى ... على طلابه فصل الخطاب

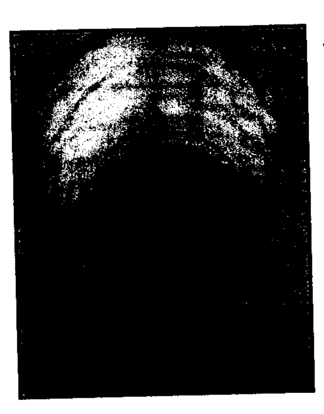
ولم تنقص له «التسعون» عزما ... ولا صدته عن درك الطلاب

فرحم الله الشيخ البشرى وأسكنه فسيح جناته مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا[1].

---

(١) صوت الأزهر: بقلم وريشة د. عبد الله سلامة نصر صـ١٠ فى ٢٠٠٧/٨/١٠م.

٢٦- فضيلة الإمام الشيخ على بن محمد الببلاوى



مازلنا نشير إلى دور الأزهر الرائد فى حفظ أمة الإسلام والمسلمين وتراثهم ودور شيوخه الأجلاء.. ففى الآونة الأخيرة وفى بدايات القرن العشرين بدأت الخلافة الإسلامية القائمة فى تركيا تتجه إلى الزوال والغروب.. وبرغم أن هذه الخلافة كانت صورية فى أخريات أيامها.. إلا أنها كانت تحمل قدرًا من المهابة.. يجعل الأمم المضادة للإسلام لا تسارع الهجوم على الدول الإسلامية بسبب أن الخلافة كانت رمزًا لوحدة الأمم الإسلامية، فى وجه المهاجمين للإسلام، وعرفت الدول المضادة للإسلام هذه الحقائق، فعملت بكل الوسائل الممكنة الظاهرة والباطنة -من خارج دولة الخلافة ومن داخلها- على إسقاط الخلافة الإسلامية وإسقاط الدولة نفسها التى ترفع علمها أمام أنظار أمم العالم الإسلامى كله.

وتأكيدًا من تلك الدول المعادية للإسلام فى استئصال كل شىء يتصل بالخلافة الإسلامية بعد اسقاطها روحًا ومظهرًا!! فقد عملت أيضًا على عزل الدولة المختصة بوظيفة الخلافة عن العالم الإسلامى فكرًا ولغة وسياسة وعملت بالذات على فصل الثقافة الإسلامية، وعزلها عن هذه الأمة ذات الماضى الإسلامى العتيد فحرمت عليها اللغة العربية التى هى وسيلة هذه الثقافة ومفتاحها، والرباط الأقوى مع بقية الأمة الإسلامية والعربية.

ولقد أدى سقوط الخلافة العثمانية إلى تمزق الأمم الإسلامية وتفرقتها فبعدما كانوا دولة واحدة مفتوحة على بعضها يدخل من يدخل ويخرج من يخرج، قفلت كل دولة أبوابها فى وجه الأخرى وأصبحنا غرباء فى أوطاننا، وظهرت فكرة «القومية» وهذا فكر خاطئ لأنه إضعاف لشأن المسلمين بعزلهم عن نداء الوحدة الإسلامية التى تجعل منهم قوة أشد وجبهة واسعة أمام الأعداء، وجيشًا لا يهزم،

ومما لا شك فيه كان النداء بالنزعة القومية بين المسلمين عملاً مقصودًا وأملا منشودًا للدول المعادية للإسلام والكيد له وللمسلمين، حتى يأمن الأعداء بقاءهم فى أرض العرب والمسلمين والعمل على تفرقتهم، والغريب أن المتحمسين للقومية هم من غير المسلمين استخفوا طائفة من العرب، فساقوهم إلى اتخاذ العقيدة القومية شعاراً لهم بديلاً عن شعار الإسلام «إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون»، وبهذا تمزقت الأمة الإسلامية قطعًا ودويلات صغيرة وأعطت الفرصة أمام وحش الاستعمار المتربص للفريسة سهولة إلتهامها وامتصاص دمائها جزءًا جزءًا فلو كانت جميعها تحت راية الإسلام.. لأصبح من الصعب على هذا الوحش المفترس التهامها لكبر حجم الفريسة على فمه، وعظامها القوية فلا يستطيع كسرها بأنيابه، وهنا تحضرنى كلمة رائعة للشاعر محمد إقبال شاعر باكستان العظيم قال: «كلما أصاب المسلمين أزمة لم يكن المسلمون الذين يحفظون الإسلام.. بل كان الإسلام هو الذى يحفظ المسلمين) وصدق الشاعر فى مقولته حيث أكدت الأحداث التاريخية قوله وفلسفته، وهنا يأتى دور الأزهر العظيم.. فهو الذى حفظ الوحدة الدينية والثقافية، فقد قام بمنهج فريد فى «التعليم» ترجع جذوره إلى أعماق التاريخ فى التقاليد التعليمية.. ولقد كان الأزهر على مر العصور مثلما كانت الخلافة الإسلامية تهوى إليه أفئدة المسلمين علميًا وفكريًا، ومطمع أنظارهم كما وضحت ذلك فى مقالات سابقة يجيئون إليه من كل بلاد العالم الإسلامى، لأنه المصدر الأوثق والأعرق والأصح والأوسع للعقيدة الإسلامية، والثقافة الإسلامية.. ومنبع الفكر الصافى لمن أراد أن يغترف من الحقيقة، والحقيقة التى يجب أن يعرفها الجميع أن منهج الأزهر وتعاليمه العلمية كلها مستمدة من منهج القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة فى بث المعرفة وبيان الحق، وذلك كله بالحجة والبرهان، وهذا هو المنهج الفكرى لعلماء المسلمين من لدن عصر النبى ﷺ.

وفى المصادر الأولى لكتابة العلم الإسلامى، نجد كتب الفقهاء الأولين من أمثال كتب مالك والشافعى وأصحاب أبى حنيفة وكتب الإمام أحمد ومن كان يشاركهم الاجتهاد فى عصورهم.. مستمدًا من سلطان المنهج القرآنى.. من بيان تقرير الحق أولاً، ثم إقامة الحجج الدامغة على إثبات هذا الحق، والرد على شبه المشككين التى تعترض هذا الحق، لتطمئن قلوب الناس.. وهذا المنهج القرآنى سارت عليه

جميع مؤلفات علماء الإسلام الجهابذة وطرق تدريسهم لسائر العلوم الإسلامية من (فقه، وأصول، وتفسير، وعلوم الكلام، وبلاغة، وأدب، ولغة).. ونتابع الحديث عن الإمام السادس والعشرين للأزهر الشيخ على محمد الببلاوى.

مولده ونسبه وبيئته ونشأته وتوليته للمشيخة:

هو الشيخ على بن محمد بن أحمد بن محمد المالكى الحسينى الإدريسى، ولد بقرية «ببلا» وهى قرية تقع فى شمال «سنبو» غربى بحر يوسف من أعمال «ديروط» بمحافظة أسيوط ولد فى شهر رجب ١٢٥١هـ- ١٨٣٥م ونشأ بها حيث حفظ القرآن الكريم ودرس مبادئ العلوم، ثم حضر إلى القاهرة، فالتحق بالأزهر ١٢٦٩هـ وتتلمذ على أعلام علماء الأزهر مثل الإمام الشيخ محمد الانبابى والشيخ عليش والشيخ الأسيوطى واختص به ولازمه.. وقد استفاد من أساتذته الأجلاء، كما انتفع بصداقة أصحابه الأوفياء ومنهم الشيخ حسونة النواوى، وسكن معه مدة الدراسة فكانا يقيمان معا، ويحضران الدروس معا، ولا يفترقان إلا فى درس الفقه فالنواوى «فقه حنفى» والشيخ الببلاوى «فقه مالكى» والشيخ الببلاوى من سلالة الإمام الحسن بن على بن السيدة فاطمة الزهراء فهو ينتسب للبيت النبوى الكريم وسافر للحجاز وأدى فريضة الحج ١٢٨١هـ والتقى بكثير من علماء المسلمين ولقد صدر القرار بتعيين الشيخ الببلاوى شيخًا لنقابة الطرق الصوفية، ورشحه لذلك الشيخ حسونة النواوى، لأنه من السلالة الطاهرة ولأنه أهل لأن يكون نقيبًا للأشراف ووقتها كان الشيخ حسونة النواوى رئيسًا لمجلس إدارة الأزهر قبل أن يكون شيخًا للأزهر.

وصدر القرار بتعيين الشيخ الببلاوى نقيبًا للأشراف فى ٦ شوال ١٣١٢هـ وبعد استقالة الشيخ سليم البشرى من مشيخة الأزهر، تم تعيين الشيخ على الببلاوى شيخًا للأزهر فى ٢ من ذى الحجة ١٣٢٠هـ- ١٩٠٤م ولكن الأمور لم تكن كما كان يأمل بسبب تدخل الخديو وحاشيته فى الوقوف ضد إصلاح الأزهر وكذا المصالح العامة.. فقدم استقالته من المشيخة فى ٩ محرم ١٣٢٣هـ.

آثاره العلمية وتأثيره:

وبعد أن تمكن الشيخ الببلاوى من دراسة العلوم وأنس فيه أساتذته القدرة على التدريس فرشحوه للتدريس بالأزهر والمسجد الحسينى حيث ألقى دروسًا فى شرح

الكتب المقررة فى مناهج العلوم ثم بعد ذلك صدر قرار بتعيينه بدار الكتب المصرية لاعارة الكتب داخليًا وخارجيًا ودرس التنظيم المكتبى، وشارك فى تصنيف الكتب وفهرستها كما أشتهر بالتصنيف، ثم تولى رئاسة دار الكتب، وأصبح ناظرًا لها فى ١٢٩٩هـ مع أن الكثيرين كانوا يتطلعون لارتقاء كرسى هذا المنصب، فلم يحصلوا عليه، وكان دقيقًا منظمًا فى عمله.

ولقد عاش أحداث الثورة العرابية وشارك فيها لكن من وراء الستار، وكانت صلته قوية بشاعر الثورة العرابية محمود سامى البارودى، وعندما كان نقيبًا للأشراف نظمها تنظيمًا دقيقًا، وضبط أوقافها ونظم مواردها ومصادرها. . وكل ما يتعلق بنفقاتها وبنى ست دور من أموال الأوقاف ليستغل إيراداتها فى النفقات المهمة، وصرف المستحقات فى مواعيدها، وفاتحه المسئولون فى ترك شياخة المسجد الحسينى لأن منصب نقابة الأشراف يفوق هذا المنصب بكثير!! فرد عليهم الببلاوى قائلاً: ألا أن كانت النقابة تمنعنى من خدمة مسجد سيدنا الحسين فإنى لا أقبلها. . وظل مباشرًا للمنصبين معًا حتى ١٣٢٠هـ.

والمعلوم أن الخديو كان مستبدًا برأيه لا يطيق أن يرى رجلاً قويًا مصلحًا إلى جواره ولهذا ضاق ذرعًا بالشيخ محمد عبده مفتى مصر وعضو مجلس إدارة الأزهر وصاحب الكلمة العليا فيه، فأراد الخديو أن يحمل الإمام الببلاوى ويجبره على معارضة الشيخ محمد عبده وعرقلة جهوده فى الإصلاح، لكن الإمام الشيخ الببلاوى لم يستجب لرغبة الخديو، وظل ملتزما بالحق متعاونًا مع كل مجاهد فى سبيله، مستمسكًا بحبله المتين، ولهذا فقد وافق الشيخ الببلاوى الشيخ محمد عبده فى كل مساعيه الإصلاحية واستجاب له وأحبه، وامتزج به مع أنه يعلم أن هذا يغضب الخديو، وأنه قد يسلبه منصبه الكبير. . كما أنه قد يسلب ولديه منصبيهما المهمين ولكن الحق أحق أن يتبع. . وقام المغرضون بدس الوقائع بين الشيخ، وبين ذوى السلطة، وادعوا أن الشيخ محمد عبده هو صاحب القرار والسلطة على شيخ الأزهر. . ولم يعد له من الرئاسة إلا اسمها، وأن الكلمة هى كلمة المفتى. . ولما بلغ الشيخ الببلاوى ذلك قال: إن الشيخ محمد عبده لا يريد إلا الإصلاح، فلا

وجه لمعارضته، وساءت الأحوال فضاق صدر الشيخ محمد عبده بما يحاك حوله.. وبالعقبات التى توضع فى طريق مناهج الإصلاح فى الأزهر ولهذا قدم الشيخ الببلاوى استقالته.

مؤلفاته ومصنفاته:

وللشيخ الببلاوى مصنفات كثيرة لكن لم يصل إلينا إلا القليل منها:

١- رسالة فى فضائل ليلة النصف من شعبان وتوجد منها نسخة خطية مكتوبة فى ١٣١٣هـ برقم ٢٢٥٣٧ب ولقد علق عليها ولده الشيخ السيد محمد برسالة سماها «عروس الفرقان فى الحث على ترك البدع وشوائب النقصان على الرسالة البيلاوية بليلة النصف من شعبان».

٢- إجازة منه للشيخ محمد بن حامد المراغى المالكى الجرجاوى أجازه فيها بما فى «ثبت» الشيخ محمد بن محمد الأمير الكبير، منها نسخة خطية بدار الكتب بخط أحمد الدمنهورى ١٠٨٤ رقم ٣١٢ (مصطلح الحديث).

٣- «إعجاز القرآن»، وهى مجموعة مقالات نشرها فى «روضة المدارس» وجمعها ابنه السيد محمود وتوجد منها نسخة خطية بدار الكتب رقم ٦٠٦.

٤- الأنوار الحسينية فى شرح الحديث المسلسل «يوم عاشوراء» ونصه: «صيام يوم عاشوراء إنى احتسب على الله أن يكفر السنة التى قبله».

وفاته:

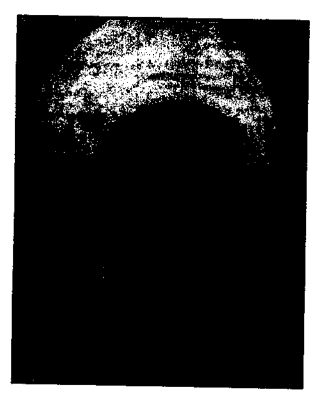
ظل الشيخ الببلاوى ملازما بيته بعد استقالته لا يخرج منه إلا لمامًا لبعض الأغراض المهمة، إلى أن وافته منيته، وتوفاه الله فى ٣ من ذى القعدة ١٣٢٣هـ-١٩٠٥م.

وشيعت جنازته بعد الصلاة عليه فى المسجد الحسينى، ودفن فى بستان العلماء بقرافة المجاورين فرحمة الله عليه وأسكنه فسيح جناته[1].

❁❁❁

(١) صوت الأزهر: بقلم وريشة د. عبد الله سلامة نصر صـ١٠ فى ٢٠٠٧/٨/١٧م.

٢٧- فضيلة الإمام الشيخ عبد الرحمن الشربينى



مواصلة لدور الأزهر فى الحفاظ على المنهج العلمى الإسلامى قديمًا وحديثًا ذكرنا فى تقديم المقال السابق «السادس والعشرون» دور علماء الأزهر وعلماء المسلمين الجهابذة وطرق تدريسهم فى سائر العلوم الإسلامية وأنهم جميعًا يعتمدون على المنهج القرآنى العظيم، والذى خضع لسلطان تأثيره جميع مؤلفات علماء المسلمين المؤسسين للعلم الإسلامى وآخذة بهذا المنهج العظيم ومعتصمة بكيانه.. لا تخرج عنه على مر الأجيال.

نرى ذلك فى عصر الأئمة وأتباعهم وإلى مؤلفات من جاء بعدهم ونسوق مثالاً لذلك: «الإمام الغزالى» الآمدى، فخر الإسلام، إمام الحرمين، والعضد، الفخر الرازى، صاحب الكشاف، وغيرهم من مئات العلماء الذين يعتبرون البناة المؤسسين لنظام التعليم وتأصيل الفكر الإسلامى، نجد هذه الكتب جميعها قد تميزت طريقتها على ما ذكرنا سابقًا بإثبات الحق وإقامة الدليل فى كل المناقشات والمجادلات.

وكما كان منهج التعليم هو منهج القرآن الكريم.. كان حفظ القرآن الكريم نفسه بالإضافة إلى هذا المنهج هو الأصلى والأساسى فى استيعاب العلم الإسلامى وضبط قواعده، ومعرفة أسراره وذلك لأن العلوم الإسلامية كلها ترجع أصولها إلى القرآن الكريم، فهى كلها متشابكة.. فالآية الواحدة من القرآن الكريم.. قد يستدل بها على قاعدة فقهية أصولية، وعلى حكم فرعى، وعلى قاعدة نحوية، وعلى نكتة بلاغية أو على مسألة عقائدية.. كل ذلك فى وقت واحد من جهات مختلفة لدلالات الآية، والإقدام على تحصيل العلوم الإسلامية من غير حفظ القرآن الكريم يعتبر عملاً ناقصًا ومحاولة مهددة بالفشل والخيبة!! ومن المؤكد أنه لا يتساوى رجلان فى فهم العلوم الإسلامية أحدهما يحفظ القرآن والثانى لا

يحفظه.. وإليك مثالاً.. نلاحظه عندما نقرأ لعلمائنا الكبار نذكر منهم الشاطبى صاحب الموافقات أنه حين يستشهد بالقرآن الكريم فى موضوع من مسائل علم الأصول التى يعرضها يذكر صدر الآية المستشهد بها أو الآيات ثم ينقطع عن اتمامها ولم يشر إلى رقمها أو اسم السورة.

ويقول: «اكمل الآية» معتمداً على طالب العلم الدينى الناظر فى كتابه.. حافظ للقرآن الكريم يستخرج من ذاكرته فوراً بقية ما أشار إليه المؤلف من القرآن.. وهكذا! نلاحظ هذه الطريقة عند كل الأئمة السابقين.. وأما الآن فقد أصبح معظم القراء لا يحفظون القرآن، بل ولا يقرأونه اضطر المؤلفون أن يذكروا رقم الآية واسم السورة تسهيلاً على القارئ للرجوع إليها عند الحاجة.

وقد كان حفظ القرآن الكريم هو العادة المتبعة المستقرة فى نظام التعليم الإسلامى فى العالم الإسلامى عند المشارقة وعند المغاربة كما ذكر «ابن خلدون» حيث قال: إنه كان من عادة المشارقة.. حفظ القرآن الكريم أولاً.. ثم يقدمون على تفسيره وفهمه ثانيًا.. وهذا متبع فى مصر أيضًا.. ومن عادة المغاربة.. أنهم كانوا يفهمون القرآن وتفسيره أولاً، ثم يحفظونه ثانيًا، وفى كلتا الحالتين فإن الهدف يعنى أن نظام التعليم أساسه الاعتماد على حفظ القرآن الكريم عند الناشئين والصبية.. وحفظ القرآن حينما يحفظه الصبية فى بواكير أعمارهم يرسخ فيهم قوة العقيدة، وتختلط أرواحهم بمعانيه، ويثبت فيهم الإيمان والإصرار المطلق على تقديس أحكام الإسلام والغيرة على شرائعه والدفاع عنه، وشتان بين من حفظه صغيراً فى طفولته وبين من حفظه كبيراً، فهناك فرق كبير بين النقش على الحجر والنقش على الماء.. وعلى هذا عاش الأزهر قرونا يعمل على هذا النظام فى وضع مؤلفاته على هذا المنهج القرآنى فى جميع مدارسه ومعاهده.. وفى البلاد الإسلامية المختلفة مثل بغداد وشمال أفريقيا وقد قدر للأزهر أن يرث هذه المدارس بعدما أصابها من أحداث التاريخ الجسام وظل الأزهر هو المعهد الوحيد الذى سلم من هجوم وغارات «البربر» وغيرهم بعد أن اجتاحوا العالم الإسلامى فلم يحمهم إلا «الجامع الأزهر».

ونواصل الحديث عن الإمام السابع والعشرين للأزهر الشيخ عبد الرحمن الشربينى.

مولده وبيئته ونشأته وتوليه المشيخة:

هو الإمام الشيخ عبد الرحمن بن محمد بن أحمد الشربينى فقيه شافعى تلقى تعليمه بالأزهر وكان محبوبًا من أساتذته معروفًا بينهم بالتقوى والصلاح والزهد مشهوراً بحب التعمق فى دراسة المصادر القديمة، وهذا يعنى أنه يميل للمنهج القديم، ولما وثق فى نفسه وقويت مادته العلمية وشهد له أساتذته بنضوج فكره وعمق معرفته العلمية رشح للتدريس بالأزهر. . فلفت إليه الأنظار بعلمه الغزير وتواضعه الجم وزهده وشدة تمسكه بالتقاليد المتوارثة. . وضيقه الشديد بحركات التجديد، وكان يحترم أساتذته وشيوخه، وينحنى أمامهم تعظيمًا لقدرهم وشرفهم. . مع أنه من العلماء الأجلاء الذين يشار إليهم بالبنان، والتف حوله طلابه وطالبو العلم وكل الحاضرين لدرسه، وكان يعتبر أساتذته وشيوخه وكأنهم ملائكة فيقبل أيديهم.

ولقد ولد الشيخ عبد الرحمن الشربينى فى قرية شربين، ولم نعثر على تاريخ مولده إلا أنه من الإمكان العثور على تاريخ مولده تقريبًا مقارنة بزمنه وزملائه.

توليته للمشيخة:

ولما وجد الحكام الشيخ الشربينى عزوفا عن الدنيا وزاهدا فيها ولا يميل للتجديد، اتجهوا إليه بأنظارهم وأفكارهم وأرادوا إسناد الأزهر إليه. . ظنا منهم أنه سيشغله زهده عن أمور المشيخة، وهذا يتيح لهم أن يبسطوا سلطانهم على الأزهر. . فعرضوا عليه توليه المشيخة مراراً. . وهو يعتذر عن عدم قبوله هذا المنصب الكبير. . فأصر الخديو أن يقبل معتقدًا أن الشيخ سيتركه يطلق يده فى شئون الأزهر وطلابه، وأن يتخذ من مكانتهم الشعبية قوة يحارب بها أعداءه، وأن شيخ الأزهر هو وحده الذى يستطيع القضاء على حركات التجديد. . وأخيراً استجاب الشيخ «الشربينى» لإلحاح الخديو وقبل المنصب فأصدر الخديو قراراً بتولية الشربينى مشيخة الأزهر فى ١٢ محرم ١٣٢٣هـ ١٩٠٥م وأقام الخديو حفلاً كبيراً خلع فيه كسوة التشريفة على الإمام الشربينى، وألقى الخديو خطبة بهذه المناسبة محتفيًا بالشيخ قال فيها: إن الجامع الأزهر قد أسس وشيد على أن يكون مدرسة

دينية إسلامية تنشر علوم الدين فى مصر وجميع الأقطار الإسلامية وأول شيء أطلبه أنا وحكومتى أن يكون الهدوء سائدًا فى الأزهر الشريف، والشعب بعيدًا عنه فلا يشتغل علماؤه وطلبته إلا بتلقى العلوم الدينية النافعة، البعيدة عن زيغ العقائد وشعب الأفكار لأنه مدرسة دينية قبل كل شيء.

ويتضح من كلام الخديو.. مدى قوة الأزهر وقوة أهل العلم وتأثيرهم على الحكام وأنهم قادرون على إحقاق الحق وأن الحكام يعرفون قدرهم وقوة تأثيرهم الشعبية والدينية.

ومن هنا أسرف الخديو فى محاربة رجال الإصلاح والتجديد بكل الوسائل المشروعة وغير المشروعة فرمى هؤلاء الرجال بكل ما يهدر كرامتهم ويمس عقيدتهم، وحرض عليهم الصحف لتقوم بنهش أعراضهم وتتاجر فى اختلاق الفضائح معهم، واستغل سلطته وهو أمير البلاد فى خلق هذه الأكاذيب.. وهو يعلم تمامًا بنزاهة هؤلاء العلماء وبراءة ساحتهم وتمسكهم بدينهم وعقيدتهم، ولقد أشاع الخديو بأن العلوم الحديثة.. جناية على الدين وأن الإسلام يكرهها.

آثاره العلمية وتأثيره:

باشر الإمام الشيخ عبد الرحمن الشربينى مهامه فقام بقمع حركة الإصلاح فى الأزهر ووقف ضدها.. وهنا كلمة حق يجب أن يقال: إن الانصاف يقتضينا أن نذكر أن الشيخ الشربينى وغيره من الذين وقفوا ضد ادخال العلوم الحديثة فى الأزهر.. إنما هو راجع لخوفهم الشديد من بطش الحكام بالأزهر وعلمائه وطلابه وقطع رواتب العلماء وجراية الطلاب الموقوفة عليهم واستغلالها ضدهم وضد ترميم أبنية الأزهر.. فحاول شيوخ الأزهر مهادنة الخديو إلى حين.. ولم يفعلوا ذلك أبدًا تلبية لرغبة الخديو، ولا لطلب الحظوة عنده وقد كان الشيخ الشربينى من الزاهدين فى شئون الدنيا وإنما وقف ضد الإصلاح تنفيذًا لما كان يؤمن به ويعتقده، من أن يتهاون الطلبة فى دراسة العلوم الدينية والعربية والتحقق والبحث فيها، وكان يخشى أن تصرفهم العلوم الحديثة عن البحث فى المصادر والأصول للعلوم وتستنفد طاقاتهم.. فلا يولون العلوم الشرعية واللغوية بما يستحقانها من

اهتمام وعناية ويصبح الأزهر مثل باقى المدارس التابعة لنظارة المعارف «وزارة التربية والتعليم».

كان الإمام الشربينى يعتقد هذا ويؤمن به فأسرف فى مقاومة التجديد.. لدرجة أنه أحرق بعض الكتب التى ألفت فى الإصلاح والتجديد، ولقد فرح الخديو بهذا كثيرًا.. ولكن الشيخ الإمام الشربينى وضح رأيه مرة أخرى فى بعض الصحف أنذاك، حيث قال: «إن غرض السلف من تأسيس الأزهر هو بيت لله يعبد فيه، ويؤخذ فيه شرعه، ويؤخذ فيه الدين، كما تركه الأئمة الأربعة رضوان الله عليهم وأما الخدمة التى قام بها الأزهر للدين وما زال يؤديها.. فهى حفظ الدين لا غير، وما سوى ذلك من أمور الدنيا، وعلوم العصر فلا علاقة للأزهر به، ولا تنبغى له» ثم قال: إن الذى حدث من فكرة التجديد من شأنه أن يهدم معالم التعليم الدينى فى الأزهر، وأن يحول هذا المسجد العظيم إلى مدرسة فلسفة وآداب تحارب الدين، وتطفئ نوره فى هذا البلد وغيره من البلاد الإسلامية ثم قال: وإنى أسمع منذ سنوات بشىء يسمونه حركة الإصلاح فى الأزهر، ولكننى لم أر لهذه الحركة وهذا الإصلاح من نتيجة سوى انتشار الفوضى فى ربوعه، إلى أن قال: إنه وزملاءه أبعد الناس عن السياسة وإنه يأسف لانقسام الطلبة إلى أحزاب واتجاههم إلى قراءة السياسة، وختم حديثه بالدعوة إلى أن يكون الإصلاح فى أضيق الحدود يهتم بالطلبة وصحتهم وغذائهم وسكنهم، وأما غير ذلك من العلوم الفلسفية والعلوم الحديثة فلتدخله الحكومة فى مدارسها الكثيرة.. ومنع أيضًا دراسة المنطق والفلسفة فى الأزهر مع العلم أن الشيخ الشربينى متخصص فى علم الكلام. لكنه يحرم دراسته بالأزهر، وهذا فيه تناقض كما قيل.. وإنه كان لا يعلم أن الأزهر سيتحول إلى جامعة علمية عظيمة ويصبح من أعظم جامعات العالم تدرس فيه جميع العلوم قديمها وحديثها.. وأنه سيتخرج منه علماء عمالقة يجوبون العالم.. لكن الواقع يؤكد لنا دائمًا.. أن الصراع بين القديم والحديث أمر مألوف، وأمر طبيعى، وأن التقدم الحضارى يفرض نفسه فى كل الدنيا والحضارة الحديثة تفرض نفسها أيضًا وهذا الصراع الحضارى يحفظ التوازن دائمًا بين جمود القديم واندفاع الحديث فتسير الحياة فى اتساق واتزان.. تأخذ من القديم ما ثبتت

فائدته وتجربته الماضية والباقية من قرون ومن الحديث ما تقتضيه سنة التطور والتقدم والارتقاء ونرى أن كبار المفكرين يبتغـون هذا الاتجاه ويتراوحون ما بين ذلك فمنهم المحافظون، ومنهم التـقدميون، ومنهم مـن يقوده التقليد إلى الجـمود، ومنهم من يقوده التجديد إلى التدمير والتبديد.

ونعود لنقول إن الشيخ الـشربينى كان مؤمنًا بفكرة المحافظة على القديم مـشفقًا على الأزهر من التطور «المذمـوم» فيهـجر علوم الدين إلى علوم الـدنيا ويجب أن يبـعد الأزهر عن أهواء السـياسـة والحكام ومع كل محـاولات الخديو مع الشـيخ الشربينى نراه أنه قد أخطأ فى ظنـه وأن الشيخ سيطيعه فيـما يريد لبلوغ أهدافه.. من السيطرة على هذا المعهـد الكريم وما به من أوقاف وأموال وغيـرها فلقد حاول الخديو فـعلاً أن يطلق يده فى شئون الأزهر من وراء ظهـر شيخه الشـيخ الشربينى فأبى عليه ذلك وقدم استقالته ١٣٢٤هـ فى ذى الحجة وأعيد الشيخ حسونة النواوى إلى منصـبه شيـخًا للأزهر للمـرة الثانيـة بعد أن أملى شروطه وإبعـاد الحكام عن الأزهر وقام ليباشر حركة الإصلاح والتجديد على الرغم من كره الخديو لذلك.

مؤلفاته ومصنفاته:

ولقد كان الشيخ الشربينى متعمقًا فى الدراسات الدينية متمرسًا بأساليب المراجع القديمة فاهما لمشكلاتها، وكان يحمل الطلبة على التعمق فى أصول أمهات الكتب ودراسة هذه المصنفات حرصا منه على تخريج علماء بارعين، ومع غزارة علمه إلا أنه لم يصنف كثيرًا.. ومن مؤلفاته:

١- تقرير على حـاشية البنانى على شـرح المحلى على جمع الجـوامع للسبكى «أصول فقه».

٢- تقرير على حاشية ابن قاسم عـلى شرح شيخ الإسلام زكريا الأنصارى لمتن البهـجة الوردية -بهـجة الحـاوى- وهى منظومة فى الفـقه الشافـعى- دار الكتب المصرية- ٢٢٩٦٦ ب.

٣- تقرير على حاشية «عبـد الحكيم» على شرح السيالكوتى على شرح القطب على الشمسية فى المنطق.

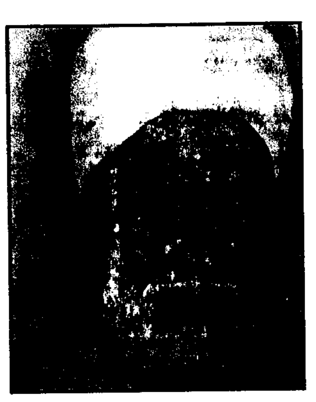
وفاته:

ولقد لقى الإمـام الشيخ الشربينى ربه وحـان أجله ١٣٣٤هـ- ١٩٢٦م، بعد أن شهـد له الجميع بالعلم الغـزير والثقافـة الواسعة فعليـه رحمة الله وأسكنه فـسيح جناته، ورحمنا معه إنه نعم المولى ونعم النصير[١].

❁❁❁

(١) صوت الأزهر: بقلم وريشة د. عبد الله سلامة نصر صـ١٠ فى ٢٤/٨/٢٠٠٧م.

٢٨- فضيلة الإمام الشيخ محمد أبو الفضل الجيزاوى



إن رسالة الأزهر وإشعاعه فى الأمة الإسلامية سيظل متواصلا.. يربط الماضى بالحاضر، ويرشد المجتمع الإسلامى إلى مستقبل زاهر سعيد، وأن فى كل تقديم نسوقه فإنه يصور الحالة الاجتماعية السياسية والثقافية للعصر الذى يعيش فيه شيخ الأزهر -صاحب الذكرى- ولتوضيح كيفية تعامل شيخ الأزهر وعلماء الأزهر مع الأحداث ودورهم الكبير الرائد وهذا بمثابة إيجاز فى السيرة الذاتية للإمام نفسه.. وإذا كانت آمال العرب والمسلمين تتجه إلى مصر فإن مصر، بدورها تتجه إلى الأزهر الذى جعل مصر تتبوأ هذه المكانة والزعامة بين شعوب الإسلام، الأزهر الذى أدى فى الماضى دوره الروحى والعلمى والأدبى، والاجتماعى والقومى حتى احتلت مصر فى الشرق هذه المكانة، وعلى الأزهر فى الحاضر أن يؤدى دوره الجديد ليأخذ مكانه كداعية إلى الإسلام الحقيقى، وموقظ لشعب مصر المؤمن، وموجه لشعوب العالم العربى والإسلامى بواسطة دعاته الذين يحملون النور والحرارة للحياة.

وإضافة إلى ما ذكرناه فى مقالاتنا السابقة.. يجدر بنا أن نضيف ونبين دور الأزهر فى الماضى القريب جدًا وما قدمه للأمة من حفاظ على العلم واللغة والدين.. وذلك بعد نكبتين مدمرتين تعرضت لهما الأمة الإسلامية وثقافتها «نكبة بغداد» فى الشرق على يد التتار وقد أشرنا لذلك سابقًا وما حدث على أيديهم من تقتيل وتذبيح الآدميين حتى سالت الدماء فى الشوارع كالسيل!! ولم يكتفوا بذلك بل خربوا العمران وطمسوا الحضارة وأغرقوا مكتبة بغداد فى نهر دجلة وجرى ماؤه أسود اللون من كثرة ما خالطه من مداد الكتب وجعلوا الكتب جسرا عبرت عليه خيولهم، و «نكبة الأندلس» فى الغرب على يد الأسبان المتعصبين الذين قضوا على حضارة زاهرة ظلت ثمانية قرون.. وتمزقت الحضارة الإسلامية ما بين تعصب

الأسبان وهمجية التتار. . ونذكر القارئ فقط بما أصاب المسلمين، ونذكره بأن الأزهر ظل هو المأوى والملجأ لطلاب العلم وللعلماء المشردين والمضطهدين فى كل مكان يجمع ما تفرق ويدون الكتب وينشر ويحفظ ما أوشك أن يضيع. . وبالاختصار فتاريخ الأزهر فى مصر فى تلك القرون كان بمثابة الرأس من الجسد والقلب الخافق بالمشاعر. .

ثم يأتى دور الأزهر فى العصر الحديث -عصر النهضة- كما يسمونه!! كان له بجوار دوره العلمى دور توجيهى اجتماعى سياسى، فالأزهر معلم الشعب وحاميه من ظلم الحكام، وحامى حمى الدين وحارس لغة القرآن، فمن أبنائه المعلمون والقضاة والوعاظ والمرشدون والكتاب والشعراء. . إلخ. . فالجامع الأزهر كان عبارة عن «برلمان» الأمة. . نوابه لا يبغون جاهًا ولا يتقاضون أجرا، كان الأزهر هو الذى يولى الملوك ويغزل الأمراء، ويضع التاج على رأس من يشاء زاهدًا فى الملك والإمارة، هو فقط موجه ومصلح قال أبو الأسود الدؤلى: الملوك حكام على الناس والعلماء حكام على الملوك.

قال الشاعر:

إن الأكابر يحكمون على الورى وعلى الأكابر يحكم العلماء

وننتقل إلى دور الأزهر فيما بعد فترة المماليك والعثمانيين والنضال ضد الاحتلال فقد كان الأزهر قائدًا للشعب ضد المستعمر الخارجى، وضد كل ظالم داخلى والتاريخ يذكر موقف الأزهر من الحملة الفرنسية وظلم العثمانيين والمماليك وباختصار شديد فإن الأزهر هو العقل المدبر واليد المحركة لكل تلك الثورات التحررية ضد الغزاة المحتلين والفرنسيون سلطوا قذائفهم على الأزهر وانهارت المنازل ودفن الألوف من النساء والصبيان والشيوخ تحت الأنقاض واحتل الفرنسيون الجامع الأزهر وربطوا خيولهم عند القبلة ونهبوا المخطوطات وقبضوا على زعماء الثورة من العلماء وأعدموهم دون محاكمة «انظر كفاح شعب -محمد أمين- والأزهر فى ألف عام» إلخ.

ونواصل الحديث عن شيخنا الإمام الشيخ «أبو الفضل الجيزاوى».

مولده ونسبه وبيئته وتوليته المشيخة:

هو الإمام الشيخ محمد أبو الفضل الوراقى الجيزاوى ويذكر المعاصرون للشيخ الجيزاوى أنه ولد سنة ١٢٦٤هـ- ١٨٤٧م وأنه عاش نحو مائة سنة ونشأ بوراق الحضر التابعة لمركز إمبابة التابع لمديرية الجيزة (محافظة الجيزة) ونورد هذه الترجمة من كتاب «الكنز الثمين لعظماء المصريين» أ. فرج سليمان فؤاد، لقد قام الإمام الجيزاوى بكتابة سيرته الذاتية بنفسه ١٣٣٦هـ وذلك قبل وفاته بنحو عشرين عامًا حيث يقول: «دخلت الكتاب لحفظ القرآن كعادة أهل القرية ١٢٦٩هـ وحفظت القرآن كله فى وقت قصير فأتممته ١٢٧٢هـ وكانت سنى إذ ذاك عشر سنوات ودخلت الأزهر ١٢٧٣هـ واشتغلت بتجويد القرآن الكريم وحفظ المتون وتلقى بعض الدروس ثم لازمت الفقه على مذهب الإمام مالك وتلقى العلوم العربية من نحو وصرف وبلاغة وأدب وأصول الفقه وتفسير وحديث ومنطق على أكابر المشايخ الموجودين فى ذلك الوقت، ومنهم البحر الفهامة الشيخ محمد عليش والشيخ على العدوى وعلوم الأصول والحديث وغيره على الشيخ إبراهيم السقا والشيخ الانبابى والشيخ المرصفى وغيرهم من أجلاء العلماء والأساتذة وداومت على الدراسة والإطلاع وحضور ساحات العلم وحلقاته حتى ١٢٨٧هـ فأمرنى الشيخ الانبابى بالتدريس فوافقت بعد تردد وفى ربيع الأول ١٣١٣هـ عينت عضواً فى إدارة الأزهر فى زمن مشيخة الشيخ سليم البشرى ثم استقلت منها وعينت ثانيًا بها ١٣٢٤هـ أيام الشيخ الشربينى ثم عينت وكيلاً للأزهر ١٣٢٦هـ ثم صدر قرار بتعيينى شيخًا للإسكندرية لمدة ثمانى سنوات وفى ١٤ من ذى الحجة ١٣٣٥هـ- ١٩١٧م صدر القرار بتعيينى شيخًا للأزهر ثم أسندت إلى مشيخة السادة المالكية ١٣٣٦هـ- ١٩١٨م» هذا ما كتبه الإمام الجيزاوى عن نفسه.. وكان الأمل أن يواصل ترجمة حياته إلى ما قبل وفاته، ولكن أعباء المشيخة والأحداث التى مرت بها مصر وبالأزهر فى عهده شغلته عن نفسه وعن التدريس وعن التأليف والكتابة فقد عاصر أحداث ثورة ١٩١٩م وصراع الشعب مع الاستعمار وصراع الأحزاب السياسية وبين الزعماء والملك وكما شاهد اندلاع الثورة من ساحة الأزهر واشتراك المسيحيين وجميع الطوائف الدينية مع كبار علماء الأزهر ومقاومة الاستعمار واستطاع بنفسه أن يقود الأزهر فى غمار هذه الأمواج والعواصف.

آثاره العلمية وتأثيره:

وبعد أن تمكن من علمه وأمره شيوخه بالتدريس وآنسوا فيه القدرة على ذلك وبعد أن أخذ الإذن منهم.. بدأ بقراءة كتاب الأزهرية -فى النحو ويجب أن نشير إلى أن الشيخ الجيزاوى كان شديد الحفظ قوى الاستيعاب.. وفى أيام مشيخة الشيخ العروسى الأول ألقى درسًا له.. وبحضور جمع كبير من المشايخ والعلماء وجميع الطلاب، ثم لازم التدريس وقرأ جميع الكتب الفقهية المتداول قراءتها حينذاك وكذلك كتب اللغة العربية وغيرها من علوم العصر وقد رزقه الله الحظوة فأقبل العلماء والطلاب على السواء، وتخرج على يديه أغلب أهل الأزهر، وهو أول من شرح كتاب «الخبيصى فى المنطق» وعرف به الطلاب فاشتهر الكتاب على يديه، وذلك بتدريسه مرارًا، وكذلك كتاب «القطب على الشمسية» قواعد منطق وكتاب ابن الحاجب فى الأصول، وله كتب كثيرة تداولها العلماء والطلبة وقد كتب على شرح المطول وحاشيته ما يقرب من خمس وأربعين كراسة «ملزمة» وله جهوده فى سبيل الإصلاح فى الأزهر فقد خط خطوات كثيرة منها:

أنه جعل كل مرحلة من مراحل التعليم بالأزهر أربع سنوات كما أنشأ قسم التخصص يلتحق به الطلاب بعد نيل الشهادة العالمية وجعل أقسامه هى: «التفسير والحديث -الفقه والأصول- النحو والصرف- البلاغة والأدب- التوحيد والمنطق- التاريخ والأخلاق»، كما كون لجنة الإصلاح الأزهر ١٩٢٥م على أنه يجب أن ينظر للمرحلتين الابتدائية وهى المرحلة الاعدادية الآن -والمرحلة الثانوية» على أنها مرحلة ثقافية عامة، ويجب أن يدرس فيها العلوم الرياضية التى تدرس بالمدارس العامة «التربية والتعليم» وأنه يكتفى بتدريس العلوم الدينية والعربية بالأقسام العالية والتخصصات، ويجب فتح مدارس وزارة المعارف أمام خريجى الأزهر ليدرسوا فيها.

هذا من جانب ومن الجانب الآخر نرى أن بعض المؤرخين قد أوجز الحديث عن الأئمة الخمسة من شيوخ الأزهر وهم: «القطب النواوى -سليم البشرى- على البيلاوى- عبد الرحمن الشربينى- محمد أبو الفضل الجيزاوى» لأسباب عديدة نوجز بعضها.. منها: أن منصب شيخ الأزهر فى أيامهم قد ضعف بعد ما كان

قـويًا مهـابًا عزيز الجـانب، وصار ألعـوبة فى أيدى الحكام، يقلدون من يشـاؤون المشيخة وينتزعونها ممن يشاؤون. ثانيًا: إن من يتولى منصب المشيخة لا يطيق صبرًا على البقاء فيها لأسباب لا يتـسع المقام لذكرها فكانوا يستقيلون المرة بعد الأخرى، ويعتكفون فى بيـوتهم رغبة فى التخفف من أعبـاء وهموم هذا المنصب، ومنها أن بعض المناصب كان لا يطولهـا العزل مثل عضوية مـجلس الشورى.. على الرغم من أن منصب مشيخة الأزهر كان أولى بهذه الحصانة وأحق.. وكان واقع هذا فى بداية قيام مشيخة الأزهر، على أيدى العثمانيين وغير ذلك من الأسباب.

مؤلفاته وتصانيفه:

كان الإمام الشيخ الجيزاوى واسع الإطلاع فى العلوم الفـقهية والفلسفية وتاريخ الإسلام ومن مؤلفاته:

١- إجازة منه إلى الشيخ مـحمد بن محمد المراغى المالكـى الجرجاوى، أجازه فيها بما فى ثبت الشيخ محمد بن محمد الأمير الكبير نسخة خطية.

٢- الطراز الحديث فى فن مصطلح الحديث.

٣- تعليقات على شرح العضد -أصول فقه.

٤- كتاب تحقيقات شريفة.. وغير ذلك.

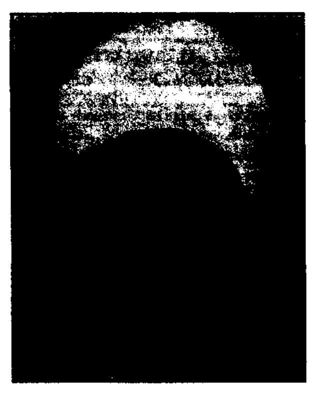
وفاته:

لقد كان رحمـة الله عليه دمث الخلق، لين الجانب، ورعا تقيـا، وكان يمتاز بالقوة الجسدية والعقلية والخلقية، ويـمتاز بحسن الحديث، وقد أجمعت القلوب على حبـه وإكباره، ولقد أطال الله فى عـمره حتى امتـد إليه وهن الشيخـوخة وضعفت قوته، وقـد وافته منيته بعد عمر ناهز المائة عـام وانتقل إلى رحمة الله ولحق بالرفـيق الأعلى ١٣٦٤هـ- ١٩٢٧م ولم يـذكـر المؤرخـون مـكان دفنه، ويرجح أنه دفن كـما دفن أسـلافه الكرام.. تغـمد الله الفـقيـد بواسع رحمـته وأسكنه فسيح جناته[1].

---

(١) صوت الأزهر: بقلم وريشة د. عبد الله سلامة نصر صـ١٠ فى ٢٠٠٧/٨/٣١م.

٢٩- فضيلة الإمام الشيخ محمد الأحمدي الظواهري



قال عنه الدكتور عبد الله سلامة نصر:

ولا يزال الحديث موصولاً عن دور الأزهر ودور أئمته الرائد في حياة الأمة والعالم الإسلامي ودور الأزهر كبير وعظيم جداً، لأنه قد يتبادر إلى الذهن أن الأزهر ليس أكثر من معهد أو جامعة للعلوم الدينية والعربية، أو في غيرها من العلوم الإنسانية والاجتماعية، وهذا صحيح.. وهو جزء أساسي من مهمة الأزهر المنوطة والملقاة على عاتقه. وهذه المهمة هي جسم الأزهر، وليست الروح!! فقد يتخرج آلاف الناس من الأزهر، ويحملو الشهادات العليا، ولكنهم لم يستوعبوا أو يعوا حقيقة رسالته، وكذا رسالتهم أيضًا، وحتى لو وعوها بعقولهم.. ولم تنفعل بها قلوبهم ولو انفعلت بها قلوبهم لم تتجه إليها إرادتهم.. لماذا؟ لأنهم يعيشون عليها كموظف يتقاضى راتبًا.. وظيفة يتعيش بها.. لكنهم لا يعيشون فيها، ولا يعيشون لها.. ولنضرب مثلاً أجراه شيخ حكيم على طلاب أراد أن يعرف مدى استعداد تلاميذه، ومقدار فهمهم لرسالتهم في الحياة.. نوجزه كالآتي: جمع طلابه، واختار أربعة واقترح عليهم أن يملأ كل واحد منهم حجرة الدراسة بما يمليه عليه تفكيره وشعوره.

فذهب الأول، فوجد في طريقه حطبًا كثيرًا فحمله وجاء به إلى الحجرة، وملأها به.. فقال له أستاذه: أنت رجل ضعيف الهمة تميل إلى العيش من أقرب طريق.

وذهب الثاني: فجاء بمجموعة من الكتب والمجلدات، فكدسها في الحجرة، فقال له أستاذه: أنت رجل نظري، تحسب أن الكتب كل شيء وتنسى كتاب الحياة الأكبر.. وذهب الثالث: فجاء بباقة من الأزهار والورود، فوضعها في الحجرة، فقال له الأستاذ: أنت رجل طيب القلب، تظن الحياة نعيمًا لا بؤس ولا شقاء فيها، ولا تذكر أن بجانب الورود أشواكًا مرمية.

وذهب الرابع: فجاء بشمعة فأوقدها فى وسط الحجرة، فنظر إليه أستاذه نظرة المعجب.. وقال له: لله درك أنت الذى فهمت سر حياتك، إن مهمتنا أن نضىء للناس الطريق.. وعلى ضوء هذا المثل، ينبغى أن نفهم رسالة الأزهر الأولى، ورسالة أبنائه وعلمائه أن نضىء للناس الذين يفهمون أن الأزهر مجرد جامعة لتخريج طائفة من الموظفين، ويخطىء الأزهريون الذين يفهمون هذا الفهم الشارد، ويظنون بأنفسهم هذا الظن الآثم، بل يجب أن يفهم الأزهريون أنفسهم ويفهموا أنهم ورثة الأنبياء وحملة الرسالة وهم هداة الخلق ودعاة الحق ورسل الخير، ومصابيح الظلام.

إن وظيفة الأزهرى هى أشرف وظيفة فى الوجود، لأنها وظيفة الأنبياء والمرسلين، ألا وهى الدعوة إلى الله على بصيرة وهداية الناس إلى جنة الخلد ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣]، إن الأزهر يصنع للإسلام رجالا يفقهون كتابه وسنة نبيه، ويتفاعلون مع الحياة التى يعيشون فيها فى كل مكان فى الداخل والخارج.. نعم إن الأزهر يدرس اللغة العربية ليفهم بها مصادر الإسلام، ويدرس العلوم الحديثة لينتفع بها فى خدمة الإسلام، فهو الآن مدرس وقاض وطبيب وعسكرى ومهندس.. إلخ ولكنه لا ينسى مهنته الأصلية ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلاَّ اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩]، ولن ينتهى دور الأزهر فى تخريج علماء ودعاة. كلا فالأزهر جامع وجامعة ولا ينبغى للجامعة الأزهرية أن تفقد دورها.. والأزهر مسئول دينيًا وشعبيًا وتاريخيًا فى تأدية حق الله، ناصحًا فى سبيل الله تعالى ولرسوله وللمسلمين جميعًا. وليس هذا خروجًا من الأزهر على اختصاصه، وتدخلافى شئون دنيوية أو سياسية كما يحسب بعض الناس، لأن الإسلام غير النصرانية، والقرآن غير الإنجيل.. والأزهر غير الكنسية، وعلماء الإسلام غير رجال الكهنوت، «لله ما فى السموات والأرض».

لنواصل الحديث عن الإمام الظواهرى من أئمة الأزهر الشريف.

فضيلة الإمام الشيخ الأحمدى الظواهرى.

نسبه ونشأته وبيئته وتوليته للمشيخة:

هو الإمام الشيخ محمد الأحـمدى بن العلامة الشيخ إبراهيم الظواهرى -ولد بقرية كفر الظواهرى من محافظة الشرقية «١٢٩٥هـ- ١٨٨٧م». وقرية الظواهرية أصلها من قبـيلة -النفعيات «تسـمى الآن النوافعية» نسـبة إلى نافع بن ثوران من قبيلة طى. . نشأ فى أسـرة كريمة، مشهورة بالصـلاح والتقوى، وكان والده من خيرة علماء الأزهر الشـريف المتصوفين، وكان جده إبراهيم صـوفى معروفا لدى جمـيع الطرق الصوفية فى مـصر والعالم الإسـلامى. . وأذيع عنه أن شاهد ليلة القدر، فـدعا فيهـا أن يغفر له ولذريته، ولكل من أكل طعـامه، فاستـجاب الله دعاءه وأذيع هذا الخبر، وانتـشر بين الناس، فتهافتـوا على بيته، يطلب كل منهم رغيفًا أو كـسرة خبز، لينالوا المغفرة، والمطالع لتاريخ قـرية «الظواهرى» يتبين له أنهـا قرية ذات شـأن، فإليـها ينتـسب أدباء علماء لا حـد لكثرتهم من الأطـباء العباقـرة فى الميادين المختلفة، وفى هذه القـرية التى تعرف من ماضيـها. . عاش الأحمدى الظواهرى -طفولته الأولى، حـيث حفظ القرآن الكريم، وعرف بعض المواد المؤدية لدخوله الأزهر، ورحل للقاهرة وانتسب للأزهر، ودرس علومه على كبار شيوخـه وأصحاب الشهرة والصيت منهم، وبالمناسبة فـإن الأزهر وقتها كان يخوض حركـة إصلاحية نشـيطة متوقدة. . فقـد حضر إلى مصـر «جمال الدين الأفـغانى» وانضم إلى مـجلسـه أرباب اللسان والقـلم، من أبناء مصـر، وعلى رأسهم الشيخ «مـحمد عبده»، ومن سار على دربه ويذكـر أن «الرواق العباسى» كان هو المنتـدى لاجتماع تلـك النخبة من النبهـاء، والاستمـاع إلى ما يلقى من محاضرات ومحاورات ومناظرات.

وكان الشيخ الأحـمدى يحضر ذلك المنتـدى، ويستمع إلى ما يلـقى فيه، لا سيـما من الإمام «محـمد عبده حـتى تأثر به، وعقد النيـة على تبنى دعوته فى إصلاح الأزهر وإثراء الحـركة العلمـية، والتـعليمـية فيـه، وذلك إذا سنحت له الفرصة، وقد كان!!

ومن الجدير بالذكر، أن والد الشيخ الظواهرى كان زميلاً للشيخ «محمد عبده» ولكن طبيعة كل منهما كانت مخالفة للآخر. فقد كان الشيخ إبراهيم مفرطًا فى التصوف، وما ينسب إليهم من كرامات، وكان الشيخ «محمد عبده» يؤمن بالعقل المفكر، والأقيسة المنطقية، ويعيب على الصوفية عكوفهم على الأضرحة، وتقديس المشايخ، وهذا طبع لا يقبله الدين الإسلامى، ولا يقره عقل، وإذا كان الإمام «محمد عبده» لا يخلو من نزعة صوفية روحية يلتزمها فى سلوكه وتصرفاته، وينصح طلابه بأن يدرسوا كتاب «إحياء علوم الدين» للغزالى الذى ينقى الدين من تلك الترهلات العقائدية. ولقد تأثر الشيخ «الظواهرى» بأبيه وقد سماه «الأحمدى» تيمنا باسم «السيد أحمد البدوى» ولكنه تأثر بالإمام «محمد عبده» أيضًا فكان معجبًا بأسلوبه فى الكتابة والبحث والتدريس، مؤمنًا بأسلوبه الإصلاحى للأزهر، وكان دائم التردد على زيارة الأضرحة، وقد كتب ابنه د/ فخر الدين الأحمدى الظواهرى طائفة كبيرة من ذكريات والده فى كتابه «السياسة والأزهر» أورد فيها طائفة من حكايات الشيخ الإمام مع هؤلاء الدراويش، وهذا الكتاب فيه الكثير من مذكرات الشيخ، والمقام لا يتسع لذكر بعض هذه المذكرات من أرادها فلينظرها.

ومع ذلك فقد كان «الظواهرى»، عند سرده لخواطره كان متأثرًا بالشيخ «محمد عبده»، ويعتبر كل ما يفعله الدراويش وما يقع معهم من أحداث مرجعها الصدفة، وأن الله سبحانه هو العليم بما فى الصدور، واهب الخير ومنه الأمر، وملقى المعرفة، وملهم الصواب، ومن هنا يظهر لنا أن «الشيخ الظواهرى» كانت تتنازعه العقلانية متأثرًا بالإمام «محمد عبده» ومتأثرًا بالعاطفة الوجدانية متأثرًا بأبيه وجده.

وأما آراؤه الإصلاحية للأزهر فهى مستقاة من آراء الشيخ «محمد عبده» فى التطور والمنهج ولهذا كانت صوفيته مغايرة إلى حد كبير لصوفية أبيه، فقد اتخذ من التصوف وسيلة للدعوة إلى الله على بصيرة، ولمقاومة البدع والخرافات والتواصى بالخير يقول: «لعل قراءتى لكتاب -حكم ابن عطاء السكندرى- وهو من أهم كتب التصوف، قد أذكت فى نفسى نزعة.. فسرت فيها منذ الطفولة.. هى نزعة التعلق الروحى بالذات «الصمدانية»، لكن الصوفية التى رغبتها لنفسى

فى أيام شبابى.. كانت صوفية مغايرة لما اعتاد عليه القوم، وقتئذ، أن يشوهوا بها هذه الناحية العظيمة من التدين. ويقول: لهذا قد وضعت فى برنامج حياتى منذ تخرجى أن أفتح فى الصوفية فتحا جديداً وأنقيها مما علق بها من الخرافات والمشوهات. ولأرفعها إلى ما هى جديرة به من المستوى العالى فى التقرب إلى ذات الله.. فاتخذ من ذلك سلمًا لإرشاد الناس، كما يجب أن يكون الإرشاد مبنيًا على الأصول الدينية الصحيحة، وحينئذ أكون قد أرجعت الصوفية إلى العلماء والفقهاء وأرجعتهم للصوفية أيضًا».

وأما دراسات -الشيخ الظواهرى- العلمية فلم يلتزم فيها بكتاب معين، ولم يتقيد بحضور درس على شيخ معين إلا الشيخ «محمد عبده» لأنه كان ذا طبيعة نزاعة إلى المعارف والعلوم، ينشدها أنى وجدها، ويواصل «الظواهرى» قوله: «ولهذا نرى أن ظهورى فى حلقات الدرس لم يكن كظهور باقى الطلبة فلم اشترك مع الطلبة فى الحى الأزهرى هناك فى المآكل والمشرب وباقى اجتماعاتهم، ولهذا أشيع عنى الانصراف عن العلم والتعليم، لكنى كنت منشغلاً بالدروس فى المنزل»، ويقول: «عندما دخلت امتحان العالمية -ورأس اللجنة الإمام «محمد عبده» وبدأت إجابة السؤال الذى أنا بصدده ودخلت فى جوهر الموضوع مباشرة، وانتهيت من تقرير البحث، وانتظرت.. ولكن الإمام ظل صامتًا، فخطر لى معاودة الكلام فى نفس البحث بأسلوب آخر، فقلت والحاصل. فرد على الإمام لماذا تعيد الكلام؟ لقد تكملت كلامًا طيبًا وعالجت البحث علاجًا رائعًا، والأحسن أن تنتقل إلى بحث آخر، وأعضاء اللجنة بدأوا المناقشة، وفجأة قال الإمام «محمد عبده»: «إن ترتيبك فى أبحاثك وطريقة عرضها طريقة جميلة» وسأتخذ معك طريقًا آخر.. وأخذ يقلب أوضاع المسائل ويخرج من علم إلى آخر، وقد طالت المناورة بضع ساعات على خلاف المألوف، فطلبت نفسى شربة ماء لشدة ظمأى فغالبت نفسى تأدبًا وحياء من اللجنة.. لكنى أخيرًا طلبت الماء.. فقال الشيخ «محمد عبده» أنت تستحق «شربات».. لا ماء فقد أحسنت أيم إحسان وأرسل فى طلب «سطل» من الخروب فشربت وشربوا، وبعد ذلك قال الإمام لقد فتح الله عليك يا أحمدى، والله إنك لأعلم من أبيك ولو كان عندى أرقى من الدرجة الأولى لأعطيتك إياها.

ونرى من ذلك أن الشيخ محمد عبده كان رجلاً قوى الرأى، قوى الأخلاق، ولم ينظر للخلافات الفردية، فلم يغمط الرجل حقه.. وهذا شأن العظماء، يفتحون الأبواب أمام المواهب ويرعونها حتى تؤتى أطيب الثمرات، وهكذا ألف الإمام محمد عبده رجالاً وكتبًا وأوجد نهضة علمية لتعطى أكلها كل حين.

تولية الشيخ الظواهرى للمشيخة:

عرف الإنجليز سمو فكر الشيخ المراغى ورجاحة عقله فى السودان، وأنهم يستطيعون التفاهم معه عند الحاجة إليه، وعينه الملك فؤاد شيخًا للأزهر، نتيجة لأمور لم يرض عنها الشيخ المراغى فقدم استقالته للمرة الأولى، وصدر القرار بتعيين الشيخ الأحمدى الظواهرى -شيخًا للأزهر- فى ٧ جماد أول سنة ١٣٤٨هـ ١٩٢٩م وقد أفاض المؤرخون وغيرهم فى الحديث عن الإمام الجليل الشيخ الظواهرى، وذكر مفاخره ومآثره، ولقد حاولت أن أرسم صورة واضحة لحياته الثرية والإنجازات الوثابة، فقد تولى الشيخ الظواهرى المشيخة والأزهر على مشارف حركة إصلاحية رائدة، ومسرحًا لنهضة علمية مشتعلة حماسًا وحمية على الأزهر والإسلام، وترقب الأزهر خيرًا على يد شيخه الجديد الذى أعلن منهج الإصلاحية من قبل ذلك، وسجله فى كتاب «العلم والعلماء» وهو كتاب قيم، وصفه كتاب المستشرقين فى دائرة المعارف الإسلامية قال أحدهم: «إن روح الإخلاص والصفاء التى تظهر فى هذا الكتاب لتعد نادرة حتى بيننا نحن المسيحيين، فما بالك بالإسلام الذى دب فيه الجمود».

ومن العجيب جدًا فى هذا الكتاب الجمع بين وجهة النظر الإسلامية، والإحساس بفائدة ما يأتى من مصادر أخرى، فالمؤلف يرى أنه يجب على المسلمين أن يأخذوا العلم من أى مصدر كان.. شرقًا أم غربًا، وأن المواد التى يجب دراستها هى الدعوة للإسلام ويرغب المؤلف فى عقد المؤتمرات السنوية لبناء فكرة الجامعة الإسلامية، ثم يعين وسائل الثقافة اللازمة لكبار العلماء، إلى أن قال فى كتابه «العلم والعلماء» إنه يجب تطهير الإسلام من الخزعبلات والعوائق التى تشوه معانيه وترهقه.. والكتاب على كل حال.. برهان ساطع يوضح أن مؤلفه وكاتبه على عقيدة راسخة وإيمان بالمثل العليا وكان الإمام الظواهرى،

متأثرًا بالإمام محمد عبده- كما ذكر. وقد سبقه إلى ذلك الشيخ المراغى إلى دروب الإصلاح، فلما ولى الشيخ الظواهرى بعده المشيخة، وضع خبرته وتجاربه، وما استفاده من المراغى، فى مذكرة عامة لإصلاح شئون الأزهر. ولقد تصارعت ثلاث سلطات فى ذاك الوقت حول مشيخة الأزهر لما للأزهر من مكانة فى العالم الإسلامى، وفى نفوس الشعب المصرى المفطور على التمسك بالدين، ولما للأزهر من فاعلية فى توجيه واختيار السلطات الحاكمة، وهذه السلطات تتمثل فى ثلاث جبهات:

١- الحاكم الرسمى للدولة «الملك».

٢- سلطة الشعب ممثلاً فى الدستور.

٣- قوة جيش الاحتلال وقوة سلاحه، وهذه الأحزاب الثلاثة تضارب بعضها ويتخالف هذا ضد الآخر. ولما توفى الإمام «أبو الفضل الجيزاوى» شيخ الأزهر تطلعت كل قوة منها للسيطرة على الأزهر عن طريق شيخ جديد موال لها، يساعدها على نشر نفوذها بين الطلبة والعلماء. أما الملك فكان رجله المفضل هو الشيخ «الأحمدى الظواهرى» يثق به، ويعتقد أن الإرتكان إليه يعطيه قوة فى تنفيذ ما يريده من إصلاح، والحزبان الآخران يرشحان للمشيخة الشيخ المراغى وسلطة الاحتلال تتظاهر بعدم التدخل فى الشئون الدينية، لكنها حريصة على أن تحرم الملك من الهيمنة على الأزهر، حتى لا يطغى سلطانه عن طريق رجال الدين. وتولى الشيخ «الظواهرى» المشيخة بعد استقالة الشيخ «المراغى» كما ذكرنا.

ومن الواضح أن الشيخ الظواهرى كان له حركة دائبة فى نصرة الإسلام والتمكين له والعمل على رفع شأنه، وإعلاء لوائه، وأنه كان جريئًا فى الوقوف إلى جانب ما يرى أنه الحق، لا يمارى ولا يوارى ولا يداهن، ومن أجل هذا كان ذا مكانة لدى المصريين جميعًا: العلماء وغير العلماء، وما كاد يتولى المشيخة، حتى شكل لجانًا لتحقيق ما كان يتعطش إليه من الإصلاح الشامل الذى كان ينشده الإمام «محمد عبده وغيره من ذوى الهمة والغيرة على الأزهر -والذين طالبوا بهذا فى عزم وجد فى أن يتبوأ الأزهر مكانته العلمية والسياسية والتثقيفية فى مصر

خاصة والعالم الإسلامى على وجه العموم. وأعماله فى هذا المجال من الكثرة أكثر ما تحصى. ومنها على سبيل المثال لا الحصر.. آثارة العلمية وتأثيره.

ونواصل دور الأزهر ودور أئمته فى نهضة الأمة الإسلامية فى هذه الآونة ونحن فى القرن الحادى والعشرين تواجه الأمة الإسلامية موجة عاتية من الجحود بالقيم والإلحاد فى الإيمان والتحلل الأخلاقى والتقليد الأعمى، أفكار ضالة عمياء فرضها علينا الغرب ضمن خطة هدفها تدمير الأمة الإسلامية والعربية.. ولقد أشرنا لهذا فى التقديمات السابقة تلك الموجة الهمجية المدبرة التى يجرنا فى تيارها الغرب الملحد -الشيوعى والرأسمالى- الذى طغى على النفوس والأفكار، والأزهر الشريف هو الوحيد برجاله يقف سدًا منيعًا فى وجه كل من تسول له نفسه أن يمس كرامة الإسلام والمسلمين فماذا يفعل الأزهر؟ غير أن يسلح شبابه وعلماءه بسلاح العلم والحكمة والموعظة الحسنة، وأن يقدم لهم الإسلام الذى يخاطب العقول الواعية والمتفتحة وروحهم المتوثبة ومعارفهم المتطورة وطاقاتهم المتجددة، والإسلام فيه من السعة والمرونة ما يقدم به لكل مرتبة من الناس ما يناسب درجتها وليس من الحكمة أن يخاطب العامى بما يخاطب به المثقف، وقد قيل: «خاطبوا الناس على قدر عقولهم أو بما يفهمون أتريدون أن يكذب على الله؟» فواجب علماء الأزهر مطاردة الأفهام الخاطئة المتحجرة، والتصورات السقيمة عن الإسلام.. فالإسلام ليس دين «دردشة» وانقطاع عن الحياة!! ولكنه دين عمل وإنتاج، ونحن إذ أفهمنا الشعب دينه على هذ النحو فقد استحققنا أن نكون من معلمى الخير والحب والإحسان ومن الذين عظمهم الرسول ﷺ حيث قال: «إن الله وملائكته وأهل السماء وأهل الأرض حتى النملة فى جحرها وحتى الحوت فى البحر.. ليصلون على معلم الناس الخير».

والمد الإسلامى المتصاعد -الصحوة الإسلامية- التى تتمثل فى الجيل الجديد من شباب الجامعات والمعاهد، الذى ظهر فى كل البلدان.. يقيم الشعائر، ويحيى من السنن ما مات، ويقاوم من البدع ما انتشر.. والواجب على الأزهر، أن يقف مع هذه الصحوة -وهذا واجبه- ويساندها ولا يخاصمها ولا يتركها تتخبط ويأخذ

بيدها ويقيل عثرتها بعلم وحكمة ورفق ورحمة، وحسبنا قول الله سبحانه لرسوله ﷺ: **«ولو كنت فظًا غليظ القلب لانفضوا من حولك»**. . وللحديث بقية.

آثاره العلمية وتأثيرها:

إن للشيخ الإمام «الظواهرى» أعمالا جليلة قبل اعتلائه كرسى المشيخة أوضحت أنه كان يتمتع بعقلية إدارية ناضجة من الطراز الأول، عقلية متفتح مبكرة مع علم غزير، ويدل على ذلك عندما تم إنشاء «المعهد العالى» بمعهد طنطا الدينى الأزهرى حرص المسئولون على أن يحشدوا فيه المواهب الفنية من المدرسين وما كاد الشيخ الأحمدى يحصل على «الشهادة العالمية» من الدرجة الأولى حتى رشحته مواهبه للتدريس بالقسم العالى بهذا المعهد فانتدبه شيخ الأزهر للتدريس فيه، مع أنه كان صغيراً السن، ولم تكن لديه خبرة سابقة بالتدريس قبل ذلك والمعروف أن معهد طنطا يعد من أقدم المعاهد الأزهرية بالمحافظات والأقاليم حينذاك، وهو يلى الجامع الأزهر فى المنزلة ويمنح طلبته وخريجيه «شهادة العالمية» ومن هنا نرى أن انتداب الشاب «الأحمدى الظواهرى» للتدريس بالقسم العالى فيه وسنه لم تتجاوز السابعة والعشرين، وطلبة القسم العالى يكبرونه بكثير وكانت مفاجأة كبرى للطلاب والعلماء على السواء ولكن الشاب الواثق من علمه ومادته والموهوب فى عمله أجاد وأفاد ولفت الأنظار إليه، واتسعت حلقته العلمية، وأقبل عليه الطلاب والدارسون إقبالاً منقطع النظير لأسلوبه الواضح القوى وفصاحته البالغة فى شرح المشكلات العلمية وتذليل الصعاب أمام الطلاب وتوضيح ما استغلق عليهم فهمه إضافة إلى حسن مظهره وبشاشة صورته وحسن هندامه، وكان إلى جانب قيامه بالتدريس يباشر دعوة الصوفى على نهج الطريقة «الشاذلية» وأقبل عليه الجمهور.

وكما أقبل عليه الطلبة بدأ ينتقل بين المدن الكبرى داعيًا إلى الله، ونجحت دعوته واهتدى على يديه الكثيرون، وتركوا المنكرات وشرب الخمر والمخدرات ولعب الميسر، وأقبلوا على الطاعات وكان يصلح بين الناس وفى هذه الفترة ألف كتابه «العلم والعلماء» يدعو فيه إلى الإصلاح، وينتقد فيه عيوب التدريس وأساليب العلماء، ويقول فى هذا «كانت النفوس وقتها مستعدة لفكرة الإصلاح وقبولها فقد كان الشيخ محمد عبده يجاهد لأجله منذ بعض الزمن، فنجح فى

لفت أنظار أولى الأمر إلى الأزهر، وكان العامل الحقيقى فى عرقلة تنظيم الأزهر على برنامج شامل مرجعه سببان: أولهما: بعض العلماء وعدم رضاهم عن فكرة الإصلاح. وثانيهما: نفور سياسى بين الخديوى «عباس» حاكم مصر وبين «محمد عبده»، وفى هذا الجو الملبد بالغيوم.. ألف الإمام الظواهرى كتاب «العلم والعلماء» يسخط فيه على حال الأزهر ومشايخه ورجاله وغضب الكثير على الكتاب ومنهم الخديوى ماعدا رئيس النظار «الوزراء» وقتها فقد أعجب بالكتاب واستقبل الشيخ الظواهرى فى مكتبه قائلاً: «الحمد لله إنى عشت حتى رأيت من يجهر من مثلك لما كنا فى حاجة إلى إنشاء «دار العلوم» وقال له: «أنت شجاع فى كتابك فكن شجاعًا فى عملك ولقد وقف المسئولون ضده ونصحه والده بالهدوء وبشره بأنه سيكون شيخًا للأزهر وبعدها يستطيع فعل ما يشاء والجدير بالذكر أن الشيخ «الظواهرى» كان يدرس لطلبة العالمية أمهات الكتب مثل «مختصر ابن الحاجب فى الأصول» و«العقائد النسقية فى التوحيد» و«آداب اللغة العربية للعسكرى» و«دلائل الإعجاز -بلاغة» والبخارى والنسفى وكل هذه الأمهات كان يدرسها فى وقت واحد على طلاب العالمية وهذا يدل على سعة علمه الغزير.

وتقلد الإمام «الظواهرى» شياخة معهد طنطا، وحاول إصلاح المناهج ووسائل التدريس بالمعهد ولم يوافق المجلس الأعلى على برنامجه الإصلاحى.. فاعتمد الشيخ على نفسه فى التطوير داخل دائرة اختصاصه كما قام بإنشاء جمعيات ولجان كثيرة هدفها الإصلاح وخدمة المجتمع، نشير إلى بعضها:

١- جمعية علم التوحيد تبحث فى شبهات الإلحاد والرد عليها.

٢- إلقاء محاضرات من علماء خارج الأزهر.

٣- إنشاء جمعية الخطابة من طلبة المعهد -للوعظ.

٤- جمعية متن اللغة والبلاغة.

٥- الرياضة البدنية- لتشجيع الطلاب على ذلك.

٦- جمعية الرحلات لسفر الطلبة للأماكن التاريخية، مجلة معهد طنطا- من ماله الخاص تعبر عن الكثير.

٧- أقام جمعية المراقبين والملاحظين للإشراف على الطلبة داخل وخارج المعهد. . إلخ وهذا كله سجل.

وتوالت الإصلاحات والأحداث فى سنة ١٩٢٥م تجددت الدعوة لإصلاح الأزهر والنهوض به وتألفت لجنة برئاسة رئيس الوزراء وبعض النواب والشيوخ وكان من أعضائها أحمد لطفى السيد وعبد العزيز جاويش والشيخ المراغى والشيخ الظواهرى، وانتهى الرأى إلى إلغاء مدرسة القضاء الشرعى «كلية» ودار العلوم بشرط أن يكون الأزهر تابعًا لوزارة المعارف. . وتكون لها السيطرة عليه على أن يبقى لشيخ الأزهر مظهره الدينى وكان رأيًا خطيرًا. . معناه إلغاء الأزهر واستقلاليته. . وهدم مكانته التاريخية ومكانته فى العالم الإسلامى، وهذا ما يريده الإنجليز منذ قديم الزمن، وهو القضاء على الأزهر وهنا وقف الشيخ الأحمدى الظواهرى موقفً شجاعًا كريمًا ثار على هذا الرأى وقال: إنكم بهذا تريدون القضاء على الأزهر والنفوذ الدينى فى البلاد، وهذا ما يريده الاستعمار، ثم قدم مذكرة باعتراضه هذا إلى الملك فؤاد وبعد المناقشة والتداول والإقناع -رفض ضم الأزهر للمعارف. . ومن أعماله أيضًا ما حدث سنة ١٩٢٦م فى المؤتمر الإسلامى الذى عقد بمكة نجح فى كسب اتخاذ قرار بإعلان وحدة مصر والسودان -ولقد خطا (الظواهرى) خطوات فى طريق الإصلاح، فأصدر قانونًا بالآتى:

١- إنشاء كلية الشريعة لتخريج علماء الإفتاء إلخ.

٢- كلية أصول الدين -لتخريج مدرسى الدين بالأزهر والمدارس الأخرى.

٣- كلية اللغة العربية، وحددت فيها مدة سنوات الدراسة، والمواد التى تدرس فى كل مرحلة، وإنشاء المجلس الأعلى للأزهر. . ومن الملاحظ أن الشيخ (الظواهرى) لم يستطع تحقيق كل ما كا يطمع فيه والمسجل فى كتابه - العلم والعلماء- وذلك لاعتبارات سياسية، وضاعت آمال العلماء والطلبة. . والذى زاد الأمر تعقيدًا أن العالم كله كان يمر بأزمة اقتصادية خانقة، فلا وظائف للخريجين من كل الجامعات، وبدأت الأمور تنقلب ضد الشيخ الظواهرى من الخارج ومن داخل الأزهر نفسه، أضف إلى ذلك التيارات الحزبية والسياسية، فضيق عليه

الخناق.. فقدم استقالته فى ٢٣ محرم ١٣٥٤هـ ١٩٣٥م -وأعيد الشيخ (المراغى للمشيخة) للمرة الثانية، ومن مآثر الشيخ (الظواهرى) الجلية والتى مازالت باقية - هى إنشاؤه (مجلة الأزهر) وإيفاد دعاة لنشر مبادئ الإسلام فى الخارج، ولو استقرت الأمور فى عهده، ولو أنه تسامح بعض الشىء مع السلطان!! لجاء بالخير الكثير والفضل العميم، ويكفى أنه أعلى صوت الأزهر وأصبح مسموعًا يحتل مكانته الرائدة وفى مقال نشر بجريدة الأهرام وقتها، يقول: «إن الإمام الظواهرى» كان من تلاميذ -محمد عبده- فهو يذكره فى كتابه (العلم والعلماء) صراحة، وينهج نهجه فى التعليم، ويدعو الأزهر إلى ترسم خطاه -والمعروف أن الإمام (الظواهرى) كان فيلسوفًا ناشئًا إن لم يكن يعلم ذلك عن نفسه، وأجمع العارفون به على ذكائه وقدروا له مكانته الإصلاحية، وأن كل جديد حدث فى الأزهر من منشآت وإصلاح كانت بصماته، وأدخل علومًا جديدة لم يدرسها الأزهر مثل: اللغات الأجنبية (شرقية وغربية) واقتصاد سياسى -وقانون دولى- وعلم نفس، وغير ذلك من العلوم -وأقول مرة ثانية لو أن الظواهرى هادن وسالم الحاقدين عليه من ذوى النفوذ، وأخذهم بالحسنى لما ترك لهم فرصة التقول عليه والإيقاع به لكن هكذا دائمًا كل مصلح ناجح محسود.

مؤلفاته وتصانيفه

نقول: لو لم تكن المشاغل الجسام والهموم المتراكمة، والأحداث المتوالية، والتيارات السياسية، والأكاذيب الباطلة، التى حدثت فى عهد الشيخ (الظواهرى) هذه الأمور.. حالت بينه وبين التأليف، ولو تفرغ له لأنتج إنتاجًا قيمًا بفكره المنتظم وثقافته الواسعة وذكائه المتوقد، وعلى الرغم من ذلك كله، فإنه ترك لنا ثروة من مؤلفاته القيمة لا بأس بها، منها ما طبع، ومنها ما يزال مخطوطًا مثل ذلك:

١- العلم والعلماء -وقد نوهنا إليه وإلى بعض محتوياته.

٢- (رسالة الأخلاق الكبرى) وقد لخصها وطبعت على نفقة الأزهر.

٣- السياسة والأزهر -مجموعة مذكرات ومقالات.

٤- كثير من المخطوطات تزيد على الثمانية، مخطوطات كتبها فى شبابه -فى مكتبته...

وفاته:

وهكذا.. كان الإمام (الظواهرى) صلبًا فيما يعتقده حقًا، حريصًا على إقرار النظام، وسيادة القانون، ولقد واجه ضغوطًا شرسة من الطوائف الحزبية ومن بعض العلماء فقابل كل هذا بالحزم والشدة، وكان يرى أن الأزهر لا يتقدم إلا فى ظل الهدوء والسكينة، واحترام القانون.

وكان رحمة الله عليه -على ما عرف عنه من الشدة- إلا أنه كان متواضعًا زاهدًا فى الدنيا، لا يحب المدح أو الإطراء -كان يقول دائمًا للناس: (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) وما أنا إلا خادم للأزهر وأبنائه وكان الشيخ (الظواهرى) يسير إل هدفه بجد وحكمة، لا يكل ولا يمل من عمل يعمله أو يقوم به وكان الملك فؤاد يثق فيه ثقة مطلقة.. منذ عهده به كان يستدعى أحيانًا من طنطا فى مقابلات خاصة يستشيره فى كثير من الشئون الدينية والمدنية، ومع هذا لم يملؤه الغرور أو الزهد.. وظل متواضعًا زاهدًا مع ثرائه وسعة رزقه.

وفى بداية حياته كان حريصًا على أخذ نفسه بالشدة وتعويدها على عظائم الأمور، واحتمال المشقات فقد ألف كتابه «العلم والعلماء» بعد تخرجه مباشرة وادخله هذا المؤلف فى دائرة الشك والريب والعدل من الداعين لـلتمسك بالقديم، وأوعزوا للإمام -الشربينى- بإحراق هذا الكتاب، وأشرنا لذلك..

وامتاز الشيخ رحمه الله بقوة العزيمة وتنفيد ما عزم عليه فورًا وكأنما خلق ليكون إداريًا من الطراز الأول.. وقائدًا من الموهوبين.

وبعد فهذا هو الإمام (الظواهرى) وهذه أثاره من حياته قبل اعتلائه عرش مشيخة الأزهر وبعدها.. وهذه شهادة حق ودليل صدق على الجهود الشاقة التى بذلها فى سبيل الإسلام فى مصر وخارجها، وفى سبيل الأزهر الشريف وبرامجه الإصلاحية، وحركته العلمية، وقد استقال من منصبه سن ١٩٣٥، وعاش ما بقى من حياته برًا كريمًا حتى لبى نداء ربه الكريم سنة ١٩٤٤م فعليه رحمة الله وغفر له وأعطاه ثواب المخلصين الشاكرين الصابرين ولم يذكر المؤرخون شهر وفاته ولا المكان الذى دفن فيه وغالبًا دفن فى بلدته بالشرقية وهكذا.. دائمًا.. موت الأمة فى موت العالم[1].

---

(١) صوت الأزهر تعلم وريشة د. عبد الله سلامة نصر تاريخ الأعداد ٩/ ١١، ٣٠/ ١١، ٧/ ١٢، ١٤/ ١٢/ ٢٠٠٧م.

توفى رحمه الله فى ١٣ مايو عام ١٩٤٤، وقد تولى المشيخة خمس سنوات كان الأزهريون والشيخ فيها فى نضال مستمر، مع ما كسب الأزهر فيها من استتباب الدراسة وقوة الروح العلمية.

ولى مشيخة معهد طنطا، فى سن مبكرة، وبقى شيخا له، إلى أن نقل شيخا لمعهد أسيوط، فى أكتوبر - ١٩٢٣ فأحسن الناس استقباله وراقهم فيه فخامة مظهره، وفصاحة منطقه، وسخاء يده. وسرهم أن يروا لشيخ العلماء مهابة خاصة.

ولكن الشيخ فى أسيوط، لم يكن يفارقه الحزن إلا قليلا، لأنه نقل إلى أسيوط، وهو غير راض بنقله، لذا كان كثير المرض، كثير السفر قليل الاهتمام. بالحياة.

وله على معهد أسيوط فضل كثير، إذ نقل الدراسة من المساجد وأنقذ الطلاب من افتراش الحصر، واستأجر للدراسة قصورا فخمة واسعة، فى مناطق عامرة. وتنازل للحكومة عن مستشفى الحميات، وأخذ بدله تلك البقعة التى أقيم عليها المعهد الجديد، على شاطئ النيل بالحمراء، سنة ١٩٢٤. وحينما وضع الحجر الأساسى فى بناء المعهد، سنة ١٩٣٠ كان الشيخ شيخا للأزهر.

ولما عين الأستاذ المراغى، شيخا للأزهر سنة ١٩٢٨ وشاع الخبر فى أسيوط، اتفق أن أصيب الشيخ الأحمدى بمرض شديد، أثار حوله الأقاويل، ولكنه شفى منه، وبعد قليل نقل شيخا لمعهد طنطا، فى يوليو ١٩٢٧.

وفى أكتوبر ١٩٢٩ استقال الشيخ المراغى، وعين الشيخ الأحمدى، شيخًا للأزهر.

وفى ٢٨ أبريل ١٩٣٥ استقال من وظيفة المشيخة وعين الشيخ المراغى مكانه وفى المرة الثانية كانت مدة المشيخة أكبر من الأولى عام (١٩٢٨- ١٩٢٩) لذلك اكتفينا بالثانية التى كانت بغد الإمام الشيخ الظواهرى برقم (٣٠) ويقول الدكتور عثمان أمين عنه من كلمة له.

«يرجع اهتمامى بالشيخ الظواهرى إلى ما قرأته عنده لأحد المستشرقين، فى النسخة الفرنسية لدائرة المعارف الإسلامية، تعريفا بكتاب له عنوانه «العلم

والعلماء» نشر بطنطا سنة ١٩٠٤، وقد أحببت أن أقتطف من مقال ذلك المستشرق ما ترجمته إلى العربية: «إن روح الإخلاص والصفاء التى تظهر فى هذا الكتاب لتعد نادرة حتى بيننا نحن المسيحيين، فما بالك بوجودها فى الإسلام الذى دب فيه الجمود» ومن العجب جدا فى هذا الكتاب الجمع بين وجهة النظر الإسلامية والإحساس بفائدة ما يأتى من مصادر أخرى. فالمؤلف يرى أنه يجب أن يأخذ المسلمون ليس عن أوروبا فحسب، بل عن الصين واليابان أيضا. ويرى أن من بين المواد التى ينبغى دراستها الدعوة للإسلام، ويرغب المؤلف فى عقد المؤتمرات السنوية لبناء فكرة الجامعة الإسلامية. ثم يعين وسائل الثقافة التى تتطلبها لجان من العلماء، وإخراج دائرة معارف، ونشر التعليم الجامعى بين أفراد الأمة، كما قال إنه يجب تطهير الإسلام من الخزعبلات والعوائق التى تبهظه. والكتاب على كل حال برهان ساطع على عقيدة الكاتب الراسخة وإيمانه بالمثل العليا».

أغرانى هذا الوصف الذى قرأته فى باريس بالبحث عن الكتاب فى مصر. فلما قرأت الكتاب بنفسى انكشف لى منه أمران: أولهما أن مؤلفه كان من تلاميذ الأستاذ الإمام محمد عبده: فهو يذكره فى الكتاب صراحة، وهو ينهج فى التعليم نهجه، ويدعو الأزهريين إلى ترسم خطاه، وثانيهما أن هذا الشاب كان فيلسوفا ناشئا، وإن لم يكن يعلم ذلك عن نفسه، فإنه حين تكلم فى كتابه عن الكمال الروحى وعن الصوفية عالج هذه الأمور بروح فلسفية، ولعل الفلسفة أخذت سبيلها إلى نفسه، دون وعى ظاهر منه عن طريق أستاذه محمد عبده.

ويرجع توثق الصلة بين الأستاذ والتلميذ إلى سنة ١٩٠٢ حين تقدم الظواهرى لنيل شهادة العالمية إلى لجنة الامتحان المنعقدة برياسة محمد عبده، فأجاد فى الإجابة فأعجب بها الأستاذ الإمام، فأثنى عليه على مسمع من الحاضرين، ويقال إنه طلب له شيئا من شراب الخروب وقال له «لقد فتح الله عليك يا أحمدى، ووالله إنك أعلم من أبيك، ولو كان عندى أرقى من الدرجة الأولى لأعطيتك إياها». ولهذه الحادثة نفسها دلالتان: الأولى أنها تشير إلى ذكاء الأحمدى الظواهرى وسعة علمه اللذين اشتهر بهما منذ نشأته، والثانية أنها تشير إلى ما اتصف به الأستاذ الإمام من الإنصاف وقوة الأخلاق: فقد كان بينه وبين الشيخ

إبراهيم الظواهرى -والد الشيخ الأحمدى- خلاف فى الرأى والمنازعات، لأن إبراهيم الظواهرى كان من الشيوخ المحافظين الميالين إلى تصديق الكرامات والاعتقاد بقصص المجاذيب والأولياء، وكان الشيخ محمد عبده يستنكر ذلك، لكنه لم يتأثر فى حكمه على الابن بما كان بينه وبين أبيه.

وفى مكتبته ذخيرة من العلم المخطوط بيده، هى مجموعة من مؤلفات كتبها فى شبابه منها «خواص المعقولات فى أصول المنطق وسائر العقليات» و«التفاضل بالفضيلة» و«الوصايا والآداب» و«صفوة الأساليب» و«حكم الحكماء» و«براءة الإسلام من أوهام العوام» و«مقادير الأخلاق» ولكن مخطوطًا منها استوقفنى لطرافته، وعنوانه «الكلمة الأولى فى آداب الفهم». وقد أراد به أن يكون بمثابة ضابط عقلى أو قانون كلى، لرفع الخلاف القائم فى كيفية فهم المتأخرين لأقوال المتقدمين من المؤلفين فى العلوم الدينية. وقد جاء فى مقدمة المخطوط: «لقد دعانى داعى الاستكمال والتمسك بأذيال الامتثال إلى مطالعة أسرار الدين للوصول عين اليقين، والنهل من مراقد الوهم وظلمات الجهالة إلى مراقى الفهم ونور الحق المبين»... «بيد أنه قد تباينت الطرق، وتنازعت الفرق، واختلفت أهواء الخلف فى كيفية الوصول إلى مرامى أنظار الأول، وإصابة الغرض المقصود من عباراتهم، وتفرقوا شيعًا فى تقرير المسائل، فكانت همة قوم فيما يرجع إلى المعانى الأصلية، ومال قوم إلى الخطابة والجدل، وآخرون إلى التخريج على المعنى البعيد أو التنبيه على احتمال جديد، وتنافس الجميع فى الاستشكال والتغليط، حتى إنه ليخيل إلى الناظر فى طرائقهم أن الحقيقة صعبة المنال، وأن اليقين مطلب محال.. فدفعنى ذلك إلى أن أضع علمًا شاملا وقانونًا جامعًا به تستفاد حقائق المعانى من أصداف الكلام، ويجمع الناظرين على أقوم طريق به يمكن الوصول إلى تمام المعنى بحيث يوقف القارئ البصير فى وقت قصير على كل ما فى الحواشى والتقارير. ويرف الخلاف القائم فى كيفية الفهم، ويزيل التشويش والإبهام، ويمكن أهل العلم من الانتصار على جيوش الأوهام».

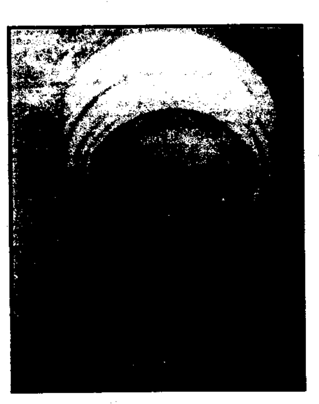
وقلما تحمس الظواهرى فى شبابه لإعلاء شأن الأزهر وإصلاح المسلمين، كما يتضح من كتاب «العلم والعلماء»، فأصابه من جراء ذلك ما أصاب غيره من

المصلحين، كما يتضح ذلك من مذكراته التى نشرها ابنه بعنوان «السياسة والأزهر». وتبين من الرسالة التى نشرتها مشيخة الأزهر هذا العام لمناسبة المعرض المصرى الأخير أن أكثر ما استحدث من منشآت وما تم من إصلاحات فى الأزهر الحديث كان للظواهرى فيه أثر بارز.. وبمقتض القانون رقم ٤٩ لسنة ١٩٣٠ الذى صدر فى عهد مشيخته أنشئت الكليات الأزهرية الثلاث، وبمقتضى القانون رقم ٣٧ لسنة ١٩٣٢ الذى صدر فى عهده أيضًا نظم التخصص، وغيرت مناهج التعليم فى الجامعة الأزهرية، لكى تتمشى مع التقدم العلمى الحديث. وبذلك دخلت الأزهر على يد الظواهرى دراسات لم يكن للأزهريين عهد بها من قبل، كاللغات الأجنبية، من شرقية وغربية والاقتصاد السياسى والقانون الدولى الخاص، وأصول القوانين ووسائل الدعوة إلى سبيل الله، والخطابة والإلقاء والمناظرة، وعلم النفس والتربية البدنية وغيرها، ويتبين من رسالة مشيخة الأزهر أيضًا أن الظواهرى قد سبق إلى التفكير فى إيفاد بعوث من الأزهر للدعوة للإسلام فى الخارج، فأوفد بعثتين للصين والحبشة وأنشأ مجلة «نور الإسلام» ووضع مشروع الأبنية الفخمة للجامعة الأزهرية الحديثة، وقد تمت فى عهده ثلاث من عمائره الكبرى.

وللشيخ الأحمدى أثر ظاهر فى ميدان آخر نحب أن لا يفوتنا التنويه به هنا. ويتجلى ذلك فى الأثر فى تقرير محفوظ بوزارة الخارجية المصرية فى المؤتمر الإسلامى الذى دعا إليه الملك ابن سعود، وعقد فى مكة سنة ١٩٢٦، ويتبن منه أن الشيخ الظواهرى استطاع وهو رئيس وفد مصر فى ذلك المؤتمر أن يكون واسطة العقد بين المؤتمرين، وأن يكون رسول سلام وتوفيق بين المتنازعين فى موضوع الحرية المذهبية فى أرض الحجاز، كما استطاع بقوة حجته وإقناعه أن يستصدر من المؤتمرين قراراً يصرح على رؤوس الأشهاد بوحدة مصر والسودان. ومما يجدر ذكره فى هذا المقام أن عبد الخالق ثروت وزير الخارجية المصرية وقتئذ قال حين علم بنجاح الشيخ الظواهرى فى ذلك المؤتمر: «لم أك أعلم أن الأزهر يخرج سفراء فى السياسة».

✿✿✿

٣٠- فضيلة الإمام- الشيخ محمد مصطفى المراغى



علم من أعلام الفكر الإسلامى المعاصـر، وشخصية نادرة من أشـهر الشـخصـيـات الإسلامـية فى القـرن العشرين. ورجل غريب بين زمـلائه وأقرانه فى العصر الذى عـاش فيـه، وزعيم روحى ألقـيت إليه مـقاليـد الأزهر فترة طويلة.

ذلكم هو الشـيخ محمـد مصطفى المراغى، تلمـيذ محمد عبـده، والعالم الأزهرى الواسع الأفق، العميق الثقافة، وقاضى القـضاة المصرى فى السودان، ورئيس المحكمة العليا الشرعية، وشيخ الأزهر من عام ١٩٢٨ إلى عام ١٩٢٩م ثم من عام ١٩٣٥ حتى عام ١٩٤٥م (١٣٦٤هـ) حيث وافاه أجله المحتوم.

كان المراغى مـثالاً نادرا فى الاعـتزاز بالنفس، والشـعور بالكرامـة، والإيمان بالإصلاح، وفى عـهد توليـه مشيـخة الأزهر وضع أسـاسًا قويًـا لصرح الأزهر العلمى برعايتـه لأقسام الدراسـات العليا فيه، وتشـجيعـه لطلابها وخريجيـها، وإشرافه على مواسمها العلمية، ومناقـشته لرسائلها. وكان الشيخ المراغى ذا قوة فكرية قوية عن الثـقافة الحديثة، ورغـبة حافزة فى صـبغ الأزهر بصبغتـها. وقد عمل على إخراج جيل جديد من العلماء المثقفين بشتى الثقافات، ونجح فى ذلك إلى حد بعيد، وكانت صلات المراغى بأقـطاب المجتمع والسياسة والفكر والأدب فى عهده عـونًا له على بلوغ آماله فى إصلاح الأزهر، وقد جـاهد جهادًا حثـيثًا للنهوض بهـذه الجامعة الإسـلامية الكبرى، ولبث روح الحـياة والإصلاح فيـها. وكانت مكانته فى نفوس الجماهيـر من العلماء والطلاب تساعده على الإصلاح. وكان أكثر الأزهريين تقديرا للكفايات من العلمـاء والطلاب وتشجيعا لها، كانوا يأخذون عليه تدخله فى السـياسة، وقيام إدارته فى الأزهر على العصـبية، ولكن ذلك شىء تافه لا يقاس بجانب ما أحدثه فى الأزهر من ثورة وحياة وتجديد.

لقد انتهت بعد المراغى الاجتماعات فى المناسبات الدينية التى كانت تضم الألوف من القادة والعلماء والطلاب والجماهير. وحوربت وعطلت أقسام الدراسات العليا فى الأزهر. وساءت أمور الأزهر، وضعف نشاطه العلمى.

استقال رحمه الله من مشيخته الأولى فى آخر سبتمبر سنة ١٩٢٩ على أثر تأخر صدور المرسوم الملكى بقانون الأزهر الجديد، وقد حاول رئيس الوزراء آنئذ وهو المرحوم محمد محمود باشا إقناعه بالعدول عنها، ولكنه لم يقبل، وصدر المرسوم الملكى بتعيين الشيخ الظواهرى شيخًا للأزهر فى أوائل أكتوبر سنة ١٩٢٩.

وأذكر أنه لما تولى المراغى مشيخة الأزهر للمرة الثانية، استقبله الأزهر استقبالاً كريمًا، وأقام له حفلة تكريم فى يوليو عام ١٩٣٥ بسراى معرض الجيزة بالقاهرة حضرها حشد كبير من الشخصيات الكبيرة ورجال الدين، ودعى ممثلو طلبة المعاهد الدينية لإلقاء كلمات فى هذه الحفلة، وكنت ممثلا لطلاب معهد الزقازيق الدينى، وكان ممثل الأساتذة الأستاذ الكبير الشيخ محمود النواوى وكنت قد أعددت حينئذ كلمة لإلقائها فى الحفلة، ولكن عدل عن إلقاء ممثلى المعاهد لكلماتهم، لضيق الوقت وكثرة الخطباء، وكان من هذه الكلمة التى أعددتها حينئذ، وأنا طالب فى السنة الرابعة الثانوية بمعهد الزقازيق الدينى:

فى هذا اليوم الخالد والحفل الحاشد تتحدث الأجيال عن الأزهر الشامخ وشيخه الجديد حديثا ملؤه الإعجاب والإجلال، لأنه حديث الأرواح ونجوى القلوب، أما الأزهر فهو الأزهر كما يعرفه الخاصة والعامة وكما يعرفه المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها وكما تعرفه الأجيال الغابرة والأجيال الحاضرة.. هو محط الرجال، وكعبة الآمال، ومجمع الدين والعلم والأدب ومفخرة مصر والشرق والعرب، هو قلب الإسلام الخافق ولسانه الناطق، وعلمه المرفوع، هو تلك الجامعة العظيمة التى أضفى عليها الزمان ثياب الجلال وأسبل عليها الخلود ستور الجمال، فحفظت للإسلام مكانته ورفعت للدين رايته ومدت على العربية ظلها الممدود، وحملت لواءها المعقود، وخرجت أئمة الهدى ومصابيح الحكمة وشعت منها أشعة النور فى كل بقعة ومكان - فالأزهر هو دعامة الأخلاق وحصن الفضيلة ومفخرة القاهرة وصرح مصر الخالدة، بل هو معجزة الدهور وآية القرون.. وما

دام للأزهر وجود فله رسالة فى الحياة تضارع فى جلالها رسالة الأنبياء ووحى المرسلين، وإن استمدت آيتها من آيتهم، وهديها من هديهم.

رسالة الأزهر هى العناية بنشر الدين، والسهر على مصالح المسلمين، وإحياء الأخلاق الفاضلة، وإقامة المبادئ العادلة التى جاء بها القرآن الكريم، وإيقاظ الشرق الراقد من غفلته، ليكون مهبط الوحى ومبعث النور ومصدر الهداية ورسول الحضارة، وقائد العالم كما كان الأزهر فى أيامه الماضية.

وإذا كان للأزهر مكانة وجلالة ومهمة ورسالة، فله رئاسة جليلة نصبها الإسلام عنه وكيلا وأقامها الأزهر له كفيلا، فالتفت حولها القلوب، وشايعتها الأرواح وآوى إليها الخائف والمظلوم والمكروب.

ولقد أدت مشيخة الأزهر للشرق والإسلام خدمات جليلة، فحفظت تراث السالفين وسهرت على تهذيب الناشئين، وأطفأت نار الشك ببرد اليقين.

ولما طفر التعليم المدنى فى مصر أقبل عليه الناس وجحدوا ما للأزهر من فضل وجميل، وطفقوا ينعون عليه جهوده، ويعيبون عليه جموده، حتى هزمتهم صيحة الإصلاح من رجل الإصلح الأول حكيم الإسلام وفقيد الشرق المغفور له الإمام محمد عبده، فعارضها المعارضون وسخر منها الجامدون، ولم يقدرها إلا أفراد قلائل كان من بينهم شاب ذكى وفتى نابه اقتفى أثر أستاذه الحكيم، هو الشيخ المراغى.

وجاء من خطبة فضيلة الأستاذ الشيخ على سرور الزنكلونى فى حفلة تكريم الأستاذ المراغى عام ١٣٥٤- ٣ يوليو ١٩٣٥ ما يلى: «الأزهر كما تحدث عنه التاريخ وكما تصورناه نحن حين رحلنا إليه فى نعومة الأظفار، وكما يعرفه المصريون وغير المصريين حين يخطر ببالهم، ويحجون إليه لطلب العلم، هو هذه الشخصية الكبرى البارزة فى العالم، والتى ينعكس منها على طلابه ورواده نور العلم وجلال الدين والتى عاشت ألف سنة إلا قليلا، وهى تصارع الأحداث والأحداث تصارعها بما لم يقو على احتماله أضخم بناء فى التاريخ، ولولا سر الله الخفى لتلاشى، فهو الذى حفظه ولا يزال يحفظه ويجدد مجده إلى اليوم.. إن

الأزهر كما تواضع عليه الناس هو الذى تحيا عليه علوم الإسلام والقرآن، وهى أسمى ما تستكمل به النفس الإنسانية قواها. والأزهر بمقتضى وضعه وطبيعته يجب أن يكون خالصًا لله وحده، فإذا ألمت به الأحداث وسلطت عليه تيارات الأهواء الملتوية فلله فيه نصيب كبير: دينه، وعلومه.. وهذا الشباب الغض من الطلاب الذين يبعثون إليه بنية صادقة ليتفقهوا فى دين الله ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون، لله فيهم النصيب الأوفر، والله غيور على دينه، وعلى وحيه. وعلى هذا الشباب الغض الذى يحب الخير ولا يريد إلا الخير.. ومن هنا تدركون سر بقاء الأزهر وثباته على كثرة ما نزل به من أحداث.. ما هى مشيخة الأزهر؟ لا أريد أن أتعرض إلى مشيخة الأزهر بالنظر إلى ما ورثته عن العواصم الإسلامية من خلافة العلم والدين، ولا إلى ما قامت به من جلائل الأعمال فى عصور مصر المختلفة ومواقفها المشرفة فى وجوه الظالمين، فذلك للتاريخ وحده، ولكنى أتحدث عنها الآن بالنظر إلى طبيعتها وإلى ما يفهمه الناس فيها قبل أن يحتكم الهوى وينتشر الفساد. إن مشيخة الأزهر الكبرى هى التى تقوم بمعونة الأساتذة والطلاب على حراسة الدين وإحياء تعاليمه، فإذا فكر العقل تفكيرًا مستقيمًا ولم يلتفت إلى زخارف الحياة الكاذبة، فلا يستطيع أن يدرك الجلال الحق إلا فى كنف هذه الرعاية السامية، لأن شرف الأشياء بشرف غاياتها، ومشيخة الأزهر تقوم على حراسة ما به تؤدى وظيفة الرسل عليهم الصلاة والسلام ووظيفة الرسل إذا أديت على غير وجهها فكلها خير وكلها سعادة، فإذا تنكب الأزهر الطريق يومًا، فليس ذلك من طبيعة الدين الذى يقوم على حفظه، ولا من طبيعة علومه التى هى نور العقل وقوة للإنسان، وإنما منشأ هذا التنكب هو القوى التى تتسلط عليه وتوجهه إلى طريقها، وإذن لا تلوموا الأزهر ما دام غير قائم على قدميه بنفسه، وإنما اللوم على من يمتلكون أمره ويوجهونه حيث تأبى طبيعته أن تتوجه... إن أعدل ميزان تعرفون به الفرق فى كل عصر بين رجل الأزهر القائم على حراسة دين الله وبين عبد الشهوات الجامحة وإن تربع بين الأزهريين ونال أكبر مناصبهم أن ترى عزة النفس وخشية الله ماثلتين فى رجل الأزهر خصوصًا إذا عظمت المحنة واشتد البلاء، أما عبد الشهوات فتراه دائما مغمورًا بخشية الناس والطمع فيما بأيديهم. وقلب المؤمن الصادق فى إيمانه لا يتسع لخشيتين، فأظهر

مظاهر الإيمان العميق خشية الله وحده إذا اشتد الخطب، وأظهر مظاهر الإيمان الرقيق الذى لا يزن مثقال ذرة أن يخشى صاحبه الناس أشد من خشية الله، وإن كثرت وتفرعت صور عبادته لأنها فى ميزان الدين والعلم ليست أكثر من صور كاذبة تولدها العادة أو الرياء.. إن الحقائق لا يغيرها ولا ينقص من جلالها الذاتى ما قد يطرأ عليها من أمراض وعلل تدفعها يد الشهوة على غفلة من أهلها، ولهذا يعاقب الله حراس الحقائق أولا فأولا، بمقدار غفلتهم وإهمالهم، ثم يكتب النصر لهم فى النهاية إذا ما انتبهوا.. أما المبطلون المفتونون باستشراء الضعف ليتمتعوا بباطلهم فلا يعاقبهم الله أولاً فأولاً، وإنما يمهلهم لتتجلى حكمة الله فى قوله: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ (١٨٢) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٣]. إن من الغرور وعدم الإنصاف أن يقال: ما فائدة الأزهر وأين جلال مشيخته؟ وأقوى رد على هذه الغفلة وهذا الغرور أن نقول لأصحابهما: إذن ما فائده علوم الحياة كلها؟ وهى اليوم تولد الجشع فى قلوب الأمم وتقلبها سباعًا كاسرة وحيوانات مفترسة.. فالدين خير كله والعلم خير كله بمقتضى طبيعتهما فعليهما أن يتنبها إلى من يعمل على تغيير وضعهما، فإذا حرص الأشرار على أداء وظيفتهم بمقتضى طبعهم، فحرص الأخيار يجب أن يكون أشد وألزم.. هذا هو الأزهر على ما يجب أن يكون وهذه هى مشيخته كما نفهم عظمتها وجلالها. فإذا ظهر يوما ما فى غير مكانهما فالمصريون شركاء فى المسؤولية أمام الله وأمام التاريخ. لأن العلماء غير معصومين. والأمم الحية هى التى تقوم على حراسة قواها الطبيعية والمعنوية، ولا ترتفع المسؤولية عن الأمم إلا إذا كانت فى طفولتها أو فى شيخوختها، وقد أدت الأمة المصرية والحمد لله واجبها نحو مشيخة الأزهر».

وقد ألقى فى حفلة التكريم الشيخ عبد الجواد رمضان الأستاذ بالأزهر قصيدة جاء فيها:

دعوا باسمك الآمال فهى بواسم	وبلُّوا به الأرواح وهى حوائم
دجاليلُهم حتى إذا لحت أصبحوا	وأنف الدياجى والحوادث راغم
هو الدين، فادعم عرشه بعزيمة	فقد وهنت أركانه والدعائم
وما الأزهر المعمور إلا مناره	ولا أهله الأدنون إلا العمائم

مطالع يمن للزمان وأهله ... بها تسعد الدنيا وتدنو العظائم

●●●

فيا رجل الإسلام أدرك رجاله ... فقد أنكرتهم فى الحياة المكارم

وفيهم، بحمد الله، غر أزاهر ... وفيهم بحار فى العلوم خضارم

إذا عالجوا كانوا الشفاء وإن دعوا ... إلى رد باغ فالذرا والمقادم

وكم لهمو -فى الله- غُرّ مواقفٍ ... تَنَشَّقُ ريَّاها القرى والعواصم

●●●

أولئك أجناد إذا جدّ جدّهم ... سمت بهمو للفرقدين العزائم

إذا ما المراغى قام تحت لوائهم ... فقد زأرت فى الغاب تلك الضياغم

فَتَى فِتّية الشرق الأولى تنجلى بهم ... غياهبه، والشرق بالخطب غائم

وصارم هذا الدين دين محمدٍ ... وقد أسلمته فى الجلاد الصوارم

فمن مبلغ أفناء يثرب أننا ... سلمنا، على أن ليس فى الناس سالم

وأن الذى شاد النبى محمدٌ ... على حفظه شيخ المراغة قائم

تبوّأ عرش الدين فاهتزّ ركنه ... وطاولت الجوزاء منه القوائم

وأمست شعوب الشرق نَشوى قريرة ... تساهم فى تكريمه وتزاحم

فصاراه أن يدعو بها عُمريَّةً ... ترد وجوه الشرك وهى سواهم

إذا ائتلقت فى مصر أضواء شمسها ... سعت فى هُداها للكمال العوالمُ

وقد ألقى المراغى كلمة فى حفلة تكريمه جاء فيها:

أحمد الله جل شأنه على ما أولانيه من الكرامة بهذه المنزلة فى نفوسكم، وأشكر لحضرات الداعين المحتفلين برهم وكرمهم وعاطفة الحب الفياض البادية فى قولهم وفعلهم فى شعرهم ونثرهم ولحضرات المدعوين تشريفهم واحتمالهم مشقة الحضور الذى أعربوا به عن جميل عطفهم وحبهم.

ويسهل على قبول هذه المنن كلها واحتمالها إذا أذنتم لى فى صرف هذه الحفاوة البالغة عن شخصى الضعيف واعتبارها كلها موجهة إلى الأزهر الشريف الذى تجلونه جميعًا، وتعتبرونه بحق شيخ المعاهد الإسلامية فى مصر وغيرها من البلاد.

ولئن دل هذا الاجتماع بالقصد الأول على غرض التكريم فقد دل بالإشارة على ما هو أسمى من غرض التكريم.

دل على أن الأزهر خرج عن حالته التى طال أمدها ونهض يشارك الأمة فى الحياة العامة وملابساتها وعزم على الاتصال بها ليفيد ويستفيد، وهذه ظاهرة من ظواهر تغير الاتجاه الفكرى الذى نشأ عن تغير طرائق التعليم فيه وعن شعوره يجب أن تحتذى ويهتدى بها. ومنذ أربعين سنة اشتد الجدل حول جواز تعليم الحساب والهندسة والتاريخ فى الأزهر وحول فائدة تعليمها لعلماء الدين ومنذ أربعين سنة قرأ لنا أحد شيوخنا كتاب الهداية فى الفلسفة فى داره على شرط أن نكتم الأمر لئلا يتهمه الناس ويتهمونا بالزيغ والزندقة. . والآن تدرس فى كلية أصول الدين الفلسفة القديمة والحديثة، وتدرس الملل والنحل، وتقارن الديانات، وتعلم لغات أجنبية شرقية وغربية. ومن الحق علينا ألا ننسى فى هذه المناسبة، والحديث حديث الأزهر والأزهريين ذلك الكوكب الذى انبثق منه النور الذى نهتدى به فى حياة الأزهر العامة، ويهتدى به علماء الأقطار الإسلامية فى فهم روح الإسلام وتعاليمه، ذلك الرجل الذى نشر الحياة العلمية والنشاط الفكرى، ووضع المنهج الواضح لتفسير القرآن الكريم وعبَّد الطريق لتذوق سر العربية وجمالها، وصاح بالناس يذكرهم بأن العظمة والمجد لا يبنيان إلا على العلم والتقوى ومكارم الأخلاق، ذلك الرجل الذى لم تعرفه مصر إلا بعد أن فقدته ولم تقدره قدره إلا بعد أن أمعن فى التاريخ، ذلك هو الأستاذ الإمام محمد عبده قدس الله روحه وطيب ثراه، وقد مر على وفاته ثلاثون حولا كاملة، ومن الوفاء بعد مضى هذه السنين ونحن نتحدث عن الأزهر أن نجعل لذكراه المكان الأول فى هذا الحفل، فهو مشرق النور وباعث الحياة، وعين الماء الصافية التى نلجأ إليها إذا اشتد الظمأ، والدوحة المباركة التى نأوى إلى ظلها إذا قوى لفح الهجير.

والأزهر كما تعلمون هو البيئة التى يدرس فيها الدين الإسلامى الذى أوجد أممًا من العدم، وخلق تحت لوائه مدينة فاضلة، وكان له هذا الأثر الضخم فى الأرض فهو يوحى بطبعه إلى شيوخه وأبنائه واجبات إنسانية، ويشعرهم بفروض صورية ومعنوية، يعدون مقصرين آثمين أمام الله وأمام الناس إذا هم تهاونوا فى أدائها وأنهم لا يستطيعون أداء الواجب لربهم ودينهم ولمعهدهم وأنفسهم إلا إذا فهموا هذا الدين حق فهمه، وأجادوا معرفة لغته، وفهموا روح الاجتماع، واستعانوا بمعارف القدامى ومعارف المحدثين فيما تمس الحاجة إليه مما هو متصل بالدين، أصوله وفروعه، وعرفوا بعض اللغات التى تمكنهم من الاتصال بآراء العلماء والاستزادة من العلم وتمكنهم من نشر الثقافة الإسلامية فى البلاد التى لا تعرف اللغة العربية، هذا كله يحتاج إلى جهود تتوافر عليه وإلى التساند التام بين العلماء والطلبة والقوامين على التعليم، ويحتاج إلى العزم والتصميم على طى مراحل السير فى هدوء ونظام وحب وصدق نية وكمال توجه إلى الله وحب للعلم لا يزيد عليه إلا حب الله وحب رسوله.

وللمسلمين فى الأزهر آمال، ومن الحق أن يتنبه أهله لها وهى:

أولاً: تعليم الأمم الإسلامية المتأخرة فى المعارف وهدايتها إلى أصول الدين وإلى فهم الكتاب والسنة ومعرفة الفقه الإسلامى وتاريخ الإسلام ورجاله، وقد كثر تطلع هذه الأمم إلى الأزهر فى هذه الأيام وزاد قاصدوه منها أفرادًا وجماعات، واشتد طلبها لعلماء الأزهر يرحلون إليها لأداء أمانة الدين وهى بيانه ونشره.

ثانيًا: إثارة كنوز العلم التى خلفها علماء الإسلام فى العلوم الدينية والعربية والعقلية وهى مجموعة مرتبط بعضها ببعض، وتاريخها متصل الحلقات، وقد حاول العلماء كشفها فنقبوا عنها وبذلوا جهودًا مضنية وعرضوا نتائج بعضها صحيح وكثير منها غير صادق، وعذرهم أنهم لم يدرسوا هذه المجموعة دراسة واحدة على أن بعضها متصل بالآخر، كما هو الحال فى دراسة الأزهر.. فإذا وفق الله أهل الأزهر إلى التعمق فى دراسة هذه المجموعة قديمة حديثة ودراسة واحدة على أن بعضها متصل بالآخر، كما هو الحال فى دراسة الأزهر.. فإذا وفق الله أهل الأزهر إلى التعمق فى دراسة هذه المجموعة قديمة حديثة ودراسة المعارف

المرتبطة بها وأتقنوا طرق العرض الحديثة أمكنهم أن يعرضوا هذه الآثار عرضًا صحيحًا صادقًا بلغة يفهمها أهل العصر الحديث وإذ ذاك يكونون أداة اتصال جيدة بين الحاضر والماضى ويطلعون العالم على ما يبهر الأنظار من آثار الأقدمين، وأعتقد أن التعليم الأزهرى على النحو الذى أشرت إليه هو الذى يرجى لتحقيق الأمل، وأنه مدخر لأبنائه إن شاء الله.

ثالثًا: عرض الإسلام على الأمم غير المسلمة عرضًا صحيحًا فى ثوب نقى خال من الغواشى المشوهة لجماله، وخال مما أدخل عليه وزيد فيه من الفروض المتكلفة التى يأباها الذوق ويمجها طبع اللغة العربية.

رابعًا: العمل على إزالة الفروق المذهبية أو تضييق شقة الخلاف بينها، فإن الأمة فى محنة من هذا التفرق ومن العصبية لهذه الفرقة، ومعروف لدى العلماء أن الرجوع إلى أسباب الخلاف ودراستها دراسة بعيدة عن التعصب المذهبى يهدى إلى الحق فى أكثر الأوقات، وإن بعض هذه المذاهب والآراء قد أحدثتها السياسة فى القرون الماضية لمناصرتها ونشطت أهلها وخلفت فيهم تعصبًا يساير التعصب السياسى، ثم انقرضت تلك المذاهب السياسية وبقيت الآراء الدينية لا ترتكز إلا على ما يصوغه الخيال وما افتراه أهلها، وهذه المذاهب فرقت الأمة التى وحدها القرآن وجعلتها شيعًا فى الأصول والفروع ونتج عن ذلك التفرق حقد وبغضاء بين من يلبسون ثوب الدين، ونتج عنه سخف ما يقال فى فروع الفقه الصحيح أن ولد الشافعى كفء لنبت الحنفى، ومثل ما يرى فى المساجد من تعدد صلاة الجماعة وما يسمع اليوم من الخلاف العنيف فى التوسل والوسيلة وعذبات العمائم وطول اللحى حتى إن بعض الطوائف لا تستحى اليوم من ترك مساجد جمهرة المسلمين.

إن من الخير والحق أن نتدارك هذا، وأن يعنى العلماء بدراسة القرآن الكريم والسنة المطهرة دراسة عبرة وتقدير، لما فيها من هداية ودعوة إلى الوحدة، دراسة من شأنها أن تقوى الرابطة بين العبد وربه، وتجعل المؤمن رحب الصدر هاشا شاشًا للحق مستعدًا لقبوله عاطفًا على إخوانه فى الإنسانية كارهًا للبغضاء والشحناء بين المسلمين.. قد أتهم بأنى تخيلت فخلت، ولا أبالى بهذه التهمة فى سبيل رسم الحدود، ولفت النظر إليها وفضل الله واسع وقدرته شاملة، وما ذلك على الله بعزيز.

والآن وقد أوضحت بالتقريب آمال المسلمين فى الأزهر، ترون أن العبء الملقى على عاتق الأزهر ليس هين الحمل، فإنه فى حاجة إلى العون الصادق من كل من يقدر على العون: إما بالمال أو العقل، أو بالمعارف والتجارب، وكل شىء يبذل فى طريق تحقيق هذه الآمال هين، إذا أتت الجهود بهذه الثمرات الطيبة المباركة.

ولقد ولد الشيخ مصطفى المراغى فى اليوم التاسع من شهر مارس سنة ١٨٨١ فى المراغة من أعمال مديرية جرجا بمصر العليا وحفظ القرآن الكريم بمكتب القرية وتلقى على أبيه بعض العلوم ثم التحق بالأزهر، واتصل بالأستاذ الإمام محمد عبده فثقف نفسه عليه فى دروس التفسير التى كان يلقيها بالرواق العباسى.

ونال شهادة العالمية عام ١٩٠٤، وكانت سنه إذ ذاك أربعا وعشرين سنة، وكان بذلك من أصغر الحاصلين على هذه الشهادة يومذاك.

وكان تاريخ دخوله امتحان الشهادة العالمية هو ١٢ ربيع الثانى ١٣٢٢هـ، وقد أعجب به الإمام محمد عبده إعجابًا شديدًا.

ولم يكن رحمه الله، من العاكفين على تناول علوم الأزهر وحدها وإنما كان يضيف إليها ما يشعر به هو نحو العلم من احتياجات، شأن الشبان الفائقين، فلقد أخذ دراساته الشخصية، من بطون الكتب، ومن منابعها الأصلية فى المخطوطات والهوامش والمتون.. كما كان عاكفًا على دراسة الأدب، ودراسة الفلسفة وعلم الكلام، وما ذلك إلا استجابة منه للوقوف على روح الثقافة، ولذلك فقد نشأ صاحب عقلية مرنة مبسوطة، تمضى إلى الدقائق وما يخفى أمره على الكثيرين.

ولا جرم بعد ذلك أن يشيع اسمه بين الطلبة الذين أقبلوا حول حلقته بالجامع الأزهر، وهو يلقى عليهم الدروس بعد تخرجه، بطريقة جديدة، كان هدفها البحث عن الحقيقة، ووسيلتها التعريج بعقلية السامع إلى فنون الأدب وأشتات الفلسفة وأمشاج الكلام.

ورشح بعد ذلك لمنصب كبير، هو منصب القضاء لمديرية دنقلة فى السودان، ذلك المنصب الذى ساعده على تسلق الحواجز السياسية، وإعلاء شأن كلمة الدين والحق بين الشمال والجنوب، فتتلمذ عليه الكثيرون من أبناء الجنوب، بعد أن

استساغوا لذة الوطنية الإسلامية من شروح الشيخ الجليل لقضايا الوطن بين خلصائه وصفوة تلاميذه فى السودان، وكان يعنى بذلك المسلك أن رجل الدين إنما هو من رجال السياسة يدلى بدلوه فيها دون انغماس، حتى يكون القائد إلى تحقيق الوطنية الإسلامية، وفقًا لتعاليم الدين، لا انحيازًا إلى المعتقدات السياسية.

لقد كان الشيخ المراغى -رحمه الله- يعرف رسالة رجل الدين تمامًا، وهى رسالة العالم الذى يعمل للحياة كلها، وللوطن الإسلامى كله، فلا يصدر رأيًا إلا إذا كان الرأى لبنة فى بناء هذا الوطن الكبير.. ومن ذلك، أن سلاطين باشا يوم أن عرض عليه قبول منصب قاضى قضاة السودان -قبل أن يتولى منصب رئيس المحكمة الشرعية العليا- اشترط لقبول المنصب أن يكون تعيينه فيه بأمر يصدره خديو مصر، لا رجال السلطة الإنجليزية فى السودان.

وفى عام ١٩٢٣ عين رئيسًا للمحكمة العليا الشرعية، فواجه بمنصبه ذلك تلك الحوائل التى تمنى أن يقضى عليها بالمحاكم.

وكانت المحاكم الشرعية فى ذلك الوقت تحكم فى قضايا الزواج والطلاق وسائر الأحوال الشخصية، وفق القول الراجح من مذهب أبى حنيفة.

ولما كانت هناك أحكام أخرى تحقق التيسير على المتقاضين، فقد رأى أن يؤخذ بهذه الأحكام، وأن يعدل قانون المحاكم الشرعية.

وكان من رأيه الأخذ برأى ابن تيمية ومحمد بن قيم الجوزية فى جعل الطلاق الثلاث فى لفظ كلمة واحدة طلقة واحدة، وما كان يجهر بهذ الرأى فى مشروع أعده، حتى استهدف لحملة عنيفة من بعض العلماء ورجال القضاء الشرعى.

ولكن تاريخه فى العلم، والدراسة، وتشربه من روح الإمام الأكبر الشيخ محمد عبده مكنته من الثبات للمعركة، والعمل على تيسير القضاء وتم له ما أراد.

ولعل ما كتبه فى الرد على العلماء الذين تناقشوا معه فى تيسير تعاليم الإسلام فى المحاكم الشرعية مما يشرح عقلية الرجل المبسوطة فى ثقافة الإسلام الممدودة فى بطون أسفار العلوم الإسلامية، قال رحمه الله:

أثار مشروع قانون الزواج والطلاق حركة فكرية اجتماعية دينية، فنشط العلماء للبحث والاستنباط والرجوع إلى كتب الشريعة المطهرة، وتطبيقها على القانون، ونشط غيرهم إلى بحثه من الوجهة الاجتماعية، وما لنا لا نغتبط بهذا، وقد تستمر هذه الحركة، ويتجدد نشاط الفقه الإسلامى بعد ركوده فى المتون والشروح، وتتجه إليه الأنظار وتتولد فكرة تهذيبية باختيار ما صح دليله وما قام البرهان على أن فيه مصلحة الناس من أقوال أئمة الهدى وفقهاء الإسلام.

وقد يقضى على تلك الفكرة الخاطئة فكرة وجوب تقليد الأئمة الأربعة دون سواهم سواء أوافقت مذاهبهم أم خالفتها مصلحة المجتمع.

أما جهوده فى إصلاح الأزهر والعناية بإعادة سالف مجده إليه كأقدم جامعة فى التاريخ، والجامعة الكبرى التى قامت على حفظ التراث الإسلامى ولغة القرآن فحديث معاد. . ويقول فيه الأستاذ الأكبر الشيخ عبد المجيد سليم:

لقد كان المراغى ذا قطرة سليمة صافية، يمدها ذكاء شديد، واستعداد طيب، وكان مما أفاده وخرجه تخريجًا قويًا تلمذته على الرجلين العظيمين المغفور لهما الشيخ أحمد أبى خطوة والشيخ محمد عبده، فعنهما اكتسب الاستقلال فى التفكير والميل إلى الحرية، والقصد فى الاعتقاد بما يراه أهل التقليد، وكان له مع هذا كله قدرة عظيمة على التعبير عن أفكاره، فى لفظ رائق وأسلوب قوى وبيان فصيح، وهذا هو السر فى أنه ظهر بين شيوخ الأزهر مبرزًا قويًا، مجلجلاً مدويا، وإن لم يكن أكثر علمًا من الشيخ أبى الفضل ولا من الشيخ الشربينى.

إن العلم كسائر ما وهبه الله للناس، منه مبارك فيه، يجل به النفع، ويسرى من صاحبه إلى غيره سهلاً مفيدًا، ومنه ما ليس كذلك، وليست العبرة على كل حال بالقلة أو الكثرة، وقد كان المغفور له الشيخ المراغى كالمغفور له الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده من أصحاب العلم النافع المبارك فيه. . ثم قال:

لقد كنت أنا والشيخ المراغى صديقين حميمين، كلانا يحب صاحبه، ويقدر فيه مواهبه، ولم تكن هذه الصداقة عارضة بل كانت أصيلة، مرّت بها عهود، وأعمال مختلفة اشتركنا فيها ولكننا مع ذلك اختلفنا بعد أيام من مشيخته الثانية للأزهر،

وكان خلافنا معروفا للخاصة والعامة من الأزهريين وغيرهم، وسببه الجوهرى ميله رحمه الله إلى ناحية السياسة الحزبية وشدة نفورى من ذلك، فإنى أرى أن الخير كل الخير فى أن يتجنب العلماء السياسة الحزبية، وينأوا عن مكايد الحزبية ومتاعبها التى تقضى إلى ما لا يحمد من العواقب، ولكن هذا الخلاف لم يخرج بى ولا به عن الجادة، وما ينبغى أن يكون عليه أهل العلم من المودة والنصيحة، فكنت أبدى له ودى ونصحى، وأنقد مع ذلك بعض تصرفاته التى أرى أن مبعثها غالبًا هو ذاك، وكان يتقبل ودى، ويبادلنى إياه، ويعتذر عن عدم مشاطرتى الرأى فيما أنقده فيه، أو يبدى من المبررات ما يراه لفعله. وعلى كل حال لم يكن هذا الخلاف بالذى يقطع ما بيننا من محبة وتعاون، بل كان خلاف الشرفاء والحمد لله.

لقد كان رحمه الله فى عهد مشيخته الأولى مؤيدًا تمام التأييد، وكنت معجبًا بآرائه وأفكاره الإصلاحية وطريقته فى الإدارة، وتركيز قواه وما آتاه الله من مواهب فى الأزهر وإصلاح شأنه، ولقد كنت أعاونه معاونة قوية، وقد ظللت أقوم على رياسة قسم التخصص وأنا فى منصب الإفتاء مدة طويلة، أشرفت فيها على تخريج مئات العلماء الأقوياء الذين يحملون الآن على عواتقهم أهم أعباء الأزهر، وكنت أشترك معه فى كثير من اللجان العلمية: كلجنة الأحوال الشخصية ولجنة مناقشة الرسائل العلمية التى كان يتقدم بها طلاب شهادة العالمية من درجة أستاذ، وقد كانت هذه اللجنة تعقد أحيانًا فى الرواق العباسى، ويشهدها -والمناقشات العلمية على أتم ما تكون قوة ودقة- علماء الأزهر وطلابه والراغبون فى العلم والبحث من غير الأزهريين.. وكما كان يتجلى فى هذه المناقشات الحرة ذكاء الشيخ المراغى وعلمه وقوة تفكيره وإخلاصه للفكرة العلمية وحرصه على تبين الحق، وضرب المثل لأبناء الأزهر فى تقبله والنزول على حكمه.

وكتب الأستاذ محمد فريد وجدى بمناسبة وفاته يقول: رزئت أسرة العلم فى العالم الإسلامى كله بوفاة عميدها، غير مدافع، الشيخ مصطفى المراغى شيخ الجامع الأزهر، فلا نقول: كان لها أثر بالغ فى النفوس، ولكننا نقول: إنها كانت كارثة على الجهود النبيلة التى يبذلها العارفون بأمور الأزهر، ويعملون على إحلاله المكانة التى تناسب عظمة الإسلام، وتمثله على حقيقته فى نظر العالم. نعم إن

البذر الـذى وضعه رحـمه الله، لينتـج هذا الأثر الفخم، بطىء النمـو، ولكنه هو الدواء الوحيـد لداء المسلمين فى مـشارق الأرض ومـغاربها. لسنا نـعنى بإصلاح الأزهر ترتيب الدروس فى أوقـاتها، وتوزيع مقـررات الدراسات عليـها، وتعـيين المدرسين الأكفاء لتدريسها، ومراعاة كفايتهم فى تحديد مرتباتهم، كل هذه الشؤون أعراض لا تمت إلى اللباب فى شىء، وإنما إصلاحه الصحيح ينحصر فى أن يصبح جهـة دينية يسندها العلم وتؤيدها الـفلسفة، بحـيث يتفق ذلك وحـقيقـة الإسلام ومعناه، ولا يدع فى صدر مـستشكل اعتراضًا بأن الأزهر يمثـل عهدًا لا يمت إليه اليوم أحد بسبـب. هذا الإصلاح، إن لم يصل إليه الأزهر فى يوم من الأيام، فى غير تطرف ولا تعسف، تلمس المسلمـون ما يمثل مطالب روحهم فى مكان آخر، أو- وهو الأرجح- اندفعوا فى تيار الفلسفة المادية لا يلوون على شىء، على مثال غيرهم من الأمم الأخرى. إن الشيخ المراغى كان يجيد فهم هذه الناحية من نفسية المعاصرين، وكان يعمل فى سبيل الوصول إلى ما أشرنا إليه فى تؤدة ورفق، صابرا على ما يـحتوش هذه التـؤدة، مما يخيل أنهـا الوقوف بل القـهقـرى بل الانحلال الذريع، والحقـيقة كانت غـير ذلك لمن يتأملها تحت ضـوء النظر البعيد، والتـفكير العميق فى مستقبل العقيدة الإسلامية.

كان المراغى يعلم أن العالم المتمدن اليوم انتـهى إلى حد من عقائده، أملته عليه فلسفة بوخنر وهايـكل ومولخوت الخ، وإن العالم الإسلامى يتـرسم خطواته شبرًا بشبر، مدفـوعًا بطبيعة الدراسات العلميـة التى لابد له منها، وكان يعلم أن الأزهر فى حالتـه التى هو عليها لا يصلح أن يقف حـائلا دون هذا التطور، وإنه لابد له من انقلاب سريع يطرأ عليه ليصبح جـديرًا بالمهمة التى أرادها مؤسسوه منه فى كل عهـد فماذا يفـعل؟ وليس بين يديه ممن يحسـون بهذا الخطر سـوى عدد نزر، لا يكفون لإحداث انتقال خطير، يتأدى به إلى غرضه بالسرعة المرجوة؟

اضطر لأن يسير وئيدًا، والسـير الوئيد فى مثل هذا العهد جريمـة. فماذا يفعل والأحوال حولـه تجرى فى تيار معـاكس؟ وكثيرًا مـا رأى أن الأولى به التخلى عن وظيفته، لولا أن الشعب كان يرى أن ليس لهذه المهمة العالمية غيره فيتمسك به.

وقال عن فضيلة الإمام الشيخ محمد مصطفى المراغى الدكتور عبد الله سلامة:

عن دور الأزهر وشيوخه فى مقاومة المحتل الداخلى والخارجى، بمعنى أن الأزهر كان يقاوم ويقف ضد كل حاكم مستبد، وكان قائد الكفاح الدستورى، ونسوق مثالاً: عندما كثرت شكاة الناس من ظلم وطغيان المماليك، فقام وفد من العلماء وعلى رأسهم «عمر مكرم» والسادات للدفاع عن حريات الناس، وألزموا الحاكم بشروط سجلت فى وثيقة تعهد فيها بإقامة العدل، والقيام بكل الواجبات التى يفرضها الشرع ويقرها العرف، والتوبة من العدوان، وأن توزع الأموال على مستحقيها، ورفع الضرائب، وأن يمنعوا جنودهم من أخذ أموال الناس، هذه الوثيقة التى استخلصها علماء الأزهر من الحكام، تعد أقدم وثيقة.. لإعلان حقوق الإنسان، التى سبقت حقوق الإنسان فى أعقاب الثورة الفرنسية ١٧٩٨ سجل علماء الأزهر هذه الوثيقة، فى عصر عرف بالتأخر العلمى، والركود الأدبى، والانحطاط العام فى حياة المسلمين.. كان علماء الأزهر، ملاذ الشعب كلما مسه أذى الرؤساء، أو أرهقه ظلم الولاة، وكان العلماء جميعًا عند حسن ظن الناس بهم -المعبرين الحقيقيين عن آلام الناس وآمالهم، فإذا لم تجد المفاوضات اتجه العلماء إلى الشعب، يوقدون فيه الجذوة، ويشعلون الثورة، مستدلين ومتمسكين بشرع الله وتوجيهاته العادلة، التى تأبى الظلم والطغيان، فيندفع الشعب مدافعًا عن دينه وعقيدته، وعن عرضه وشرفه ثائرًا غاضبًا، يهدر كالموج ويزأر كالأسد.. وعندما ثار الشعب على الوالى العثمانى «خورشيد» لكثرة مظالمه هو وجنوده.. اجتمع العلماء والفقهاء والقضاة، وخلعوه.. وسار نواب الشعب يتقدمهم شيخ الأزهر الإمام «عبد الله الشرقاوى»، والسيد عمر مكرم وخلفهما أربعون ألفًا من الشعب. واختاروا «محمد على» على أن يسير فى حكمه حسب الشروط التى يشترطها العلماء.. «وأحمد عرابى» الريفى.. الذى تعلم فى الأزهر، وثورته على توفيق الذى أصدر قرارًا بعزل «عرابى» لكنه لجأ إلى العلماء، وأصدروا فتوى جرئية، قالوا: «إن الخديوى توفيق خائن لوطنه ولدينه».. هذه مواقف جماعية لعلماء الأزهر الشريف، وأكثر من ذلك مواقف فردية خالدة لبعض علماء الأزهر الشجعان المؤمنين، لا يتسع المقام لذكرها.

كتب أحد مؤرخى هـذه الفترة قائلاً: «إن الأزهر هو موطن النهضـة القومية، ومصدر الزعامة الشعبية، وموئل الحياة الدينية ومنبع الثقافة فى العالم الإسلامى، وقد برزت قوته فى كل حـالة احتلت فيها مـصر بالأجنبى»، هذا هو دور الأزهر التاريخى الذى أحس به الشعب وعايشه وسجله التاريخ، واعترف به كل من كتب عن كـفاح الشـعب المصرى، وفـضلاً عن هذا وذاك فـقد غـزى الأزهر النهضـة العلميـة، وجعل فى مصر زعـماء شيدوا صرح النـهضة القوميـة، مثل «المراغى» الذى نحن بصدد الحديث عنه ولا نفـضل أحدًا على الآخر. وكان طلاب الأزهر بعـد ذلك نواة مدارس الطب والهندسـة والألسن، وكـان منهم شبـاب البعـوث العلمـية، الذين قامـت على اكتافـهم نهضـة مصـر الحديثـة: وكل الذين كتـبوا الموسـوعات والكتب كـانوا من رجـال الأزهر. . انظر «كفـاح شعب» والسـؤال العجيب الذى يطرح نفسه. . لماذا أقصى الأزهر بعد ذلك عن نهضة مصر الحديثة وعليه كان اعتمادها!!

لقـد كان المفروض بـعد ذلك أن يقـود الأزهر النهضـة ويوجهـها الوجـهة الربانية، ويصبغها بصبغته العربية الإسلامية، بل كان عليه أن يتطور إلى جامعة شاملة، تنبـثق منها كل الكليـات الجامـعية، النظرية والعـملية، كـما تطورت جامعات أوروبا الدينية إلى جامعات مدنية، مثل: «السربون، واكسفورد، ولقد حدث هذا فى فرنسا على يد جماعة تسمى «الجزويت» وهم أشد الفرق تعصبًا للدين، فـهم الذين غـيـروا نظام التـعليم فى أوروبا كلهـا. . وبهـذا تقـدمت أوروبا. . كـان هذا هو المنتظر والمتوقع. . ولكنه لـم يتحـقق فقد ركـدت ريح الأزهر، وضعـفت مصر أيـضًا، وأبعد الأزهر عن منصـة القيـاة بفعل الحكام أمثـال «محـمد على» وغـيره، وأنشئت المدارس المدنـية والجامـعات الحـديثة، وأغدقت عليها الأموال الطائلة.

وهذا جعلهـا تأخذ الزمـام من الأزهر، هذه سنة الحياة، ونـواصل الحديث عن شيخ من أرفع شيوخ الأزهر قدرًا، وأقواهم أثـرًا، وأكثرهم حرصًا على رفع شأن الأزهر، ورفع هامته وصون كرامته، ألا وهو الإمام «محمد مصطفى المراغى».

وبما أن ما كتبه المؤرخون والكتاب طويل وكثير، وصعب أن نختصر شيئًا عن حياته وأعماله إلا بقدر، لأن كل ما دون عنه مهم ومفيد، لهذا رأينا أن نقسم البحث إلى عدة مقالات.

نسبه ونشأته وبيئته وتوليته المشيخة:

ولقد أفاض الكتاب والأدباء فى شتى أنحاء العالم الإسلامى وغيره فى الترجمة لهذا الإمام الجليل وذكر مآثره ومفاخره، وسنرسم صورة مختصرة جدًا لحياته وأعماله.

هو الإمام الشيخ محمد بن مصطفى بن محمد بن عبد المنعم المراغى، نسبه إلى «مراغة» والمراغة بلدة تابعة إلى محافظة سوهاج من الصعيد الأعلى، والمطالع لتاريخها يتبين له أنها قرية ذات شأن.. ينتمى إليها الكثيرون من الوزراء والعلماء والوجهاء، وأقطاب السياسة، والرياسة، وهذا هو السر فيما كان عليه «الشيخ المراغى»، من العزة والشموخ. والمرء ابن بيئته.. كما يقول العلماء: فالبيئة لها أثرها البالغ فى تكوين صاحبها فكريًا وثقافيًا وعلميًا.. وعلى كل حال فقد عاش الشيخ المراغى - كما كانوا يسمونه وهو صغير، فقد عاش طفولته فى بلدته الآنفة الذكر. حفظ القرآن الكريم على أبيه، وفى أحد كتاتيبها تعلم مبادىء المواد الأساسية التى تؤهله للالتحاق بالأزهر، ثم أرسله أبوه للقاهرة، وكل أمانيه أن يلتحق بالأزهر، مثل أترابه من أبناء الصعيد، الذين كانوا يؤثرون التعليم فى الأزهر، على المدارس المدنية.. وقد حقق «المراغى» ما كان يصبو إليه أبوه، فقبل بالأزهر ودرس على أكبر علمائه ومشاهيرهم.. وكان الأزهر وقتها يعيش نهضة إصلاحية واسعة النشاط، فقد حضر إلى مصر -جمال الدين الأفغانى- واستقطب رجال الإصلاح، وأقطاب الثقافة والفكر، وعلى رأسهم الإمام محمد عبده وأصحاب القلم واللسان، وكان «الرواق العباسى»، هو المنتدى الذى يلتقون فيه، وكان «المراغى» الطالب يحضر هذا المنتدى مع القليل من الطلاب، ويستمع للمحاضرات ولا سيما التى يلقيها أستاذه الشيخ «محمد عبده» فى التفسير والتوحيد وغير ذلك من العلوم.

وظهرت نجابة الشيخ «المراغى» حيث تلقى العلوم على الشيخ «الصالحى» وهو من شباب علماء الأزهر المستنيرين المحققين، وتأثر بأسلوبه فى البلاغة، وعلى يد الشيخ «محمد عبده» تفتحت مواهبه العقلية، وتأثر بمنهجه السلوكى ودعوته الإصلاحية، ومواقفه الوطنية، وسار على نهجه فى التجديد، وكان الإمام المراغى معروفًا بين أقرانه وزملائه من الطلبة بالأخلاق الكريمة والحرص على طلب العلم وقدرة التحصيل، واعتاد هو ونخبة من زملائه أن يقرأ الدروس قبل إلقاء المدرسين لها. . ويقرأون معها كتبًا أخرى، وكل مصادر المعرفة، ونجح المراغى فى امتحان «العالمية» وكان ضمن أعضاء اللجنة الشيخ «محمد عبده» ورأى «المراغى» وهو يؤدى الامتحان مريضًا يرتعش من الحمى، ومع ذلك أجاد فى الامتحان، وكان الأول على زملائه، ودعاه محمد عبده إلى منزله تكريمًا له والملاحظ أن «المراغى» نال شهادة العالمية «الدكتوراة» وهو فى الرابعة والعشرين من عمره، وهى سن مبكرة بالنسبة لعلماء الأزهر.

وقد حصل على العالمية من الدرجة الثانية وهى نفسها التى حصل عليها أستاذه «محمد عبده» وهذه الدرجة تؤهله للتدريس فى الأزهر والمدارس التابعة له، ومن أجل هذا عقد الشيخ «المراغى» لنفسه حلقة وراح يلقى فيها الدروس، ولأنه كان جميل العبارة لطيف الإشارة، غواصًا فى بحور المعانى، فقد اشتد الإقبال عليه وتزاحم عليه الطلاب والعلماء لسماعه.

وأصبح حديث أهل العلم على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم غير أنه لم يبق فى حلقات درسه غير ستة أشهر غادر بعدها إلى السودان، ليتولى فيها القضاء، لكنه كان دائم الحنين للرجوع إلى الأزهر للإسهام فى إصلاحه.

توليته المشيخة:

لقد عاش الشيخ «المراغى» سنين طويلة فى وظائف متعددة. . قضائية وغيرها بعيدًا عن الأزهر، ثم عاد إليه وكأنه لم ينسه لحظة وفى ١٩٢٨/٥/٢٢.

وهذا يوم لا يغيب عن ذكراته، فقد عين شيخًا للأزهر، فكرس له وقته وحشد من أجله طاقته وجهده، واستبدل ما كان من أمر «الجراية» من الطعام والخبز. . فقد عين لهم راتبًا يصرف لهم شهريًا بالجنيه.

لقد تولى الشيخ «المراغى» منصب شيخ الأزهر مرتين الأولى وقد ذكرناها وكان سنه وقتها ٤٨ ثمان وأربعون سنة فأقبل بعزيمة قوية على النهوض بالأزهر ليتبوأ المكانة الجديرة به فى تاريخ النهضة الإسلامية، فألف لجانًا برئاسته واصلت الليل بالنهار فى دراسة قوانين الأزهر ومناهجه الدراسية، كما اهتم بالدراسات العليا فيه، فاقترح إنشاء ثلاث كليات عليا هى «كلية اللغة العبرية» وكلية الشريعة، وكلية أصول الدين»، مع إنشاء أقسام عديدة لكل تخصص، ولو اتسع الوقت لوضحنا هذه الأقسام - لكننا لا نريد الإثقال على القارئ وفى أكتوبر سنة ١٩٢٩ احتدم الخلاف بين المراغى والملك فؤاد حتى قدم استقالته، وحاول رئيس الوزراء منعه لكنه أصر على الاستقالة واختير الشيخ الظواهرى شيخًا للأزهر، ولما استقال الإمام المراغى لم يخلد إلى الراحة والسكون كما كان يعتقد البعض، بل قضى أكثر من خمس سنوات عاكفًا فى بيته على البحث والدراسة ومراجعة آراء المصلحين من قبل، وبخاصة آراء أستاذه الإمام «محمد عبده»، كما راجع الأسس التى وضعها للإصلاح، وما تم تحقيقه منها، وما ينبغى تعديله، وذلك فى ضوء دراساته العميقة للنهوض بالأزهر.

ثم عاد شيخًا للأزهر مرة ثانية فى سنة ١٩٣٥ مؤيدًا من آلاف العلماء والطلبة، مؤيدًا من الحكومة ومن الرأى العام وباشر أولاً: تنفيذ ما استقر عليه رأيه من وجوه الإصلاح فى الأزهر، وما رآه فى فترته الأولى، وقد حدد مهمة الأزهر أنه هو المعهد الإسلامى الأكبر - وأن الغرض منه:

١- القيام على حفظ الشريعة أصولها وفروعها واللغة العربية وعلى نشرهما.

٢- تخريج علماء لتعليم ما سبق فى مختلف المعاهد والمدارس ويتقلدون الوظائف الشرعية.

ولقد أقيم مهرجان كبير لتكريمه لعودته مرة ثانية شيخًا للأزهر، وخطب فيه كثير من الزعماء، وذكروا مواهبه وفضائله فوقف الشيخ قائلاً: إنما ينتسب الفضل إلى أستاذى «محمد عبده» وذكر أنه هو المصباح الذى اهتدى به».

آثاره العلمية وتأثيره:

إن الآثار العلمية للإمام «المراغى» كثيرة جدًا ومتشعبة يصعب حصرها، ونرجو أن يفرغ أحد الباحثين لدراسة آثار الشيخ «المراغى» المخطوطة والمطبوعة، ونشرها وتحقيقها لأهميتها العلمية العظيمة، ولكننا سنشير فى عجالة إلى آثار إمامنا الجليل وحياته العلمية، تقول المصادر: إنه سافر إلى السودان، وتولى منصب القضاء أولاً فى مديرية «دنقلة» ثم إلى مديرية «الخرطوم» وفى هذه الفترة كان دائم الاتصال بأستاذه الإمام «محمد عبده»، و«للمراغى» مواقف شجاعة تدل على عزة نفسه وشموخه، وأنه من أصل كريم، وثرى.. فلقد سدد ديون أرملة أستاذه «محمد عبده» لأنها كانت كريمة جدًا فاستدانت ومما يؤثر عنه: «كان راتب القاضى فى السودان ١٤ جنيهًا تعادل الآن ستة آلاف جنيه» وقد منح زيادة قدرها ستة جنيهات، فرفض قبولها، واحتج على ذلك قائلاً: «إن القاضى الإنجليزى يتقاضى راتبًا قدره خمسون جنيهًا، وتستكثرون على القاضى المصرى عشرين جنيهًا». وعاد إلى مصر، وطلب منه العودة، لكنه رفض وقدم استقالته، وفى سنة ١٩٣٧ عين مفتشًا للدروس الدينية بالأوقاف، ولكنه عاد للتدريس بالأزهر مع الاحتفاظ بوظيفته بالأوقاف[(١)].

نعود لمواصلة الحديث عن الأئمة الأعلام شيوخ الأزهر الشريف الذين أناروا الدنيا بعلمهم وعملهم وفكرهم فى كل مجالات التقدم والرقى، وحفظ تراث الإسلام، ومازال الأزهر يؤدى رسالته السامية وسيظل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.. وكنا فى العدد السابق[(٢)].. طرحنا استفسارًا، ووقفنا عند نقطة انفلات زمان الريادة من الأزهر.. فلماذا حدث ذلك؟ يقول بعض المؤرخين: ربما كان ذلك لجمود الأزهر وتمسكه بالعلوم القديمة، وغفلته عن تطور الحياة من حوله، وربما كان ذلك لأن اتجاه «محمد على» كان اتجاها مدنيًا لا يهتم كثيرًا بالدين، وهو اتجاه عسكرى هدفه الجيش وتقويته، ليكون أداته فى إشباع

(١، ٢) صوت الأزهر: بقلم وريشة د. عبد الله سلامة نصر صـ١٠ فى ٧/ ٩/ ٢٠٠٧م.

طموحـاته، وتحقـيق أطماعه، ومن جـاء بعد مـحمد على كـان منهم من أغلق المدارس والمصانـع، ومنهم من أراد أن يجعل مـصر قطعة مـن أوروبا، ثم جاء الاحتـلال الإنجليزى، وقـبض على أنفاس البلاد مع ظلـمه واستـبداده، ووضع الاستعمار همه فى أمرين:

أولاً: إضعاف قوة مصر العـسكرية، ثانيًا: إضعاف القوة المعنوية، وذلك بخنق صوت الإسلام حتى لا يدوى أو يسمع، وحجـب شعاعه حتى لا يضىء ويهدى، فكان لابد من تجميد «الأزهر» وإبعـاده عن المشاركة، والتأثير فى النهضة التـعليمية بخاصة، والنهضة الحـضارية بعامة، وتلك هى السياسة التعليـمية التى تخطط لها بريطانيـا - أضف إلى ذلك المدارس- التبشـيرية والأجنبـية التى غزت التـعليم فى مصر، ثم إيفاد البعثات إلى أوروبا - تلك كـانت مهمة بريطانيا فى مصر، ثم أثر ذلك على الأزهر، لأن الإنجليـز وأعوانهم وجدوا الأزهر مـستعـصيًا خـارجًا عن إرادتهم وأفكارهم، ولم يكن كما أرادوا سهل الانقياد.

فأرادوا أن يتخلصـوا منه، ويبعدوه عن تيار الحياة المعـاصرة،ويموت داخل جدرانه، وسـاعد على ذلك جـمود بعض شـيوخ الأزهر، الذين أغلقـوا على أنفسهم وعلى غـيرهم باب الاجتهاد، ونادوا ببـقاء القديم متناسين تغـير الدنيا من حولهم، وظل الأزهر فترة من الزمن يدور حول نفـسه. . وكان هذا فرصة للاستـعمار الثقـافى ليعمل عمله، فـأضعف الوازع الدينى فى أنفس كثـير من الناس، وتمكن هذا الغزو الفكرى والروحى، والاجتماعى الـذى قام به التبشير والاستـعمار، على حـساب الإسلام وقـواعده وبكل الوسـائل المدمرة لأنفس الشباب، وقتل الشهامة فيـهم، بإنشاء المخدرات وبالكماليات التى تثقل الحياة، ومناقـضة فـطرة الله، والتاريخ الآن يـعيـد نفـسه، ونحن فـى القرن الواحـد والعشرين غزانا الـفكر والإعلام الغربى بكل موبيقاته «فـضائيات وإعلام وضع فيها سمومه المعسولة، فـبلعنا الطعم تحت مسمى حضارة الانفتاح على العالم، وأبعد عنا كل مـا فيه فائدة واحتكر علـماءنا، ونعود فنقول: «لقد كـانت نكبة كبـرى أن يركد الأزهر، ويعـتزل الحيـاة، ويتخلف فى ذلك الوقت عن قـيادة الأمة، ويتركها لأعداء الإسلام.

فهل ظل الأزهر هكذا؟ إن الانصاف يقتضينا أن نقول: «إن الأزهر لم يعدم من شبابه ورجاله الرعاة والمصلحين، إن الأزهر فى الفترة التى غفا فيها وألقى السلاح، إن كان قد فرط فى الإسلام كدولة فإنه لم يفرط فيه كدين!

ظل الأزهريون يخطبون ويدرسون ويعلمون الشعب فى كل قرية ومدينة، أصول العقائد، والعبادات والمعاملات ومكارم الأخلاق، فى العصر الحديث، فقام رجال مصلحون بالرد على الغزو الفكرى الحديث، عصر العولمة واستيقظ الأزهر عملاقًا عظيمًا، قويًا شامخًا أبيًا، بكل ما فى هذه الكلمات من معان، وفك عن نفسه أغلال التقليد التى كبل بها نفسه وقد خلقه الله حرًا، قال وقتها الإمام محمد عبده يستحيل بقاء الأزهر على حاله فإما أن يعمر، وإما أن يخرب تمامًا.

ونعود إلى مواصلة الحديث عن الإمام الشيخ مصطفى المراغى. الذى بذل جهدًا خلال توليه مشيخة الأزهر مرتين، فى إصلاح أوضاع الأزهر وتجديده علميًا، حتى يؤدى رسالته على مستوى الإسلام الذى يمثله، ومستوى العصر الذى يعيشه، ولم يكن الطريق أمامه سهلاً كما سنوضح ذلك مستقبلاً، ولكنه لم يعجز ويحقق الكثير، ونكمل الآثار العلمية للإمام «المراغى».

سنة ١٩٠٨ زاره «لاجان باشا» وكيل حكومة السودان، وعرض عليه أن يكون قاضى القضاة، وبعد محاولات.. اشترط أن يكون تعيينه بأمر الخديو من مصر، واختار بنفسه لائحة المحاكم الشرعية بالسودان واختيار القضاة، واختيار الآراء الفقهية التى يحكمون بها، وطلب من كل محاكم السودان.. أن ترسل إليه بيانًا شهريًا بالقضايا، وكان يراجعها وينفذ ما يراه صوابًا، فكان أستاذًا ومرشدًا.. وعمل على ترقية القضاء فى السودان.. فأشرف على القسم الشرعى بالكلية وزوده بأساتذة من علماء الأزهر، ورفع من كرامة القضاء، وشارك فى ثورة ١٩١٩ وقاد المصريون المتواجدون بالسودان ودعا كل مصرى لأن يسهم بما تجود به نفسه لتخفيف المصائب التى أنزلها الإنجليز بالسودان، ودار حوار بينهما، قال له: «إنى أكلمك كرئيس!! وكان المراغى سريع البديهة قوى الحجة فى شجاعة.. فرد عليه: وقد أنتبه غاضبًا: «كنت أفهم أنك تعلم واجبك.. أنه ليس لى رئيس هنا. فأنا الحاكم العام معين بأمر ملكى، وهو حاكم سياسى، وأنا معين بأمر ملكى وأنا

قاضى القـضاة، ولا إشراف لأحد منا علـى الآخر وتركه وانصرف، فـأرسل إليه الحاكم العـام يدعوه لتناول الشـاى معه، وبعـد نقاش طويل بينهـما أجـابه الشيخ المراغى بكلام خلاصتـه «إننى حولت تيار ثورة المصريين والسودانيـين ضد الإنجليز من تيار دمـوى إلى تيار مالى أى يجب على الإنجليـز إرجاع كل الأوقاف ومـبانى الوقف وأجرها لهم الإمام بمبالغ شهرية يعود ريعها على الشعب السودانى نفسه.

رد عليه الحـاكم قائلاً: «افعل مـا تريد، وقد قلت للإنجليـز إن الشيخ المراغى لا يمكن مناقشـته أو التـغلب عليه ومن الصعب إقناعـه، وكان الشـيخ يعتز بكرامـته ومنصبـه ووطنه.. ويبدو هذا جليًا فى مـوقفه حـينما أرادت بريطانيا تتـويج ملكها «جورج الخامس» إمبراطوراً للهند، ورتبت حكومـة السودان أن يدعى كبار الموظفين إلى انتظار باخرتـه على ألا يصعدللبـاخرة سوى الحـاكم العام، أما غـيره فيـمرون بمحاذاة الباخرة، فغضب المراغى وامتنع عن الذهاب إلا إذا صعد مع الحاكم، وأصر على ذلك فنزلت الحكومـة الإنجليزية على رأيـه وأرفق إليه بالموافـقة، ولما اشـتدت الثورة بمصر، والتف المصريون بالسودان حول الشيخ الإمام قاد جموعهم فى مظاهرة كبيـرة، وأخذ يجمع التوقـيعات لتأييد زعـامة سعد زغلول لزعـامة الأمة، وهنا ثار حكام الإنجليز واقترحوا أخيراً بمنحه إجازة من السودان ورجع إلى مصر مكرمًا.

مناصب مهمة فى حياة الإمام:

لقد تولى الإمـام المراغى مناصب كثيرة قـبل توليه مشيخـة الأزهر.. نوجزها فيما يلى:

١- رئيس التفتيش الشرعى بوزارة الحقانية «وزارة العدل» ١٩١٩.

٢- رئيس مـحكمة مـصـر الكلية الشـرعـية ١٩٢٠ وعـضو المحـكمة العليـا الشرعية، ورئيـسًا لها، وفى هذه المناصب قام بعدة إصلاحات مهـمة، منها عدم التقيد بمذهب إذا وجد فى غيره ما يناسب المصلحة العامة للمجتمع. وكان القضاة قبلها مقيدين بمذهب معين. وقال لأعـضاء لجنة القضاء: ضعوا من المواد ما يبدو لكم أنه موافق للزمـان والمكان، وأنا لا أحتاج أن آتيكم بنص المذاهب الإسـلامية فيهـا من السماحة والتوسـعة ما يجعلنا نجد فى تـفريعاتها وأحكامهـا من القضايا

المدنية والجنائية كل ما يفيدنا وينفعنا فى كل وقت وحين، ولقد اختلف الأئمة فى الآراء الشرعية والفقهية.

٣- استنتج الشيخ المراغى: أن التجديد فى الأحكام الشرعية ميسور لنا، وأن المسائل الفقهية ما دامت غير قطعية فهى قابلة شرعًا للتجديد والتغيير، وهو على حق فى هذا.. فإن الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان واقتبس الإمام المراغى من كل المذاهب والمجتهدين، وأصدر سنة ١٩٢٠ «قانون الأحوال الشخصية». فعدل قانون الطلاق والمواريث إلخ وبهذا حفظ للأسرة الإسلامية كيانها.. لأن الأسرة هى أساس المجتمع الصالح.

٤- كان يراعى فى فتاويه وآرائه التيسير فى الأمور، أخذًا بنصيحة الإمام محمد عبده «العلم هو ما ينفعك وينفع الناس».

٥- نادى بفتح باب الاجتهاد، ودعا إلى توحيد المذاهب بقدر الإمكان، فقال: «يجب العمل على إزالة الفروق المذهبية وتضييق شقة الخلاف بينهما، فإن الفقه دراسة بعيدة عن التعصب لمذهب معين، وأن تدرس قواعده، مرتبطة بأصوله من الأدلة المنصوص عليها من الكتاب والسنة.

٦- كما أوصى بوجوب أن يترفق الفقهاء بالناس فى أمور شرعية كثيرة.

٧- ولقد حاول التقريب بين المذاهب الطائفية وتأكيد روابط الصداقة بين المسلمين والعالم، وإيجاد تضامن بين الهيئات العلمية والتعليمية فى البلاد الإسلامية.

ولو قدر لآرائه أن تجد سبيلها فى التنفيذ.. لكانت أحوال العالم الإسلامى خلافًا لما عليه الآن.

والإمام يؤكد للعلماء.. أن الإسلام هوجم أكثر من غيره من الديانات السماوية السابقة، وهوجم من ناحية العلم وأهل القانون.

ولهذا.. كانت مهمة العلماء مهمة شاقة تتطلب معلومات ودراسات كثيرة، وتتطلب معرفة المذاهب والأديان والبحث العلمى وفهم الإسلام من منابعه الكتاب

والسنة: وإن الأمة المصرية.. إذا أرادت النهوض والمجد.. يجب أن تتذكر دينها، وتضعه فى المكانة اللائقة.

ومن آثاره العلمية وبرامجه الإصلاحية فى الأزهر وجوب تدريس القران الكريم تدريسًا جيدًا.. وتدريس السنة النبوية على وفق ما تتطلبه اللغة العربية ومعانيها وتهذيب العادات الإسلامية بحيث تتفق وقواعد الإسلام الصحيحة.

يجب أن نأخذ بما عرفه الإجماع والعرف من عدم المساس بما اتفق عليه الفقهاء وبما نص عليه كتاب الله وسنة رسوله.

دراسة الأديان والملل واجبة، وكذا تاريخها وفرقها. وتدريس أصول الفقه والمذاهب قديمًا وحديثًا ثم استقر رأيه على تقسيم التعليم الدينى إلى قسمين قسم عام ليسد حاجة من يريد التفقه فى الدين ومعرفة اللغة العربية وهذا القسم يؤهل للتعليم الثانوى، والثانوى يؤهل للدراسات العليا، وكلاهما مشابه لمنهج التعليم فى المدارس المدنية.

ومن أراد المزيد فلينظر قانون الأزهر فى منهج التعليم فى عصر الشيخ المراغى.

ولقد أنشأ الشيخ المراغى مجموعة لجان..منها:

١- لجنة الفتوى، ٢- الوعظ والإرشاد، ٣- جماعة كبار العلماء «مجمع البحوث الإسلامية». ورأى قبل وفاته أن ينشىء مراقبة خاصة للبحوث والثقافة الإسلامية، والبعوث العلمية، والدعاة. فصدر قرار بإنشائها سنة ١٩٤٥م، وبعد شهر لقى وجه الله الكريم.

وكان هدف الإمام المراغى أن يخرج الأزهر الشريف من النطاق المحلى إلى المجال العالمى من أمثلة ذلك: أنه انتهز فرصة انعقاد «المؤتمر العالمى للأديان» فى يوليو سنة ١٩٣٦م ودعوة الأزهر لهذا المؤتمر، فأرسل رسالة للمؤتمر ألقاها نيابة عنه الأستاذ عبد العزيز المراغى فلقيت استحسانًا عظيمًا، وترجمت إلى عدة لغات، وانتخبه المؤتمر نتيجة لذلك، رئيسًا فخريًا وكان موضوع البحث «الزمالة الإنسانية» دعا فيها إلى تعاون أصحاب الأديان جميعًا لمقاومته المادية العمياء التى توشك أن تدمر العالم وهذا البحث لمن أراده كاملاً فى مذكرات الإمام، وهو يدل

على عقليـة متفـتحة نادرة تعـرضت لأسس وقواعد الإسـلام الكريم: ولقد وافق مجلس الوزراء على مشروع الترجمة.

ونظرًا لمكانة الأزهر فى العالم الإسلامى والعربى اتجه التفكير إلى إنشاء منصب عالمى كبير يسمى «منصب شـيخ الإسلام»، لأن لكل ديانة من ديانات العالم رئيسًا أعلى يتمـيز بامـتيازات تتـيح له أداء رسالته العـالمية، ورشح لهـذا المنصب الإمام المراغى، وطبق علـى من بعـده حـتى الآن ووضـعت النظم والشـروط الخـاصـة بالفكرة، ومنها من حق شيخه الذى يعد أيضًـا بمثابة مديرًا للجامعة الأزهرية. . وما أحوجنا لإنشاء هذا المنصب بشرط أن يكون غيـر قابل للعزل، وأن يتم انتخابه من مجمع البـحوث الإسلاميـة الذى يضم صفوة علماء العـالم الإسلامى، وعلى أن يكون مقره القاهرة، وله مـيزانيته المستقلة، وأهدافـه المرسومة مع الإشراف العلمى «لشيخ الإسلام» على الأزهر والأوقاف والهيئات الإسلامية[١].

لقد تقلد الشيخ المراغى مشيخـة الأزهر وبذل جهودًا مضنية فى إصلاح أوضاع التعليم فى الأزهر وتجديده حتى يؤدى رسالته على المستوى اللائق به والعصر الذى يعيش فيه، ولم يكن الطريق أمـامه سهلاً لكنه لم يستسلم واستطاع تحـقيق الكثير وجاء بعـده شيوخ كـبار لكل منهم منزلتـه وقدرة من أمثـال الإمام مصطفى عـبد الرازق والإمام الخضر حسين والإمام عبد الحليم محمود وغيرهم من الذين جاهدوا لبعث الأزهر وإعلاء كلمتـه، ولقد صحا الأزهر صحوته العظيمـة، ونهض نهضته الرائدة التى لا مثيل لها على يد إمـامه الحالى فضيلة الإمام الأكبر د. مـحمد سيد طنطاوى حفظه الله، وأصـبح له كليات كثـيرة ومعـاهد أكثر فى جمـيع الأرجاء، وخاض بالأزهر معتـرك الحياة المعاصرة ويسهم مع الجامعـات والمؤسسات الأخرى فى ترشيد نهضة مصر وقيادة الأمة وتوجيه المسلمين وهداية غير المسلمين فجزاه الله خير الجزاء، ولهـذا أصبحت الأيادى تشير للأزهر، ويتجـه إليه العرب والمسلمون فى كل مكان سائلين سـؤال الحريص عليه وليس سؤال المحـرج له. . أو المتربص به. . بعد ما فهموا توجهات الرجل وقلبه على الإسلام والمسلمين.

---

(١) صوت الأزهر: بقلم وريشة د. عبدا لله سلامة نصر صـ١٠ فى ١٩/ ١٠/ ٢٠٠٧.

والسؤال الآن: ماذا عسى أن يكون دور الأزهر اليوم.. وقد تغيرت الأوضاع في مجتمعنا العربي والإسلامي؟ وقد تمزق المسلمون بعدما كانت لهم خلافة تجمعهم وعطلت الشريعة في معظم جوانب الحياة، وحلت محلها القوانين الوضعية، وتراجع الفكر الإسلامي وتربيته وتقاليده لتفسح المجال للفكر الغربي وتربيته وتقاليده.

ماذا عسى أن يكون دور الأزهر؟ وقد استيقظت وتنبهت شعوب الإسلام، وعملت على إعادة الوعي الإسلامي للإنسان المسلم، حتى يثق بنفسه ويعتز بدينه وكله أمل في الغد لأن في الإسلام الحل.

ثم ماذا عسى أن يكون دور الأزهر والقوى المعادية للإسلام صاحية لا تنام عاملة لا تكسل، وتقوم بالتخطيط لا تهدأ من يهودية توسعية تريد أن تعيش على كاهل المسلمين وأرضهم وفي أوطانهم وتجعلهم عبيدًا وخدمًا لها، ولا ننسى الهجمات الصليبية الاستعمارية والشيوعية الإلحادية والوثنية العدوانية، وكلها تحقد على الإسلام والمسلمين وتتحد عليهم، لأن في بلاد الإسلام الخير والثروة والاقتصاد فيريدون، أن ينبهوا ذلك لصالحهم.

ما عسى أن يكون دور الأزهر اليوم وقد كبر حجمه واتسعت قاعدته وعلا صوته وسمع في كل الدنيا بفضل شيوخه وعلمائه؟ وما عسى أن تكون رسالته للعرب وللمسلمين والعالم.. ورسالته لأبنائه، وقد أصبح يخرج كل عام آلافا من الطلاب، وأصبحت جامعته تضم عددًا وفيرًا من الكليات بنين وبنات، دينية وإنسانية وعملية وأصبحت معاهده الأزهرية «ابتدائي -أعدادي- ثانوي» منتشرة في كل قرية ومدينة من جمهورية مصر..

ونعود للحديث عن إمامنا الجليل الإمام مصطفى المراغي.

مكانته وأهدافه:

كان الإمام المراغي رحمه الله يناضل في سبيل إصلاح الأزهر ومناهجه وتجديد أهدافه بين تيارات متضاربة عنيفة.. من ملك مستبد وأحزاب متناحرة واحتلال أجنبي، يفرض سلطانه وجماعات من السلفيين، يناهضون أية حركة تحررية، لكنه

على الرغم من كل هذا.. مضى في طريقه يقتحم العقبات، ويخوض الشدائد واضعًا استقالته في يده، ويلوح بها أو يقدمها في الوقت المناسب، ويقول عنه الإمام د. عبد الحليم محمود عالم ذكي وشخصية خارقة مهيب صاحب رأي في العلم والسياسة، بليغ الأسلوب، وكان الجميع يقدرونه، وكان الانجليز قد تعاملوا معه في السودان ونزلوا على رأيه في مواقف كثيرة مهمة وكثيرًا ما استمع الملك فاروق إلى رأيه، وكان يحضر مجالسه العلمية وينصره على بعض الأحزاب المناوئة والجميع يعرف مكانة الإمام المراغي لجرأته في قول الحق وإن أغضب ذلك ذوي السلطان.

وفي الحرب العالمية الثانية أعلن كلمته المشهورة في مسجد الرفاعي أثناء خطبته «أسأل الله أن يجنبنا ويلات حرب لا ناقة لنا فيها ولا جمل» لأن الانجليز أرادوا أن يزجوا بالمصريين معهم في حرب الألمان، ولقد أحدث تصريح الإمام ضجة كبرى هزت الحكومة المصرية وأقلقت الانجليز واتصل رئيس الوزراء بالشيخ محاولاً تهدئة الموقف والانجليز يعرفون مكانته الدينية ومنزلته عند الشعب ونادى الإمام باحترام العلم والعلماء فهم صفوة القوم وعليتهم وأمر رئيس الوزراء.. بأن يصدر مرسوما بتصدر العلماء واجهة كل الاحتفالات الرسمية.. وللإمام مواقف كثيرة لا يتسع المقام لحصرها.

فلقد كان رحمه الله علمًا من أعلام العلماء، وهذا شيء لا جدال فيه، ولا نتجاوز الحقيقة إذا قلنا.. إن الشيخ المراغي من علماء الأزهر ومن الشيوخ الذين شرف بهم الأزهر.. لأنهم حافظوا على مكانة الأزهر معنى لا مبنى.. لأنهم اعتبروا أنفسهم فوق المنصب وليس المنصب فوقهم.

وأما السياسة فقد ظلمت الشيخ وهذا حق لا مراء فيه، لقد فرضت نفسها عليه فاستجاب لها لأن السياسة ليست وقفًا على الزعماء، يحرم منه علماء الدين، وفصل الدين عن الدولة، لا يعرفه الإسلام، وإن اعترف به غيره، أما وجهة النظر في ظلم السياسة للشيخ، فلأنه كان فقيها ذا عقلية متميزة، وكان يمكن أن يعطي أكثر لولا اشتغاله بالسياسة التي تمس الإسلام والأزهر.

وأما أن الأزهر لم ينصف الشيخ فإن هذا الحكم ليس مقصوراً على الشيخ المراغي، بل يشمل رجالات الأزهر الأعلام الذين شرف بهم الأزهر وأصبحوا نسيًا

منسيًا وإذا كانت وسائل الإعلام لا تقيم وزنا لأعلام العلماء، وتقيم كل الوزن لأهل الفن، وتهتم بهم فماذا فعل الأزهر لتكريم أعلامه.. ولتعريف الشباب المسلم بأقدارهم وفضلهم لا فى مصر وحدها. أمثال د. محمد دراز والشيخ المراغى، وعبد المجيد سليم والعدوى وعبد الجليل عيسى وغيرهم.

ولقد تنبه لهذا الموقف فضيلة شيخ الأزهر الحالى الإمام الأكبر د. سيد طنطاوى فقام بعمل جليل ونبيل فى تخليد وإحياء ذكرى تلك الكوكبة من أئمة الأزهر، وذلك باختيار شيخ من شيوخ الأزهر لإحياء ذكراه فى ندوة كبيرة تقام فى قاعة الإمام محمد عبده أو فى غيرها مع دعوة ذويهم كما يدعو أسرة المحتفى، به وأحفاده وكبار الشخصيات المهمة فى الدولة من وزراء وأدباء وكتاب وصحافة وأعلام، ليبرز ذلك للعالم كله وإظهار نضال شيوخ الأزهر الأجلاء والأئمة من شيوخ الأزهر الذين لم يسجل لهم التاريخ صورهم الشخصية فكلفنى فضيلة الإمام الأكبر د. سيد طنطاوى بالقيام برسمها وذلك من سيرته الذاتية والزمن الذى عاش فيه الشيخ وهذا عمل نبيل واهتمام رائع وتقدير من فضيلته لاحياء ذكراهم، لأنه عرف قدرهم وفضلهم على الإسلام والمسلمين والوطن.. وهذا عمل محسوب له ومشكور عليه.. وكذا جريدة «صوت الأزهر» التى أفسحت صفحاتها لهذا العمل وساعد رئيس تحريرها الأستاذ محمود حبيب فى إنجازه بصورة مشرفة فى مدخل قاعة الإمام «محمد عبده» وذلك بكتابة نبذة تاريخية عن كل إمام من أئمة الأزهر، ومرفق معها صورته وبعض مؤلفاته.. كل شيخ فى لوحة مسلطة عليها الأضواء.. وهذا أيضًا بفضل توجيه فضيلة الإمام الأكبر أ.د سيد طنطاوى وفى داخل القاعة علقت أربع وأربعون صورة رسمتها هى صور أئمة الأزهر من أول شيخ وهو الإمام محمد الخراشى إلى فضيلة الإمام محمد سيد طنطاوى حفظه الله ومتعه بالصحة وأطال فى عمره وذلك فى مظهر منسق جميل تزين جدران القاعة مثل حبات اللؤلؤ فى جيد الحسان[1].

ونعود للحديث عن الإمام المراغى الذى إذا ذكر اقترن اسمه بالعلم والأزهر والسياسة.

---

(١) صوت الأزهر: د/ عبد الله سلامة نصر.

١- يقترن اسمه بالعلم لأنه عالم دينى مجدد وعقلية خصبة جاءت امتداداً لعقلية «محمد عبده»، ولو أن هناك بعض التباين بينهما، وكلاهما أدى للإسلام أجل الخدمات وأعظم الأعمال التى لا يجحدها إلا من حرم نعمة البصيرة.

٢- يقترن اسم الشيخ المراغى بالأزهر والسياسة لأنه الشيخ الذى أخرج الأزهر فى الآونة الأخيرة من عزلته وأراده أن يكون كائنًا يساير الحياة، ويأخذ نصيبه من السياسة ولم يعزل الدين عن الدنيا.

وإن الأزهر الآن أصبح له بصماته على الساحتين الداخلية والخارجية، ويتماشى مع الأحداث العالمية، وارتفعت أصوات تنكر على الأزهر اشتغاله بالسياسة، لكنها ضاعت فى مهب الريح.

والشيخ المراغى بفكره الواعى أهاج ذوى العقليات الجامدة الراكدة، لكنهم لم ينكروه.. عالمًا فقيها له مكانة مرموقة وذا شجاعة نادرة.

مؤلفاته ومصنفاته:

ومع كثرة مشاغل الإمام المراغى والمتاعب والخصومات السياسية.. إلا أنه توجد له مؤلفات ومذكرات وخطب كثيرة فى الإذاعة والصحف والمجلات فى ذلك الوقت ومن مؤلفاته نذكر بعضا منها لاتمام الفائدة:

١- الأولياء والمحجرون بحث فقهى فى موضوع الحجر على السفهاء -مكتبة الأزهر.

٢- تفسير جزء تبارك لا يزال مخطوطًا.

٣- بحث فى وجوب ترجمة القرآن الكريم -مطبوع.

٤- رسالة الزمالة الإنسانية مؤتمر الأديان.

٥- بحوث فى التشريع الإسلامى -فى الزواج.

٦- تفسير بعض سور القرآن فى مناسبات دينية فى ليالى رمضان منها سور لقمان والحديد والعصر ونشر أغلبها فى مجلة الأزهر.

٧- الشيخ المراغى بأقلام الكتاب.

وأتمنى أن يتفرغ بعض الباحثين لدراسة آثار الشيخ المراغى وكذا غيره من الأئمة المخطوطة والمطبوعة لأهميتها العلمية.

وفاته:

لقى الإمام المراغى فى حياته متاعب عديدة سواء من الأحزاب والاستعمار وبعض ذوى النفوذ، وتغلب على كل ذلك بقوة إيمانه بالله، وكان حريصًا على الأمانة صادقًا لا تأخذه فى الحق لومة لائم، ولو كلفه ذلك حياته مثل ما فعل معه بعض المجرمين فى قضية رشوة، وألقوا عليه ماء النار، لكن الله لطف به، وما حدث معه والملك فاروق فى تطليق زوجته الأولى «فريدة» وأراد أن يحرم عليها الزواج من غيره وكان الشيخ يعالج بالمستشفى فرفض الاستجابة، فضاق الملك به وذهب إليه بالمستشفى فقال له الإمام عبارته الخالدة «أما الطلاق فلا أرضاه، وأما التحريم فلا أملكه» وطال الجدل فصاح المراغى قائلاً: «إن المراغى لا يستطيع أن يحرم ما أحل الله».. وبعد أن انتكست صحة الإمام وتروى مجلة المصور ذلك داخل المستشفى قبل وفاته بأيام وكان يقضى وقته فى كتابة تفسير سورة القدر ليلقى عنها حديثًا فى ليلة القدر القادمة ورأته الممرضة ليلة وفاته منكبًا على كتابة التفسير فطلبت منه أن يستريح فرفض ثم زاره الطبيب فوجده يتمتع بصحة جيدة ونبضه حسنًا، لكنه ما كاد ينصرف حتى فاضت روحه الطاهرة إلى بارئها راضية مرضية بعد حياة حافلة بجلائل الأعمال.. وذلك فى ليلة الأربعاء ١٤ رمضان ١٣٦٤هـ و ٢٢ أغسطس ١٩٤٥م.. وشيع إلى مثواه الأخير فى جنازة مهيبة وحزن عليه العامة والخاصة فرحمه الله رحمة واسعة وادخله فسيح جناته.. وهكذا دائمًا موت الأمة فى موت العالم.

وبمناسبة الاحتفالية الخاصة بتكريم ذكرى الإمام الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الأزهر الأسبق.. وامتداد لصفة الوفاء التى يتحلى بها الإمام الأكبر الأستاذ الدكتور محمد سيد طنطاوى شيخ الأزهر وإمام المسلمين.. تم تخصيص مقاله هذا الأسبوع تحت عنوان «هذا هو الإسلام» عن الإمام المراغى وذكراه[1].

---

(١) صوت الأزهر: د/ عبد الله سلامة نصر.

هناك رجال رزقهم الله تعالى -سلامة التفكير-، وعمق الإيمان، وسمو الوجدان، وحب الأوطان، والحرص على نشر العلم النافع الذى من يتحلى به يبنى ولا يهدم، ويعمر ولا يخرب، ويصلح ولا يفسد، ويتعاون مع غيره على البر والتقوى، لا على الإثم والعدوان.

وعلى رأس هؤلاء الرجال العظام: الإمام الأكبر الأستاذ الشيخ محمد مصطفى المراغى -شيخ الأزهر الأسبق، الذى كان مولده سنة ١٨٨١م، وكانت وفاته- رحمه الله- سنة ١٩٤٥م.

وقد نشأ فضيلته فى رحاب الأزهر -طالبًا- ثم مدرسا به- ثم قاضيًا ضربت الأمثال بنزاهته وعدله- ثم قاضيًا للقضاة بالسودان- ثم شيخًا للأزهر سنة ١٩٢٨م. وسنه ٤٧ سنة- ثم شيخًا للأزهر للمرة الثانية من سنة ١٩٣٥ إلى أن لحق بربه سنة ١٩٤٥.

والإمام المراغى -رحمه الله تعالى- بحوثه ومؤلفاته الرصينة متنوعة ومنها- على سبيل المثال- بحث فى جواز ترجمة معانى القرآن الكريم -وآخر فى الاجتهاد- وثالث فى التشريع الإسلامى- ورابع يتعلق بالنهوض بالأزهر- وخامس يتعلق بقوانين الزواج والطلاق.

أما بحوثه التى تتعلق بتفسير القرآن الكريم فهى كثيرة، ومنها:

تفسير سورة «لقمان» -وتفسير سورة «الحجرات» -وتفسير سورة «الحديد»- وتفسير آيات بعضها من سورة «البقرة» وهى قوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ [البقرة:١٧٧] وبعضها من سورة «آل عمران» وهى قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ [آل عمران:١٣٣] وبعضها من سورة «النساء» ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَ...﴾ [النساء:٥٨] وبعضها من سورة «الأنعام» وهى قوله تعالى: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ..﴾ [الأنعام:١٥١] وبعضها من سور أخرى تصل إلى ما يقرب من ٢٠ سورة سنعمل -بإذن الله تعالى- فى أقرب وقت على جمعها فى مجلد واحد.

ومنهج فضيلته فى التفسير للقرآن الكريم، يمتاز بالإشراق والوضوح، وباختيار أصح الآراء وأفضلها، وببيان هدايات القرآن الكريم، وأنها الهدايات التى قال الله تعالى فى شأنها: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء:٩]. وهذا طرف من هذا المنهج الحكيم:

وفى رده على المفسرين القدامى والمحدثين:

ومن الأدلة على ذلك أن الذى يقرأ ما كتبه فضيلته فى تفسير بعض السور والآيات، يراه يجمع ما كان من الآيات فى موضوع واحد، معتمدًا على أن ما أجمل فى موضع قد فسر فى موضع آخر، وما أبهم فى آية قد وضح فى آية أخرى.

ثم يستند إلى الأحاديث النبوية الشريفة، والتى تؤيد ما جاء فى الآيات القرآنية التى هو بصدد تفسيرها، ثم يسوق ما يختاره من أقوال المفسرين القدامى والمحدثين.

وكان من عادته -رحمه الله- ومن تواضعه الجم، وأدبه العالى، أنه ينظر قبل أن يكتب فى كتب التفسير المتعددة، ثم يختار منها ما يراه مناسبًا.

وكثيرًا ما كان يقول عما كتبه من تفسير لكتاب الله تعالى: هذا الذى كتبناه، ما هو إلا ثمرات من غرس أسلافنا الأكرمين، وزهرات من بساتينهم».

ولم يتحامل -رحمه الله تعالى- على واحد من المفسرين السابقين، بل كان عفا فى نقده، نزيها فى عبارته.

عدم خوضه فيما أبهمه القرآن الكريم من أحكام:

فهو -رحمه الله تعالى- لا يحب أن يدخل فى جزئيات سكت عنها القرآن الكريم، ولم يصل إلينا فى حديث مقبول أن الرسول ﷺ قد تعرض لتفسيرها.

ومن الأمثلة لذلك أنه -رحمه الله تعالى- عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ...﴾ [البقرة:١٨٣].

نراه يقول بما ملخصه: «ونحن لا نعلم ما الذى فرضه الله -تعالى من صيام- على الأمم السابقة؟ أهو شهر رمضان كما قال بعض الناس أم غيره؟ وليس لنا ما يهدينا إلى شىء معين من دليل يطمئن إليه القلب».

ثم يقول -رحمه الله: والتشبيه لا يدل على المماثلة فى كل شىء، نحن نؤمن بأن صوما قد فرض على الأمم السابقة، ولكننا لا نعلم مقداره ولا كيفيته، ولا يزال الصوم معروفًا عند الأمم الأخرى على أوضاع مختلفة».

ونحن علينا -كمسلمين- أن نقتدى بالرسول ﷺ فى صلاتنا وفى زكاتنا وفى صيامنا وفى حجنا، فهو القائل: «صلوا كما رأيتمونى أصلى» وهو القائل: «خذوا عنى مناسككم».

حرص على إبراز المشكلات الاجتماعية وبيان علاجها من شريعة الإسلام.

ومن الأدلة على ذلك أنه عندما فسر قوله -تعالى- ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

قال -رحمه الله- «والحكمة من هذه الشرائع الإلهية: أن الإنسان إذا ترك إلى مداركه الحسية، ونظرياته العقلية، ضل وكان أشقى من أنواع الحيوان، وشقاؤه قد يكون من ناحية هواه الذى انقاد له عقله.

ولقد دلت التجارب على أن العقل إذا لم يهتد بالشرع كان ضلاله أكثر من صوابه.

كما دلت التجارب -أيضًا- على أن الأمم التى عملت بهدايات الشرع سعدت وارتقت وقويت وعزت.

إن دائرة العقل محدودة، وهى قاصرة عن إدراك خفايا المستقبل.

ولا يقال: إن الإسلام مقيد للحرية، وإن التدين مانع من التمتع بالطيبات، لأن الإسلام أباح الطيبات، وحرم الخبائث، ولم يمنع إلا الملذات التى تضر الإنسان.

وليست السعادة فى حرية البهائم، بل فى حرية فيها خير الإنسان وسعادته.

عنايته بإظهار- أن شريعة الإسلام أمرت أتباعها بالأخذ بأسباب القوة العادلة الرشيدة: فقد قال -رحمه الله- عند تفسيره لقوله -سبحانه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥].

ذكر الله سبحانه -فى هذه الآية الكريمة، ألفاظ الكتاب، والميزان، والحديد، وقرنها بعضها ببعض.

فى الكتاب: إشارة إلى الأحكام المقتضية للعدل والإنصاف.

والميزان: إشارة إلى سلوك الناس على وفق هذه الأحكام.

والحديد: إشارة إلى ما يحملهم على اتباعه هذه الأحكام إذا تمردوا.

والله -تعالى- وهو العليم الحكيم- لا يضع للناس من القوانين إلا ما فيه مصلحتهم. والعقلاء من الناس تكفيهم تلاوة الكتاب واتباعهم لأحكامه عن اقتناع وامتثال.

أما السفهاء فلا بد لهم من رادع يردعهم، وزاجر يزجرهم عن الظلم والعدوان.. وذلك الرادع والزاجر هو سلطان الحاكم المشار إليه بالحديد.

ولذلك وجدت التعازير فى الإسلام، ووجدت العقوبات.

ولقد كانت «درة» عمر بن الخطاب -رضى الله عنه- سلكًا قويًا للنظام الإسلامى، فلما رفعت ضعف ذلك الرباط.

وقد ذكر الله -تعالى- فى هذه الآية الكريمة فائدتين للحديد:

الفائدة الأولى: أن فيه البأس والشدة والقوة التى تحمى المظلوم، وتردع الظالم.

والفائدة الثانية: أن فى الحديد منافع للناس، وذلك واضح، فما من شىء من ضروريات الحياة أو من كمالياتها، إلا وللحديد دخل فيه.

هذا طرف من المنهج الحكيم الذى سلكه الإمام الشيخ محمد مصطفى المراغى، فى تفسيره لبعض سور وآيات القرآن الكريم.

وإنا لنتضرع إلى الله -عز وجل- أن يتغمده برحمته، وأن يسكنه فسيح جناته، وأن يلحقنا به مع النبـيين والصديقين والشهـداء والصالحين وحسن أولئك رفـيقًا. ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليمًا[١].

❁❁❁

(١) صوت الأزهر: الإمام الأكبر فضيلة الدكتور محمد سيد طنطاوى صـ ١٢ فى ٤/ ٥/ ٢٠٠٧م.

٣١- فضيلة الإمام الشيخ مصطفى عبد الرازق



ولد رحمه الله عام ١٨٨٥ بأبى جرج من أعمال مديرية المنيا، وهو الابن الثانى من أولاد المرحوم حسن عبد الرازق باشا، وبعد أن أتم تعليمه الأولى، حفظ القرآن الكريم وجوده، ثم التحق لطلب العلم بالأزهر الشريف، وتخرج فى سنة ١٩٠٦ وحصل على شهادة العالمية من الدرجة الأولى بين زملائه الشافعية، وعين للتدريس فى مدرسة القضاء الشرعى، وفى سنة ١٩٠٩ سافر إلى فرنسا والتحق بجامعة السربون ليضم إلى ثقافة الشرق ثقافة الغرب، وندبه مسيو لابيير لتدريس بعض المباحث الإسلامية بجامعة ليون، ثم عاد من فرنسا فى أوائل الحرب الكبرى، وعين سكرتيرا لمجلس الأزهر، وكان ذلك فى سنة ١٩١٦، وفى سنة ١٩٢١ عين مفتشًا فى المحاكم الشرعية، ثم عين سنة ١٩٢٧ أستاذًا للفلسفة بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول وظل فى كرسى الأستاذية حتى اختير فى سنة ١٩٣٨ وزيرًا للأوقاف فى وزارة المغفور له محمد محمود باشا الثانية، واختير عدة مرات فى وزارات مختلفة لتولى هذا المنصب حتى انتقل المغفور له الشيخ المراغى شيخ الأزهر إلى جوار ربه، فاختير لهذا المنصب وهو وزير الأوقاف وصدر الأمر الملكى بتعيينه شيخًا للأزهر فى ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٤٥، وظل فى هذا المنصب حتى لقى الرفيق الأعلى وقد اختير أميرًا للحج فى العام الذى توفى فيه، فكان خير مبعوث لمصر بين أبناء البلاد الإسلامية عند البيت الحرام. ويقول عند الأستاذ محمد فريد وجدى حين وفاته: انتقل إلى عالم الأرواح الخالدة الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق، شيخ الجامع الأزهر، وهو أصح ما يكون جسمًا وعقلاً، فكان لهذه الفجاءة أثر فى النفوس، لم نشهد مثله لأحد قبله، لأن الناس كانوا أحوج ما يكونون إلى مثله فى هذا العهد من الانتقال، وفى هذا الدور من الاعتراك بين القديم والحديث، وكان الأستاذ بشخصيته الممتازة، وسعة أفقه الثقافى خير من يدرك آثار هذا العهد

فى حياة الأمم، وأصلح من يوكل إليه أمر التوفيق بينهما لمصلحة الدين والدنيا معًا. فلا غرو إن ساور الهلع كل نفس تنتظر عهد الاستقرار والهدوء والتقدم. لم أر فيمن قابلت من القادة والأعلين أكرم خلقًا فى غير استكانة، ولا أهدأ نفسًا فى غير وهن، ولا أكثر بشاشة فى غير رخوة، من الشيخ مصطفى عبد الرزاق، وكل ذلك إلى حزم لا يعتوره لوث، واحتياط لا يشوبه تنطع، وأناة لا يفسدها فتور، وإدمان على العمل ينسى معه نفسه، وهى صفات كبار القادة. وعلية المصلحين، ممن خلقوا لمعالجة الشؤون المعقدة، وحسم المنازعات الشائكة، والتوفيق بين المطالب المتنافرة، وهذه مواقف كما تقتضى مضاء العزيمة، نحتاج إلى هوادة الأناة، وكما تستدعى سرعة البت، لابد لها من القدرة على إزالة الحوائل، وقديمًا قالوا: رب عجلة أورثت ريثًا، ورب إقدام جر إلى نكوص، فكان بما حباه به بارئه من هذه المواهب النادرة، كفاء المهمة التى وفق المسؤولون فى إسنادها إليه، وكنت أقول لا شك فى أنه بما جبل عليه من حب الإصلاح، وما اتصف به من الصفات التى سردناها آنفًا، سيصل إلى حل مشكلة الأزهر حلاً حاسمًا، يعيش تحت نظامه آمنًا شر العوادى، وفى منجاة من عوامل القلق والاضطراب. ذلك أنه بما تضلع من إلمام بنظم الجامعات، وما حصل من علم بمقوماتها وحاجاتها؛ لتمضيته فى صميمها سنين طوالاً من حياته طالبًا ومدرسًا، يعرف من أسرار حياتها وبقائها وبواعث عللها وأعراضها، ما لا يعلمه إلا الأقلون، والأزهر لا يخرج عن جامعة قديمة فى دور انتقال، تتفاعل لتتناسب والعهد الذى تعيش فيه، فهى فى حاجة إلى أن تحصل على المقومات التى تؤاتيها بهذا التناسب، وهو لا ينحصر فى زيادة ميزانيتها، ولا فى تهذيب برامج دراستها، ولكنه يتعداهما إلى ما هو إيجاد المجال الحيوى لخريجيها.

ولد فقيدنا أجزل الله ثوابه فى قرية أبى جرج بمديرية المنيا سنة (١٣٠٤)هـ الموافقة لسنة (١٨٨٥)م وتلقى التعليم الأول فيها، ثم بعث به والده إلى الأزهر فلبث فيه اثنتى عشرة سنة. ولما نال درجة العالمية فيه أسندت إليه مهمة التدريس فى مدرسة القضاء الشرعى. ثم رأى أن الأولى به أن يتمم ثقافته بالمعارف الغربية، فأم باريس، والتحق بجامعة (السوربون) المشهورة ونال إجازة فى الأدب الفرنسى

والفلسفة، وانتقل من السوربون إلى معهد الدراسات الاجتماعية العليا لينال حظًا من معارفها. ثم دعاه الأستاذ لامبيير إلى ليون ليلقى محاضرات فى الشريعة الإسلامية، ويقوم بتدريس اللغة العربية هناك، فلم تمنعه هذه الأعمال من متابعة دراساته فى الفلسفة والأدب الفرنسى. وفى هذه الأثناء تتلمذ للأستاذ جوبلو، الذى كان مرجع علم المنطق فى فرنسا إذ ذاك، ولما عاد إلى مصر سنة ١٩١٦، عين سكرتيرًا لمجلس الأزهر الأعلى، ثم مفتشًا للمحاكم الشرعية سنة ١٩٢١. وفى سنة ١٩٢٧ عين أستاذًا للمنطق والفلسفة الإسلامية بجامعة فؤاد، وإليه يرجع الفضل فى إحياء المصطلحات العربية القديمة واستعمالها فى تعليم فروع الفلسفة.

ومما جدير بالذكر أن جميع مدرسى الفلسفة فى عهدنا الحاضر بجامعتى فؤاد والإسكندرية من تلاميذه، ولم تنقطع صلتهم به، وقد أسندت إليه وزارة الأوقاف مرتين[1]، ولما توفى الأستاذ الشيخ محمد مصطفى المراغى، وعز وجود من يملأ مكانه، أسندت المشيخة إليه فى ٢٧ من ديسمبر سنة ١٩٤٥م.

ومن مؤلفاته العديدة:

١- ترجمة فرنسية لرسالة التوحيد تأليف الشيخ محمد عبده، وضعها بالاشتراك مع الأستاذ ميشيل، وحلاها هو بمقدمة طويلة.

٢- رسائل صغيرة بالفرنسية عن المرحوم الأثرى الكبير بهجت بك، وعن معنى الإسلام ومعنى الدين فى الإسلام.

٣- كتاب التمهيد لتاريخ الفلسفة.

٤- فيلسوف العرب والمعلم الثانى.

٥- الدين والوحى فى الإسلام.

٧- الإمام محمد عبده، وهو مجموع محاضرات ألقيت فى الجامعة الشعبية سنة ١٩١٩ . . . وكلها مؤلفات تعتبر غاية فى الإفادة.

وله كتب لم تنشر، منها مؤلف كبير فى المنطق، وكتاب فى التصوف، وفصول

---

(١) وأسندت الوزارة كذلك إلى شقيقه على عبد الرازق من بعده، وتوفى على عبد الرّازق من ١٩٦٦/٩/٢٤م.

فى الأدب تقع فى مجلدين كبيرين. وكان رئيسًا لمجلس إدارة الجمعية الخيرية، التى كان والده من مؤسسيها، وكان عضوًا فى مجمع اللغة العربية، والمجمع العلمى المصرى.

وفى ٢٧ مارس عام ١٩٤٧ أقيمت حفلة لتأبينه فى جامعة فؤاد الأول، ألقى فيها لطفى السيد وعبد العزيز فهمى والدكتور حسين هيكل ومنصور فهمى وإبراهيم دسوقى أباظة وطه حسين وأمين الخولى والعقاد وسواهم كلمات وقصائد فى الإشادة بمناقبه. وألقى الشيخ محمدعبد اللطيف دراز فى الحفلة كلمة جاء فيها:

عرفت مصطفى عبد الرازق سكرتيرًا عامًا لمجلس الأزهر الأعلى، وعرفته موظفًا فى وزارة العدل بعد إبعاده عن الأزهر بسبب موقف وطنى كريم، وعرفته أستاذًا فى الجامعة، ووزيرًا، وشيخًا للجامع الأزهر، وخالطته أطول مخالطة، وخبرته أشد الخبرة فى كل ما ينبغى أن يعرف صديق عن طريق، وأخ عن أخ، فأشهد ما تقلب به دهر، ولا حاد عن عهد، ولا زال عنه من خلق الرجال ما يزول عن المسترجلين والمتعاظمين، إذا دالت الدولة ونبا الزمان وتقطعت بهم الأسباب، فهو راض وإن سخط غيره، وهو سمح وإن تعسر الزمان.

كان مصطفى عبد الرازق مثقفًا، ولكن أية ثقافة هى؟ هى الثقافة الإسلامية التى أفنى العمر فى تصويرها والدعوة إليها، وحمل الأمة عليها جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده وعبد الرحمن الكواكبى ومحمد مصطفى المراغى وغيرهم من قادة النهضة وأئمة الإسلام فى عصرنا القريب. كان هو المثال الذى تمثلت فيه هذه الثقافة الحية الناهضة الجامعة بنى خير ما فى الشرق وخير ما فى الغرب من تراث الإسلام الطاهر، وثمرة العقول الناضجة، وبهذا نعلم مقدار خسارتنا وخسارة الأزهر والإسلام بفقد هذا الرجل. كان مصطفى عبد الرازق مؤمنًا، وإيمانه هوالذى كون له هذه النفس القوية العظيمة، فإن الثقافة وحدها لا تصنع النفوس، فنحن نرى بعض المثقفين يتخذون من ثقافتهم طريقًا لمجرد كسب العيش، وهى فى البعض الآخر طريق إلى الشرور والمآثم والفتن، تشقى ولا تسعد، وتدمر ولا تعمر، وتهلك الحرث والنسل، ويبغى بها الناس بعضهم على بعض، ويسعون بها

فى الأرض فسادًا، فما أبعد الفرق بين هذه الثقافة وبين كرائم الإيمان!. تلك مادية صرفة، وليس من هذا فقط كان فسادها فقد تنفع المادة وتصلح، ولكن فسادها كان من أن الشيطان تولى زمامها، فصرفها عن غايتها المثلى، وأركسها فى الشهوات والأهواء. أما مواهب الإيمان فهى نفحات قدسية تملأ القلب هداية ونورًا، وسكينة وثباتًا، وأمنًا وسلامًا، ومحبة ورضا، وأملاً فى الله ومراقبة له، وعملاً لوجه ربك ذى الجلال والإكرام. وهذه هى السعادة التى جاء بها المرسلون وجاهد فى سبيلها المصلحون، وسعد بها المؤمنون، فإذا هى لنفس طيبة نبيلة أن تجمع بين هبة الدين الحق والعلم الصحيح، فقد أشرقت بنور على نور، ونور الإيمان بالله يملأ القلب، ونور العلم يهتدى به العقل فى الوصول إلى الحق.
وكذلك كان فضل الله ونعمته على فقيدنا الكريم عليه رحمة الله: جمع الله له من خير ما يحمد لعباده الصالحين، فمنحه سلامة الفطرة، فكان من أسلم الناس نفسًا، ومنحة سداد العقيدة فكان من أنفذ الناس بصيرة فى الدين، ومن أشدهم استمساكًا به واعتصامًا بهديه، ومنحه العلم الصحيح والمعرفة الواسعة، فكان من أجمع الناس لعلوم الشرق والغرب، تمثلهما عن خبرة ودراية وإمامة، وهو بهذا من الأمثلة الكاملة فى الشرق للثقافة الإسلامية الكاملة. فإذا أراد الأزهر مثالاً أعلى لأبنائه، وإذا أراد الأزهر مثالاً أعلى لشيوخه ورؤسائه، فإن مصطفى عبد الرازق هو المثل الذى يعز نظيره ويندر وجوده. وهل هناك أدلة على بنوته الأصيلة للأزهر من أن ثقافته الحديثة لم تحل بينه وبين أزهريته فى جميع مراحل حياته، وبقى ابنًا للأزهر فى روحه وعمله وفى وفائه لأصدقائه؟ وقد بالغ فى التمسك بأزهريته إلى حد أنه وقد تقلد منصب الوزارة لم يستطع أن يغير زيه الأزهرى فى نفسه أظهر من هذا؟ إن الطلبة الأزهريين الآن يحاولون أن يخلعوا أزياءهم ليبرزوا فى صورة أخرى زعموا أنها هى الموافقة لروح العصر، فكيف تقول فى ر جل سافر إلى أوروبا وتولى من المناصب وخالط من الأشخاص والهيئات والبيئات ما كان يلح فى دعائه إلى تغيير زيه فلم يجد منه ذلك كله إلا إباء وامتناعًا واعتصامًا بكل ما يدل على أنه ابن الأزهر؟ ومسألة الزى عندنا مسألة شكلية، ولكنى قصدت أن أشير إلى مظهر للأزهرية الأصلية فى نفس مصطفى عبد الرازق، وهذه الأزهرية

الصحيحة هى التى مكنت له أن يجمع بين ثقافة الشرق والغرب فلم يختلفا عليه، ولم يستعص عليه أمرهما كما استعصى على غيره. وإذا تحدث متحدث عن مصطفى عبد الرازق فلن يستطيع أن يغفل الحديث عن سماحة نفسه وعطفه على المحتاجين، وإن كان حديثه معادًا، لأن فى تكرار هذا الحديث متعة لنفس المتحدث ونفوس السامعين، يعرف هذه السماحة كل موطن من المواطن التى عاش فيها الفقيد موظفًا وغير موظف، فى الجامعة وفى الأزهر، يعرف الطلبة الذين كاد الفقر أن يحول بينهم وبين غايتهم، فكان مصطفى عبد الرازق هو الذى يكفيهم، وهو الذى يفرج عنهم -بفضل الله عليهم وعليه- هذه الشدة، وتعرفه عائلات فقيرة أخنى عليها الدهر، فكان مصطفى عبد الرازق غوثها ومددها وعائلها، يخفى ذلك عن الناس، ولو استطاع لأخفاه عن نفسه، حتى لا تعرف شماله ما تنفق يمينه.

وفى مارس عام ١٩٤٧ أيضًا أقام معهد المنيا الدينى حفلة تأبين للمغفور له الأستاذ الأكبر الراحل، ألقى فيها صاحب الفضيلة الشيخ محمود أبو العيون خطبة بليغة جاء فيها: فجع الأزهر فى شيخه فجاءة، فكانت صدمة الفجيعة فيه شديدة، صدمة روعت القلوب، وأذهلت النفوس، وأدهشت العقول. وفعت الواقعة فى وقت كان الأزهر يستشرف بواكير أعمال شيخه الجليل وإصلاحاته التى وضع أسسها فى أيامه القليلة التى قضاها بين ربوعه.. إن الشيخ مصطفى كان يحمل على أطواء قلبه النابض بالخير للأزهر والإسلام بنود العمل المجيد، والنهضة الصالحة للجامعة الأزهرية بما يكفل لها الحياة الأزهرية القيمة، والمستوى الرفيع بين جامعات الأمم المتحضرة. وكان طموحه وهدفه أن ييسر للأزهر النهوض برسالته الدينية والجماعية، ونشر السلام والطمأنينة فى هذا العالم المملوء بالشرور والقلق الروحى.

كان يجمعنا إليه ويضع الاقتراح فى مسألة معينة من مسائل الإصلاح فى الأزهر، ونتداول الرأى فيها ويدلى هو برأيه كالمستفهم، وفى النهاية يستقيم الأمر على الأساس الذى ارتآه فى نفسه وفى سريرته. وهكذا دواليك، حتى اجتمع من ذلك جملة مسائل للإصلاح الذى انتواه، ووضع أساسه، وأزمع إجراءه. وفى الحق: أنه ما كان يقطع برأى دون الإجماع منا على استحسانه ونفعه، وكان سبيله

فى الإقناع الرفق واللين، والحجة الناطقة، والبرهان الواضح. وضع مرة مسألة أمامنا: فقيدنا العظيم، ووكيل الأزهر، ومديره، والماثل أمامكم. تداولنا الرأى فى المسألة فكان رأيى مخالفًا للجميع فى صلابة. فابتسم المغفور له ابتسامة عميقة الإحساس، ثم قال: لعل لفلان حجة يكون فيها مقنع لنا. وما زال بى يلطف ويرق، ويعالج ويقنع، حتى جرنى إليه وأسلس قيادى، فكنت فى صف الجماعة. وكان شيخنا كثير الحلم والأناة. وأذكر أنه عرض من بعض الطلبة شىء مخالف قبيل وفاته مما يستفز صدر الحليم، فرعد وزمع، وتمعر وجهه على غير عادته، فقلت: سيدى أين غاب عنك حلمك، ولم تغيرت عادتك فى هذه المرة؟! فقال مبتسمًا، وفى صوت مرنان: ومن ذا الذى يا عز لا يتغير؟ إن الأزهر حين فجع فى شيخه الأكبر، فإنما فجع فى أسمى وأطيب وأعرق الخلال الكريمة التى لو وزعت على جماعة كثيرة لوسعتهم جميعًا، وكان أحلى ما فى خلاله الوفاء، الوفاء الخالص المتصل، لأصدقائه ولذاته، وللعفاة المحرومين، الذين اتصلوا به، وكان إلى جانب الوفاء والكرم والسماحة، كرم النفس، وسماحة الصدر إلى حد التضحية بكل نفيس فى سبيل ذلك. وفى جانب الوفاء والكرم والسماحة والحياء.

ومن كلماته كلمة ألقاها بمناسبة اختياره رئيسًا فخريًا لجميعات المحافظة على القرآن الكريم بعد وفاة الشيخ المراغى، قال فيها:

«القرآن مصقلة القلوب كما ورد فى الحديث، وما أحوج قلوبنا إلى ما يصقلها ويجلو منها الصدأ! والقرآن هدى ونور، فهل إلا القرآن لما يغشى العالم اليوم ظلام وضلال، والقرآن من بعد هذا ثقاف للألسان، يقوم عوجها، ويصلح عجمتها، ويغذى من البلاغة مادتها، فمن عمل على تنشئة أطفالنا على حفظ القرآن وترتيله ومدارسته، فإنما يصلح القلوب، ويقوم الأخلاق، ويخدم العربية، وما أشرف ذلك مقصداً وأعظمه نفعًا!» ويتقاضانا الوفاء بمناسبة أول احتفال سنوى بعد وفاة الرئيس الفخرى السابق رضى ا لله عنه أن نذكر مآثره الباقيات فى خدمة القرآن الكريم: كان رحمه الله مسلمًا صادقًا، وكان يحب القرآن حبًا جمًا، وقد عنى فى أكثر دروسه الدينية بالتفسير فى أسلوب يلائم جلال كتاب الله، ويوطد أسباب فهمه لأذواق الأجيال الحاضرة، كما كان يصنع من قبل أستاذنا الإمام «الشيخ

محمد عبده». ووجه الأزهر إلى العناية بالدراسات العالية لعلوم القرآن، وقد أنشأ معهد القراءات والتجويد، والمرجو أن يتـابع الأزهر السير فى هذه السبيل، فيقوى معهد القراءات ويكمله، وينشىء إلى جانبه دراسات عالية للحديث وعلومه، حتى يستوفى الأزهر جميع الوسائل التى تعده لأن يكون كعبة المسلمين فى كل ما يتصل بالقرآن والحديث. وفى مجلة الأزهر دراسة عن الشيخ مصطفى عبد الرازق[1].

رأى طه حسين فى الشيخ

كتب طه حسين عن مصطفى عبد الرازق يقول:

كنت فى السادسة عشـرة حين لقيته لأول مرة حين أقـبل زائرًا لثلاثة من رفاقه فى الأزهر، بينهم أخى، وكانوا جـميعًـا يقيمون فى غـرفات متـقاربة فى ربع من تلك الربوع التى كان طلاب الأزهر يحتلونها فى حوش عـطى. . وكانوا يجتمعون فى غرفة أحدهم حين يزورهم الزائرون، وقد كـان الاجتماع فى غرفتنا تلك المرة. وقد لقيت منه شابًا حار الصوت، صـادق اللهجة، عذب الحديث، لا يرفع صوته إلا بمقدار، وكان قليل الحركة، معتدل النشـاط، يمتاز من رفاقه أولئك بهذا الوقار الهادئ المطمئن الذى لا يتسم به الشباب عـادة، وإنما هو سمة الشيوخ ومن يجرى مجراهم من الذين تقدمت بهم السن.

كان جم الأدب، موفور التواضع، لا يتجاوزر القصد فى قول أو عمل، يفرض عليه طبعه ذلك، ويـفرضه هو على الذين يجالسهم أو يتحـدث إليهم، كأنما كان يلقى فى نفوسـهم وقلوبهم وعلى ألسنتهم، فـضلاً من وقاره وهدوء نفسـه. فهم يتحـدثون مثله فى أناة، ويضحكون مثله فى قـصد، ويروون معه أحـاديث الجد، وربما عبثوا شيئًا بنوادر الشيوخ من أساتذة الأزهر. ومضى وقت غير قصير قبل أن تقوى الصلة بينه وبينى.

كان قد أشرف على الخـروج من طور الطلب إلى طور العلماء، وكنت فى أول عـهدى بالـدرس، لم أنفق فى الأزهر إلا عـامين أو ثلاثة، وكـان أولئك الرفـاق يلقونه فى درس الأستاذ الإمام، ويزورونه -إذا أقبل الليل- فى داره بعابدين. فإذا

---

(١) عدد شعبان ١٣٧٠.

عادوا تحدثوا عنه وعن إخوته، وعمن كانوا يلقونه فى تلك الدار من أصحاب المنازل الرفيعة، يملأون أفواههم بهذه الأحاديث، ويشيعون بأنها ترفعهم درجة عن أمثالهم من الطلاب.

وكان أولئك الرفاق يمتازون عن زملائهم بالذكاء، وحسن التحصيل، والبراعة فى مجادلة الشيوخ. وأكبر الظن أن هذا هو الذى لفت إليهم زميلهم مصطفى عبد الرازق، فقد كان شديد الحرص على أن يصل أسبابه بأسباب الذين يحبون العلم، ويمتازون فيه، كأنه أخذ هذه الخصلة عن والده وعن أستاذه الإمام، فكلاهما كان يرى حب العلم نادرًا فى مصر، ويبحث عن الذين يتصفون به بين طلاب الأزهر وغيرهم من الشباب. وقد ظلت هذه الخصلة ملازمة لمصطفى عبد الرازق فى حياته كلها، وقد وصلت أسبابه بكثير من الذين امتازوا فى طلب العلم بين الأزهريين وبين المختلفين إلى مدرسة القضاء وبين الجامعيين آخر الأمر، على اختلاف بيئاتهم وطبقاتهم.

وكان لا يعرف محبًا لطلب العلم مخلصًا فى هذا الحب إلا سعى إليه واتصل به وقربه منه وفتح له قلبه وعقله وداره أيضًا. ومهما أنس فلن أنسى تلك الجماعة التى ألفها من بعض أولئك الممتازين من طلاب العلم فى الأزهر، ونظم لها اجتماعا برياسته مساء الجمعة من كل أسبوع. وكانت هذه الجماعة تلتقى فى غرفة من غرفات الطلاب فى ربع من ربوعهم أيضًا بخان الخليلى، ويلقى أعضاؤها أحاديث فى موضوعات مختلفة تدور كلها حول الإصلاح الذى كانت مصر كلها تتحرق ظمأ إليه، وإلى إصلاح الأزهر خاصة بعد أن شب الأستاذ الإمام فى قلوب الممتازين من شبابه جذوة الثورة على ذلك الركود الذى اطمأن إليه الأزهر قرونًا طوالاً.

وكان افتتاح مصطفى عبد الرازق لجلسات تلك الجماعة هو أشد ما يعجبنى ويروعنى، فهو لم يكن يزيد على أن يسمى الله ويقرأ الفاتحة، ثم تأخذ الجماعة فيما تريد أن تدير بينها من الحديث وأى افتتاح أبلغ وأوقع فى القلوب من اسم الله وفاتحة الكتاب المجيد! وقد عرفت بعد ذلك أن مصطفى عبد الرازق كان يذهب فى ذلك مذهب الوفاء الصادق لأستاذه الإمام الذى افتتح رسالته فى التوحيد نفس هذا الافتتاح.

وإذا كان حب العلم وطلابه المخلصين هو الخصلة الأولى من الخصال التى لزمته حياته كلها، فخصلة الوفاء، هى الخصلة الثانية من خصاله. فقد عرفته محبًا للعلم وطلابه كأشد ما يكون الحب وأصدقه وأعمقه، يسعى إليهم ويقربهم منه ويؤثرهم بالخير، وينزلهم من نفسه مكانة الصديق، وعرفته كذلك وفيًا لكل من أحب من الناس، لا يفرق بينهم فى ذلك مهما تكن الظروف، ومهما يبعد بهم الزمان والمكان، ومهما تلم الأحاديث وتدلهم الخطوب.

كان وفيًا للشافعى، رحمه الله، لأنه كان يذهب مذهبه فى الفقه، ويرى الوفاء له دينًا عليه. ومن أجل ذلك ترجم رسالته وعنى بدرسها وترجمتها وقتًا غير قصير. وأثر هذا الوفاء للشافعى فى حياته العقلية نفسها وفى نهجه الفلسفى تأثيرًا شديدًا، وفتح له أبوابًا من العلم لم تفتح لأحد من قبله من علماء المسلمين. فدراسته لرسالة الشافعى فى الأصول ألقت فى روعه رأيًا خصبًا لم يستغله تلاميذه بعد، وأرجو أن يتاح لبعضهم تعمقه واستقصاء آثاره الخطيرة فى تاريخ الحياة العقلية للمسلمين. فقد رأى أن الشافعى يفلسف فى أصول الفقه وما يتصل به من المشكلات المختلفة فى الدين واللغة واستنباط الأحكام من المنصوص، فارتقى برأيه هذا إلى من سبق الشافعى من المفكرين المسلمين الذين لم يجادلوا فى أصول الفقه وحدها، بل جادلوا فى أصول الدين أيضًا، فأولئك الزعماء القدماء للأحزاب الإسلامية الأولى. حين كانوا يجادلون فى مذاهب أحزابهم وآرائها فيمن ثاروا بعثمان ومن تابعوا عليًا ومن خاصموه ومن وقف من هذه الفتنة موقف الحياد، وحين كانوا يجادلون فى مقترف الكبيرة أمؤمن هو أم كافر أم هو يصير إلى منزلة بين منزلتين من الإيمان والكفر أم هو مرجأ إلى الله يقضى فى أمره بالحق؟ وحين صاروا من هذا الجدال إلى الجدال فى أمور أخرى أعمق من هذه الأمور، فجادلوا فى العدل والتوحيد، إنما كاوا يفلسفون فى مسائل الدين قبل أن يعرفوا الفلسفة اليونانية، بل قبل أن يحسنوا العلم باللاهوت عند المسيحيين واليهود. ومعنى ذلك أن المسلمين قد أنشأوا فلسفتهم الأولى من عند أنفسهم، وكانت فلسفة يسيرة سمحة كالإسلام نفسه، ثم لقيت الفلسفة اليونانية بعد ذلك فأدركها ما فى هذه الفلسفة من العسر والتعقيد.

وكذلك جره الوفاء للشافعى، رحمه الله، إلى استكشاف مذهب جديد فى الفلسفة الإسلامية له خطره العظيم أن عرف تلاميذه كيف يتعمقون وينتهون له إلى غايته.

وكان وفيًا للذين عرفهم وحسنت الصلة بينه وبينهم من الأساتذة الفرنسيين حتى أقام فى فرنسا طالبًا للعلم للحديث، بعد أن أخذ بحظه من العلم القديم فى مصر.

عرف أستاذًا فرنسيًا شابًا فى إحدى الجامعات هناك واشتد الألف بينهما، ثم أعلنت الحرب العالمية الأولى، ودعى ذلك الأستاذ الفرنسى إلى أداء واجبة العسكرى، فاستجاب للدعاء وترك زوجة وليس لها عائل، فكان مصطفى عبد الرازق يؤثرها على نفسه بالنصيب الأوفر مما كان يصل إليه من المال، لا يتردد فى ذلك، ولا ينقطع عنه حتى عاد إلى مصر. والله يعلم ماذا فعل بعد عودته. وقد عرفت ذلك من الأستاذ الفرنسى نفسه، وقد كلمت فيه مصطفى فغير مجرى الحديث، وظل وفيًا لهذا الأستاذ، حتى إذا وضعت الحرب أوزارها، ومضى شىء من الوقت، وخلا منصب فنى من المناصب فى مصر، ولم يكن بين المصريين من يستطيع النهوض بأعباء هذا المنصب، وأخذت الحكومة تبحث عن أجنبى -جد مصطفى حتى اختير صديقه ذاك لهذا المنصب. وسألته عن عنايته الخاصة بهذا الأستاذ وجده فى السعى له، فأنبانى بأنه يرى فيه الكفاية لمنصبه أولاً، وبأنه فقد زوجه وجزع لفقدها، فمن الخير أن يترك وطنه ومدينته ويشغل عمله ذاك الجديد، عسى أن يجد فى ذلك عزاء وتسلية.

وربما جر عليه وفاؤه ذاك بعض ما كان يضيق به من الأمر، ولكنه لم يحفل قط بعواقب الوفاء أتكون خيرًا أم شرًا؟ بل لم يحفل قط بعواقب الواجب، وما يمكن أن تجر عليه مما يسوؤه أو يرضيه. كان سعد زغلول منفيًا عن وطنه وكانت زوجه تعيش فى دارها بالقاهرة يبرها المصريون والسعديون منهم خاصة، وكان مصطفى من أسرة تذهب مذهب الأحرار الدستوريين الذين كانوا يخاصمون سعدا أشد الخصام، وكان مفتشًا قضائيًا بوزارة العدل، وأقبل عيد من الأعياد، فلم يتردد مصطفى فى أن يذهب إلى دار سعد ويترك بطاقته هناك.

وانقضت أيام العيد، وذهب مصطفى إلى عمله، فلم يكد يستقر فى مكتبه حتى دعى للقاء الوزير. فلما لقيه قال له الوزير: ألم أعلم أنك ذهبت إلى دار سعد وتركت فيها بطاقتك يوم العيد؟ قال مصطفى: قد كان ذلك. قال الوزير: أو لم تعلم أن سعدا يناوىء الحكومة القائمة وأن زيارة داره سياسة محظورة على الموظفين؟ قال مصطفى: تلك مجاملات لا شأن لها بالسياسة ولا بالحكومة، قال الوزير: فأنت مفصول منذ الآن. قال مصطفى: أنت وما تريد. وعاد مصطفى إلى داره غير حافل بما كان. ولكن رئيس الوزراء ثروت باشا، رحمه الله، علم بالأمر فعاتب الوزير فيه، وترضى ذلك الوفى الذى وشت به الأرصاد فعوقب على الوفاء.

والبر بطلاب العلم خاصة، وبكل من يحتاج إلى البر عامة، كان الخصلة الثالثة من خصال مصطفى عبد الرازق. فلم أعرف قط قلبًا أبر بفقير، ولا نفسًا أرق لذى حاجة، ولا يداً أسرع إلى العطاء، من قلب مصصطفى عبد الرازق ونفسه ويده.

كان أستاذًا فى كلية الآداب بجامعة القاهرة، وكنت لها عميدًا فى بعض الأوقات، وكان فقراء الطالبة أكثر مما تحتمل قواعد المجانية فى الكلية إذا ذاك، فكان يسعى إلى فى بعضهم، فأجتهد له فى ذلك حتى لا أجد سبيلاً إلى الاجتهاد، فأشهد ما تخلف قط عن أداء نفقات التعليم عن أولئك الذين كانت تضيق بهم القواعد. وكلمته فى ذلك ذات يوم وقلت له: توشك ألا تجد شيئًا من مرتبك آخر الشهر، فضحك ضحكة حلوة، وقدم إلى سيجارة من نوع جديد، كما كان يقول، ثم ألقى بهذه الكلمة التى لم أنسها قط، والتى ينبغى أن يذكرها كل قادر على العون: وماذا تريد أن نصنع بهؤلاء الطلاب؟ أتريد أن نتركهم يصدون عن العلم ونحن نرى؟

كان وفيًا وكان أبيًا وكان برًا وكان سمح الطبع والنفس والقلب. لم أره قط يخرج عن هذه الخصال منذ عرفته إلى أن فرق بيننا الموت. وكان لهذه الخصال كلها تأثير أى تأثير فى حديثه إذا تكلم وفى فنه إذا كتب. واقرأ ما شئت من فصول هذا الكتاب: ما كتبه منها أيام شبابه الأول، وما كتبه منها بعد أن تقدمت به السن، ما كتبه منها حين كانت الأيام هينة لينة، وما كتبه منها حين كانت الأيام شداداً ثقالاً.

لم يكن شيء قادراً على أن يغير من خصاله تلك شيئًا. كان سمحًا فى جميع أطواره وفى أطوار من حوله من الناس وما يحيط به من الظروف. كانت الابتسامة الحلوة أدل شيء عليه، والحديث العذب ألزم شيء له. وكان يضيف إلى خصاله هذه خصلة أخرى إذا كتب، وهى خصلة العناية الدقيقة جدًا بالتفكير أولاً وبالتعبير بعد ذلك عما فكر فيه. كان لا يكره شيئًا كما كان يكره العجلة فى القول والعمل والمشى أيضًا.

كان شديد الإيثار للإناة. وكان ذلك ربما عرضه لدعابات الصديق والزملاء، فما أكثر ما كانت تعقد الاجتماعات، ويحضر أعضاء هذه الاجتماعات فى الموعد المقدر لا يتأخرون عنه إلا الدقيقة أو الدقائق القليلة إلا مصطفى، فكان يأتى دائمًا متأخرًا جدًا وكان زملاؤه لا يحبون أن يأخذوا فى العمل قبل حضوره. فكانوا ينتظرون وينتظرون، وربما اضطرهم ذلك إلى بعض الضيق، ولكنه كان يطلع عليهم بابتسامته الحلوة تلك، فلا يكادون يرونه حتى يضحكوا له، ولا يأخذون فى عملهم إلا بعد دعابة لا تمل.

وكان لهذه الأناة أثرها فى كتابته، فأنت لا تجد فيما يكتب معنى نافرًا أو فجًا لم يتم نضجه قبل أن يعرب عنه. وأنت لا تجد فيما يكتب لفظًا نابيًا عن موضعه، أو كلمة قلقة فى مكانها، وإنما كان كلامه يجرى هادئًا مطمئنًا كما يجرى ماء الجدول النقى، حتى حين يداعب صفحته النسيم وكنت أشبه له كتابته بعمل صاحب الجواهر: يستأنى بها ويتأنق فى صنعها لتخرج من يده جميلة رائعة تثير فيمن يراها المنعة والرضى والإعجاب. كان يتألق فى فنه كما كان يتألق فى حياته كلها، وكما كان يتأنق فى سيرته مع الناس جميعًا، سواء منهم من كان يألف ومن كان يجفو. فلست أعرف أن أحدًا سخط عليه أو ضاق به أو شكا منه. كان راضى النفس، يبعث الرضى فى نفوس الناس حين يرونه وحين يسمعونه وحين يقرؤون له.

وإنى لأذكر حديثًا له ألقاه فى مؤتمر من مؤتمرات المستشرقين فى مدينة «ليدن» وكان المؤتمرون كثيرين، وكانت أحاديثهم كثيرة متنوعة، وكان رئيس الجلسة مضطرًا إلى أن يقدر للمتحدثين عشرين دقيقة لا يعدوها أحد مهما يكن حديثه. وقد التزم

المؤتمرون ذلك ولم يخالف عنه أحد منهم. فلما أخذ مصطفى فى حديثه فى صوته ذاك الهادىء العذب الرقيق أصغت إليه الآذان، ثم صغت إليه القلوب، ثم اتصلت به النفوس، وكان يقطع حديثه بين حين وحين ويلتفت إلى الرئيس مبتسمًا كأنه يسأله: أيمضى فى حديثه! فيشير الرئيس إليه: أى نعم، حتى إذا أتم حديثه كان قد جاوز الأربعين من الدقائق. لم يحس أحد أنه قد أطال، وأخذ من الوقت أكثر مما كان ينبغى له.

واقرأ هذا السفر الضخم الذى تختلف فيه الأحاديث والموضوعات اختلافًا شديدًا فستراه على ذلك مؤتلفًا أشد الائتلاف يؤلف بين مختلفاته ما تفيض عليه نفس الكاتب الهادئة السمحة الرزينة من هدوء سمح رزين. ولو أنى أرسلت نفسى على سجيتها لما وجدت لحديثى عن مصطفى غاية انتهى إليها أو حدا أقف عنده.

فأشهد ما مر بى يوم دون أن أفكر فيه يقظًا، وأشهد ما مر أسبوع دون أن أراه فيما يرى النائم، كما كنت ألقاه اثناء الحياة.

فلأخلص أنا للتفكير فى هذا الصديق العزيز، ولتخلص أنت لقراءة أصدق حديث لأخ عن أخيه أولاً، وأسمح كلام كتبه كاتب فى هذا العصر الحديث بعد ذلك.

وقال عنه الدكتور عبد الله سلامة: ونواصل الحديث عن دور الأزهر ودور أئمته وواجبهم تجاه الإسلام والمسلمين وأنه يجب أن يعلم الجميع أن مهمة الأزهر خطيرة وواسعة بسعة السماء الذى يغطى الأرض، فهى ليست محدودة، بحدود مصر وحدها، لكن الأزهر فى العالم الإسلامى كله الممتد من المحيط الهادى إلى المحيط الأطلسى، هذا العالم الفسيح الذى يضم نحو أكثر من ألف مليون مسلم فى أخصب بلاد الله أرضًا وأهمها موقعًا وأغناها.. بما فيها من كنوز فى باطن الأرض وعلى سطحها من خيرات زراعية ومياه عذبة ومعادن مذخورة وثروات منشورة ومن حسن حظ الأزهر أن يعيش على أرض مصر.. جنة الله فى أرضه، وأنه يملك من القدرات والعوامل التى تساعده على أعداء مهمته فى العالم الإسلامى، وهذا ما لا يملكه أحد، ونشير إلى بعض هذه العوامل.

فالأزهر تاريخ حافل بالجهاد والعطاء فى شتى الميادين. . وذكرنا ذلك آنفًا.

للأزهر هيمنة روحية بعيدة المدى ونفوذ عميق فى النفوس، فبالرغم من السموم التى روجها دعاة الإلحاد، والإباحية فى شعوب العالم المؤمنة المتدينة، فما زال لعلماء الدين مكان عظيم، وبخاصة العلماء الاكفاء فى عملهم، وأمناء على دينهم ونحن نرى بأعيننا فى ريف مصر ومدنها بعض العلماء والدعاة الموفقين، والشعب يكابد أن يقدس الواحد منهم تقديسًا، ويعتقدون أن إشارة العالم حكم نافذ، وأن طاعته مغنم وحبه عبادة وخدمته قربى ورضاه من رضاء الله. . إذ العالم هو وارث رسول الله ﷺ، وحارس هدى الله سبحانه فى الأرض، وهو المرجع للناس لمعرفة أحكام الله ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣] وإذا كان الشعب فى بعض الأزمنة قد أشاح بوجهه ونأى بجانبه عن بعض كبار الشيوخ أو صغارهم فلأنهم ولوا وجوههم لغير الله. فولى الشعب وجهه لغيرهم، لأنهم فقدوا احترامهم لأنفسهم، ففقدوا احترام الناس لهم، ورحم الله القاضى الجرجانى حين قال:

ولو أن أهل العلم صانوه.. صانهم ... ولو عظموه فى النفوس لعظما

ولكن أهانوه فهانوا.. ودنسوا ... محياه بالاطماح حتى تجهما

وفى الواقع والحقيقة المرة أن هناك فئة قليلة تكره الأزهر وتكره علماء الدين عامة. . لأن هذه الفئة تكره الإسلام نفسه وتكره العربية والمسلمين، والأزهر هو الإسلام وموئل العربية، وهناك من يضيقون بالأزهر، لأنه شىء قديم وهم أدعياء التجديد، وعبادة، كل جديد، ولو أدركوا لعلموا أنه لو لم يكن القديم لما كان الجديد وهؤلاء الذين قال عنهم «الرافعى» ساخرا: إنهم يريدون أن يجددوا الدين واللغة، والشمس والقمر. . وللقديم بقية.

ونعود لمواصلة الحديث عن الإمام الحادى والثلاثين من شيوخ الأزهر. . وهو الشيخ مصطفى عبد الرازق.

مولده ونشأته وبيئته وتوليه المشيخة:

هو الإمام الفيلسوف مصطفى بن حسن بن أحمد بن محمد بن عبد الرازق وقد أفاض الكتاب فى الحديث عن هذا الإمام الجليل، وما قدمه فى حياته للأزهر

والإسلام وسأحاول إن شاء الله أن أرسم صورة واضحة له من خلال ما قرأته عنه وعن المنهج الذى التزمته مع الأئمة السابقين.

فقد نبت شيخنا فى أسرة عريقة فى الجاه والعلم والثراء، وهذه الأسرة ورثت منصب القضاء كابرا عن كابر، وعالما عن عالم. وكان جدها الأعلى الشيخ عبد الرازق قاضيًا على مدينة «البهنسا» وكانت البهنسا قاعدة ولاية كبيرة، على بحر يوسف. ولها ذكر مشهور فى تاريخ الفراعنة والنصرانية، والفتح الإسلامى، ويقع فى مكانها الآن أو قريب منها.. قرية صغيرة باسمها تابعة لمركز بنى «مزار» محافظة المنيا. ولقد نقل جده أحمد بن محمد القضاء من «البهنسا» إلى بلده «بوجرج» الآن تسمى «أبو جرج» وتبعد عن البهنسا ١٠ كيلو متر له بها دار للسكنى والقضاء، وكان صديقًا لسعيد باشا حاكم مصر.

وقد زاره هذا الحاكم مرات عديدة، وكان والد الإمام الشيخ مصطفى صديقًا ورفيقًا للإمام محمد عبده، واشترك معه فى إنشاء «الجمعية الخيرية الإسلامية» ولد الشيخ مصطفى سنة ١٨٨٥ والأرجح أنه ولد فى أبى جرج، وهو الابن الرابع من أنجال المرحوم حسن باشا عبد الرازق، وهذه القرية من قرى محافظات «المنيا من الوجه القبلى» وقضى طفولته وشطرا من صباه فيها، والمتتبع لتاريخ هذه القرية يتبين له أنها ضاربة الجذور فى دنيا المجد وعالم القيادة والرئاسة. فمنها العديد من العلماء والوزراء والوجهاء والأدباء.. ففى هذه القرية العريقة حفظ الصبى - مصطفى عبد الرازق- القرآن الكريم وسنه بين العاشرة والحادية عشرة، ودرس بعض المواد الأخرى ثم رحل إلى القاهرة، وهدفه الانتساب للأزهر، شأنه فى ذلك شأن كل أقاربه من أبناء الصعيد الذين كان أبناؤهم يفضلون الأزهر على غيره من المدارس الحكومية الكثيرة والتى خصصت لها الحكومة المكافآت السخية مما يشجعهم على الانتساب إليها.

وتحقق الهدف -ودخل مصطفى عبد الرازق الأزهر، ودرس على كبار علمائه، وعلى رأسهم الشيخ «محمد عبده» الذى أحبه وهام فى حبه، بدليل أنه ألف كتابا يتحدث فيه عن الجهود التى يبذلها فى إصلاح الأزهر، وإعادته إلى ما كان عليه فى حياة «العينى -العسقلانى- السخاوى- والمقريزى، وابن خلدون وغيرهم» ما

كان الأزهر يعد فى حياتهم ملتقى لأئمة العلوم والفنون المتعددة من طب وفلك وهندسة، بجانب العلوم الدينية والدنيوية، ولقد واصل التلميذ النابغة دراسته فى جد واجتهاد، وظهرت بواكير نبوغه، وكان والده يتدارس معه العلوم أثناء الإجازات الدراسية. كتب الآداب ودواوين من الشعر، فنمت موهبته وأينعت ثقافاته، وأحب الصحافة، فأنشأ مع أخوته وأقاربه صحيفة عائلية، ثم أنشأ «جمعية غرس الفضائل» تكوينها من شباب أسرته، وكانوا يتناوبون فيها الخطابة فى مساء الجمعة من كل أسبوع، وكان هو أمين سر الجمعية، وأستمرت هذه الجمعية من سنة ١٩٠٠ إلى سنة ١٩٠٥، ثم ظهرت الصحف العامة، فنشرت له المقالات الأدبية والقصائد، ثم انصرف عن الشعر إلى الدراسات الأدبية، وكان الشيخ الإمام محمد عبده، يباشر وقتها الدعوة الاجتماعية، ويقود الحركة الإصلاحية، فلقى استجابة عامة من جمهرة المثقفين، وواسعى الثقافة من الأزهريين، وإن كان قد لقى نقدًا شديدًا من المتزمتين من العلماء والذين أشرت لهم فى التقديم لهذه الترجمة، وكان بين الإمام محمد عبده -وبين حسن باشا والد الشيخ مصطفى مودة وصداقة وثيقة انعكس أثرها عليه، وتأثر الطالب الشاب بالإمام تأثرًا كبيرًا، ووجهه الإمام توجيها رشيدًا، ومدحه الشاب بقصائد عديدة مما يدل على موهبته المبكرة، ولما عاد الإمام محمد عبده من رحلته فى أوروبا حياه الطالب الشاب مصطفى: بقصيدة قال فيها:

أقبل: عليك تحية وسلام	يا ساهرا والمسلمون نيام
أن يقدروا فى الغرب قدرك حقه	فلمصر أولى منهم والشام
فيك الرجاء لأمة لعبت ما	يلهى الصغار، وجدت الأيام

والإمام مصطفى عبد الرازق تخصص فى الفلسفة، ومع هذا فهو صاحب موهبة أدبية ممتازة، أديب وشاعر، وناقد أدبى يمتاز بالفكاهة اللازعة والسخرية المرة، ويبدو ذلك فى مقالاته فى الصحف.

كما أن الله منحه سلامة الفطرة، فكان من أسلم الناس نفسًا، ومنحه سداد العقيدة، وكان من أنفذ الناس بصيرة فى الدين، ومن أشدهم استمساكًا، وكان من أجمع الناس لعلوم الشرق والغرب.

توليته مشيخة الأزهر:

بعد وفاة الإمام عاطر الذكر الشيخ المراغى سنة ١٩٤٥م اعتلى أريكة المشيخة الشيخ مصطفى عبد الرازق، وإن اعتلاءه لهذا المنصب لم يكن بالأمر الهين، فلقد قاوم كبار العلماء بالأزهر تعيين الإمام الشيخ مصطفى عبد الرازق، لأن شيخ الأزهر ينبغى أن يكون من جماعة كبار العلماء، ولا يعين بهيئة كبار العلماء إلا من تولى وظائف معينة فى القضاء الشرعى، أو دَرَّسَ بالأزهر مدة معينة، ولم يكن الشيخ كذلك، فلم يعترف كبار العلماء بتدريسه بالجامعة المصرية، فحل أولياء الأمور هذه المشكلة بإصدار قانون جديد بأن يكون التدريس بالجامعة المصرية، مساويًا للتدريس فى الكليات الأزهرية، فى الترشيح لمشيخة الأزهر -فأذعن معظم علماء الأزهر إلا قليل منهم، ليتولى مشيخة الأزهر فتولاها سنة ١٩٤٥م وبهذا يكون قد صدر قانون خاص له.. كما ذهب القلة يثيرون ضده الأحزاب وقد حدث عقب ولايته لمشيخة الأزهر أن نشرت جريدة فرنسية «لى موند» حديثًا نسبته إليه، وهو أن فرنسا أحرزت مكانًا ممتازًا فى نشر الثقافة بين المسلمين، ورجا أن لا تتخلى عن خطتها لتحتفظ بحب العالم الإسلامى لها، ويقول شقيقه الشيخ «على عبد الرازق» مدافعًا عنه وردًا على ما كتبته الصحف فى حبه لفرنسا -إن العلم لا وطن له، وإننا نتلقى عن الغرب معظم ما فاتنا من مدنيّة ومن حضارة وعلوم ولا خير فى هذا- فقد أخذ منا الغرب فى العصور الوسطى ما فاته من مدينة وحضارة وعلوم، وينبغى أن نفرق بين المعارف وبين الاستعمار، فإننا نأخذ المعارف ونحارب الاستعمار، ويقول عنه الشيخ محمد عبد اللطيف دراز عرفته أستاذًا فى الجامعة ووزيرًا وشيخًا للأزهر، وخالطته طويلاً وخبرته أشد الخبرة فى كل ما ينبغى أن يعرف صديق عن صديق وأخ عن أخ، فأشهد ما تغير وما تقلب به الدهر، يقول عنه الشيخ أبو العيون واصفًا إدارته للأزهر: «كان يجمعنا إليه، ونضع الاقتراح فى مسألة معينة من مسائل الإصلاح، ونتداول الرأى، ويدلى هو برأيه كالمستفهم وفى النهاية يستقيم الأمر على الأساس الذى أرساه فى نفسه وسريرته، وأنه لا يقطع برأى دون اجماع منا على استحسانه ونفعه، وكان سبيله فى الاقناع الرفق واللين والحجة والبرهان، حليم ذو أناة.

نتابع بقية التقديم عن دور علماء الأزهر ثم نواصل سيرة الإمام الشيخ مصطفى عبد الرازق.. لقد ذكرنا أن الفئة التى تقف ضد الأزهر.. هى فئة غير مستنيرة لا تحب الإسلام، هذه الفئة ليست شيئًا مذكورًا، بجوار مئات الملايين من العلماء والمثقفين، الذين يحبون الأزهر، ويقدرون علماء الأزهر، والمعلوم أن من أبناء الأزهر وخريجيه جنودًا منتشرين، فى كل أرجاء مصر والعالم الإسلامى، ولا توجد أى جمعية أو مؤسسة تعليمية أو أدبية، لها أعضاء عاملون مشتركون فى كل قرية أو مدينة أو عزبة من العزب!! لا يوجد لها كما يوجد للأزهر.. الذى ينتشر أبناؤه فى كل مكان.. إنتشار الأوردة والشرايين فى الجسد. وهل يخلو مسجد من المساجد سواء كان قرية أو مدينة.. من إمام وخطيب من الأزهر؟ وهل تخلو قرية من مأذون شرعى من الأزهر؟ وهل تخلو مدرسة من مدرس لغة عربية؟ ودراسات إسلامية من أبناء الأزهر؟ وهل تخلو منطقة من مفت أو واعظ أو قاض من أبناء الأزهر!! ورحم الله أمير الشعراء شوقى، حين عرف هذه الحقيقة، فخاطب أبناء الأزهر فى قصيدته الرائية المشهورة:

هزوا القرى من كهفها ورقيمها	**أنتم لعمر الله أعصاب القرى**
الغافل الأمى ينطق عنكم	**كالببغاء مردوا ومكروا**
يمسى ويصبح فى أوامر دينه	**وأمور دنياه بكم مستبصرا**

فعلماء الأزهر يعتبرون من أكبر أجهزة الإعلام، فهل هناك وكالة أنباء لها مندوبون ومراسلون فى جميع أقطار العالم كالأزهر؟

وإن الذى يسافر إلى بلاد الشرق الأقصى، يجد روح الأزهر وعلماء الأزهر فى كل مكان: كماليزيا -أندونيسيا- الفلبين- فى باكتسان والهند وتايلاند، وهكذا يخبر عن ذلك سفراء مصر وعلماؤها.. وإن الذى يسافر إلى الغرب فى أووربا وأمريكا، فإنه يرى سفراء الأزهر هناك، ما بين مواطن ومستوطن، ومبعوث، والمسافر إلى أمريكا اللاتينية واستراليا وإفريقيا، يجد الأزهر حاضرا هناك، فحيث يسمع الأذان يجد الأزهر هناك، وفى رحاب الأزهر اليوم الآلاف المؤلفة من طلاب البعوث الإسلامية من مختلف بلاد الإسلام فى المشرق والمغرب بعثت بهم

أقطارهم وهم ثمرات أكبادها وأفئدتهـا وحبات قلوبها، لينهلوا من معين الدين فى الأزهر. . ثم يعودن لقـومهم مبشـرين ومنذرين ومعلمين ومـوجهين، تستـقبلهم أوطانهم استقبال السقيم للدواء والعافية، لأنهم عادوا من قلب العروبة والإسلام - من مصر- من الأزهر!

«آثاره العلمية.. وتأثيره»:

كان متعدد المواهب والثقافات. . يكتب فى الفـقه والحديث والتفسير، والفلسفة والاجتماع، وكان شـاعرًا مبدعًا، وصحفيًا بارزًا. . ونرى أنـه تأثر بالإمام «محمد عبده» إلى حـد كبير، كـما تأثر ببعض العلماء المسـتنيرين، مثل الشيـخ -بسيونى عسل، أستـاذه فى الفقه وكان من العلماء العـاملين، ومثل الشيخ محـمد حسنين البولاقى -والد أحمـد حسنين باشا- الذى كان رائدًا للملك فـاروق» ومثل الإمام الشيخ أبو الفـضل الجيزاوى وغيـرهم كثير، ولكن حب وتأثر -الشـيخ مصطفى- بالإمام «محمد عبده» تجاوز كل ذلك، فكان يستنسخ ما لم يصل إلى يده من مجلة «العروة الوثقى» التى كان يصـدرها بالخارج -الأستاذ الإمام مع أستـاذه الفيلسوف الإسلامى- جمال الدين الأفغانى- وقام بنسخ كتـاب الإمام محمد عبده الذى ألفه عن الثورة العرابية- كـما حفظ عنه كتاب «رسالة التـوحيد» عن ظهر قلب، وظل كذلك حتى ترجـمها للغة الفـرنسية مع صديقه -مـيشيل برنارد- كمـا قام بجمع تراث- جمـال الدين الأفغـانى»، وما لم يستـطع إحرازه مطبوعًـا نقله بخط يده، وهذا كله متولد ونابع من حبه للإمام محمد عبده، واستاذه وشيخه جمال الدين.

ولقد حـزن الشيخ مصطفى كثـيرًا. . على موت مـعلمه وقدوته ونبراسـه الإمام «محمد عبده» فرثاه رثاء مؤثرًا حزينًا، بأكـثر من قصيدة وأكثر من مقال وظلت ذكراه ملازمة له طيلة الحياة، يرددها فى محاضراته ومؤلفاته وندواته، واتفق هو ومجموعة من زملائه على مواصلة رسـالته فى الإصلاح كما ألفوا «الجمـعية الأزهرية» وانتخب الشيخ مصطفـى رئيسًا لها، ومارست نشـاطها بجد وإصلاح، ونشـير إلى أنه حصل على شهادة العالمية من الدرجة الأولى سنة ١٩٠٨م ولم ينل هذه الدرجة إلا واحد أو إثنان من المتقـدمين للإمتحان مـعه، وكان عددهم كبـيرًا، وبعد شهـرين من نجاحه. انتدب للتدريس بمدرسـة القضاء الشرعى. فى ذاك الوقت كـان الأزهر يموج بالثورة

مطالبًا بإصلاح مناهجه، وتكونت «جمعية تضامن العلماء» وفى مقدمة أعضائها الشيخ مصطفى. . وفى سنة ١٩٠٩م سافر إلى فرنسا لدراسة اللغة الفرنسية والفلسفة فى جامعة السربون وقد صحبه فى هذه الرحلة، أحمد لطفى السيد. الذى يسر له الإقامة فى باريس، وحضر دروس «دور كهايم» فى علم الاجتماع، كما درس الأدب وتاريخه، وتاريخ الفلسفة والأدب الفرنسى. ثم انتدب ليتولى تدريس اللغة العربية فى كلية «ليون» وأعد رسالة الدكتوراة عن الإمام الشافعى باعتباره أكبر المشرعين فى الفقه الإسلامى، وتعاون مع المسيو برنارد ميشيل فى ترجمة كتاب «العقيدة الإسلامية» إلى اللغة الفرنسية. وقامت الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤م فعاد مع كثير من زملائه إلى مصر، وفى سنة ١٩١٥م عين موظفًا فى المجلس الأعلى للأزهر، بأمر من السلطان «حسين كامل» كما ترجم كتاب «طيف خيال ملكى» للأميرة قدرية بنت السلطان، إلى العربية وأثناء عمله بالمجلس الأعلى للأزهر استطاع توطيد صلته بالعلماء وكسب مودتهم وأعجابهم وفتح منزله أمام العلماء والمفكرين فأصبح بيته منتدى يؤمه رجال الفكر والثقافة وعلماء الدين، يتباحثون فى شتى العلوم، لكن حياته لم تخل من بعض المكارة فقدم استقالته من رئاسة المجلس الأعلى للأزهر وفى سنة ١٩١٦ انتخب عضواً فى «الجمعية الخيرية الإسلامية» ثم وكيل لها سنة ١٩٢٠ ثم رئيسًا لها سنة ١٩٤٦ حتى وفاته، كما أنضم إلى حزب الأحرار الدستوريين، وفى نوفمبر سنة ١٩٢٧، نقل إلى الجامعة المصرية أستاذًا، فبرزت مواهبه لغزارة علمه وسعة ثقافته، واختير أستاذًا للفلسفة دون منازع بجامعة القاهرة سنة ١٩٣٥م ونال رتبة الباكوية سنة ١٩٣٧، ثم وزيراً للأوقاف سنة ١٩٣٨ حتى ١٩٤٢م. وأثناء عمله وزيراً عين عضواً بالمجمع اللغوى سنة ١٩٤٠، وفى سنة ١٩٤١م، نال رتبة الباشوية وفى سنة ١٩٤٤م عن وزيراً للأوقاف -حتى تم تعيينه شيخًا للأزهر سنة ١٩٤٥، ولقد شغل منصب وزير فى سبع وزارات، وكان دخوله الوزارة حدثًا غريبًا، لأنه يعتبر أول شيخ أزهرى تقلد هذا المنصب، ومن المدهش واللافت للنظر أنه ظل متمسكًا بارتدائه الزى الأزهرى. حتى لقى ربه.

ولقد كان للإمام الشيخ مصطفى عبد الرازق آراء فلسفية قيمة قال د. عبد الحليم محمود شيخ الأزهر -فى كتابه «الحمد لله هذه حياتى» قال إن الشيخ

مصطفى عبد الرازق. «عالم فيلسوف.. حيى حليم كريم بماله، ووقته لطلبة العلم ولغيرهم.. خرج جيلاً من النابهين فى الجامعة، وأسهم فى الحركة العلمية بجهود عظيمة، وألف وحاضر وكتب المقالات، ووجه تلاميذه إلى التحقيق والتأليف والترجمة، وفتح مكتبته الفنية بشتى الكتب ونوادرها لكل طالب علم مجد، ومن آراء الشيخ مصطفى القيمة.. «إن منطق المسلمين هو «أصول الفقه» وهذا الرأى إنما هو إلهام من توفيق الله تعالى، لقد وفق فيه كل التوفيق، واستفاض فيه، أى فى التوفيق -فى كتابه: تميد لدراسة الفلسفة الإسلامية وفى كتابه عن الإمام الشافعى، الذى قال فيه: «إذا كان الشافعى هو أول من وجه الدراسات الفقهية، إلى ناحية علمية، فهو أيضًا أول من وضع مصنفًا فى العلوم الدينية الإسلامية على منهج علمى، قال الرازى: «إن الشافعى هو الذى رتب أبواب «أصول الفقه» وميز بعض أقسامه من بعض، وشرح مراتبها فى القوة والضعف ومن أراد المزيد فلينظر «الرسالة» للشافعى، ومن آثار الشيخ مصطفى عبد الرازق العلمية، ما كتبه عن الجدل، والمماراة فى علم الكلام، جاء الإسلام يقرر أن الدين الحق واحد، هو وحى الله إلى جميع أنبيائه، وهو عن الأصول التى لا تتبدل بالنسخ، ولا يختلف فيها الرسل، وهو هدى أبدا، أما الشرائع العملية فهى متفاوتة بين الأنبياء. وهى هدى ما لم تنسخ، فإذا نسخت لم تبق هديا.. وكان على القرآن أن يجادل مخالفيه، ردا للشبهات التى آثارها أهل الأديان والملل والنحل حول الدين، هذا الجدل فى العقائد عرض له القرآن للحاجة، وعلى مقدارها، من غير أن يشجع المسلمين على المضى فيه، بل هو جعل التنفير منه أولا.

وأما النتيجة التى ينتهى إليها تفكير الشيخ مصطفى هى نتيجة ينتهى إليها كل مفكر، يتحرى الصواب والحق، هى منطق المسلمين «أصول الفقه». والاستفاضة فى الجدل الكلامى غير محمودة.

«مؤلفاته.. وتصانيفه»:

ذكرنا أنفا.. أن الشيخ مصطفى عبد الرازق.. كان متعدد المواهب.. يكتب فى الفقه وأصوله والحديث والتفسير وعلومه، والفلسفة والاجتماع والأدب، وكان شاعرًا مبدعًا وصحفيًا بارزًا.. ولقد تقلد الإمام الشيخ مصطفى.. مناصب كثيرة

فى التدريس والقضاء ورئاسته لجمعيات خيرية إسلامية، وإلقاء محاضرات فى المناسبات.. كما منح ألقابا عدة من باكاوية وباشاوية، فهو باشا ابن باشا ومن أصل عريق، وبيئة طيبة كلها أهل علم وعلماء، وأهل نضال أيضًا، كما تقلد أيضًا مشيخة الأزهر.

وهذا كله جدير بأن يشغل الرجل عن التأليف والتثقيف والكتابة، والشعر والأدب، ومع كل هذه الأعباء الملقاة على عاتقه، فقد ترجم العديد من الكتب من الفرنسية إلى العربية، وبالعكس، كما ألف العديد من الكتب والرسائل، نشير إلى بعضها على سبيل المثال.. لا الحصر.

١- الترجمة الفرنسية «لرسالة التوحيد» للشيخ محمد عبده.

٢- رسائل موجزة بالفرنسية عن الأثرى الكبير بهجت بك.

٣- رسائل الفرنسية عن معنى الإسلام ومعنى الدين فى الإسلام.

٤- التمهيد لتاريخ الفلسفة.

٥- فيلسوف العرب والمعلم الثانى.

٦- الدين والوحى فى الإسلام.

٧- الإمام الشافعى.

٨- الإمام الشيخ محمد عبده.

٩- مذكرات مسافر ومذكرات مقيم.

١٠- بحث فى دراسة حياة البهاء زهير وشعره.

وله أيضًا مذكرات ومجموعة مقالات وأحاديث لم تنشر حتى الآن.. من أهمها:

١- مؤلف كبير فى المنطق.

٢- مؤلف كبير فى التصوف.

٣- فصول فى الأدب.

٤- مذكراته اليومية.

وفاته:

هذه نبذة موجزة عن حياة الإمام الشيخ -مصطفى عبد الرازق- الذى كانت حياته دليلاً ناطقًا، وحجة ظاهرة على أنه كان من بيئة عالية القدر، رفيعة الشأن، ضاربة الجذور فى أعماق التاريخ، وأنه كان من أكثر الذين تقلدوا مشيخة الأزهر فضلاً، وأوسعهم علمًا، وأكثرهم جرأة على إحقاق الحق، وإبطال الباطل، على رغم أنف الحاقدين والكائدين من أعداء التطور، والتحضر فى الدين والدنيا.

ولا ينكر أحد جهوده فى إصلاح الأزهر إلا من ينكر الشمس فى وضح النهار يقول الشاعر:

وليس يصح فى الإفهام شىء إذا احتاج النهار إلى دليل

كان الشيخ مصطفى عبد الرازق سمح الطبع والنفس والقلب، لم يخرج عن هذه الخصال طيلة حياته، وكان وفيًا للذين عرفهم، وحسنت صلته بهم، ويقول الذين خالطوه إن هذه الصفات وتلك الأخلاق التى التزم بها، ووفاءه لأصدقائه ومعارفه، قد جرت عليه ما يضيق به ويؤلمه فى أمور كثيرة، لكنه لم يحفل بعواقب الوفاء.

يقول الأستاذ فريد وجدى فى رثائه، واصفًا أخلاقه: «لم أر فيمن قابلت من القادة والزعماء، أكرم خلقًا فى غير استكانة، ولا أهدأ نفسا فى غير وهن، ولا أكثر بشاشة، فى غير رخوة، من الشيخ مصطفى عبد الرازق، وكل ذلك إلى حزم لا يعتوره لوث، واحتياط لا يشوبه تنطع، وأناة لا يفسدها فتور، وإدمان على العمل ينسى معه نفسه، وهى صفات كبار القادة، وعلية المصلحين، ممن خلقوا لمعالجة الشئون المعقدة، وحسن المنازعات الشائكة ولتوفيق المطالب المتنافرة.

عندما تقلد منصب شيخ الأزهر، لم يمض عليه حول كامل حتى تم اختياره أميرًا للحج فى أكتوبر سنة ١٩٤٦ ولبث فى رحلته ٤٠ يومًا ثم عاد ليتفرغ لاستئناف وجوه الإصلاح فى الأزهر.

وقد استطاع بسماحته وسعة صدره أن يجذب إليه بعض علماء الأزهر. لكن الأمر لم يطل به فقد ذهب ١٩٤٧/٢/١٥ إلى مكتبه بالأزهر فرأس جلسة المجلس

الأعلى للأزهر ثم عاد إلى بيته فتناول طعامه، ونام قليلاً ثم استيقظ فتوضأ وصلى إحساس المؤمن الصالح -ثم شعر باعياء شديد، فتم استدعاء الطبيب ولكنه جاء بعد فوات الأوان، فقد نفذ قضاء الله فيه، فلا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه، ولكل أجل كتاب.. رحمه الله وغفر له وجمع بينه وبين من يحبهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين فى جنة النعيم وحسن أولئك رفيقًا.

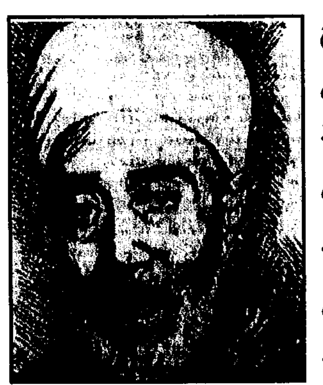
وهكذا.. موت الأمة فى موت العالم.

❁❁❁

٣٢- فضيلة الإمام الشيخ مأمون الشناوى شيخ الأزهر

١٨٨٠- ١٩٥٠

- ١ -



من بيت علم وتقوى وصلاح، كان والده الشيخ سيد أحمد الشناوى من مركز السنبلاوين، وأقام فى بلدة الزرقا من أعمال مديرية الدقهلية لمصالح مالية له، وكان عالمًا جليلاً متفقهًا فى شئون الدين، وكان أخوه الأكبر فضيلة الأستاذ الجليل المرحوم الشيخ سيد الشناوى من كبار رجال القضاء الشرعى، وتولى رئاسة المحكمة العليا الشرعية، ومات بعد أن ترك وراءه ذكرى عاطرة، وآثارًا طيبة فى القضاء، وأحكامًا تعد مثالاً يحتذى فى سلامة الفهم، ونفاذ الخاطر، وسعة الإطلاع.

- ٢ -

ولد عام ١٨٨٥، وحفظ القرآن الكريم فى قريته وهو فى الثانية عشرة من عمره.

وأرسله والده إلى الأزهر الشريف بالقاهرة يطلب العلم، فعاش عيشة طلاب الأزهر، يوجهه أخوه الأكبر الشيخ السيد الشناوى الذى كان قد سبقه بسنوات إلى المجاورة فى الأزهر.

وكاد الشيخ محمد مأمون يسأم من حياته فى الأزهر، وينقطع عن الدراسة، ويترك التعليم، ويعيش فى قريته فلاحًا يزرع الأرض، لولا أن والده أخبره أنه رأى فى نومه حلمًا يدل على أنه سيكون له ولدان عالمان، فاستبشر محمد مأمون بهذه الرؤيا وعاد إلى الأزهر.

وواصل الدراسة حتى كان موضع إعجاب شيوخه، وأساتذته، وفى طليعتهم الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، والشيخ أبو الفضل الجيزاوى.

وتقدم الشاب الشيخ محمد مأمون لامتحان العالمية، ولكنه كان قد سبقته وشايات بعض الطلاب إلى أساتذته، بأنه يتناولهم بالنقد، وأنه شاعر، إلى غير ذلك، فأخذ أعضاء اللجنة يتحدونه وهو يتحداهم.. وكان الشيخ أبو الفضل الجيزاوى أحد الأعضاء، ولكنه لم يكن يعرف شيئًا عن الوشايات التى بلغت زملاءه، ورأى هذا العالم الصغير الشاب جديرًا بلقب «عالم»، بل مثالاً لإخوانه فى سلامة لفهم وسعة المحصول العلمى، فدافع عنه ونال شهادة العالمية عام ١٩٠٦.. ومما يذكر أنه وهو يتأهب لامتحان العالمية أصابه إجهاد شديد من كثرة المذاكرة، فذهب إلى عالم صالح من أولياء الله، يستفتيه فى أمره، فبشره هذا الولى بأنه سيكون عالمًا فاضلاً فقاضيًا عادلاً، فإمامًا نبيلاً، فرئيسًا جليلاً، فشيخًا كبيرًا.. وتحققت النبوءة على مر الأيام.

- ٣ -

وعين مدرسًا بمعهد الإسكندرية الدينى، بعد تخرجه من الأزهر. ثم اختير عام ١٩١٧ قاضيًا شرعيًا بعد أن طارت شهرته، وذاع صيته، وضرب أحسن الأمثال فى جلال الخلق، وسعة الأفق، وطول الباع فى الإلمام بأسرار علوم الشريعة والدين.

واختير محمد مأمون الشناوى إمامًا (للسراى)، ثقة بعلمه وخلقه ودينه وفضله، فكان موضع التقدير والإجلال من الجميع.

وفى عام ١٩٣٠ صدر قانون تنظيم الجامع الأزهر والمعاهد الدينية فى عهد شيخه الشيخ الأحمدى الظواهرى، وأنشئت الكليات الأزهرية الثلاث: الشريعة واللغة وأصول الدين، على نظام جامعى راق، فاختير ثلاثة من كبار رجال الدين لتولى مشيخة الكليات الثلاث، وهم الشيخ محمد مأمون الشناوى الذى تولى مشيخة كلية الشريعة، والأستاذ الأكبر الشيخ إبراهيم حمروش شيخ معهد الزقازيق الدينى حينذاك وقد تولى مشيخة كلية اللغة العربية، والشيخ الجليل المرحوم الشيخ عبد المجيد اللبان شيخ القسم العام بالأزهر الشريف الذى تولى مشيخة كلية أصول الدين. وكان للشيخ مأمون طيب الله ثراه آثار جليلة فى التوجيه العلمى والدينى للأساتذة والطلاب.

ولما افتتحت كلية الشريعة -يوم الأربعاء ٣ من ذى الحجة عام ١٣٥٠هـ ٢٩ مارس ١٩٣٣- ألقى الشيخ محمد مأمون الشناوى كلمة قيمة فى حفلة الافتتاح صور فيها سير النهضة العلمية والدينية فى الأزهر عامة وفى كلية الشريعة خاصة.

- ٤ -

وفى عام ١٩٣٤ منح الشيخ محمد مأمون الشناوى عضوية جماعة كبار العلماء.

ثم اختير وكيلا للأزهر بعد ذلك بعشر سنوات -عام ١٩٤٤- وفى عهد وكالته للأزهر فاض الخير على العلماء، وشملهم الإنصاف وسارت الأمور فى الأزهر فى مجراها الطبيعى.. وتولى منصب رئاسة لجنة الفتوى بالأزهر الشريف.

وفى عام ١٩٤٥ توفى شيخ الأزهر الشريف الأستاذ الأكبر المغفور له الشيخ مصطفى المراغى طيب الله ثراه، وأريد اختيار خلف له، وكان من الطبيعى أن يعين فى منصب المشيخة وكيل الأزهر أو أحد كبار علماء الأزهر الشريف وفى مقدمتهم الأستاذ الأكبر الشيخ إبراهيم حمروش، ومفتى الديار حينذاك الشيخ عبد المجيد سليم، ولكن الحكومة فى عهد النقراشى أصرت على تعيين المغفور له الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق فى منصب المشيخة الجليلة.

وقدم الشيخ مأمون استقالته من وكالة الأزهر، كما قدم الأستاذ الأكبر الشيخ إبراهيم حمروش استقالته من كلية الشريعة، والشيخ عبد المجيد سليم استقالته من الإفتاء، وذلك يوم الثلاثاء ١١ ديسمبر عام ١٩٤٥.

وأصدر كبار الشيوخ وفى مقدمتهم الشيخ الشناوى بعد ذلك بيومين بيانًا تاريخيًا للأمة الإسلامية عن الخلاف بين الأزهر الشريف والحكومة فى شأن مشيخة الجامع الأزهر، إثر إقدام الحكومة على تعديل قانون الأزهر وتعيين المغفور له الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق شيخًا للأزهر، وقد رفع هذا البيان إلى المسئولين فى ١٣ ديسمبر عام ١٩٤٥.

- ٥ -

وفى مساء يوم الأحد ٧ ربيع الأول عام ١٣٦٧هـ- ١٨ يناير ١٩٤٨ عين الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مأمون الشناوى شيخًا للأزهر الشريف بعد شيخه الراحل المغفور له الأستاذ الشيخ مصطفى عبد الرازق.

واستقبل فضيلته من الأزهريين ومن العالم الإسلامى استقبالاً رائعًا وللأستاذ الأكبر الشيخ الشناوى مآثر خالدة على الأزهر فى عهد مشيخته.

ففى عهده أنشىء معهد محمد على الدينى بالمنصورة ومعهد منوف، وأنشئت الوحدة الصحية للأزهر، وضم معهد المنيا وجرجا وسمنود إلى الأزهر. وزادت البعوث الإسلامية إلى الأزهر، كما زادت بعثات الأزهر إلى البلاد العربية والإسلامية.

وفى عهده ألغى البغاء الرسمى، وجعل الدين مادة أساسية فى المدارس، وجوربت الفوضى الخلقية والاجتماعية والصور الخليعة، وحددت الخمور فى المحلات العامة.

وفى عهده نقلت كلية اللغة من الصليبة إلى البرامونى، ونقلت كلية الشريعة إلى المبانى الجديدة للجامعة الأزهرية، واشترك الأزهر فى المؤتمر الثقافى العربى، وتمت أمانى كلية اللغة فى المساواة بينها وبين معاهد اللغة العربية المختلفة، وارتفعت ميزانية الأزهر، وقضى على الفتن المختلفة فيه، إلى غير ذلك من جلائل الأعمال.

- ٦ -

وبعد حياة حافلة بجلائل الأعمال توفى الأستاذ الأكبر الشيخ الشناوى عليه رحمة الله، ففى الساعة العاشرة من صباح اليوم الحادى والعشرين من ذى القعدة عام ١٣٦٩هـ- ٤ سبتمبر عام ١٩٥٠ فاضت روحه الطاهرة إلى بارئها راضية مرضية.

وبكته الصحف فى العالم العربى والغربى فى حسرة ولوعة وتقدير. وفى ذلك تقول جريدة المصرى عدد ٥ سبتمبر ١٩٥٠م: فجعت مصر بل العالم الإسلامى

كله أمس بوفاة المغفور له الأستاذ الأكبر محمد مأمون الشناوى شيخ الجامع الأزهر، وقد خسر العالم الإسلامى بوفاته عالمًا ثبتًا وحجة قوية، وفقدت مصر فيه الورع والتقوى والبر والخير والإخلاص لدين الله، وفقد الأزهر فيه كبير علمائه وشيخًا من أخلص شيوخه، ظل يعمل لخيره، ويواصل السعى لتحقيق رسالته بين ربوع العالم الإسلامى، ولم يقعد به المرض أو النصب يومًا عن مواصلة سعيه وصرف اهتمامه إليه.

تولى رحمه الله مشيخة الأزهر فى ١٨ يناير سنة ١٩٤٨ وكان الأزهر فى ذلك الحين نهبًا لعصبية ممقوتة كادت تقضى على ما يتمتع به من سمعة طيبة وماله فى العالم من مكانة، فرأب الصدع ولم الشمل وقضى على الفتنة فى مهدها، وشعر الأزهريون جميعًا بأنهم أبناء جامعة واحدة، وأنهم تربطهم صلات أقوى من صلات الدم.. وعلى هذا النحو ساس فضيلته شئون الأزهر، وعمل على تقوية ما بينه وبين العالم الإسلامى من روابط، فأوفد البعوث الإسلامية المختلفة إلى ربوع العالم الإسلامى، تنشر مبادئ الإسلام والثقافة الإسلامية، وتقرب ما بين المسلمين وتعمل على إزالة الفرقة والخلاف بينهم.

وزيادة فى تقوية الروابط بين البلاد الإسلامية أرسل فضيلته بعثة إلى إنجلترا لدراسة اللغة الإنجليزية، لإرسال أعضائها إلى البلاد العربية الإسلامية التى لا تجيد التخاطب باللغة العربية.

ولم يكتف فضيلته بذلك بل عنى أيضًا بربط الجامع الأزهر بجميع المعاهد الإسلامية فى بقاع الأرض، فاهتم بشئون التعليم فى الباكستان والهند والملايو وأندونيسيا وأفريقيا الجنوبية.

وإلى جوار هذا وذاك عمل على التمكين لأبناء المسلمين بطلب العلم فى الأزهر وفتح أبوابه للوافدين حتى بلغت البعوث الإسلامية فى عهده ما يزيد على ألفى طالب، خصصت لهم أماكن الدراسة والمسكن اللائق.

وأخذ يعمل على زيادة المعاهد الدينية فى عواصم المديريات، وقد افتتحت فى عهده أربعة معاهد نظامية كبيرة، هى معاهد المنصورة والمنيا وسمنود ومنوف.

وهكذا مضى فى سياسته الإصلاحية والتوسع فى رسالة الأزهر، وقد نال الأزهر بفضل جهوده وتقواه خيرًا كثيرًا، فارتفعت ميزانيته إلى أكثر من مليون جنيه، ووضع مشروع كادر لتسوية أساتذة الكليات فى الأزهر بزملائهم الجامعيين.

وكان من رأيه رحمه الله جعل دراسة الدين مادة أساسية فى المدارس ليقى النشىء من الآراء الفاسدة، وما زال ينافح عن هذا الرأى حتى تحققت أمنيته وتقررت دراسة الدين مادة أساسية فى المدارس.

ولكنه للأسف مرض مرضًا ألزمه الفراش، ولكن ثقته بالله وشدة إيمانه حفزاه على مقاومة العلة، وتمكن الأطباء فى النهاية من القضاء عليها.

ورأى أن يستجم فى الإسماعيلية عند نجله الأستاذ عبد العزيز الشناوى فسافر إليها، وكان ينعم فيها بالصحة التامة، وزاره كثيرون من أصدقائه ومن كبار رجال الأزهر هناك.

ولكن القدر المحتوم أبى إلا أن يوافيه فى الإسماعيلية، فأصيب بنوبة قلبية حادة تمكن الأطباء من مقاومتها، ثم أصيب فى عقبها بالتهاب رئوى كان أيسر وأهون ما لقيه فى مرضه، ولكن استعصى دواؤه على الأطباء، وفاضت روحه الطاهرة إلى بارئها فلقى ربه راضيًا مرضيًا.

وقد شيعت جنازته يوم الثلاثاء ٥ سبتمبر ١٩٥٠ بما يليق بمكانته التى كانت له فى القلوب، وبأعماله الجليلة فى خدمة الإسلام والمسلمين.. وصلى عليه فى الأزهر الشريف، وكبر المؤذنون فى شتى المساجد حينما صلى عليه، ثم وورى جسده الطاهر التراب.

- ٧ -

لقد كان -رحمه الله وطيب ثراه- كريم الخلق نبيل النفس رائعًا فى وقاره وهيبته وسمته وصلاحه وورعه وزهده، ذا شخصية قوية بارزة.

وكان موضع المهابة من الجميع يجلونه ويحترمونه ويرجعون إليه يستفتونه، كان موثوقًا بعلمه ورأيه، واسع الثقافة، كثير الإطلاع.

اشترك فى كل الأعمال التى كانت تبذل لإصلاح الأزهر وتنظيمه فى الربع الثانى من القرن العشرين.. وتقول جريدة المصور من مقال عنه بعد وفاته:

كان رحمه الله يتذوق الشعر وينظمه ويقدر الشعراء.. وقد ترك فى مكتبته الكبيرة فى بيته بالحلمية الجديدة، مجموعة من دواوين الشعر وكتب الأدب، غير كتب الدين والتاريخ الإسلامى والبلاغة والفلسفة والأصول والحديث والفقه والتوحيد.

وخير الشعراء عنده شاعران: المتنبى وشوقى.. وقد عثرت بين أوراقه على بعض القصائد التى نظمها بنفسه أيام الشباب.

أمضى المرحوم الشيخ مأمون الشناوى حياته فى الدرس والاطلاع، وقد اعتاد منذ أيام الشباب أن يتلو بعض الأدعية قبل كل صلاة وبعدها وفى الطريق بين البيت ومقر العمل.. وكان يكتب بعضها ويضعها فى حافظته لتلازمه على الدوام وتصونه من المكاره.. وظل محافظًا على ذلك لا يتهاون فيه إلى أن دعاه الله إليه.

ووجدت بين مخلفاته ورقة كتب فيها بخطه: «يد الله فوق أيديهم» وورقة أخرى كتب فيها بخطه أيضًا: «اللهم اهدنى من عندك، وأمنن على من فضلك، وانشر علىّ من رحمتك، وانزل علىّ من بركاتك، اللهم استرنى بسترك الجميل، اللهم ارزقنى سعادة الدارين واكفنى همهما».

وكان بعد الصلاة يتلو دعاء طويلاً هذه بدايته: «الله أكبر الله أكبر، بسم الله على نفسى ودينى، بسم الله على أهلى ومالى، بسم الله على كل شىء أعطانيه ربى، بسم الله خير الأسماء، بسم الله الذى لا يضر مع اسمه داء، بسم الله الذى لا يضر مع اسمه شىء فى الأرض ولا فى السماء، وهو السميع العليم».

وقد ساهم رحمه الله فى الحركة الوطنية عند قيامها فى سنة ١٩١٩، فكان يلقى الخطب الحماسية فى المساجد والكنائس ويكتب المقالات فى الصحف، بل نظم المظاهرات، ومشى فى طليعتها، مع أنه كان وقتئذٍ قاضيًا بمحكمة الإسكندرية الشرعية!

لكنه كان ينفر من الحزبية، ويرى أن رجل الدين لا ينبغى له أن يجمع بين الدين والسياسة.

حينما كان إمامًا فى السراى طلب إليه أحد رجال القصر أن ينضم إلى حزب الاتحاد فأبى، ثم ألح عليه فازداد إباء وقال له: «إننى أستطيع بسهولة أن أخرج من الباب الذى دخلت منه».

وفى اليوم الثانى دعاه رئيس الديوان لمقابلته، وكان المرحوم توفيق نسيم، وأبلغه أن الملك فؤاد أحيط علمًا بما حدث، وأنه سر من موقفه، ولكنه يأخذ عليه قوله إنه يستطيع الخروج بسهولة من الباب الذى دخل منه.. لأن الدخول من هذا الباب لا يستأثر به فريق من المصريين دون فريق.

ولم يرث فضيلة الشيخ محمد مأمون الشناوى شيئًا عن أبيه. وظل لا يملك إلا ميراثه، حتى رأى فى سنة ١٩٣٠ أن يستبدل بجزء من معاشه قطعة أرض زراعية هى كل ما كان يملك من حطام الدنيا..

وكان رحمه الله قوى الإيمان، كثير تحرى العدالة، يحب الهدوء والنظام، ويشتد فى الحق، ويسوس مرؤسيه باللين والعطف، ويقسو أحيانًا للتأديب.. وكانت داره فى الحلمية الجديدة محط أهل الفضل والعلم والأدب.. وقالت مجلة الأزهر فى تأبينه: «انتقل إلى الدار الآخرة فى اليوم الرابع من شهر سبتمبر سنة ١٩٥٠ العالم الشيخ محمد مأمون الشناوى شيخ الجامع الأزهر متأثرًا بداء عضال ألم به نحو ثلاثة أشهر، فكان لنعيه أسف عميق لدى كل من عرفه وغشى مجلسه، لما كان عليه، رحمه الله، من محاسن الشيم، والتواضع، وحسن الإصغاء لذوى الحاجات.

وقد تلقى رحمه الله العلم فى الأزهر، ونال درجة العالمية فى سنة ١٩٠٦، وعين مدرسًا فى معهد الإسكندرية، ثم تولى القضاء بالمحاكم الشرعية، وتقلب فى وظائفها واشتهر فيها بإيثار العدل والإنصاف. وفى سنة ١٩١٦ اختير ليكون إمامًا فى السراى، فظل فى هذا المنصب نحو خمس سنين، وفى سنة ١٩٣١، حين وضع للتدريس بالأزهر نظام جديد، وقسمت الدراسة العالية فيه إلى ثلاثة فروع، وأنشئت لها كليات ثلاث: واحدة للشريعة وأخرى لأصول الدين، وثالثة للغة، اختير الشيخ رحمه الله شيخًا لكلية الشريعة، فمكث يشغل منصبه فيها

بكفاية محمودة، وعمل قرابة ثلاث عشرة سنة. وفى سنة ١٩٤٤ أسندت إليه وكالة الجامع الأزهر، وكان المرحوم الشيخ مصطفى المراغى شيخًا له، فلبث فى هذا المنصب حتى توفى الأستاذ المذكور، وترددت الحكومة فى تخير رجل كفء لشغل منصب المشيخة، فوقع الاختيار على المرحوم الأستاذ مصطفى عبد الرازق، فرأى أن قانون الأزهر يشترط فيمن يتولى هذه الوظيفة أن يكون من هيئة كبار العلماء ولم يكن الأستاذ المذكور منها، فاستحسن أن ينقح هذا القانون حتى يتسع لتعيين من يصلح ممن لا تنطبق عليه شروطه من أجلاء العلماء، ما دامت تتوافر فيه المؤهلات العلمية والأدبية. فلما عرض هذا الحل على المرحوم الشيخ محمد مأمون الشناوى أبى ورأى أن يستقيل من منصبه، وأن يتولى هذا الأمر غيره. فقبلت استقالته ومضت الحكومة فى إصلاح ذلك القانون، وعين المرحوم الشيخ مصطفى عبد الرازق شيخًا للأزهر: فلما كانت سنة ١٩٤٨ وتوفى الأستاذ المذكور، أسندت الحكومة مشيخة الأزهر إلى الشيخ محمد مأمون الشناوى فى الشهر الأول من تلك السنة فلبث فيها إلى أن وافاه أجله فى الحين الذى ذكرناه آنفًا. ومما يجب تسجيله للأستاذ المرحوم حالة الاستقرار الذى شمل جميع طلبة الكليات والمعاهد الأزهرية، وما قام به للأزهريين من مساواة خريجيهم بخريجى الجامعة المصرية فى المرتبات، ومن عمله على تحقيق أمانيهم.

وقال الدكتور عبد الله سلامة: نواصل الحديث على أن الأزهر يقدر تماما مهمته الضخمة على مستوى الأمة الإسلامية ومستوى العالم الإسلامى الكبير، هذا العالم ذو التاريخ الحافل بالروائع والبطولات، وصاحب الحاضر العامر بالآمال والطموحات، فى حاجة إلى من يجلو الصدى عن جوهره. ويزيح الران عن قلبه، ويذكره بماضيه، ويعرفه بموطن القوة فيه بعقيدته وتاريخه، ويجمعه على كلمة سواء، كلمة التوحيد.. يوم أن كان ينادى المنادى يا أمة الإسلام، يا أمة محمد فتهتز الدنيا كلها، بإنسها وجنها. وبأشجارها وبحارها وطيورها.. لبيك لبيك.. ومن أولى من الأزهر بهذه المهمة الجليلة؟ وبخاصة أن مكانته فى أمة الإسلام فى موضع السواد من العين، والسويداء من القلب، وقلنا: إن مهمة الأزهر ليست موقوفة على العالم الإسلامى فحسب فإن الأزهر حامل رسالة

الإسلام، وهى رسالة إنسانية عالمية شاملة ليست رسالة إقليم معين أو دولة معينة فى زمن معين، أو رسالة لجنس معين، إنما الإسلام رسالة عامة لكل الأجناس، ولكل الأقطار فإن أول سورة فى ترتيب المصحف تبدأ بقوله سبحانه: ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ وآخر سورة فى ترتيب القرآن الكريم: ﴿**قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ**﴾ ويقول الله فى نبى الإسلام ورسوله: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ**﴾ [الأنبياء: ١٠٧] وكتاب الإسلام.. القرآن الكريم.. عالمى الاتجاه، والزمان والمكان.

يقول سبحانه: ﴿**تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا**﴾ [الفرقان: ١] ورسول الإسلام ليس مبعوثا للعرب خاصة، ولكن رسول الله ﷺ بعث إلى الناس كافة ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا**﴾ [الأعراف: ١٥٨] والمسلمين أمة من طبيعتها أن تمتد بدينها امتداد الضوء، وتعلن حقها وعدلها على الناس، كما أعلنها من قبل مندوب المسلمين وسفيرها إلى كسرى حيث قال: «نحن قوم قد ابتعثنا الله لنخرج من شاء من عبادة البشر إلى عبادة الله وحده رب الناس جميعا، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ومن جور الأديان.. إلى عدل الإسلام».

فهل يقبل من الأزهر أن يحبس نفسه فى قفص ويترهبن فى صومعة تاركا وراءه آفاق العالم الرحبة للمذاهب الهدامة والمبادئ الفتاكة، والدعوات المدمرة، لتصول فيه صيال الأفاعى السامة -صوت أفعى كبرى- تنفث السم والموت والخراب، إن على الأزهر أن يتقدم إلى العالم المعذب بقارورة الدواء.. وإلى الدنيا التى أحرقها لهب المطامع المادية بسيارات الإسعاف والإطفاء وإلى الإنسانية المضطربة أن يمدها برسالة الإسلام رسالة محمد بن عبد الله رسالة الإيمان والإخاء والعدل والحرية والسلام والمساواة يقول سبحانه: ﴿**قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِى أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِى وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ [يوسف: ١٠٨].. وللتقديم بقية.

ونعود لمواصلة الحديث عن الإمام الثانى والثلاثين للأزهر الشيخ محمد مأمون الشناوى.

نسبه وبيئته ومولده وتوليته المشيخة:

هو الشيخ محمد مأمون السيد أحمد الشناوى وقد اختلفت الروايات فى تاريخ مولده فقيل فى ١٨٨٠ وقيل ١٨٨٥م والصحيح أنه ولد فى ١٨٧٨/٨/١٠ فى بلدة «الزرقا» مركز السنبلاوين محافظة الدقهلية والمطالع للتاريخ يجد أن بلدة الزرقا كانت على حدود محافظة دمياط وأن مدينة دمياط والقرى التى تدور فى فلكها موغلة فى أعماق الزمن، فكم دارت على أرضها من معارك مع الاستعمار رفعت رأس مصر ولقنت الأعداء دروسا فى حماية الأرض وصيانة العرض لاتزال تروى حكاياتها حتى اليوم. وكان منها العلماء والأدباء وأصحاب القلم واللسان، والذين يرفعون كتاب الله بيد ويبنون صروح الحضارة باليدة الأخرى فى هذه البيئة الخصبة بالعلم والشموخ ولد محمد الشناوى وتحت ظلالها الوارقة عاش طفولته وصباه، فحفظ القرآن الكريم فى قريته وأتم حفظه وهو فى الثانية عشرة من عمره.. واتجه إلى القاهرة حيث دخل الأزهر، وعاش تحت رعاية أخية الأكبر الشيخ سيد الشناوى الذى سبقه للدراسة بسنوات وفى مستهل حياته الدراسية، ضاق بأسلوب التعليم بالأزهر وبما أثقله من المتون والشروح والحواشى والتقريرات، وكاد ينقطع عن الدراسة ويترك التعليم ويعود لقريته ليعيش فلاحا، لولا أن أخاه شجعه على الدراسة، ولولا أنه كان ذا صلاح وتقى مع ذكاء حاد، وأن والده أيضا من الصالحين حيث رأى رؤيا تدل على أنه سيكون له ولدان عالمان، واستبشر بهذه الرؤيا فعاد الطالب للدراسة بالأزهر..

وواصل دراسته بجد واجتهاد ومثابرة حتى صار موضع إعجاب شيوخه الأجلاء المشهود لهم بالعلم والشهرة وقد أحبه شيوخه، وأثنوا عليبه، وعلى تقواه وصلاحه، واتصل بالإمام محمد عبده فرأى فيه من النجابة والذكاء ما جعله موضع إعجابه واهتمامه، فشجعه ورعاه كما كان موضع إعجاب الشيخ أبو الفضل الجيزاوى، وتقدم الطالب الشاب الشناوى إلى امتحان الشهادة العالمية وكانت الوشايات قد سبقته إلى أساتذته فى لجنة الامتحان تتهمه بأنه شاعر.. وهى تهمة شنيعة فى ذاك الوقت فى نظر العلماء المتشددين، كما يتهمونه بأنه ينقد شيوخه وأساتذته، ويتناولهم بالسخرية والتشهير، فلما جلس أمام لجنة الامتحان لنيل شهادة العالمية -الدكتوراة- أخذ أعضاؤها يتحدونه بالأسئلة الصعبة، ويجيب عليها بكل شجاعة واطمئنان، وطالت

المناقشة إلى أكثر من نصف اليوم، وكان رئيس اللجنة الإمام أبا الفضل الجيزاوى لا يعلم شيئا عن تلك الوشايات، فرأى فى الطالب شابا ذكيا واسع العلم جديرا بلقب «عالم» فدافع عنه، وأخذ بيده حتى أدى الامتحان كاملا مكللا بالنجاح ونال شهادة العالمية سنة ١٩٠٦م مع العلم أنه كان يعانى أثناء الامتحان من مرض الحمى والإعياء الشديد، ولم تتردد اللجنة فى منحه العالمية -من الدرجة الأولى وهى درجة لم يحصل عليها إلا الندرة من الشيوخ.

المناصب التى وليها:

وقد فتحت الشهادة أمامه أبواب المستقبل على مصراعيها وتوالت عليه الوظائف المرموقة، وذلك قبل توليته مشيخة الأزهر.. فبعد تخرجه مباشرة عين مدرسا بمعهد الإسكندرية الدينى وفى سنة ١٩١٧م اختير قاضيا شرعيا.

ولشهرته بالتقوى والصلاح والعلم الغزير والخلق الحميد وتحرى العدالة وسعة الأفق!! تم اختياره إماما للسراى الملكية، وذلك بعد تحرى وتدقيق كبير، ويلاحظ أن من يتولى هذه المناصب لابد أن يكون موضع ثقة وتقدير واحترام إلى جانب العلم الغزير والشخصية القوية وحسن المظهر.

وفى سنة ١٩٣٠ صدر قانون تنظيم الأزهر والمعاهد الدينية فى عهد الإمام «الظواهرى» وأنشئت الكليات الأزهرية وروعى فى اختيار شيوخها -عمدائها- العلم والثقافة الواسعة، والخلق والسمعة الطيبة والشخصية القوية، وهذه الصفات تجتمع فى شيخنا محمد الشناوى، ولهذا اختير عميدا لكلية الشريعة وقادها وأسسها بحكمة واقتدار وفى سنة ١٩٣٤ نال عضوية جماعة كبار العلماء وفى سنة ١٩٤٤م عين وكيلا للأزهر كما تولى منصب رياسة لجنة الفتوى.

توليته المشيخة:

بعد وفاة شيخ الأزهر الشيخ مصطفى المراغى اتجهت أنظار العلماء إلى الشيخ محمد مأمون الشناوى وإلى عدد آخر من الشيوخ وحدث وقتها جدال شديد بين الحكومة وجماعة كبار علماء الأزهر.. ولما توفى الإمام مصطفى عبد الرازق فكر المسئولون فيمن يخلفه فرشحوا الشيخ الشناوى وصدر القرار بتعيينه شيخًا للأزهر

فى مساء يوم الأحد الثانى من ربيع الأول سنة ١٣٦٧هـ- ١٨ يناير سنة ١٩٤٨، ولما علم رجال الأزهر وعلماؤه بهذا النبأ العظيم قامت الاحتفالات واستقبلوه استقبالاً حافلاً رائعًا لأنهم يعلمون عنه الكثير من الرغبة الشديدة فى الإصلاح بجانب صلاحه وتقواه واعتزازه بشخصيته وتمسكه بالحق إلى حد التضحية بمصالحه الخاصة فى سبيل ما يعتقده حقًا واجب الأداء.

ولقد نشط الإمام نشاطًا كبيرًا ظهرت آثاره فى ارتفاع ميزانية الأزهر فى عهده إلى أكثر من مليون جنيه، واستطاع بحكمته ولباقته أن يقضى على ما ظهر فى الأزهر من عصبيات، وميول حزبية عنيفة فأحس الجميع تحت قيادته الرشيدة أنهم جميعًا أبناء جامعة واحدة.. وأنهم تربطهم صلات أقوى من صلات الدم فأصبحوا كالجسد الواحد وتحت راية «العلم رحم بين أهله»، ثم عمل على تقوية ما بين الأزهر والعالم الإسلامى من صلات علمية وروحية وثيقة، فأوفد البعوث العلمية المختلفة إلى ربوع العالم الإسلامى تنشر تعاليم الإسلام وتبث علومه وحضارته وتدعو إلى الله على بصيرة، وتقرب ما بين الطوائف الإسلامية، وتمحو أسباب الفرقة والخلاف، ولقد حاول إعادة الأزهر إلى سالف عصره وأيامه التليدة، أيام علمائه الكبار أمثال الشيوخ العينى والعسقلانى والسخاوى والمقريزى وابن خلدون وغيرهم ممن كانت تشد لهم الرحال ويتوافد على حلقاتهم العلمية العلماء والطلاب.

ولقد قام فضيلة الشيخ الشناوى بإرسال بعثة من نوابغ العلماء إلى انجلترا لدراسة اللغة الإنجليزية، وذلك تمهيدًا لإرسالهم وفودًا للبلاد الإسلامية العديدة التى لا تجيد التخاطب باللغة العربية، ولقد اعتنى بربط الأزهر بالمعاهد الإسلامية فى الخارج، خاصة فى دول باكستان والهند والملايو وأندونيسيا وأفريقيا الجنوبية وغيرها وأيضًا فتح أبواب الأزهر أمام الوافدين من الطلبة المسلمين حتى بلغت البعوث فى عهده ما يزيد على ألفى طالب أعد لهم أماكن الدراسة ومساكن الإقامة وعمل على زيادة المعاهد الدينية بداخل مصر وحرص على ألا تخلو محافظة من معهد دينى كبير كما تم فى عهد توليه المشيخة إنشاء خمسة معاهد نظامية كبيرة هى: معاهد المنصورة والمنيا وسمنود ومنوف وجرجا كما عنى بكليات الأزهر..

وهدفه من هذا كله نشر رسالة الإسلام فى مشارق الأرض ومغاربها ودعوة العالم كله إلى الدخول فى الإسلام والأنقياد لتعاليمه ومبادئه السامية.

آثاره العلمية وتأثيره:

ومهما تحدثنا عن فضائل الإمام الشيخ محمد الشناوى فلن نوفيه حقه ونذكر أنه كانت له مواقف دينية ووطنية، تدل على أنه قد وقف قلمه ولسانه على نصرة دينه ووطنه، ومنها موقفه فى ثورة ١٩١٩م عندما ثار المصريون ضد الاحتلال الانجليزى مطالبين بجلائه عن أرض مصر فشارك فى الكفاح وكان مضرب المثل فى الصلابة والجرأة.. متأثرًا فى ذلك بشيوخه وأساتذته الذى درس وتلقى العلم على أيديهم أمثال الإمام «أبو الفضل الجيزاوى» والإمام «محمد عبده» الذى سار فى نهجه فى الإصلاح أما تلاميذه فهم كثيرون جدًا على امتداد أيام كان مدرسًا ثم شغله وظائف كثيرة ومتنوعة وتقلد مناصب مختلفة، وكان له فى كل واحدة مريدون، ينهجون نهجه، ويتبعون مسكله، وينسجون على منواله، ولهذا كان تراثه العلمى ومصنفاته قليلة جدًا لم يتعرض لها المؤرخون بالذكر، وكان فضيلة الإمام الشناوى كريم الخلق، رائع المنظر فى جلال وهيبة، وكان ذا شخصية قوية مع تقوى وورع فيتمسك بالحق ويضحى فى سبيله بكل ما يملك محبوبًا من الجميع فكلهم يجلونه ويحترمونه، وكان إلى جانب هذا عالمًا كبيرًا واسع الثقافة غزير العلم، بمثابة مرجع كبير يرجع إليه الجميع فيما أشكل عليهم من دقائق العلوم.

بجانب هذا.. موهبته الشعرية والأدبية الأصيلة يتذوق الشعر وينظمه ويقدر الشعراء، وقد ترك وراءه مكتبته الكبيرة «بالحلمية» فيها مجموعة من الدواوين لشعراء كبار وكتب الأدب إلى جانب المصادر الأصيلة فى التفسير والحديث والفقه وأصوله والتاريخ الإسلامى والبلاغة والفلسفة والتوحيد إلخ، يحب من الشعراء المتنبى وشوقى، فيه نزعة صوفية عالية لسانه دائمًا رطبًا بذكر الله.. واعتاد منذ شبابه المداومة على تلاوة القرآن وبعض الأدعية قبل كل صلاة وبعدها، وهو فى الطريق بين البيت والعمل كل هذا سجله فى مذكراته.

مؤلفاته ومصنفاته:

والظاهر أن الشيخ الإمام الشناوى كان من الذين يبنون الرجال، ويدعون علمهم صدور تلاميذهم، ويتركون لهم مهمة إذاعته وتدوينه شأنه فى هذا شأن الإمام أبو حنيفة فإنه لم يترك فى الفقه كتبًا مكتوبة، وإنما ترك لتلاميذه هذه المهمة فأدوها على أحسن وجه وأكمل صورة.

وذكرنا فيما سبق بعض ما تركه من آثار علمية فى تلاميذه وطلابه الذين نهجوا نهجه.. والإمام لا بد له من مؤلفات ولو أنها لم تذكر مثل الخطب الحماسية فى المساجد والكنائس وكتابة المقالات فى الصحف، وتنظيم المظاهرات احتجاجًا على المستعمر، ولا شك أن الأحداث الجسام ومهام المناصب التى تقلدها شغلته عن التأليف، وإن كانت له مقالات كما ذكرنا جمعها تلميذه د. محمد عبد المنعم خفاجى فى كتابه «الإسلام ومبادئه الخالدة» ثم إنه كان إمام بالسراى الملكى ولا شك أيضًا فى أنه ألف كتابًا نال به عضوية «جماعة كبار العلماء»، لأن العضوية لا تنال إلا بمؤلف قيم، يراه الأعضاء جديراً بضم صاحبه إلى جماعة كبار العلماء، وله مقال نشر تحت عنوان «المصلح الأعظم».

وفاته:

ظل الإمام الجليل محمد مأمون الشناوى يواصل عمله، ويهب وقته كله حتى دهمه المرض الذى ألزمه الفراش، ولكن روحه المعنوية وإيمانه القوى وثقته بالله حفزته إلى مقاومة العلة وعاونه الأطباء فى العلاج حتى برئ.. ولكن قضاء الله نافذ.. لا راد لحكمه.. ولا معقب لأمره.. فقد أصيب بعدها بنوبة قلبية حادة تمكن الأطباء من مقاومتها.. ولكنه أصيب بعدها بالتهاب رئوى استعصى شفاؤه على الأطباء.. فلقى ربه فى الساعة العاشرة من صباح يوم ٢١ من ذى القعدة سنة ١٣٦٩هـ ٤ سبتمبر ١٩٥٠م وشيعت جنازته فى اليوم الثانى بعد صلاة عليه فى الجامع الأزهر فى موكب مهيب حافل يليق بمكانته فى النفوس ومحبته فى القلوب وكبر المؤذنون فى المساجد حين الصلاة عليه، وقد منحه الملك فؤاد الوسام

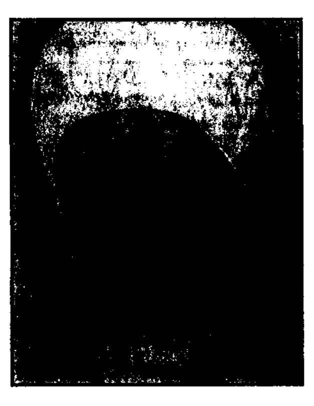
الملكى وخلع عليه خلعة المشيخة، وألبسه الفراد المطرز بالذهب كما تراه فى الصورة التى رسمتها له.

وقد عرف الأزهر لهذا الإمام الجليل مواقفه الخالدة الدينية والوطنية وجهوده التى لا تجحد فى سبيل رفعة الأزهر وعلمائه الكرام فمنحه أوسمة فى الاحتفال بالعيد الألفى للأزهر منها وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى عن أعماله الجليلة التى أداها للأزهر، وجهوده نحو خدمة دينه ووطنه لا يوفيها الثناء وإن طال، ولا يكافئها الشكر، فالله وحده هو المجازى والمكافئ فسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا مع من أحب من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا.. وهكذا نعلم أن موت الأمة.. فى موت العالم[1].



(١) صوت الأزهر: د. عبد الله سلامة نصر فى ١/ ١/ ٢٠٠٨ وما قبلها من الأعداد الأسبوعية.

٣٣- فضيلة الإمام الأكبر الشيخ عبد المجيد سليم



كان الأستاذ الأكبر عبد المجيد سليم من العلماء القلائل الذين قل أن شهد لهم الأزهر مثيلاً: فى سعة الأفق، وجلال الخلق، وعظمة النفس، وقوة النزوع إلى المثل العليا، فهو خير خلف عظيم لأسلاف كرام.

تتلمذ على الإمام محمد عبده، فتخرج عالمًا قديرًا، وشيخًا جليلاً، وما لبث أن جعلته مواهبه وكفايته وشخصيته علمًا بين زملائه العلماء. وشاهد الأحداث الكبرى فى تاريخ الوطن الدينى والفكرى والاجتماعى والسياسى، واشترك فيها موجهًا وهاديًا وشغل الكثير من المناصب الدينية الجليلة فى الأزهر والقضاء الشرعى والإفتاء، وكان لآرائه الدينية صداها البعيد فى العالم الإسلامى كافة، ثم عهد إليه بالإشراف على الدراسات العليا فى الأزهر الجامعى، ثم صارت إليه رياسة لجنة الفتوى، فكان له فى كل ناحية أعمال خالدة مأثورة.. وإصلاح الأزهر الجامعى فى شتى أطواره المختلفة فى العصر الحديث مدين لفضيلته بالرأى والتوجيه.

وقد ولد الشيخ عبد المجيد سليم فى ١٣ أكتوبر ١٨٨٢، وتخرج من الأزهر عام ١٩٠٨، حاملاً العالمية من الدرجة الأولى.. وشغل وظائف التدريس والقضاء والإفتاء ومشيخة الجامع الأزهر. ومكث فى الإفتاء قرابة عشرين عامًا. وله من الفتاوى ما يربو على خمسة آلاف.

ولقد تولى مشيخة الأزهر مرتين، أقيل فى أولهما لأنه نقد الملك.

وقد ركز نشاطه فى السنوات الأخيرة فى الإشتغال بجماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية، وقد جعلت هذه الجماعة من أهدافها أن تتفق الطوائف الإسلامية على ما ينفع المسلمين، وأن تعمل على نسيان الخلاف واستلال الضغائن من بينهم، وله فى هذه الناحية كتابات ورسائل ومراسلات بينه وبين كثير من علماء البلاد

الإسلاميـة، فلم يقتصر فـضله على العلم فى مصر، ولكنه تجـاوز ذلك إلى آفاق الإسلام، وإلى كل الطوائف.

ولفضيلته عدة رسائل مخطوطة، وقد أثر عنه الشجاعة فى قول الحق والجهر به أمام الحكام دون خوف أو حـذر، وقد استقال من الإفتاء عـام ١٩٤٦، حين وجد حكومة ذلك العهد تريد التدخل فى شؤون الأزهر، وقال لرئيس ديوان الملك حين حذره من الخطر الذى سيلحـقه: «إننى ما دمت أتردد بين بيتى والمسـجد فلا خطر على». عـين فضـيلته فى مـشيخـة الأزهر للمـرة الأولى يو ٢٦ ذى الحجـة عام ١٣٦٩هـ -الثامن من شـهر أكتوبر عام ١٩٥٠ وأعـفى من المنصب فى ٤ سبتـمبر ١٩٥١ ثم تولى المشيخـة لثانى مرة فى ١٠ فبراير ١٩٥٢. واسـتقال من المنصب فى ١٧ سبتمـبر ١٩٥٢، وتوفى عليه رحمة الله فى صباح يوم الخـميس ١٠ من صفر ١٣٧٤هـ- ٧ من أكتوبر ١٩٥٤، تاركًا ذكريا إسلامية لا تنسى.

وقال عنه الدكتور عبد الله سلامة:

كـما تعـودنا مع القـراء الآجلاء أن يسـبق الحـديث عن إمام الأزهر صـاحب الذكرى.. تقـديم موجز لبـيان ذلك العصـر وهذا يساعـد القارئ الفاضل لتـفهم الشخـصية والأحـداث التى أحاطت بها.. ونـبين فيـه دور الأزهر الشريف ودور علمائه على أهمـية اللغة الـعربية وأن الأزهر هو الحـصن المنيع والوحيد للحـفاظ عليها.. والأزهر.. كلمة من الكلم النوابغ الجوامع، فى لـفظها استيعاب ووعى، ولمعناها إشعاع «فهى زمان ومكان ودين ودنيا وتاريخ» فالأزهر قاد شعوب الإسلام فى ظلمات المحن إلى بر السلامة، فهو المعقل الذى حفظ الثقافة العربية، ألف سنة ويزيد.. إن الأزهر هو الحصن الذى اعتصمت به اللغة العـربية من عدوان العامية والعجمية، عندما غشا الجهل.. والأزهر هو ملاذ المظلومين كلما عم الطغيان وهو الجـامـعة العـالميـة لكل الأجناس، وهو القـاعـدة الروحـية الـتى كان يخـشـاها المستـعمرون، فـيحـاولون تدميره ومـازالوا.. إن الأزهر هو الصرح الشـامخ ضد الفساد، وهو الذى خرج القـيادات للجهاد، وكان بمثابة الرأس من الجـسد فى قيام النهضة الحـديثة للعرب وللمسلمـين جميعًا يمـدها بالروح والقوة. فالأزهر الذى

قاوم الغزو الفرنسى بقيادة ستة من علمائه وشيوخه الأجلاء، وثار على الاحتلال البريطانى.. كل هؤلاء يلازمهم لفظ الأزهر.. وكما كان هذا هو فضل الأزهر فى حرية الأمة فى القيام بعباداتها وطقوسها.. كان للأزهر الفضل الأهم الذى حافظ على وحدة المسلمين جميعًا، هو محافظته على اللغة العربية، وهذا ما أعنيه فى هذا التقديم، ولا أخوض فى غيره.

إن فضل الأزهر على اللغة العربية.. مستمد من فضل القرآن الكريم عليها، حيث أكسبها عذوبة اللفظ، ورقة التعبير، وجمال التركيب، ودقة فى الأداء، وثروة فى المعانى، والقرآن الكريم هو سبب فى وجود العلوم الشرعية، والأدبية التى حفظت مادتها بالقواعد، ووسعت دائرتها بالألفاظ.. فكان علم «النحو والصرف، والمعانى، والبيان، والبديع» إلخ ثم على الأدب والتفسير والحديث والفقه وأصوله واستنباط الأحكام الشرعية.. والقرآن الكريم هو الذى وحد اللغة العربية على اللسان، فى كل زمان ومكان.. لمدة ألف وأربعمائة سنة ويزيد لا فساد فيها ولا جمود ولا تبديل قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] وحفظ القرآن الكريم يستلزم حفظ لغته، والدليل أمامنا واضح جلى، فإن الناظر فى تاريخ الأديان السماوية والأرضية لا يجد دينًا حملته لغته التى أنزل به أو كتب فيها.. إلى أقصى الشرق، فأقصى الغرب فى مدى ١٤٢٨ عامًا ثم بقيت محافظة على قوتها وجدتها ووحدتها وطبيعتها إلا دين الإسلام، ولغة العرب.

أما سائر الأديان الأخرى فلا تقرأ كتبها الأصلية إلا فى لغة البلد الذى ظهرت فيه.. فإذا انتقلت إلى بلد آخر عن طريق الدعوة قُرأت مترجمة إلى لغة البلد أما أصل الكتاب فقد تختص به طائفة قليلة من رجال ذلك الدين.. وللتقديم بقية.

ونعود للحديث عن فضيلة الإمام الثالث والثلاثين للأزهر الشريف فضيلة الشيخ عبد المجيد سليم.

نسبه ونشأته وبيئته وتوليته المشيخة

الشيخ عبد المجيد سليم إمام جليل وفقيه كبير ومشرع عظيم، وقد أفاض الكتاب والمؤرخون فى الحديث عن هذ الإمام وذكر مآثره ومفاخره.

ولد فى ١٣/ ١٠/ ١٨٨٢ فى قرية من قرى محافظة المنوفية تسمى ميت سهالة، وهى الآن من أحياء «الشهداء» ولد شيخنا فى بيت من بيوت المجد والسيادة، وعاش طفولته وصباه على أرض هذه القرية، وفيها حفظ القرآن الكريم، والتحق بالأزهر وكان متوقد الذكاء مشغوفًا بفنون العلوم.. متطلعًا إلى استيعاب جميع المعانى، فلم يكتف بدراسة العلوم المعروفة بالأزهر، فدرس إلى جانبها الفلسفة، حتى اشتهر بين زملائه من الطلبة وغيرهم باسم -ابن سينا- الفيلسوف العربى المشهور.

من شدة ذكائه كان يلتهم المعارف والعلوم التهامًا، ويختار أعلام الأساتذة من ذوى الخلق الكريم، والعلم الغزير، والأفق الواسع ليرشف من علومهم، وينهل منها، ثم تولى إلى القاهرة ودخل الأزهر، فدرس علومه على مشاهير شيوخه وفى الوقت نفسه درس علوم المعرفة فى عصره ومنها علوم الفلسفة، ومن هذا أن دراساته لهذه العلوم لم تكن دراسة أستاذ فحسب، وإنما كانت دراسة من بلغوا فيها الغاية ولقد حضر دروس الإمام «محمد عبده» فى الرواق العباسى، وظل مواظبًا على حضورها خمس سنوات، تلقى فيها عنه أسرار البلاغة -دلائل الإعجاز- كما تلقى عليه دروسًا فى التفسير، ثم تلقى دروس المنطق والفلسفة، وتأثر بالعلامة حسن الطويل، وعرف عنه أساليب عديدة فى فنون الجدل والقياس لم تكن معروفة عن أقرانه من الطلاب وكان الشيخ يرعاه ويوجهه ويرشده وقد تنبأ له بمشيخة الأزهر ثم درس الفقه على فقيه عصره العالم الشيخ أحمد أبو خطوة وكان يرحمه الله بحرًا زاخرًا فى معرفة التفصيلات الفقهية والفتاوى الدينية، واستنباط الأدلة الشرعية من النصوص، ولقد تأثر كليًا بأستاذيه العالمين الجليلين الإمام محمد عبده والإمام الشيخ أبو خطوة حتى قال مرة: إن الشيخ أبو خطوة يفهم شرح «فتح القدير على الهداية» أكثر مما يفهمه صاحبه نفسه.. ونرى أثر كل من الإمامين قويًا واضحًا فى جميع فتاوى الشيخ عبد المجيد سليم، لكن ليس مقلدًا لهما، وإنما سيرا على منهجهما، مع التمرد المطلق من التقيد المطلق برأى معين أو مذهب خاص.

ولما أدرك الرجل أنه وعى علوم الأزهر حفظًا وفهمًا ودراسة تقدم لنيل درجة العالمية التى لم يكن يمنحها شيوخ الأزهر إلا لمن جمع بين العلم والفضل معًا وقد

فتـحت هذه الشـهادة أمـامه أبواب الوظائف على مـصراعـيهـا، فشـغل مناصب التدريس فى المعاهد الدينية مع التدرس لطلبة القضاء الشرعى لمادتى الفقه وأصوله، كما ولى القضاء ثم الافتاء وقد اسـتفاد من التدريس غزارة العلم، ومداومة البحث والاطلاع وبراعة الأداء كما اسـتفاد من القضاء دقة البحث وتحـرى الحق والاعتماد على الأدلة العقلية والعلمية، واستفاد من الإفتاء عمق الدراسة وتتبع الآراء الفقهية فى شتـى المذاهب أو الأخذ منهـا بما يتفق وروح الشـريعة الغـراء، وفاز بعـضوية جماعة كبـار العلماء ثم أصبح وكيلاً لها، ثم عهـد إليه بالإشراف على الدراسات العليا بالأزهر فنظمها ونسقها.

ولما ولى شئون الافتاء ظـل يباشر شئون هذه المهمة الشاقـة زهاء عشرين عامًا، وهذا كله قبل توليته أمور المشيخة.

توليته منصب مشيخة الأزهر

وبعد أن لبـى فضيلة الشـيخ محـمد مأمـون الشناوى نداء ربه فأصـبح منصب المشيخة خاليًا اتجهت الأنظار إلى الشيخ عبد المجيد سليم وصدر القرار بتعيين شيخًا للأزهر فى ست وعشريـن من ذى الحجة عام ١٣٦٩هـ أكتـوبر عام ١٩٥٠م وكان الملك فاروق وحاشيته فى هذا الوقت يـتحكمون فى الوزارات والوزراء وكبار رجال الدولة، تبعًا لأهوائهم وشهواتهم، وإرضاء للإنجليـز المستعمرين لمصر، ولما حاولت الحكومـة إنقاص مـيـزانية الأزهر، وكـان هذا أول صـدام مع الحكومة. . غـضب الإمام، وقال قـولته المشهورة «تقتـير هنا وإسراف هناك» أى إنقاص مـيزانية الأزهر وإسراف وتبذير فى ميـزانية الجامعات الأخرى، وعمد أعـداء الأزهر وأعداء شيخه إلى إيغـار صدر الملك وتأولوا الكلام إلى أغـراض مشـينة للملك، ولهذه الحـادثة قصة. . حين عارض الشيخ عبد المجيد رغبات الملك، تربص رجال الحكومة للشيخ وضاقوا بآرائه وفتياويه ذرعًا، وذهب الملك فاروق إلى جزيرة «كابرى» بإيطاليا حيث ألوان اللهـو والمجون والخلاعـة، وأعلن الإمام نقـده الجرىء لهـذا صاح صـيحـته المشهورة «تقتير هنا وتبذيـر هناك» طاروا بهذا النقد وأبلغوه للملك وأغروه بعزله. . فعزله وفى هذا الجو الخانـق، ترك الشيخ منصبه فى ١٩٥١/٩/٤م ثم تولى منصب المشيخة مرة ثانية فى ١٩٥٣/٢/٢٠ بعد أن تأكد الملك من حسن نيته، لكنه استقال

ثانية في ١٧/٩/١٩٥٢ في عهد ثورة يوليو، وحاولت الحكومة برئاسة فتحى رضوان المشرف على شئون الأزهر وقتها -في عهد الثورة- أن يقنعه بسحب استقالته فرفض رفضًا باتًا، ولم يبال الشيخ بما تعرض له في سبيل الجهر بالحق، ولم يطأطئ رأسه، وراح يتردد بين منزله وبين المسجد كما كان يحب طول حياته.

أثاره العلمية وتأثيره:

كان الإمام الشيخ «عبد المجيد سليم» ذا موهبة تشريعية قائمة على العلم العميق، وعلى الإلمام بآراء كبار الأئمة والفقهاء ورجال القانون وقد تألفت لجنة تشريعية لإصلاح قوانين الأحوال الشخصية، برئاسة الإمام «المراغى»، وعضوية الشيخ عبد المجيد سليم، وشيوخ المذاهب، وأساتذة الشريعة والحقوق، ورئيس المحكمة العليا ووكلاء وزارة العدل.. هذه اللجنة أقرت آراء الشيخ عبد المجيد سليم، وتوجيهاته الرشيدة، وكل هذا سجل فى سجلات المحاكم، وفى هذا يقول رئيس محكمة الاستئناف محمد محمود فى رثاء الإمام: «لقد كان المرحوم الشيخ عبد المجيد سليم»، فى هذه اللجنة هو النطب اللامع، والحركة الدائمة، وكان يأخذ الكلمة.. فيتولى شرح الموضوعات والمسائل، الواحدة بعد الأخرى.. مستعرضًا شتى الآراء، ومختلف الصور فى كل مذهب، مقررًا حكم الشرع، ذاكرًا رأى الأئمة والمجتهدين والفقهاء، مسايرًا روح العصر.. وهو فى هذا كله بحر متدفق، متحريًا أسس الشريعة الغراء وأهدافها، مع مراعا أحوال الناس، وظروف العصر، مؤيدًا رأيه بالأدلة العقلية، والبراهين المنطقية فلم يدع مجالاً لأحد أن يعقب بشيء.

ومن آثاره الإصلاحية الكثيرة!! نوجز بعضها، ومن أراد المزيد فلينظرها فى مكانها.. فلقد تحدث فى مؤتمر صحفى بعد توليته المشيخة. فقال: «إن مهمة الأزهر تشمل تعليم أبناء الأمة الإسلامية الدين الإسلامى ولغة القرآن الكريم - تعليمًا قويًا مثمرًا.. فيجب على القائمين بشئون الأزهر.. إصلاح قوانين الأزهر أولاً وأن يعملوا جاهدين على تحقيق آمال الأمة فيه» وهذه بعض وسائل الإصلاح نوجزها فيما يلى:

١- مراجعة الكتب الدراسية، وإبقاء الصالح، وتوجيه الطلاب إلى العلم من أيسر الطرق عليهم.

٢- تشجيع حركة التأليف، والتجديد، عن طريق الجوائز المشجعة، وعلى العلماء وضع البحوث، متمشية مع روح العصر.

٣- إعداد جيل قوى من أبناء الأزهر يستطيع أن يحمل الرسالة، فإن الأمة تعتمد على الأزهر لتخريج هؤلاء العلماء فى كل التخصصات.

٤- تشجيع حركة البعوث العلمية التى يرسلها الأزهر إلى أوروبا -للدراسة فى الجامعات العلمية للتزود من شتى الثقافات.

٥- تنظيم الجامعة الأزهرية تنظيمًا يتفق ورسالتها المهمة، وذلك بإنشاء مكتبة كبرى، ودار طباعة كبيرة، والآن فإن الأزهر يسير على هذه الأسس، وتوجد أهداف كثيرة منوطة بالأزهر داخليًا ودوليًا.. ونكتفى بما ذكر لضيق المقام. وتتجلى آثار الشيخ عبد المجيد سليم العلمية، فيما كان يصدر من فتاوى تدل على سعة علمه، واتساع أفقه، ويظهر ذلك واضحًا فيما كان ينشره من مقالات، وأبحاث وتشريعات فى الصحف، إضافة إلى أحاديثه المتوالية فى الإذاعة، ولقد وجه كلمة إلى طلاب الأزهر بمناسبة العام الهجرى عن طريق الإذاعة، هذه الكلمة ينبغى أن تكون دستورًا لهم يرعاها الجميع فى الحاضر والمستقبل نوجز بعضًا منها. «نصيحتى إليكم أن تعلموا أنكم جميعًا مجندون فى سبيل الله، فأقبلوا على دراستكم، وتجملوا بالفضيلة بينكم وبين الناس، لتحقيق آمال الأمة فيكم وإعلاء كلمة الدين والعلم بكم».

وكان هدفه أنه إذا شعر كل أزهرى أنه جندى مهتم برسالة عظمى أدرك قيمة المسئولية وواجب الجندى فى ميدان الجهاد.. هذه الرسالة ترتكز على عمودين أساسيين:

١- سعة العلم.

٢- «حسن الخلق» ولا علم بدون خلق. لقد كان الشيخ عبد المجيد سليم. لسان جماعة التقريب، وقلمها البليغ، ورائدها الممتاز، قال عنه فضيلة الإمام الشيخ «شلتوت» «كنت أود لو أستطيع أن أبرز صورته كصورة الرجل السمح

الزكى القلب العف اللسان، رجل العلم، المؤمن القوى، الضليع فى مختلف علوم الإسلام، ومـذاهب التقريب -من ص ٨- ١٤ ولقـد كان ضمـن ثلاثة أئمة تولو مشيخة الأزهر: هم:

١- الإمام المراغى.

٢- الإمام -مصطفى عبد الرازق.

٣- الإمام الشيخ عبـد المجيد سليم، والثلاثة من خيار شـيوخ الأزهر، خلقًا وعلمًا وعملاً، ولكل منهم دوره العظيم فى تطوير الأزهر، والمقام لا يتسع لذكر أحـداث هذا التطور، ومـن أراده فلينظره فى كـتـاب «الشـيـخ المراغى بأقـلام الكتاب».

مؤلفاته ومصنفاته

ولقد كتب عن الشيخ عبد المجـيد سليم كبار العلماء والأدباء والمفكرين، يثنون على علمه وجـرأته، ولم يترك الشيخ عـبد المجيـد سليم ثروة علمية فى مـؤلفات مكتوبة، بل ودع علمه صدور طلابه كما فـعل بعض الأئمة السابقين، فكان علمه من السعة بمكان من مقالات ومحاضرات وفتاوى التى جاوزت الخمسة عشر ألفًا.

ومن أعماله التى لا تنسى، محاولة التقريب بين المذاهب، فقد كان على قناعة، بأن تعاون المسلمـين وتضامنهم هو السـبيل إلى قهـر أعدائهم، ونشـير إلى بعض أسماء المقالات التى ذكرها ونشرتها الصحف:

١- «أيها المسلمون ثقـوا بأنفسكم» فى هذا المقال صور عـيبًا متفـشيًا فى الدول الإسلامية، وهو ثقتهم بأنفسهم، ومغالاتهم فى تقديس الغربيين، والمقال طويل.

٢- «خواطر حول التعصب ومجاراة الفكر الغربى» والبحث يعالج مشكلة كبيرة وخطيرة، وأخطاء الباحثين فى هذه المشكلة.

٣- «القطعيـات والظنيات» وضح فيـه معالم الاجـتهاد فى الدراسـات الدينية، وهذا البـحث يدل دلالة قاطعـة على طول باع الرجل فى علوم الفـقه وأصـوله، والمنطق، وأهمية الاجتهاد، والاعتماد على الدليل والحجة والبرهان.

٤- «جماعة التـقريب» ذكر فيه أن الإسلام هو دين الوحـدة، ويصبح المسلمون فى ظلهـا كالبنيـان المرصوص، وحـرية الفكر فى الإسـلام، مكفولة مـا دامت لا تعارض أساسًا أو ركنًا من أركـان العقيدة، كما أصدرت «جماعـة التقريب» مجلة «رسالة الإسـلام»، ولقد كان الشيخ عـبد المجيد سليم، لسـان هذه الجماعة كـما ذكرنا فى ذلك سابقًا، وأهم ما تركه الشيخ الإمام من آثار علمية، هى فتاواه، وقد ذكر بعض الباحثين أنهـا تبلغ خمسة عشر ألف فتوى كما ذكـر وهى ثروة فقهية، يجب نشرها لينتفع بها علماء المسلمين، ولقـد فكر المسئولون فى نشرها، وعهدوا إلى الشيخ فرج السنهورى، للقيام بهذا وقامت عقبات حالت دون تنفيذ المشروع. . ولعل أحد البـاحثـين من علماء الأزهر يتفـرغ لكتابة «رسـال دكتوراة فى فـتاوى الإمام» كمـا أن الشيخ نشر كثيرًا من آرائه، ودراسـاته - فى الصحف والمجلات، بخاصة مجلة «رسالة الإسلام» وهى لسان حـال «جماعة التقريب»، ولقد ورد فى كتاب «الأزهر فى اثنى عشـر عامًا»، أن الأستاذ الإمام كانت له مـراسلات علمية عديدة دارت بينه وبين كبار علماء المسلمـين فى شتى أنحاء العالم، كما ورد أن له مؤلفات مازالت محفوظة.

وفاته:

كان الشيخ عـبد المجيد سليم -مع تواضـعه الجم يعتز بكرامـته اعتزازًا كـبيرًا، وكان يجهر بكلمة الحق ولا يبالى بما يترتب على ذلك من آثار، وفى وفاته، كانت الخلافات الحزبـية قد اتسع خطرها، وأصبحت شرًا وبيـلاً فى تمزيق الأمة المصرية، شر ممزق، هذا إلى جـانب ألوان الفساد التى بثـها الاستعـمار، وزعماء الطغـيان والاستـبداد من حاشـية الملك، ومن حـوله ، وتسللت شرور الحـزبية إلى الأزهر الشريف، فقاومـها الإمام مقاومة عنيفة، ولقـد لقى إزاء ذلك عنتا وتعنتا شديدًا، وتعرض لحملات مسعورة، شنها عليه أعوان القصر، وأتباع الأحزاب، لكنه صمد أمامها كالـطود الشامخ، وأبى أن يهادن أو يلين، وكثرت عليه الهمـوم، فهاجمه المرض. ومع هذا قدم استقالته بكل شجاعـة فى سبيل كلمة الحق، وليعلم الجميع أن شيوخ الأزهر رجال لا يقبلون المساومة، ولقد حاولت الحكومة إرجاعه عن هذه الاستـقالة، لكنه أصر علـى موقفـه كما ذكـر. . حتى وافاه أجله فى صـباح يوم

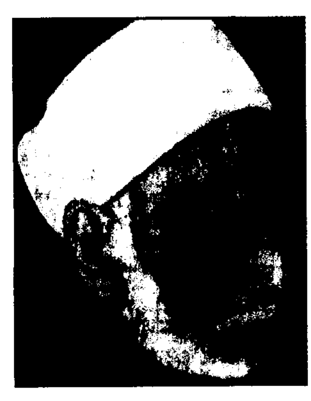
الخميس السابع من شهر أكتوبر سنة ١٩٥٤، وشيعت جنازته فى اليوم التالى ومهما أفضنا فى الحديث عن هذا الإمام الجليل فلن نوفيه حقه، ولا معشار ذلك.

فندعه لله الذى لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء. فهو الذى يكتب ما قدم وآثاره ويحصى عمله، وينشر فى كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وكأنى به وقد أخذ كتابه يوم القيامة بيمينه، يقول راضى النفس باسم الثغر: ﴿هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (١٩) إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة: ١٩، ٢٠] فرحم الله شيخنا وأدخله فسيح جناته مع الصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا.

وهكذا دائمًا نرى.. أن موت الأمة.. فى موت العالم.

❁❁❁

٣٤- فضيلة الإمام الأكبر الشيخ إبراهيم حمروش



ملء القلوب والأسماع، وحديث الخاصة والعامة، وشخصية تكاد من جلالتها وتواضعها تعد مع الخالدين الأوائل من كبار أئمة الإسلام.. حجة فى علوم الدين واللغة والأدب، وإمام فى المعقول والمنقول، وشيخ كثير من علماء الأزهر المعاصرين، تتلمذوا عليه، ونهلوا من معين علمه الفياض، واستمعو لأحاديثه وآرائه فى اللغة والبلاغة والأدب، وفى علوم الشريعة وأحكامها، وفى دقائق الاجتماع والتاريخ، فكان لهم من ذلك علم غزير، ومدد فياض.. ومجلسه العامر يفيض بالجديد الطريف من معارفنا الحاضرة، وبالتليد القديم من علوم الأوائل ومعارفها، وإلى جانب ذلك النكتة الرائقة والفكاهة الشائقة، والآداب الرفيعة، فى سمت الصالحين الورعين، والزاهدين العابدين، مع التقوى والتواضع، وعفة اللسان وطهارة القلب ويقظة الضمير. وهو صوفى ورع محب لآل البيت، كثير الإجلال لذكرهم، مع التوكل على الله والتباعد عن السياسة. وهو من أرومة عربية طيبة، من عرب إقليم البحيرة، حفظ القرآن، وجاور فى الأزهر، وتتلمذ على الإمام محمد عبده ونال العالمية من الدرجة الأولى، وشغل منصب التدريس فى الأزهر ثم فى مدرسة القضاء الشرعى، ثم تدرج فى مناصب القضاء، ثم اختير شيخًا لمعهد أسيوط، فشيخًا لمعهد الزقازيق، فعميدًا لكلية اللغة العربية، فشيخًا لكلية الشريعة.. ثم أسندت إليه رياسة لجنة الفتوى بالأزهر الشريف، ثم منصب المشيخة العظمى، والإمامة الكبرى للإسلام والمسلمين. إلى جانب عضويته فى مجمع اللغة العربية منذ نشأته حتى اليوم، ولقد عاش طول حياته يحلم بإصلاح الأزهر ويعمل مع العاملين لهذ الهدف، ويشترك فى جميع اللجان التى ألفت لذلك.

ولقد تخرج الشيخ إبراهيم حمروش من الأزهر، عام ١٩٠٦، وعين مدرسًا فى الأزهر، ثم اختير للتدريس فى مدرسة القضاء الشرعى ١٩٠٩، ومكث مدرسًا بها حتى سنة ١٩١٦، ثم عين قاضيًا فى المحاكم الشرعية، وظل يرقى فى مناصبها، إلى أن اختير عام ١٩٢٨ شيخًا لمعهد أسيوط، ونقل بعد شهور شيخًا لمعهد الزقازيق، ولما أنشئت الكليات الأزهرية اختير عام ١٩٣٢ شيخًا لكلية اللغة العربية، وفى عام ١٩٤٤ اختير شيخًا لكلية الشريعة، ثم استقال من منصبه عام ١٩٤٦ احتجاجًا على السراى لتدخلها فى شؤون الأزهر، وعين عام ١٩٥٠ رئيسًا للجنة الفتوى. وهو عضو فى المجمع اللغوى بالقاهرة منذ إنشائه عام ١٩٣٢.

وللأستاذ الأكبر مكانته الكبيرة فى قلوب الأزهريين، فهو حيثما كان موضع التجلة والاحترام والتقدير، من كل أزهرى وكل مسلم.. ومكانته العظيمة فى العالم الإسلامى فى غنى عن البيان.

وإن معاهد الأزهر وكلياته لتفخر بجهوده فى تنظيمها وفى توجيهها لأداء رسالتها، ولقد نال مكانته المرموقة بما فطر عليه من نبل خلق، وعظمة شخصية وسعة علم، وصلاح وإيمان...

كان فى الوظائف الكبرى التى تقلدها مثالاً عاليًا للرئيس اليقظ العادل، والإمام الراعى الساهر، والشيخ الحكيم المدبر، والعالم الحانى على طلاب العلم وشيوخه. وقد تولى الشيخ حمروش مشيخة الأزهر للمرة الأولى فى ٤ سبتمبر عام ١٩٥١ وكانت له مواقف خالدة فى الحركة الوطنية المصرية الأخيرة، وأعفى من منصبه فى ١٠ فبراير عام ١٩٥٢ لاشتراكه فى الحركة الوطنية التى قام بها الشعب وقيادته للمظاهرة الشعبية التى خرجت تهتف بحرية مصر، ومقالاته عن وجوب محاربة الاستعمار، وأذكر أنه لما تولى المشيخة للمرة الأولى استقبل فى الأزهر استقبالاً حافلاً، وهنأته بهذه الأبيات:

عاد للدين مجده وسلامه ... وحمى الدين هذه الأمة

ودع الأزهر الغداة لياليـ ... ـبه، ونادته بالمنى أحلامه

تلك آماله الكبار، وهذا ... شيخه الأكبر الحكيم إمامه

يشهد الله أنه كاهل الدين، ... وللأزهر العريق سنامه

إن (إبراهيم) الملاذ لبيت الله — تسعى بسعيه أعلامه
أمة واحدة، وفى الله مسعاه، — وللحق عزمه ومقامه
أمل المسلمين، والنور يهدى — ليس إلا للمكرمات اعتزامه
يا إمام الإسلام بايعك الأزهر — شيخًا له وأنت سلامه
تلك آماله إليك وهذا — فى يديك الكريمتين زمامه
وعلى منكبيك برد جلال — صيغ من نسج الصالحات وسامه
سر على يمن الله تحرس بيت العلم — فى يمنى راحتيك وسامه
جمعت حول القلوب وهذا البيـ — ـت جذلان من هذاك ابتسامه

والشيخ حمروش، هو البقية الباقية من علماء الأزهر الأعلام، ومن الجيل القديم، الذى يعتز بهم الأزهر الحديث، والذين ليس لهم نظير فى العلم والغيرة على شؤون الإسلام والعروبة، أمد الله فى حياته.. وما من أزهرى اليوم إلا وهو من تلامذته، ، أو من تلامذه تلامذته..

ومن كلماته هذه الكلمة التى ألقاها فى الأزهر فى ذكرى الهجرة وهى: بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين: شاعت فى الأمم السابقة خرافات وعقائد باطلة لم تكن وليدة بحث ودرس ونظر واستدلال، وإنما هى أقوال ملفقة مما يأخذها الخلف عن السلف، ويقلد فيها الأبناء آباءهم، من غير فهم ولا روية، وهى موضع تقديرهم، ومحل اعتبارهم، وأشد الناس تمسكًا بها ومحافظةً عليها المترفون، لأنهم يعتقدون أن فى الدين زوالاً وذهابًا لعظمهم، قال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٣]، وقد أرسل الله تعالى محمدًا ﷺ إلى الناس كافة بدينه الذى ارتضاه لخلقه، واختار لعباده، من يوم بعثه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فكان موقف أمته منه موقف الأمم السابقة من رسلها، ولم تستحدث الأيام خلقًا، ولا حالت من الزمن المعهود.

بدأ محمد ﷺ، بدعوة العرب، وكانوا وقتئذ أقل الناس حظًا وأشقاهم عيشًا، وأبينهم ضلالة، بأسهم بينهم شديد، يقتتلون لأقل الأمور وأحقر الأسباب، وكانوا متفرقين لا تجمعهم وحدة، ولا يشملهم نظام، وكان يجاور العرب دولتان عظيمتان: دولة الفرس، ودولة الروم الشرقية، استولت كل واحدة منهما على ما جاورها من بلاد العرب، وجعلت عليه حاكمًا من العرب، يعمل لها وينفذ إراداتها، ويرعى مصالحها، وبهذا الوضع كان العرب محصورين فى جزيرتهم، قانعين بما فيها من مفاوز وصحراوات. دعاهم ﷺ إلى خير الأمور، وأفضل الأعمال، دعاهم إلى عبادة الله وحده، وترك عبادة الأصنام، لأنها لا تضر ولا تنفع، ولا تعطى ولا تمنع، ولا تدفع عن نفسها أذاة، ولا تميط قذاة، ولا تخلق حصاة، ومع ظهور الحجة ووضوح البرهان، وتبينهم للحق فى كثير من الآيات، قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ** ﴾ [الحج: ٧٢] إلى غير ذلك من الأمثال التى صرفها الله تعالى فى كتابه ومع كل ذلك لم يؤمنوا به بل كذبوه أشد تكذيب وبالغوا فى الإنكار، وقال: ﴿ **إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ** ﴾ [الزخرف: ٢٢] ومن جهلهم زعموا أن دعوة النبى ﷺ الناس إلى عبادة الله، وترك عبادة الأصنام، لم تكن إلا صلوات الله عليه بكره الأصنام، ويريد الانتقام منها، لأن بعضها اعتراه بسوء، وألحق به ضررًا، فقالوا: ﴿ **إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا** ﴾ [هود: ٥٤] فكان ذلك صراعًا بين الحق والباطل، وبين الحجة والبرهان، والجهل والطغيان، ولم يقفوا عند التكذيب والإنكار، بل تجاوزا ذلك إلى إيذائه وإيذاء من شرح الله صدورهم للإسلام، فقبلوا دعوته؛ وآمنوا برسالته. وفازوا بشرف السبق، وكلما بالغوا فى الإيذاء، بالغ ﷺ فى الصبر، واجتهد فى الدعوة، وكان ﷺ شديد الحرص، عظيم الاهتمام بكثرة الأعوان والأنصار، ليتمكن بذلك من أداء مهمته، وتبليغ رسالته، فكان عليه السلام يتلقى من أقبلوا إلى مكة فى موسم الحج، فيدعوهم إلى الإسلام، ويقر عليهم القرآن، فما أجابه أحد، ومنهم من رد عليه ردًا قبيحًا، وقد اجتهد رسول الله ﷺ فى مقابلة الوفود، ولم يصرفه إيذاء قريش

عن دعوته، ولا الرد القبيح عن السعى فى إدراك طلبته، فكان يقابل الوفود فى كل موسم، ففى موسم إلتقى رسول الله ﷺ بجماعة من الخزرج، ولما عرض عليهم الإسلام قبلوه، فكان ذلك الاجتماع مقدمة النجاح ووسيلة الفوز، فإنهم لما عادوا إلى أهلهم بالمدينة ذكروا لهم رسول الله ﷺ، والدين الذى يدعو إليه، فأسلم منهم كثيرون، وفى موسم آخر حضر جمع من مسلمى المدينة والتقى بهم رسول الله وبايعوه، إن هاجر إليهم، على أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم، وبعد ذلك أمر صلوات الله عليه، أصحابه بالهجرة إلى المدينة واللحوق بإخوانهم، وقال لهم: **«إن الله قد جعل لكم إخوانًا ودارًا تأمنون بها»** فخرجوا إرسالاً، رجالاً ونساء، إلا من حيل بينهم وبين الهجرة من المستضعفين، ولما رأت قريش أن رسول الله ﷺ قد صارت له شيعة وأصحاب من غير بلدهم، وخرج أصحابه من المهاجرين إليهم، وعرفوا أنه قد أجمع لحربهم، ائتمروا على قتله قبل الهجرة حتى يأمنوا حربه. ولما علم رسول الله ﷺ ما أجمعت عليه قريش وعرف الليلة التى يريدون الفتك به فى صبحها، توجه صلوات الله عليه إلى أبى بكر، وأخبره أن الله أذن له بالهجرة، فسأله الصحبة، فأجابه إليها، وعزم على الهجرة فى تلك الليلة، وقد أمر النبى صلوات الله عليه على بن أبى طالب أن ينام مكانه فى تلك الليلة، ويتسجى ببردته لئلا يرتاب أحد فى وجوده، وأصبحت فتيان قريش ينتظرون خروجه ﷺ للفتك به، إذا بعلى يخرج إليهم، فعلموا أنهم باتوا يحرسون عليًا. ولما علمت قريش بذلك ثارت ثائرتهم وأخذوا يقتفون الأثر، وجعلوا لمن يأتى به حيًا مائة من الإبل، وهاجر ﷺ بإذن الله وفى رعايته وحفظه إلى أن بلغ المدينة، ولما استقر بالمدينة أخذ ينشر دعوته ويبلغ رسالته إلى أن بلَّغ كل ما أمر بتبليغه، وبذلك تمت الشريعة، وكمل النظام الذى وضعه العليم الحكيم.

والشريعة التى بلَّغها تسمو بالعقول عن التقليد، واتباع القول بلا دليل، وأمر بالنظر فيما بث النبى ﷺ فى الآفاق من آيات. ونصب فى الكون من دلائل تدفعها إلى الإذعان بوجود الله، وبما له من صفات الكمال: من القدرة التامة والعلم المحيط والتفرد بالسلطان فيما عداه، يمضى فيه حكمه وينفذ قضاؤه، وعبادة وخضوع وتقرب وخشوع. شكرًا لمن خلقهم، وأسبغ عليهم النعم الظاهرة

والباطنة، وتهذيب نفوس، وتطهير قلوب، وبعد عن الآثام والذنوب، وتنزه عن الصغائر، وصدق فى القول، وإخلاص فى العمل، وأمر بالمعروف، ونهى عن المنكر، وشجاعة ونجدة، وإعداد عدة لإرهاب الأعداء، ومساواة فكلهم عند الله سواء، لا فرق بين عظيم وحقير وغنى وفقير، لا فضل لأحد على أحد إلا تقوى الله والتقرب منه، ومساعدة الضعفاء والمحتاجين، وتعاون وتناصر، وتواد وتراحم وتعاطف وطاعة الله ورسوله وأولى الأمر بالمسلمين. إلى غير ذلك مما أمرت به الشريعة. وحثت عليه. ورغبت فيه. وقد أعد الله تعالى للذين يعملون الصالحات سعادة الدنيا والأخرة، قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور: ٥٥] وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ [الكهف: ١٠٧]. وقد عملت الأمة بتلك الشريعة، فآتت أعمالها الصالحة أكلها، وأثمرت ثمرتها فى بناء الأمة على أسس متينة، وأخلاق عظيمة، وربطت بينها برباط التعاون والمساواة والألفة والمحبة، والدين والخلق، فاتحدت بعد تفرق، وقويت بعد ضعف، وسعدت بعد شقاء، وعزت بعد ذل. فعظم قدرها وعلا شأنها، وأحكم أمرها، فغيرت وجه التاريخ، وفكت الحصر الذى ضربته دولة الفرس ودولة الروم. وفتحت بلاد الأعداء الذين كانوا يكيدون لها ويعملون على مضايقتها. ولا زالت الدولة الإسلامية تنتقل من فتح إلى فتح ومن نصر إلى نصر، وعاشت قوية عزيزة، تقدرها الأمم، ويرهبها الأعداء ولما انحرفت عن العمل بالدين، واتباع هدى سيد المرسلين، اعتراها الضعف والوهن، فلانت قناتها. وذهبت هيبتها.

وقد توفى رحمه الله عصر يوم الاثنين ٢٥ جمادى الأولى ١٣٨٠هـ ١٤ نوفمبر ١٩٦٠ وشيعت جنازته فى اليوم التالى إلى مقبرة سيدى جلال فى ١٥ نوفمبر ١٩٦٠.

وكتب عباس محمود العقاد فى يومياته فى الأخبار (عدد ٢٣/ ١١/ ١٩٦٠) يقول:

كان صاحب الفضيلة الشيخ إبراهيم حمروش بقية صالحة من بقايا المدرسة الإمامية التى استفادت من قدوة أستاذها الشيخ محمد عبده فى العناية بعلوم اللغة والأدب والحكمة إلى جانب العناية بعلوم الفقه والشريعة.

كان الأستاذ الإمام يعنى بالأدب واللغة فيدرس نهج البلاغة ومقامات البديع ويعنى بالفلسفة الأسلامية فكتب رسالة التوحيد ويغلق على «العقائد العضدية» ويهدى طلابه إلى أسرار حكمة الغزالى فى مطولاته ومختصراته، ويعنى بالفقه والشريعة فيلقى دروسه فى تفسير القرآن الكريم ويكتب تقريراته الوافية فى إصلاح المحاكم الشرعية.

وبهذه القدرة العالية كان تلاميذه الأوائل يقتدون ويهتدون ومنهم فقيد اللغة والفقه الأستاذ حمروش شيخ الأزهر الأسبق وعضو مجمع اللغة العربية، الذى فقده العالم العربى والعالم الإسلامى، منذ أيام.

كان عجبًا فى سرعة الشاهد من الشعر والنثر على خاطره وعلى لسانه، وكان من شواهده فى جلسة قريبة من جلسات لجنة الأصول بالمجمع أن بعض الزملاء تذاكروا شروط السن فسمعنا الشيخ -كعادته- عند حضور الشاهد يهمس ببيت التميمى الذى يقول فيه:

وإن امرأ قد سار خمسين حجة ... إلى منهل من ورده لقريب

وهو بيت يكثر فيه تبديل العدد على حسب المناسبة، فصاحب البيت يقول: «خمسين حجة»، وبديع الزمان فى مقامته الأهوازية يقول «عشرين حجة» و... والشيخ حمروش يرويها أولاً «ستين حجة» ثم يذكر أنه جاوزها فيصلح وزن الشطر على الثمانين، ويعود قلائلاً:

وإن امرأ يسعى ثمانين حجة ... إلى منهل من ورده لقريب

وهكذا كنا نسمع منه الشواهد الحاضرة حين يستشهد بها فى موضعها من الدلالة على الأحكام اللغوية، ثم يتصرف فيها -متبسطًا- على حسب الحالة الحاضرة كما يقول:

ولم يكن من المتشددين فى استناده إلى أقوال الشعراء والرواة، فإنه كان على خلاف علماء اللغة الذين يقفون بالحجة عند أقوال المخضرمين -يتوسع فيستشهد أحيانًا بأقوال العباسيين من أمثال بشار وأبى نواس، بل يستشهد أحيانًا بأقوال المولدين المتأخرين إذا درجت فى مدارج الاستعمال الشائع، ويظرف غاية الظرف حين تسمعه فى وقار وسمته يروى بيتًا لأبى نواس أو لبشار لا يتحرج فيه هذا ولا ذاك، ولا يبالى الشيخ لغوهما إذا كان فيه حجة «اللغويين»... وقد ينطقها أحيانًا بفتح اللام من «اللغو» لا من «اللغة» تفكها منه على حسب المقام.

وكثرًا ما كان يعزز حجة «النحوى» بحجة الفقيه «المنطبق».

وكثيرًا ما كان يسأل عن مقابل الكلمة باللغات الأجنبية ليضعها فى موضعها من المعنى والتركيب، ولا نذكر أنه حصر رأيه فى أفق ضيق من التقليد أو التقييد، ولكنه كان مثلاً للعالم السلفى الذى يرعى حق القديم ولا ينسى فى غيرته عليه حق الجديد.

وكتب الشيخ محمد على النجار عنه[1] يقول[2]:

تعلقت بأسبابه[2]، ووصلت حبلى بحبله فى سنة ١٩٣٧ حين عملت فى التدريس فى كلية اللغة العربية وكان عميدها، فَأَوْلاَنِى عَطْفَهُ، وأخذ بضبعى، وكان لى منه الخير الكثير.

صحبته إذن، وقد استوى على صهو المجد والشرف الباذخ. فهو من رجالات الأزهر وأولى الأمر فيه، وهو عضو فى مجمع اللغة العربية، وهو حجة فى علوم الدين واللغة.

كان جامعًا بين الحزم فى سياسة الكلية وتدبير الأمور فى الأزهر، والاضطلاع بالمطالب العلمية التى يتطلبها المجمع والأزهر.

---

(١) ولد الشيخ إبراهيم حمروش: فى ربيع الأول ١٢٩٧هـ أول مارس ١٨٨٠م- وتوفى فى ٢٦ جمادى الأولى ١٣٨٠هـ- ١٥ نوفمبر ١٩٦٠م.

(٢) عن مجلة الأزهر عدد رمضان ١٣٨٠هـ -للأستاذ محمد على النجار- عضو مجمع اللغة العربية والأستاذ بالأزهر الشريف.

كان ساهرًا على رعاية الكلية، خبيرًا بما فيها، لا يشذ عنه شيء من أحوالها. حريصًا على أن تتبوأ المركز اللائق بها، فكان يختار لها المدرسين الكفاءة من الأزهر وغيره، وكان ينظم امتحان مسابقة لدخول الطلاب فيها، ولم يكن ذلك مسنونًا فى قانون الأزهر، ولكنه الحرص على أن يكوِّن طبقة ممتازة من الطلاب.

ولقد كان يطوف بحجر الدراسة فى اليوم غير مرة، ويسأل الطلبة فى دروسهم، ويقف على درجة تقدمهم وتخلفهم، ويطلب لكل مقام ما يقتضيه.

ولقد مرت فتن سياسية وأعاصير هوج كان الطلبة يسلكون فيها فى بعض الحين مسلك الشطط والنزق، فكان يعالج الأمر بالحزم والكياسة، يخلط الشدة باللين، والمخاشنة بالمحاسنة، فيعود الطلبة طوع يديه، يأتمرون بأمره ويقفون حيث أحب.

ولقد بلغت كلية اللغة العربية أوج مجدها، وكانت غرس يديه.

وترك كلية اللغة إلى كلية الشريعة فى ٢٤ من أكتوبر سنة ١٩٤٤م فأصلح من شأنها، وقوم من أودها، وثقف من قناتها، وكان له فيها أثر محمود حتى استقال من رياستها فى ٢٣ من ديسمبر سنة ١٩٤٥م على أثر أمور فى الأزهر لم ترضه. ولكنه بقى عضوًا فى جماعة كبار العلماء.

وأسند إليه منصب مشيخة الأزهر فى ٣٠ من ذى القعدة سنة ١٣٧٠هـ (٢ من سبتمبر سنة ١٩٥١م) وبقى متقلدًا هذا المنصب الجليل حتى يوم ٩ من فبراير سنة ١٩٥٢م.

وكان الوطن فى أيام توليه مشيخة الأزهر فى محنة مع الإنكليز فى قناة السويس وفى حاجة إلى جمع الصفوف وتوحيد الكلمة، فكان للشيخ السهم الموفور فى هذه الدعوة الشريفة.

فنراه ينشر على الناس فى يوم ١٥/ ١/ ١٩٥٢ كتابًا يقول فيه:

«أيها المصريون، أتوجه إليكم فى هذه الظروف التى غشيتكم فتنتها، وحزبتكم شدتها، أن تكونوا إخوانًا فى الوطن متآخين متحابين، رائدكم الإخلاص لبلادكم وأنفسكم «ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم».

«وإن شر ما تبتلى به الأمم فى محنتها أن تتفرق كلمتها، وأن تنحل وحدتها، وتنقطع أواصر المودة بين جماعاتها، فيشق العدو الطريق إليها، وينفذ بسهامه إلى صدور أبنائها».

«وهذه مصر، بلادكم العزيزة ووطنكم المحبوب تناديكم جميعًا، شيبًا وشبانًا، رجالاً ونساءً، أقباطًا ومسلمين، أن تكونوا سهامًا مسددة نحو عدوها، وأن تلقوا الغاصب صفًا واحدًا كأنكم بنيان مرصرص، بقلوب لا تعرف إلا الوطن والدفاع عن حوزته».

«وأذكركم- حتى لا يغيب عن أذهانكم -تاريخ هذا الغاصب الرابض فى دياركم، وما اعتاده من سياسة التفريق طلبًا للسيادة ورغبة فى السلطان وبسطًا للنفوذ، لمصلحته هو لا لمصلحة أحد سواه. وأذكركم جميعًا مسلمين وأقباطًا بماضيكم المجيد. فقد قمتم كتلة واحدة تطالبون باستقلال البلاد واستكمال حريتها، وتبوئها مكانة سامية بين الأمم. وأشهدتم العالم كله على وحدتكم وائتلافكم».

«وإنى أعيذكم بالله من التفرق واختلاف الكلمة، فتضيع جهودكم الكبيرة التى بذلتموها فى سبيل عزتكم وعزة بلادكم».

«واعلموا أن النصر المؤزر لقضيتنا رهن باتحاد صفوفنا واجتماع كلمتنا، ووقوفنا جميعًا فى وجه عدونا، حتى تظفر بلادنا بما تصبو إليه من السيادة والحرية والاستقلال، ويتمتع أهلها جميعًا بالأخوة الصادقة والاطمئنان على أموالهم وأنفسهم».

وحين أشتد حنق الإنكليز فى القناة والإسماعيلية فأنزلوا عذابهم على القرى الآمنة أصدر الشيخ منشوراً جاء فيه:

«إن شعب وادى النيل الباسل فى كفاحة السلمى لإخراج المغتصبين المحتلين من بلاده لم يجاوز حقه الشرعى فى الدفاع عن عقيدته والمطالبة بحريته، ولكن هذا الدفاع لم يرق فى أعين المحتلين من الإنجليز، فعملوا بكل الوسائل العدوانية على توهين وحدته، واندسوا فى صفوفه، يشيعون الأراجيف لتفريق كلمته. فلما

واجههم الشعب وحدة متراصة، وقام فى وجههم على قلب رجل واحد يطالب بحقه فى الحياة الحرة طاشت أحلامهم ولجئوا إلى القوة الغاشمة يسلطونها على الآمنين فى ديارهم. وعلى النساء فى خدورها، وعلى الأطفال فى مهادها».

«وكلما زاد الشعب تمسكًا بحقه صبرًا على هذا العنت زاد عسفهم، وتعددت مظالمهم، حتى خرجوا على كل شرعة، وبزروا كل ما عرف من أعمال التنكيل التى اشتهرت بها محاكم التفتيش، وما قام به النازيون من أعمال وحشية، فأزالوا القرى الآمنة من الوجود بدباباتهم، وهدموا البيوت بمدافعهم الثقيلة، وشردوا النساء والأطفال الأبرياء، وانتهكوا كل الحرمات، واعتدوا على المساجد والكنائس، ولم يبق جرم إلا ارتكبوه، ولا شناعة إلا فعلوها. ولم تقف شناعتهم عند حد، فراحوا يطلقون النار على حفنة الأمن ورجال الشرطة، ويقتلونهم تقتيلاً فى رائعة النهار، ويأسرون من نجا منهم...».

«وإنى باسم الأزهر علمائه وطلابه لأعلن استنكارى لهذا الإجرام الفظيع الذى انتهكت فيه الأعراض، واستبيحت الأموال واعتدى على حرية الإنسان وحقه المشروع فى أن يطالب بحريته واستقلاله، واحتج بشدة على هذه الأعمال العدوانية التى تنافى جميع الشرائع والأديان. وأهيب بالضمير العالمى أن يثور على هذا الوضع المهين لكرامة الإنسان، وأن يهب لوقف هؤلاء المستبدين عند حدهم، ليعلموا أن فى العالم ضمائر تتحرك لنصرة الحق، ونفوسًا تثور للأخذ بيد العزل المكافحين لنيل حرياتهم..».

«وليعلم الإنجليز أن هذه الفظائع التى يصبونها على رؤوس أبنائنا لن تلين للشعب قناة، ولن ترده عن المطالبة بجلائهم الناجز عن وطننا العزيز، وأن وادى النيل كله لن يسكت بعد اليوم على ضيم يراد به، ولن يفرط فى حق من حقوقه، مهما ابتلى بالشدائد ومهما ضحى من أرواح غالية..».

«وإنى إذا أستمطر رحمة الله ورضوانه على شهدائنا الأبرار أتوجه إلى أبناء الوطن جميعًا مناشدًا إياهم أن يشدوا من عزائمهم، وألا يجعلوا لهذه الأحداث أثرًا فى نفوسهم، فلا يهنوا ولا يحزنوا ولا يضعفوا، وهم الأعلون إن شاء الله.

فلا بد للجهاد من تضحية وللحرية من ثمن ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

وإن النيل من الإنجليز وجبههم بالغليظ من القول فى ذلك العهد لم يكن بالسهل الهين، ولا يقاس به عهدنا الحاضر الذى نعمنا فيه بجلائهم وذهاب سلطانهم عنا. فقد كان الإنكليز لا يزال لهم من السلطان على صاحب القصر ورجاله الشىء الكثير، وكان القدح فيهم لا يطور به من ذوى المناصب إلا من لا يتمسك بمنصبه، ويؤثر الحق على زينة السلطان وجلاله الكاذب، وأكبر الظن أن إقالته من المشيخة ترجع إلى هذا المنزع السياسى الذى ضاق به الإنكليز.

وإنى أقص هنا سيرة الشيخ ونشأته حتى استوى سيدًا جليلاً.

ولد الشيخ فى قرية الخوالد التابعة لمركز إيتاى البارود من أعمال مديرية البحيرة فى العشرين من شهر ربيع الأول ١٢٩٧هـ (أول مارس ١٨٨٠م) ونشأ فيها فحفظ القرآن الكريم حين بلغ الثانية عشرة من عمره، وأرسله والده إلى الأزهر، وكان يحكى أن والده إذ ودعه حين ذاك أوصاه أن يحافظ على الصلاة لأول وقتها، وحافظ الشيخ على هذه الوصية طوال حياته، فإذا دخل الوقت كان أكبر همه أن يؤدى الصلاة، وفى يوم وفاته قدر له أن صلى العصر، ولم يلبث أن وافاه الحمام.

وجاور الشيخ فى الأزهر فأخذ عن الشيوخ المتفعين الذين كان الأزهر ملآن بهم. وكان الشيخ ذكيًا ثقفًا لقفًا عرف بالذكاء والزكاوة طول دهره، فحصل تحصيلاً عجبًا، وفطن لدقائق العلوم، واستحكمت عنده الملكة الأزهرية.

وقد تلقى الفقه الحنفى عن الشيخ أحمد أبى خطوة واختص به، وكان يثنى عليه كثيرًا، وأخذ عن الشيخ محمد بخيت وأخذ النحو على الشيخ على الصالحى المالكى. ولزم الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده فى دروسه فأخذ عنه أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز والبصائر النصيرية فى المنطق. وقد يرجع إلى تتلمذه للشيخ محمد عبده الفضل فى تحرر فكره واتساع أفقه وحسن التصرف فيما يعلم.

وكان إلى جانب اشتغاله بعلوم الدين واللغة يشتغل بالعلوم الرياضية، وكان رياض باشا رحمه الله قد أعد مكافآت مالية لمن يفوز فى امتحانات الرياضة ففاز الشيخ فى هذه الامتحانات غير مرة.

وقد أتم تحصيله فى سنة ١٣٢٤هـ (١٩٠٦) وتقدم لامتحان شهادة العالمية، وكان صغير السن بين أقرانه فى ذلك الحين. وكان امتحان العالمية فى أصول الفقه يكون فى مسألة من مسائل مقدمة جمع الجوامع، ورأى شيخ الأزهر الشيخ عبد الرحمن الشربينى تجاوز المقدمة، والامتحان فى مسألة أخرى، حتى لا يقصر الطلبة جهودهم على المقدمة فعيّن مسألة أخرى للامتحان فى القياس فتخلف عن الإمتحان كثير ممن جاء موعد امتحانهم، فأبيح التقدم لمن بعدهم، وتقدم الشيخ ففاز فى امتحان دقيق كان شيوخنا يحدثوننا عن عسره وكان الطالب يقضى فى الامتحان سحابة نهاره، ولكن الشيخ لم يتجاوز ثلاث ساعات، وكان الامتحان فى أربعة عشر علمًا.

وعقب تخرجه نظم فى سلك مدرسى الأزهر فى ٢١ من نوفمبر سنة ١٩٠٦. وكان رحمه الله أحيانًا يتحدث بما أفاء الله عليه من النعمة، وما كان عليه الأزهر فيقول: كان مرتب المدرس فى الأزهر خمسة وسبعين قرشًا فى الشهر، ولقد كان أول ما تسلمته بعضًا من هذا القدر إذ كان دخولى فى التدريس فى أعقاب الشهر، ولقد كان فرحى بهذا المال الذى هو أول مال اكتسبته من الأزهر عظيمًا: إذ كان فيه وصلى لحبلى بحبال علماء الأزهر. وقد اختير لتدريس الرياضة بعد، وكان يتقاضى على ذلك خمسين ومائة قرش فى الشهر، وهو مع ذلك يدرس العلوم الدينية واللغوية. ويذكر بعض من تلقى العلم عنه فى هذه المدة فيقول: كان الشيخ جميل البزة مونقها غير متزمت فى هديه، يلقى الدرس فى ترتيب عجيب وسياق لطيف، يأخذ بألباب السامعين، يبعد عن الحشو والتطويل واللغو من القول، ولا يطيل فى المباحث اللفظية، له نغمة حلوة فى الإلقاء تجذب الطلاب.

وفتحت مدرسة القضاء الشرعى فى ذلك العهد، وكان على أمرها عاطف بركات رحمه الله، وكان يختار لها من الأزهر المبرزين المتفوقين، فذكر له الشيخ فاختاره، وكان ذلك فى سبتمبر سنة ١٩٠٨ فبقى فيها إلى ١٢ يونية سنة ١٩١٦م. وقام فيها بتدريس الفقه وأصول الفقه، فتخرج عليه الثقات الكفاة الذين تقلدوا

مناصب القضاء، والإفتاء، أذكر منهم الشيخ فرج السنهورى، والشيخ حسنين مخلوف، والشيخ حسن مأمون. والشيخ علام نصار، وغيرهم كثير.

وولى بعد المدرسة منصب القضاء الشرعى، فكان القاضى الفاضل الذكى البصير بالأحكام ومكايد الخصوم، الصادع بالحق، الناطق بالفصل، وكان أخوه الشيخ أحمد حمروش قاضيًا، وكذلك كان عمه الشيخ عبد الحميد حمروش قاضيًا، فهو من أسرة تأثل فيها هذا المنصب الرفيع. ولقد عرفه فى ساحة القضاء الشيخ المراغى رحمه الله، فلما ولى مشيخة الأزهر نقله إلى الأزهر يستعين به فى أمره، فكان له فى الأزهر اليد الطولى فى شؤونه، وتقلب فى مناصبه حتى صار شيخًا لكلية اللغة العربية فى ١٣ يونية سنة ١٩٣١م.

وتوج حياته العلمية فى الأزهر بدخوله فى جماعة كبار العلماء فى ٢٨ من صفر سنة ١٣٥٣هـ (١٠ من يونية سنة ١٩٣٤م). وقد قدم لنيل هذه الدرجة رسالة جليلة فى «عوامل نمو اللغة» تدل على تحقيق ودقة نظر فيما تناول من المسائل، يقول فى مقدمتها:

«وبعد: فإن اللغة العربية بفضل عواملها المتعددة رحب صدرها، واتسع نطاقها، وكثرت مادتها، وتنوعت أبنيتها، وصار لها جمال المنطق وجلال الدلالة وحسن الديباجة ولطف العبارة، وقد وسعت بتلك العوامل علوم اليونان والفرس وغيرهما؛ وصارت لغة العلم والدين».

«وقد كتبت كلمة فى التوليد بالزيادة والإبدال والقلب والاشتقاق والترادف والاشتراك والمجاز والنحت والارتجال والتعريب».

وأذكر هنا مبحث للتعريب فى ختام الرسالة ليكون نموذجًا لمباحثها. وعنوان البحث: «أثر التعريب»: «فى التعريب زيادة مادة اللغة بالألفاظ الدخيلة فيها، وقد أجرت العرب على بعضها أحكام الألفاظ العربية من القلب والاشتقاق وغيرهما، وقد جرى العلماء على تسمية ما أدخله العرب بالمعرب، إلى أن اختلطت العرب بغيرها وفسدت اللغة وما أدخله غير العرب بعد فساد اللغة والاختلاط بالأعاجم سموه مولدًا، وهناك قسم آخر يسمى بالعامى، وهو ما أخذ من غير مادة عربية، أو من مادة عربية ولكن بتحريف وتبديل لا تجيزه قواعد اللغة.

«بقى الكلام الآن فى أمر هو محل نزاع الباحثين ومواضع اهتمامهم، وهو أن المعانى الجديدة، والمستحدثات العصرية كثرت وتعددت بعد أن وقف التعريب، وأصبحت اللغة العربية لا تنهض بالدلالة على تلك المعانى ولا تقوم بحاجة التعبير عنها، فهل للموجودين أن يعربوا ألفاظ المعانى والمستحدثات تمشيًا مع الحاجة، ودفعًا للضرورة ورفعًا لعيب نقص اللغة العربية عن الاضطلاع بحاجة أبنائها»؟.

«ذهب فريق إلى التعريب، وقال: إن اللغة كائن حى كسائر الموجودات وكل موجود حى يتدرج فى الرقى، وكما تدرج أهل اللغة يجب أن تتدرج اللغة، وإن التعريب يؤدى إلى اتحاد لغة العلم، ويحفظ للمخترع اسمه، ويبقى له ذكره».

وذهب فريق إلى أنه لا حاجة إلى التعريب وأن اللغة العربية يمكن أن تنهض بالدلالة على المعانى الجديدة باتخاذ الوسائل المؤدية إلى ذلك، فعندنا مهجور فى اللغة لا يستعمل الآن، وبنقله إلى المعانى الجديدة يقوم بالدلالة على بعضها ويتداول بين الناس فتحيا به اللغة العربية. وعندنا المجاز، وهو يدل على غير الموضوع له بواسطة العلاقة والقرينة وعلاقاته كثيرة متعددة، وعندنا المشتق، ومنه قسم مطرد».

«وبهذه الوسائل يمكن للغة العربية النهوض بالدلالة على المعانى الجديدة».

«وعلى أن فى التعريب فشو الكلمات الدخيلة فى اللغة، وهو يودى باللغة الفصيحة، ويذهب بجمالها ورونقها. وفى ضياع اللغة الفصيحة تعطيل الأداة الصالحة لفهم القرآن والحديث، وهما عماد الدين وإليهما يرجع المسلمون».

«وفى جواز التعريب ضياع أخص مميزات الجنس العربى؛ لأن الجامعة الجنسية لا تكون بغير اللسان العام الذى يتفاهم به الجميع على السواء. فلو تساهل كل شعب فى استعمال ألفاظ أعجمية لضاعت روابط الجنسية، وأصبح لكل شعب لسان خاص».

وأما أن التعريب يوحد لغة العلم ويحفظ للمخترع اسمه فكلام لا يلتفت إليه؛ فإن اتحاد لغة العلم إنما يكون إذا اتحدت أبجديات الأمم وهى مختلفة جدًا. وحفظ اسم المخترع لا نبالى به إذا كان فى عدم الالتفات إليه صيانة اللغة العربية».

«هذا حاصل كلام الفريقين باختصار. وأرى أنه إذا أمكن باتخاذ الوسائل المتقدمة أو باتخاذ وسائل أخرى غيرها أن تنهض اللغة العربية للدلالة على جميع المعانى والمستحدثات العصرية، فلا نقدم على التعريب حفظًا للغتنا العربية التى هى أداة فهم القرآن والحديث اللذين هما أساس الدين وعماده. وإن لم يمكن أن تقوم اللغة بعد اتخاذ الوسائل بالدلالة على جميع المعانى أقدمنا على التعريب بقدر الحاجة فقط، مع المحافظة على اللغة الفصحى، بأن نذكر اللفظ ونذكر بجانبه معناه، وأنه مما عرب للدلالة عليه، ونبين تاريخ التعريب، فيكون ما وضعه المتقدمون معروفًا، وما ألحق باللغة معروفًا، فتتحقق المحافظة على الموروث عن السلف».

وأرانى قد ألممت ببعض حياته فى الأزهر، وسألم ببعض حياته فى المجمع.

دخل الشيخ -رحمه الله- المجمع لأول نشأته فى سنة ١٩٣٤م فاختير فى معظم لجانه، وشارك فى بحوثه، وكان من الرعيل الأول الذين أرسوا قواعد المجمع وأقاموا عمده. وكان له فيما يعرض فى اللجان ومجلس المجمع ومؤتمره الرأى السديد والبصر النافذ واللحظ الناقد والبحوث المستفيضة فى الشؤون العلمية.

ومن آرائه أن اللفظ المولد إذا اشتهر يستعمل فى غير اللغة والأدب.

وعرض المجمع فى بعض جلساته لرسم المصحف وطلب إلى الشيخ أن يكتب رأيه، فكان رأيه الوقوف عند الرسم المعهود له، ولا ينبغى كتابته بالرسم العادى: لأنه عرضة للتغيير والتبديل فى كل عصر، فلو أبيح هذا لتعدد رسم المصحف، وكان مظنة لأن يعزى إليه الاختلاف فحفظ القرآن وصونه يقضى بإبقاء رسمه على الكتبة الأولى.

وقدم أحد الأعضاء المراسلين بحثًا فى كلمة «الضرر» رأى قصره على الزمانة وفقد البصر وأنه مصدر لفعل لازم على زنة فرح، وإن لم يجىء هذا الفعل فى المعاجم، وأنه لا يقال: أصاب فلانا الضرر فى ماله أو فى حميمه مما ليس بداء لازم وخطأ جوهرى فى جعله الضرر اسمًا بمعنى الضسر، وارتاب فى الحديث: لا ضرر ولا ضرار، وأثار مسألة الاحتجاج بالحديث فى اللغة فقدم الشيخ بحثًا رد به حجج هذا الباحث وأورد من الشواهد ما لا يقبل الجدل؛ كقول جرير:

فإن تدعهم فمن يرجون بعدكم ... أو تنج منها فقد أنجيت من ضرر

وقول أبى تمام:

لو كان فى البين إذ بانوا له دعة ... لكان فقدهم من أعظم الضرر

وله بحث قيم فى التضمين ونيابة بعض الحروف عن بعض، وبحث فى الاشتقاق الكبير.

وكان الشيخ -رحمه الله- عجيب الاستحضار لما يقرأ ويسمع، كثير المحفوظ من الشعر، حسن الاستشهاد به فى المقامات المناسبة، جرى مرة فى لجنة الأصول الحديث فى التضمين، وأنكر بعض الحاضرين أن يضمن فعل متعدّ معنى فعل آخر متعد، فقال الشيخ: أذكر قول الشاعر:

علفتها تبنا وماء باردًا.

وقد قال اللغويون:

إن علف هنا مضمَّن معنى أطعم، وكلاهما متعد.

وكان بيته محجة أولى العلم ينهلون من مورده العذب، ويجدون ما طاب من حديث فى دقائق العلم ممزوجًا بفكاهة حلوة وطيب سمر، وكان الشيخ طيب النفس بعيدًا عن التزمت مؤنسًا للجليس لا يمل مجلسه. وفى يوم الجمعة الذى توفى بعده اجتمع الشيوخ عنده عقب صلاة فجرى البحث فى تفسير قوله تعالى: «إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض». وأفاض الشيخ فى الحديث فيها، وكان الشيخ يفسح الكلام لمن يتكلم ويعقب برأيه السديد.

ولقد طويت صفحات خالدة من تاريخ الأزهر الحديث بوفاة الأستاذ الأكبر الشيخ إبراهيم حمروش شيخ الأزهر الأسبق، فقد عاصر رحمها الله مدرسة محمد عبده فى الإصلاح الدينى، واشترك فى نشاطها، وكان أحد أقطابها، وكان الإمامان المراغى وحمروش يمثلان عنصر الشباب فى هذه المدرسة التى تتجه بكل كفاحها إلى خلق بيئة دراسية مستقرة فى الأزهر، وتكوين أجيال من الشباب المثقفين ثقافة واسعة تحيط بشتى علوم الشريعة والعربية، وتتمثل فيهم رسالة رجل الدين الروحية والعلمية.. وكان حمروش يمثل الجانب العلمى لهذه المدرسة خير

تمثيل، فى دروسه وهو شاب مكافح، وفى توجيهه للتعليم فى الأزهر وهو فيه مفتش، فشيخ معهد، فعميد لكلية اللغة، وعضو فى جماعة كبار العلماء، فرئيس للجنة الفتوى، وفى ندواته الليلية الدائمة فى منزله فى القلعة، وقد كان كعبة العلماء والمفكرين، حيث كانت تعرض أمامه مشكلات الدين والثقافة فيفتى فيها برأى سديد، وحكمة نافذة، تعد خير توجيه لرواد مجلسه، ولم تحل مهامه الإدارية حين تولى مشيخة الأزهر الشريف فى أكتوبر عام ١٩٥١ حتى نوفمبر عام ١٩٥٢ وبين عقد هذه الندوة كما كانت من قبل.

وكان منزل حمروش مفتوحًا دائمًا للناس ولمختلف طبقات الشعب يستفتونه فى مشكلاتهم الروحية، ويطلبون معاونته فى مصالحهم الشخصية، وهو يبتسم دائمًا لا تعرف «لا» طريقًا إلى لسانه.

وقد اختير حمروش عضوا فى المجمع اللغوى منذ أن نشأ واشترك فى نشاطه اللغوى الكبير، وأسس كثيرًا من لجانه، ووجه أعمال المجمع وجهة تفيد العرب وتراثهم ولغتهم والثقافة العربية العامة.

لم يترك حمروش كتبًا مطبوعة، وإن كانت له كتب مخطوطة لم تطبع بعد. إنما ترك أفكارًا قيمة فى نفوس تلاميذه ومريديه، وجميع علماء الأزهر اليوم وشيوخه من تلاميذه ومريديه، وترك منهجًا علميًا يستضاء به دائمًا فى إصلاح الأزهر، وترك ذوقًا علميًا يستفاد منه فائدة جلى، وترك مع ذلك كله قدوة طيبة تعد خير نبراس يرشد إلى الحق والخير والعزة والغيرة على الدين وعلى الوطن وعلى المبادئ المثلى التى دعا إليها الإسلام وكتابه الحكيم.

وقد كان حمروش رحمه الله مثالاً للوطنية النزيهة لم يحن رأسه للطغاة، ولم يتملق أحدًا فى حياته كائنًا من كان، وسار فى الصفوف الأولى مع الشعب فى المظاهرة الوطنية الكبرى فى نوفمبر ١٩٥١ احتجاجًا على جيش الاحتلال وأعماله فى منطقة القنال.. حقًا لقد كان مثالاً عظيمًا، وعنوانًا كريمًا لرجل الدين المعاصر وصفحة خالدة من تاريخ الأزهر الحديث.

وقال عنه الدكتور عبد الله سلامة:

دور الأزهر ودور علمائه الأجلاء فى رفع شأن الإسلام وحفاظه على لغة الضاد.. ثم نعود للحديث عن الإمام الرابع والثلاثين حيث حدث فى زمن توليته

مشيخة الأزهر وقبلها، أن قامت فئة تدعو لاستعمال اللغة العامية فى التدريس بدلاً من الفصحى، وفى هذا خطر داهم أراده الاستعمار. . وماذا كان دور الأزهر، وهذا سيكون فيه خطأ قاتل وتمزيق للأمة الإسلامية والعربية جمعاء، لأن اللغة العربية الفصحى هى اللغة الوحيدة والمفهومة لدى العرب والمسلمين فى كل الدنيا، ولقد ذكرنا فى التقديم السابق. . أن الأديان السابقة على الإسلام، لا تقرأ كتبها الأصلية إلا فى لغة البلد الذى ظهرت فيه، فإذا انتقل إلى بلد آخر عن طريق الدعوة، قرأت مترجمة إلى لغة هذا البلد، فمثلاً نجد الأشعار «البوذية» المسماة «بالسلات الثلاث»، لا يقرؤها أتباع هذه الملة فى الصين واليابان والهند وبورما. . إلا منقولة إلى لغة تلك البلاد. . وكذا التوراة، والإنجيل، وهما كتابان منزلان -لا يقرآن فى العالم المسيحى- إلا فى لغة كل قطر من أقطاره!! لذلك ظل تأثيرهما فى الآداب الأخرى ضئيلا حتى ترجما إلى اللغة اللاتينية، والتوكونية القديمة، ظهر أثرهما قويًا فى الآداب الأوروبية. . وليس كذلك الحال فى «القرآن الكريم» فإن المسلمين اعتقدوا اعتقادًا جازمًا. أن اللغة العربية -جزء من حقيقة الإسلام- لأنها كانت ترجمانا لوحى الله، ولغة لكتابه، ومعجزة لرسوله، ولسانا لدعوته. ثم إن الرسول عليه السلام دعمها وهذبها بحديثه، ونشرها الدين الإسلامى بانتشاره، وخلدها القرآن الكريم بخلوده، فالقرآن لا يسمى قرآنا إلا فيها، والصلاة لا تكون صلاة إلا بها، مهما تكن لغة المصلى. . لذلك سارع العرب والعجم إلى تعلمها. والتكلم بها والتأليف فيها،والتعصب له والدفاع عنها، والدعوة إليها، حتى حلت محل الفارسية فى العراق، والرومية فى الشام، والقبطية فى مصر، والبربرية «فى المغرب»، وأصبحت فى عصر نبى -عصرها الذهبى- لغة الدين والأدب والعلم والسياسة إلخ، وأصبح المسلم على اختلاف جنسيته ينتقل من قطر إلى قطر فى عالمه الإسلامى. كما ينتقل من قرية إلى قرية فى وطنه الأصلى، ولا يجد مشقة فى التفاهم، ولا صعوبة فى التعامل، ولا فى المعيشة. ثم انشغل المسلمون عربهم وعجمهم بالقرآن، وفرغوا له، فكان دعاؤهم فى المسجد، ونظامهم فى البيت، ومنهاجهم فى العمل، ودستورهم فى الحكومة، فسرى هديه فيهم مسرى الروح، وأثر فى أفئدتهم، وألسنتهم وأنظمتهم تأثيراً لم يؤثره كتاب سماوى آخر فى أهله.

ومن هنا نرى أن ثقافة الإسلام قائمة على ركنين أساسين، هما الدين بعلومه، واللغة بفنونها المعروفة، وهذا الركنان يشد أحدهما الآخر، فالإسلام بغير العربية يصبح مبهما وضحلا، والعربية من غير الإسلام تنكمش وتزول، وكذا اللغات الأخرى، مثل «السامية» مرتبطة ببقائها للدين، واللغة «العبرية» مرتبط بقاؤها بالدين «اليهودى» ولولا الإسلام ما بقيت العربية، ولكن الفرق كبير بين بقاء اللغة العربية، وبقاء السريانية والعبرية. وهو الفرق بين الروح والجسد. أو بين العين والأثر.

والأزهر هو وارث النبوة، وحامى العقيدة، وناشر الدعوة، ولا يمكن أن تقوم رسالته إلا على هذين الركنين.. ولقد أدى الأزهر رسالته هذه: بتوفيق من الله. تأدية أحلته من العالم الإسلام كله محل الزعامة والريادة.

ونعود للحديث عن الإمام الرابع والثلاثين للأزهر الشريف، وهو الإمام الشيخ إبراهيم حمروش.

«نسبه وبيئته ونشأته، وتوليته للمشيخة» هو الإمام الفاضل والفقيه العالم، والإمام المصلح -فضيلة الشيخ إبراهيم حمروش.

ولد فى العشرين من شهر ربيع الأول سنة ١٢٩٧هـ (١٠ مارس سنة ١٨٨٠م» فى قرية «الخوالد» التابعة لمركز إيتاى البارود- من أعمال محافظة البحيرة، وقد ولد فى بيت عز وشرف وعلم، وفى قريته حفظ القرآن الكريم وختمه وهو فى الثانية عشرة من عمره، كما ألم ببعض العلوم المؤهلة لدخول الأزهر، فأرسله والده للأزهر، وكان والده رحمه الله- تقيا ورعا، مستمسكا بشعائر الدين، فكانت وصيته لابنه حين ودعه.. بأن يلتزم بأداء الصلاة لأوائل وقتها، لأن التسويف قد يكون وسيلة للتمهل، ثم التهاون، ثم الإهمال، وقد التزم الشيخ بوصية أبيه طيلة حياته، فكان يقوم للصلاة بمجرد سماع الأذان.

ونشأ متفتح الذهن، ومتعدد المواهب.. حيث تتلمذ على أيدى أساتذة أجلاء انتفع بعلمهم، وثقافاتهم، وتجاربهم، وأخلاقهم، فقد درس الفقه الحنفى على «الشيخ أحمد أبى خطوة» واختص به، وكان موضع إعجابه وثنائه، وأخذ عن العالم

الكبير «الشيخ محمد بخيت» كما درس النحو والصرف على يد «الشيخ على الصالحى» كما لزم الإمام «محمد عبده» فأخذ عنه علوم البلاغة وأسرارها. «والبصائر التعبيرية» ودرس علم المنطق -لابن سلامة، كما تمسك بشجاعة كبرى فى إصلاح منهاج الأزهر، ومناهج -النهضة الاجتماعية والسياسية لتقدم الشعوب الإسلامية.

كما انفرد بموهبته فى العلوم الرياضية، جعلته يقبل على هذه العلوم بالدرس والتحصيل، وقد فاز فى امتحانات العلوم الرياضية أكثر من مرة.. والتى كانت تعقد على مستوى الدولة، وفى سنة ١٩٠٦م، ١٣٢٤هـ تقدم لامتحان الشهادة العالمية «الدكتوراة» وكان صغير السن بالنسبة لأقرانه، وتعرض «الشيخ حمروش» لامتحان دقيق عسير ظل مضرب المثل مدة طويلة، وفاز فيه بالدرجة الأولى عن جدارة واستحقاق، لأنه جمع بين الصلاح والتقى والجحة، وقد فتحت هذه الشهادة أمام الشيخ «حمروش»، أبواب الوظائف المرموقة، وكان من علماء الحنفية، بدأ حياته العملية مدرسًا بالأزهر سنة ١٩٠٦م ولما تم فتح مدرسة «كلية» القضاء الشرعى، وكان يختار أساتذتها من صفوة العلماء المبرزين بالأزهر. فاختير فى سنة ١٩٠٨م للتدريس فى كلية القضاء الشرعى، مدرسًا لمادة الفقه وأصوله، وتخرج على يديه صفوة ممن لمعوافى مناصب القضاء، وتركوا آثارا علمية قيمة، منهم «الشيخ حسن مأمون شيخ الأزهر -والشيخ علام نصار المفتى» وغيرهم كثير، ثم عين قاضيا شرعيًا، فشيخًا لمعهد أسيوط الدينى فشيخًا لمعهد الزقازيق الدينى، فمفتشا فى الأزهر، ولما أنشئت الكليات عين عميدا الكلية اللغة العربية، فعميدا لكلية الشريعة، وفى سنة ١٩٣٢م عين رئيسًا للجنة الفتوى، وأصدر عددا من الفتاوى القيمة، مع احتفاظه بعمادة كلية اللغة العربية. وفى العاشر من يونيه ١٩٣٤م نال عضوية جماعة كبار العلماء، برسالة عنوانها «عوامل نمو اللغة»، وهى رسالة قيمة تدل على اطلاع واسع وبعد دقيق، ومنح كسوة التشريفة من الدرجة الأولى فى مارس ١٩٣٦م وكان عضواً بارزاً فى «مجمع اللغة العربية» منذ أنشائه- مشتركًا فى معظم لجانه، وكان يرجع إليه عندما تعرض كلمة لغوية يحار فيها.. إلا وكان له فيها الرد الحاسم والفاصل، وشهد الجميع له بأنه لم ينقطع عن البحث والدرس. فما نظره أحد يومًا إلا وجده عاكفًا على القراءة، حاملا بين يديه

دائمًا.. الكتب والمعاجم للبحث والدرس، فى اللغة والفقه وغير ذلك. كان يتمنى الصحة ليواصل البحث والدرس، معتزا برأيه، متمسكًا بما هداه إليه فكره، ولا يهتم بما يحرص عليه غيره، من جاه ومال.

والشيخ حمروش يحفظ ثروة واسعة من الأدب العربى، ويبدو هذا واضحًا فى حديثه العادى.. فهو لا يكاد يحدثك فى أمر من الأمور، إلا ويردد بيتا من الشعر، أو حكمة يستشهد بها فى حديثه، وهو إدارى من الدرجة الأولى. محدث لبق، كاتب مجتهد، علم من أعلام اللغة، فى الوقت نفسه، تجد فيه نزعة صوفية، فهو محب لآل بيت رسول الله ﷺ كثيرًا الإجلال لذكراهم، متوكلا على الله فى جميع أموره!! وعلى الرغم من أنه كان لا يميل للسياسة، فإن مواقفه الوطنية كانت من الصلابة والقوة إلى أبعد حد.. خاصة فى كل ما يتعلق بمستقبل الوطن والأمة، فكان يتقدم الصفوف فى جرأة بالغة، وشجاعة نادرة، متحديًا جميع سلطات الاحتلال الإنجليزى حينذاك، معتزا بربه متعلقًا بوطنه.. كما سنشير لذلك فيما بعد.

توليته المشيخة:

بعد هذه الحياة المليئة والمشحونة بالأعمال المهمة، صدر قرار رسمى. بتعيين الشيخ إبراهيم حمروش، شيخًا للأزهر فى تاريخ ٣٠ من ذى القعدة سنة ١٣٧٠هـ الموافق، ٢ سبتمبر سنة ١٩٥١، وكان أول عمل قام به وتوجه إليه، هو إنهاء الخلاف حول ميزانية الأزهر، فقد تمسك بزيادة الميزانية، وإعادة الدرجات التى سلبت منها، مع أن البلاد كانت تمر بمحن قاسية، واشتداد ضغط الاستعمار الإنجليزى على مصر، فتقدم -الشيخ حمروش- لأداء واجبه الوطنى، فدعا إلى توحيد الصفوف، وأصدر بيانا رسميا حماسيًا، يدعو فيه الأمة إلى الوحدة والجهاد، فى سبيل السيادة والحرية والاستقلال. ولما اعتدى الجيش الإنجليزى على رجال الشرطة المصرية فى الإسماعيلية وحاصر مقرهم، وقتل العشرات منهم، فشارك الإمام حمروش الشعب فى غضبه، وأصدر باسم الأزهر، علمائه وطلابه ورجال إدارته، بيانا قويًا شجاعًا.. شجب فيه هذا الاعتداء الغاشم من الإنجليز، وحث العالم كله على التنديد بظلمهم وبغيهم[1].

(١) صوت الأزهر: د. عبد الله سلامة نصر ص١ ١٢، ١٤/٣/٢٠٠٨.

كما أكد للمستعمرين: أن الشعب المصرى لن يقف مكتوف الأيدى أمام هذه الاعتداءات، بل سيقاومها فى صلابة وجرأة، حتى يحرر أرضه وعرضه، ويسترد حريته، باذلا دماءه ودماء أبنائه، وأرواح رجاله ونسائه معا، ولم يكن هذا هو البيان الأول والأخير، فى المناسبات الوطنية التى شارك فيها الإمام أبناء وطنه، وإنما كانت له بيانات أخرى كثيرة.. هذه المواقف أغضبت سلطات الاحتلال، وجعلتهم يطلبون عزله، فأعفاه الملك فاروق -من منصبه فى ١٩٥٢/٢/٩م قبل قيام ثورة يوليو بشهور قلائل، ومما يذكره له التاريخ، أن الإمام المراغى كان يعتمد عليه فى مشيخته الأولى، فى إعداد المناهج الإصلاحية فى الأزهر، ولقد مرت فتن سياسية، وأعاصير هوجاء.. كان الطلبة يسلكون فيها بعض الرعونة والشطط. فكان يعالج الأمر بالحزم مع الكياسة، ويخلط الشدة باللين فيعود الطلبة طوع يديه، يأتمرون بأمره، ويقفون فى المكان الذى يريد. وفى الخامس عشر من يناير سنة ١٩٥١، ألقى الشيخ حمروش بيانا خطيرا ناشد فيه المصريين، قال فيه: «أيها المصريون.. أتوجه إليكم فى هذه الظروف التى غشيتكم فتنتها وأصابتكم شدتها، أن تكونوا إخوانا متحابين.. رائدكم الإخلاص لبلادكم، وأنفسكم ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم، وإن شر ما تبلى به الأمم فى محنتها، أن تتفرق كلمتها، وأن تنحل وحدتها، وتتقطع أواصر المودة بين جماعاتها فيشق العدو الطريق إليها، وينفذ بسهامه إلى صدور أبنائها»، إنها عبارات حماسية فى منتهى البلاغة وأقوى تعبيرا من رمى الرصاص فى وجوه الأعداء من أجل تحرير الوطن، من المستعمر الغاشم. وهذا يدل على جرأته وشجاعته، وإن النيل من الإنجليز والوقف ضدهم، ومواجهتهم بالغليظ من القول فى ذلك العهد، لم يكن من السهولة بمكان، ولا يقاس لأن الزمام فى أيديهم، وهو أصحاب العتاد والقوة والسلطان فى أيديهم وهو الملك. وأعوانه.

وإن كل من يريد أن يبقى فى منصبه ومتمسكا به، فعليه أن لا يهاجم الإنجليز أو الملك، أما من يريد الحق، والشيخ يريده.. ولهذا لم يؤثر زينة السلطان وجلاله الكاذب، فوقف ضد الإنجليز ولم يبال بالمنصب ولا بغيره وطلب إعفاءه. وإن الزمن الذى لبثه فى المشيخة قليل، ولكن الأعمال التى قام بها فى الأزهر كانت كثيرة جداً.

آثاره العلمية وتأثيره، ومصنفاته والتراث العلمى للشيخ «حمروش» واسع.. فقد سبق وذكرت أنه كان يمارس الكتابة فى الصحف والمجلات، وكانت له عشرات المقالات فى الإذاعة، ومحاضراته فى المحافل والمناسبات العامة.. وكان المثقفون يحرصون كل الحرص على الاستماع إلى هذه المحاضرات -هؤلاء المثقفون كانوا من مختلفى الطبقات والفئات الشعبية والخاصة من العلماء والأدباء. وذلك لأن الشيخ كان فصيح العبارة، لطيف الإشارة، طلق اللسان، لبق البيان.. والملاحظ أن تخصصه الأول كان فى اللغة العربية وآدابها، وكان له الباع الطويل فى الرأى إذا اختلفت الآراء، والقول إذا اختلفت الأقوال. وإن رسالته التى قدمها لنيل عضوية «جماعة كبار العلماء»، بعنوان: عوامل نمو اللغة -ففى هذا البحث أرخ العنان لمواهبه المصقولة، واستعداده المتفتح، وتمكنه الواسع من اللغة نثرًا وشعرًا- فأجاد وأفاد، وأعاد إلى الدنيا كبار اللغويين، من أمثال: «سيبويه، والأصمعى، وابن جنى، وغيرهم» من الذين أمسكوا بمقاليد اللغة العربية. وإتماما للفائدة نشير إلى مقتطفات ذكرها فى مقدمة بحثه «عوامل نمو اللغة»، وما تناوله فيه من المسائل حيث قال:

١- «وبعد فإن اللغة العربية بفضل عواملها المتعددة، رحب صدرها، واتسع نطاقها، وكثرت مادتها، وتنوعت أبنيتها، وصار لها جمال المنطق، وجلال الدلالة: وحسن الديباجة، ولطف العبارة، وقد وسعت بتلك العوامل: علوم الفرس، وعلوم اليونان، وغيرهما وصارت لغة العلم والدين».

٢- وكتب فى موضوع «التوليد» وما يترتب عليه من زيادة وإبدال وقلب واشتقاق، وترادف فى الألفاظ، ونعت وإرتجال إلخ. ثم بحث آخر تحت عنوان.

٣- «التعريب»، قال: فى التعريب زيادة مادة اللغة بالألفاظ الدخيلة فيها، وقد أجرت العرب على بعضها أحكام الألفاظ العربية من القلب والاشتقاق وغيرهما، وقد جرى العلماء على تسمية ما أدخله العرب- بالمعرب- ومع الزمن واختلاط العرب بالأعاجم وفسدت اللغة، وما أدخله غير العرب -أدخله العرب- تحت مسمى «مولدا»، وهناك قسم آخر يسمى: بالعامى: وهو ما أخذ من غير مادة عربية -أو حرف وبدل فيه، ولا تجيزه قواعد اللغة».. هذا نموذج

من البحث، ذكره الشيخ حمروش -وأبحاثه وهى مـهمة جدًا، يدور أغلبها حول اللغة العربيـة والنهوض بها، وقال: إن انتشار الكلمـات الدخيلة فى اللغة، تؤدى إلى فساد الفصحى ويذهب بجمالها ورونقها، وفى ضياع اللغة الفصيحة. تعطيل الأداة الصالحة لفهم لغة -القرآن الكريـم- والحديث الشريف، وهما عماد الدين، ومن ناحية أخرى لو أجزنا «التعـريب» سيضيع أخص مميزات الجنس العربى، لأن لكل بلد لهـجة عامـية، لا تفـهمـها البلد الأخرى، ولا يـربط بينهمـا إلا اللغة الفصحى، ولو حدث تساهل لضـاعت الروابط، وأصبح لكل قبيلة أو بلد لغة لا يفهمها الآخر.

٤- ولقد دخل الشيخ حمروش -مجمع اللغة العربية، منذ نشأته سنة ١٩٣٤م، واختير فى معظم لجانه، وشارك بأبحاثه، وأرسى قواعده.

٥- ومن آثاره العلمـيـة المهمـة جدًا.. أنـه طرأ للمجـمع فى بعض جلسـاته مـوضوع.. رسم خط المصـحف العـثمـانى، حيث أريـد أن يكتب بغيـر «الخط العثمانى».

* وطلب من الشـيخ أن يكتـب رأيه، فكان رأيه وجـوب الوقـوف عند الرسم المعهود له وهو.. «الخط العـثمانى»، ولا ينبغى كتابته بـالخط العادى، لأنه عرضة للتبديل والتغيير فى كل عـصر، فلو أبيح هذا التعدد. لأصبح مظنة لأن يدخل فيه الاختلال. فحفظ القرآن وصونه، يقضى بإبقاء رسمه على كتابته الأولى.

٦- وله بحث فى «التضمين» ونيابة بعض الحروف عن بعض.

٧- بحث فى الإشتقاق الكبير، وكان الشيخ -رحـمه الله- عجيب الاستحضار لما يقرأ أو يسمع، كثير المحفوظ من النثر والشعر.

٨- ولا ننسى أن مجلة «المجمع اللغوى» نشرت له فصولاً عدة، ودراسات قيمة يمكن أن تكون كتابا.

٩- كما أن له مقالات وأبحاث عديدة نشرتها الصحف، يمكن أن تؤلف كتابا.

١٠- إضافة إلى أن بيته كان محجة لأهل العلم والفكر والأدب، ينهلون من مورده العذب، ويسمعون ما طاب من أجود الأحاديث، فى أدق العلوم والمناهج، ممزوجًا بفاكهة حلوة، وطيب سمر. كما هى عادته دائمًا.

وفاته:

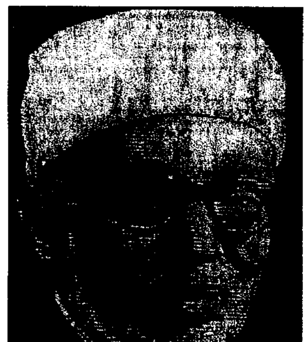
كان رحمه الله -عطوفًا على ذوى الحاجات، يسعى فى اقتضاء حاجاتهم، بما لديه من جاه عند أولى الأمر، لا يدخر وسعا فى سبيل ذلك. والمعروف عنه، أنه رعى أسرا فقيرة عضها الدهر بأنيابه، وأناخ عليها الدهر بكلكله حتى استقام أمرها، وبان رشدها.. وإن الأزهر، ومجمع البحوث ليبكيان فيه الصلاح والتقى، والعلم الغزير والفضل الجم، لأنه كان -رحمه الله- طيب النفس، بعيدا عن التزمت، ولقد لبى فضيلة الشيخ «حمروش» نداء ربه الكريم فى يوم الجمعة فى الرابع عشر من نوفمبر سنة ١٩٦٠ فرحمه الله رحمة واسعة، وأسكنه فسيح جناته، وجازاه الله مجازاة الصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقا - وسلام عليه يوم ولد ويوم مماته ويوم يبعث حيا. وهكذا دائمًا نرى.. أن موت الأمة. فى موت العالم(١).

❁❁❁

---

(١) صوت الأزهر: د. عبد الله سلامة نصر ص ١٢، ٢١/٣/٢٠٠٨.

٣٥- الإمام الأكبر الشيخ محمد الخضر حسين



عين الشيخ الخضر حسين شيخًا للأزهر فى يوم الأربعاء ٢٧ من ذى الحجة ١٢٧١هـ- ١٧ سبتمبر ١٩٥٢م.

وكان أحمد تيمور فى مقدمة الذين قدروا فضيلة الأستاذ الشيخ محمد الخضر حسين شيخ الجامع الأزهر السابق حين قدم مصر من أكثر من ربع قرن -وقد عثر السيد خليل ثابت رئيس لجنة نشر المؤلفات التيمورية بين آثار العلامة أحمد تيمور على ترجمة لحياة الشيخ محمد الخضر حسين -هذا نصها:

ولد بمدينة نفطة بالقطر التونسى فى ٢٧ رجب سنة ١٢٩٣ واشتغل بالعلم وحفظ القرآن الكريم وقرأ بعض الكتب الابتدائية فى بلده، وفى آخر سنة ١٣٠٦ رحل مع أبيه وأسرته إلى القاعدة التونسية فاشتغل بالطب ثم دخل الكلية الزيتونية سنة ١٣٠٧ فقرأ على أشهر أساتذتها وتخرج عليهم فى العلوم الدينية واللغوية ونبغ فيها وفى غيرها، فطلب لتولى بعض الخطط العلمية قبل إتمام دراسته فأبى وواظب على حضور حلقات الأكابر مثل الشيخ عمر ابن الشيخ والشيخ محمد النجار وكانا يدرسان التفسير والشيخ سالم بو حاجب وكان يدرس صحيح البخارى.

ثم رحل إلى الشرق فى سنة ١٣١٧ ولكنه لم يبلغ طرابلس حتى اضطر إلى الرجوع بعد أن أقام بها أيامًا فلازم جامع الزيتونة يفيد ويستفيد، إلى سنة ١٣٢١هـ، فأنشأ فيها مجلة -السعادة العظمى- ولاقى فى سبيل بث رأيه الإسلامى ما يلاقيه كل من سلك هذا السبيل. وفى سنة ١٣٢٣ ولى القضاء فى مدينة بنزرت والتدريس والخطابة بجامعها الكبير، ثم استقال ورجع إلى القاعدة التونسية، وتطوع للتدريس فى جامع الزيتونة، ثم أحيل إلى تنظيم خزائن الكتب بالجامع المذكور -وفى سنة ١٣٢٥ اشترك فى تأسيس جمعية زيتونية، وفى هذه

المدة جعل من المدرسين المعينين بالجامع المذكور. وفى سنة ١٣٢٦ جعل مدرسًا بالصادقية وكلف بالخطابة فى مواضيع إنشائية بالخلدونية، ولما قامت الحرب الطرابلسية بين الطليان والعثمانيين كان من أعظم الدعاة لإعانة الدولة ونشر بجريدة الزاهرة قصيدته الشهيرة التى مطلعها:

ردوا على مجدنا الذكر الذى ذهبا يكفى مضاجعنا نوم دها حقبا

ثم رحل إلى الجزائر فزار أمهات مدنها، وألقى بها الدروس المفيدة، ثم عاد إلى تونس وعاود دروسه فى جامع الزيتونة ونشر المقالات العلمية والأدبية فى الصحف.

وفى سنة ١٢٣٠ سافر إلى دمشق مارًا بمصر ثم سافر إلى القسطنطينية فدخل يوم إعلان حرب البلقان فاختلط بأهلها وزار مكاتبها، ثم عاد إلى تونس فى ذى الحجة من هذه السنة ونشر رحلته المفيدة عنها وعن الحالة الاجتماعية بها ببعض الصحف، ثم جعل عضوًا فى اللجنة التى ألفتها حكومة تونس للبحث عن حقائق فى تاريخ تونس، ثم ترك ذلك لما عزم على المهاجرة إلى الشرق فرحل إليه، ونزل مصر وعرف بعض فضائلها، ثم سافر إلى الشام، ثم للمدينة المنورة، ثم إلى القسطنطينية، ثم عاد إلى دمشق معينًا مدرسًا للغة العربية والفلسفة بالمدرسة السلطانية بدمشق، وبقى كذلك إلى أن اتهمه مدة الحرب العظمى جمال باشا حاكم سوريا بكتم حال المتآمرين على الدولة، واعتقله ستة أشهر وأربعة عشر يومًا ثم حوكم فبرىء من التهمة فأطلق سبيله فى شهر ربيع الثانى سنة ١٣٣٥، ومن شعره فى حبسه وكانوا حالوا بينه وبين أدوات الكتابة:

غل ذا الحبس يدى عن القلم كان لا يصحو عن الطرس فناما

هل يذود الغمض عن مقلته أو يلاقى بعده الموت الزؤاما

أنا لولا همة تحدو إلى خدمة الإسلام آثرت الحماما

ثم استمر على التدريس بالمدرسة بدمشق إلى أن دعى إلى القسطنطينية سنة ١٣٣٦. ثم هاجر إلى استنبول بعد عام وعمل محررًا بالقلم العربى بوزارة الحربية، ثم أرسلته الحكومة إلى ألمانيا للقيام بعمل سياسى وهو تذكير الأسرى هناك بظلم

فرنسا، ثم رجع إلى الشام فدرس الفقه بالمدرسة السلطانية العربية.. وبعد أن احتلت فرنسا الشام بعشرة أيام هاجر إلى مصر فى عام ١٣٢٩هـ. ثم نال الشهادة العالمية بالأزهر، وتولى التدريس بكلية أصول الدين والتخصص اثنتى عشرة سنة.

وتولى رياسة تحرير مجلة الأزهر ولواء الإسلام ورياسة جمعية الهداية الإسلامية واختير عضواً بهيئة كبار العلماء ١٩٥١، وهو إلى ذلك عضواً بمجمع اللغة العربية منذ أنشىء. وقد استقال فضيلته من المشيخة فى ٢ جمادى الأولى ١٣٧٣هـ- ٨ يناير ١٩٥٤م وتوفى رحمه الله فى ١٤ من رجب عام ١٣٧٧هـ.

وقد نعى الأزهر فى يوم الاثنين ١٤ رجب سنة ١٣٧٧ عالمًا إسلاميًا جليلاً ومجاهدًا من الرعيل الأول ممن أبلوا البلاء الحسن فى كفاح الاستعمار: الأستاذ الأكبر الشيخ محمد الخضر حسين شيخ الأزهر السابق ورئيس جمعية الهداية الإسلامية، عن نيف وثمانين عامًا قضى معظمها فى التدريس وفى الكتابة والتأليف وفى جهاد مرير فى شبابه دفاعًا عن حقوق غرب شمال أفريقيا وغيرهم من أقطار العروبة.

ولد الفقيد الجليل فى وطنه الأول فى بلدة «قفصة» من مقاطعة الجريد بتونس ونشأ فى بيت علم ينتمى أصله إلى الجزائر، وشرع فى طلب العلم فى بلدته ثم أتم تعليمه فى جامعة الزيتونة، وتخرج منها ومارس بعد تخرجه التدريس ثم القضاء، كما قام بإنشاء أول مجلة علمية أدبية بالمغرب، ثم رحل إلى تركيا، وأقام بها وقتًا قصيراً ثم حضر إلى دمشق حيث عين مدرسًا بمدرستها الثانوية الوحيدة يومذاك، -وكانت تعرف بمدرسة عنبر- وظل فى دمشق إلى أوائل الحرب العالمية، ثم رجع إلى استانبول فانتدبته الدولة العثمانية إلى برلين مع بعثة مؤلفة من كبار علماء شمال أفريقيا للاتصال بأبناء شمال أفريقيا ممن وقعوا فى أسر الألمان أثناء الحرب وبانتهاء الحرب عاد إلى دمشق مدرسًا فى نفس المدرسة وكان العهد عهد الحكومة الفيصلية الوطنية.

وكانت الحكومة الفرنسية قد حكمت عليه بالإعدام، لانضمامه إلى الدولة العثمانية ولذهابه إلى ألمانيا -كما مر ذكره- فما أن دخلت فرنسا سوريا حتى

غادرها جميع الأحرار من المجاهدين العرب وكان منهم الفقيد الشيخ الخضر فجاء إلى مصر حوالى عام ١٩٢٠م وظل فيها بعض الوقت مغموراً ثم عرف فضله ومكانته فعين أولاً مصححًا بدار الكتب المصرية.

وفى هذه الأثناء صدر فى مصر كتابان شهيران أحدث دويًا فى ذلك الوقت فى الأوساط الفكرية وهما كتاب «الإسلام وأصول الحكم» للعالم الأزهرى الشيخ على عبد الرازق وكتاب «فى الشعر الجاهلى» للدكتور طه حسين، ونظراً لما اشتمل عليه هذان الكتابان من آراء مضللة تصدى بعض كبار الباحثين للرد على كل منهما، وكان للمرحوم الشيخ محمد الخضر حسين فضل الرد على كلا الكتابين حينئذ حيث أفرد لكل منهما كتابًا مستقلاً كانا من خير ما كتبه الكاتبون فى هذا المجال[1].

وظل الفقيد يعمل مصححًا بدار الكتب بضع سنوات إلى أن منح شهادة العالمية الأزهرية ثم تعين مدرسًا بالأزهر، وكان ذلك فى عهد الشيخ المراغى.. وأخيراً تعين عضواً فى هيئة كبار العلماء وهو المنصب الذى أهله فيما بعد لأن يصبح شيخًا للأزهر.

وعقب تعيينه مدرسًا بالأزهر أنشأ جمعية الهداية الإسلامية بمصر وظل يرأسها ويرأس مجلتها إلى عهد قريب، كما كان أول رئيس تحرير لمجلة نور الإسلام وهى المجلة التى أصدرتها مشيخة الأزهر سنة ١٣٤٩هـ.

وللشيخ محمد الخضر حسين يرجع الفضل فى تكوين جمعية تعاون جاليات أفريقيا الشمالية فى مصر قبل حوالى عام ١٩٢٤م، وكان يرأس هذه الجمعية بنفسه، وهدفها رفع مستوى تلك الجاليات من الناحيتين الثقافية والاجتماعية.

غير أن هذه الجمعية لم تعش طويلاً، لأن استعماراً ثلاثيًا: إيطاليا وفرنسيًا وإسبانيا كان لها بالمرصاد فقضى عليها فى سنواتها الأولى.

وللفقيد الكبير عدا كتابيه السالفى الذكر، محاضرات ورسائل عديدة مطبوعة ومتداولة، وهو كاتب بليغ وله ديوان شعر مطبوع، وقد اشتهر بمقالاته وبحوثه فى كبرى المجلات الإسلامية.

---

(١) واسم الكتاب «نقض كتاب فى الشعر الجاهلى» فى الرد على كتاب الدكتور طه حسين: «فى الشعر الجاهلى».

وعندما صدرت مجلة لواء الإسلام لصاحبها الوزير السابق الأستاذ أحمد حمزة كان الشيخ الخضر يرأس تحريرها وظل بها إلى أن عين شيخًا للأزهر، ثم استأنف نشر مقالاته فيها بعد تنحيه من المشيخة، وآخر مقالاته فيها فى جزء رجب الأخير.

كما كان عضواً فى مجمع اللغة العربية بمصر منذ إنشائه قبيل الحرب العالمية الثانية.

وكتب الأستاذ أنور الجندى عن محمد الخضر حسين يقول:

«كان نظام التعليم فى المعهد الزيتونى من أسباب تنافس أصحاب المذهبين: المالكى والحنفى فى ميدان العلم، وقد أخرج جامع الزيتونة فقهاء يعتزون بعلمهم ويزهدون فى المناصب، أدركت من هؤلاء فقهاء وأساتذة بلغوا الغاية فى سعة العلم وتحقيق البحث، مثل عمر بن الشيخ، وأحمد بن الخوجة ومحمد النجار، ومن نظر فى فتاوى هؤلاء الأساتذة أو رسائلهم التى حرروا بها بعض المسائل العويصة، رآهم كيف يرجعون إلى الأصول والقواعد ومراعاة المصالح، ولا يقنعون بنقل الأقوال دون أن يتناولوها بالنقد والمناقشة.

ويدلنا التاريخ القريب على أن بعض رجال الدولة التونسية عندما اتجهوا إلى إصلاح الحالة السياسية أو العلمية أو الاجتماعية، وجدوا فقهاء يدركون مقتضيات العصر، ويعرفون كيف تسعها أصول الشريعة بحق، فكانوا يعقدون معهم بعض لجانهم، ويستنيرون بآرائهم مثل أساتذتنا: عمر ابن الشيخ، وسالم أبو حاجب، ومصطفى رضوان، وما زال الرسوخ فى الفقه، وربط الأحكام بأصولها، من مواضع عناية الأساتذة فى جامعة الزيتونة لهذا العهد، يشهد بهذا ما نقرؤه فى محاضراتهم ومقالاتهم التى تنشر فى الصحف التونسية والمصرية.

كانوا يدرسون الفقه بأنظار مستقلة، وآراء تستضىء بالأدلة ويتفاضلون فيها على قدر تفاضلهم فى العبقرية وسمو الهمة...».

لا شك كان محمد الخضر حسين علما من أعلام الفكر المغربى الإسلامى، مكافحًا وطنيًا، ومغتربًا فى سبيل الحفاظ على حرية الكلمة، وأقام كابن خلدون

بقية عمره فى مصر، ورقى فيها إلى أعلى المناصب، وعمل فى ميدانى الإصلاح الإسلامى والقياسى اللغوى، وعمل فى التدريس والصحافة والكفاح الوطنى، ولقد أتيح له أن يقاوم حركات التغريب بدعوته إلى إنشاء جمعية الشبان المسلمين، وكانت مجلته وقلمه من ألسنة الدفاع عن المغرب وقضاياه، ومعلمًا قويًا يستصرخ المشارقة حين يكشف لهم عن مؤامرات الاستعمار ويدعوهم إلى مقاومة التغريب والتجنيس والفرنسة، فهو منذ أقام فى مصر بعد الحرب العالمية الأولى يحمل هذه الرسالة، ويعمل فى كل هذه الميادين: الإسلام واللغة والكفاح السياسى.

وكان محمد الخضر حسين مستنيرًا متفتح الذهن، يدعو إلى الإصلاح على أساس قاعدة علمية واضحة، فهو يعتمد الرأى حيث يثبته الدليل، ويتقبل الحكم متى لاحت بجانبه حكمة، ويثق بالرواية، بعد أن يسلمها النقد إلى صدق الغاية.

ومن رأيه أن على العلماء قول كلمة الحق لأهل الحل والعقد دائمًا، وعدم التوقف عنها.

«لا ينبغى لأهل العلم أن يغفلوا عن سير أرباب المناصب والولايات، فمن واجبهم أن يكونوا على بينة من أمرهم، حتى إذا أبصروا عوجًا نصحوا لهم بأن يستقيموا، أو رأوا حقًا مهمًا لفتوا إليه أنظارهم، وأعانوا على إقامته.

ومن أدب العلماء أن ينصحوا للأمة فيما يقولون أو يفعلون، ويحتملوا ما ينالهم فى سبيل النصيحة من مكروه، وكم من عالم قام فى وجه الباطل فأوذى فتجلد للأذى».

وقد كانت حياة الخضر حسين رمزًا على هذا المعنى، معنى طلب الحرية والهجرة من بيئة الظلم، فقد فر من تونس ومن الشام ومن تركيا، وكان فراره ليحتفظ لنفسه بحقه فى الكلمة، يقول: «نشأت فى بلدة من بلاد الجريد بالقطر التونسى يقال لها «نقطة» وكان للأدب المنظوم والمنثور فى هذه البلدة نفحات تهب من مجالس علمائها، كان حولى من أقاربى وغيرهم من يقول الشعر، فتذوقت الأدب من أولى نشأتى. وحاولت وأنا فى سن الثانية عشرة نظم الشعر. وفى هذا العهد انتقلت أسرتى إلى مدينة تونس، والتحقت بطلاب العلم بجامع الزيتونة

«وكان ذلك عام ١٨٩٩ ، أحب أستاذه الشيخ سالم أبو حاجب الذى كان يحثه على البحث»، ويلاقى السؤال المهم بابتهاج، ويدعو للطالب بالتفتح يقول: «كان يقول الشعر مع كونه يغوص على المسائل العلمية بفكر ثاقب» وكان الشيخ أبو سالم قد رفض وسام السلطان ووسام الباى، فأحب منه الشيخ الخضر هذا الاعتزاز بالنفس، «بعد أن نلت درجة العالمية أنشأت مجلة علمية أدبية، وهى أول مجلة أنشئت بالمغرب، فأنكر على، بعض الشيوخ، وظن أنها تفتح باب الاجتهاد، وشجعنى على إنشائها شيخنا أبو حاجب، كما شجعنى عليها الوزير محمد أبو عنور.

كانت خطته الإصلاح الاجتماعى والدينى، والعمل لإعادة مجد الإسلام، ولكنه لم يلبث أن اختلف مع السلطات بشأن العمل فى القضاء، بعد أن وليه فى بنزرت ١٩٠٥ ، إذ فضل العودة إلى التدريس فى الزيتونة، فلما خاطبته المحكمة الفرنسية ١٣٢٥هـ بالعمل فى المحكمة عضواً ليحضر حكمها بين الوطنى والفرنسى، امتنع ولم يقبل أن يصدر الحكم الجائر.

واستقر رأيه إثر ذلك على الهجرة إلى الشرق، فاستوطن دمشق عام ١٩١٢ ، وكانت تحت سلطان العثمانيين، فنصب للتدريس فى المدرسة السلطانية فى كرسى الشيخ محمد عبده.

ثم اعتقله جمال باشا حاكم الشام، ورحل إلى الآستانة فأسند إليه التحرير بالقسم العربى بوزارة الحربية، وحين احتل الحلفاء الآستانة رحل مع زعماء الحركة الإسلامية عبد العزيز شاويش وعبد الحميد سعيد والدكتور أحمد فؤاد.

وعاد إلى دمشق ١٩١٨ فى عهد الحكومة العربية لفيصل، وعهد إليه بالتدريس فى المدرسة السلطانية، ولكن فرنسا لم تلبث أن بسطت سلطانها على سوريا فترك دمشق إلى القاهرة ١٩١٩ ، وفى مصر عرف الشيخ أحمد تيمور باشا الذى كان خير رفقائه، وكان له فضل واضح فى إنشاء جمعية الشبان المسلمين مع السيد محب الدين الخطيب صاحب الفتح. كما أنشأ من بعد جمعية الهداية الإسلامية ومجلة الهداية الإسلامية، وتولى ثمة مجلة لواء الإسلام (ومجلة الأزهر)، واتصل بالأزهر ونال إجازته، وعمل فى كلياته، واختير عضواً فى جماعة كبار العلماء،

فشيخًا للأزهر عام ١٩٥٢، وعضواً فى مجمع اللغة العربية. وتطلع إلى مجد المغرب وحريته.

وقد كانت مجلة الهداية: مجلة مغربية واضحة للدلالة، فى كتابتها وأبحاثها، ودفاعها عن مختلف المواقف الوطنية والإسلامية والعربية، ورأس جبهة شمال أفريقيا، التى ضمت الرجال الذين سعوا نحو مصر من أجزاء المغرب العربى.

وكان الشيخ الخضر كاتبًا وشاعراً له شعر كثير جيد، وقد وصفه الفاضل ابن عاشور[1] فقال: كان كاتبًا بليغًا ذا طبع خاص وأسلوب قوى الروح الأدبية فصيح العبارة بليغ التركيب، ينزع إلى طرائق كتاب الترسل الأولين، رحل عام ١٩١٢ إلى مصر وسورية وتركية، فكتب رحلة بديعة نشرت فى مجلة الزهرة، طافحة بانتقاداته وأفكاره.

وأشار إلى مجلة السعادة العظمى (التى أصدرها فى تونس ١٩٠٤) فقال: أنها كانت مركزاً للحركة الفكرية وقوة توجيهية متصلة بجميع أهل الثقافة العربية يجتمع تحتها شقان متباعدان.. ولم تدم إلا عامًا ناقصًا..

وللخضر حسين: : مؤلفات متعددة أهمها:

محمد رسول الله، رسائل الإصلاح، آداب الحرب فى الإسلام، القياس فى اللغة العربية، هذا بالإضافة إلى عشرات الفصول والمقالات فى صحف مصر والمغرب والشام.

وقال عنه الدكتور عبد الله سلامة:

تحليل تاريخى نتابع فيه دور الأزهر ودور شيوخه فى خدمة الإسلام والأمة الإسلامية، وفضل الأزهر وحفاظه على اللغة العربية -لأن الحفاظ عليها.. حفاظ على الإسلام!! كما سنوضح ذلك. والمتتبع للتاريخ بخاصة فى الثقافة العربية والدراسات الإسلامية، يجد أن اللغة العربية بوجه الخصوص تعرضت لمحن وخطوب سوداء، أشرفت فيها على الموت تمامًا لولا أن تداركها الله وحفظها بفضله وعنايته، فالله وعد بالمحافظة على القرآن فاستلزم ذلك حفظ لغته.

---

(١) الحركة الفكرية والأدبية فى تونس.

المحنة الأولى: محنة الغزو المغـولى، فى منتصف القرن السابع الهـجرى، وحين فشل أمر العباسيين فى دولة العراق بتنافس الفرس والترك. وقتال الشيعة مع السنة، وذهاب جلال الخلافة وهيبتها مـن النفوس، فكانت الفرصة التى استغلها «هولاكو» فى تدميـر عرش هذه الدولة العظيـمة سنة ٦٥٦هـ، كـما تراجع أمـر الأمويين فى الأندلس، بتغلب البربر والموالى على ملكهم، وتقسيمه إلى دويلات، وكانت فرصة «للفرنجـة» لابتلاع هذه الدويلات -لقـمة سائغـة الواحدة بعـد الأخرى سنة ٨٩٨هـ ودالت دولة الفاطميين فى مصر والشام إلى الأيوبيين ثم إلى المماليك ثم إلى الأتراك العثمانيين ٩٢٣هـ، ومن هنا نجد أنه أتى على العرب جميـعا خمسمائة وستون عامًا لم يكن لهم فيها حكم ولا سلطان ولا ملك، فأصبحت ديارهم وآثارهم نهبا مقسما بين المغـول، والترك والفـرس. والجركس، ثم الأسـبان، وكـان أكثر هؤلاء الـغزاة أعجام أميين مـتوحشين، فخربوا الديار، وهتكوا الأعراض. وفجـعوا اللغة العربية وآدابها، وعلومها، بتحريق الكتب والمكاتب، وتعطيل المدارس وتقتيل العلماء.

وحدث ولا حـرج فيمـا فعله التتـار فى بخارى وسمـرقند وبغداد. ومـا فعله الصليبيـون بالشام، والفرنجة بالأندلس!! ومع ذلك لم تذهب اللغة العـربية، كما ذهبت لغات سـابقة، ولكنهـا على الرغم من هذه الخطوب السوداء، بقـيت لسانًا للدين والعلم، ولغة الحكومات والأمة فى بلاد المغرب، وبلاد العرب جميعًا.

والفضل راجع فى بقـائها -بعد أن أدبر الملك والسلطان عن أبنائها، وأصـبحوا مسـتعمـرين للغرب- إن هذا الفضل راجـع للأزهر الشريف.. الذى اختـصه الله سبحانه بمزايا تميز بها على غيره منها:

١- صبغـته العربية الخالصة، بحكم نشـأته وبيئته، وموقـعه الوسط بين الشرق الأدنى، والشرق الأوسط، فكان ملتقى المسلمين هنا وهناك.

٢- ومنها قـربه من بلاد الحجاز.. فكان طريق الحجـاج، والرحالين، وطريق علماء أفريقيا والأندلس.

٣- ومنها تخريجه لطائفة كبيرة من أعلام الفقه، وأعيان الأدب، جمعوا شتات اللغة، والعلوم والآداب فى أسفارهم التى تعتبر الآن بمثابة دائرة معارف.

٤- ومنها مكانتـه التى بلغت من قلوب المسلمـين والحاكمـين مبلغا عظيـمًا، وصل لدرجة الـتقديس والاجـلال. وكان لهـذا أثر بالغ فى حل بعض المشكلات السياسية والاجتماعية.

٥- ومنهـا كفـاية الطلاب والأسـاتذة مـؤونة العيش، بأن كـفل لهم الغـذاء والكسـاء، والمأوى والكتاب، بالإضـافـة إلى إيوائه الناجيـن بحيـاتهم. ودينهم وعلمـهم، وآدابهم وكتـبهم، من غـارة المغول والتـتار، حـين اكتـسحـوا، بلاد خراسان والأندلـس والعراق. فكان من هجرة هؤلاء العلماء من الشـرق والغرب إلى القاهرة من البحث والأبتكار، كـما حدث لهجرة علماء المسيـحيين إلى روما من البعث والازدهار.

٦- ومنهـا مناصرة الدولـة الأيوبية للأزهر بالمـال والمناصرة، لأنهم وإن كـانوا اكرادا. فـقد تكلمـوا بلغة العـرب وتأدبوا بآداب العرب، ونبغ من بينهـم العالم، والشاعر، والمؤرخ.

٧- ومنهـا أن المماليك، قـد أيدرا الأزهر وأمـدوه بكل عون يزيد من رفـعتـه وشأنه، لأنهم اتخـذوا مصر وطنا لهم، والإسـلام دينا والعربية لغة. فـشدوا أزر المعلمين والمؤلفين، حـتى تخرج من الأزهر فى ظلهم علماء وأئمة كبـار. استودع الله صدورهم ذخائر العلم والحكمة، فـأودعوها الكتب، وأخرجوها للناس، وهم كثير منهم:

- الحافظ بن حـجر -وجلال الدين السيـوطى- وابن دقيق العيـد- والمقريزى- والسخاوى.

وللتقديم بقية ونتابع الحديث عن: الإمام الخامس والثلاثين للأزهر.

فضيلة الشيخ الخضر حسين: نسبه وبيئته ونشأته وتوليته المشيخة:

هو الشيخ الإمـام السيد مـحمد الخـضر حسـين من أسرة كريمـة أصلها من الجزائر، وفى بيت من بيوت المجد والسعادة وفى مدينة «نقطة» وهى إحدى المدن التونسـية، ولد فى ٢٦ من رجب ١٢٩٣هـ ومـن المرجح أن أسرته كانت تـنتمى إلى أسرة «الأدارسة» -التى حكمت المغرب فـترة من الزمن، ويؤكد هذا أن أحد

ملوك الأدارسة بالمغرب أصدر مرسوما ملكيًا إلى جد من جدود الخضر حسين- يتعلق بهذا النسب. . وكانت أمه تنتمى إلى أسرة فاضلة، مشهورة بالعلم والصلاح والتقوى، فهى كريمة الشيخ «مصطفى بن عزوز» من أهل العلم والفضل، وله ترجمة فى تاريخ «الوزير أحمد ابن أبى الضياف» وأبو جده لأمه - العالم الفاضل «محمد بن عزوز» وله ترجمة فى كتاب «تعريف الخلف برجال السلف» للشيخ «الحفناوى بن عروس» وشهرته «ابن عروس» وأما خال الشيخ الخضر -هو الشيخ السيد محمد المكى بن عزوز وهو من كبار العلماء الصالحين، فقد كان موضع اجلال واحترام من رجال الدولة العثمانية. فى عهد السلطان «عبد الحميد» وقضى أخريات أيامه فى «الآستانة» تلبية لرغبة السلطان، وله مؤلفات معروفة.

والمتتبع لحياة الشيخ «محمد الخضر حسين» صاحب مقالنا هذا، يجد أنه رثى خاله: السيد المكى سنة ١٣٣٤هـ بقصيدة أودعها ديوانه «ص ١٨٠» الطبعة الثانية. وكما رثى أمه حين وفاتها سنة ١٣٣٥هـ بقصيدة جميلة سماها «بكاء على قبر» يتبين لنا من هذا أن الإمام الشيخ الخضر: شاعر أدبى، وما تقلد مشيخة الأزهر من فراغ. حيث إنه نشأ فى بلدة «نقطة» التونسية. وتأثر بأبيه وخاله، وحفظ القرآن الكريم، وجانبا كبيرًا من الأدب، وألم بمبادىء العلوم العربية والشرعية، ثم انتقل مع أسرته إلى العاصمة التونسية، وهو فى الثانية عشرة من عمره سنة ١٣٠٥هـ ثم التحق بجامع الزيتونة سنة ١٣٠٧هـ الموافق ١٨٨٩م وجامع الزيتونة شبيه بالجامع الأزهر، وتنقل فى الدراسة فى هذا الجامع من مرحلة إلى أخرى، فظهرت نجابته وبرز نبوغه، فطلبته الحكومة التونسية لتولى بعض الخطط العلمية، قبل إتمام دراسته، ولكنه أبى. . وواصل دراسته على يد كبار العلماء من «تفسير وحديث» وكان من أبرز شيوخه الشيخ سالم أبو حاجب -وقد رثاه بقصيدة شهيرة مسجلة فى ديوانه الشعرى.

ونال شهادة «العالمية» من جامعة الزيتونة، ثم رحل إلى الشرق ١٣١٧هـ فما كاد يبلغ طرابلس ويقيم بها حتى عاد إلى تونس ولازم جامع الزيتونة دارسًا ومدرسًا، يفيد ويستفيد، ومما يذكره له التاريخ ولا ينساه دعوته للطلاب فى جامع

الزيتونة.. إلى دراسة وتعلم مادة «الإنشاء» حتى تكون لديهم القدرة للدفاع عن وطنهم، ولغتهم.

كما سخر قلمه ولسانه، لنصرة العثمانيين أيام حربهم مع الطليان -وذلك بالقصائد الشعرية الملتهبة حماسة. وقد كان الشيخ مولعا بالأسفار شغوفًا بالارتحال من بلد إلى بلد، ، ومن وطن إلى وطن، فقد زار «ألمانيا» مرارًا والآستانة، وكذا «مصر والشام والجزائر وغيرها» من بلاد الله الكثيرة، وقد جنى من ثمار هذه الأسفار الكثير من الثمار، ففى دمشق تولى تدريس اللغة العربية «فى المدرسة السلطانية» وفى الآستانة، عين محررًا عربيًا فى وزارة الحربية وأرسله «أنور باشا» إلى ألمانيا فى مهمة رسمية، وتعلم اللغة الألمانية بطلاقة، وقد زار مصر أكثر من مرة، قبل أن يلقى فيها عصا التسيار، وفى زيارته الأخيرة لها وهى التى أراد الله له فيها أن يقضى تحت سمائها، ما بقى من عمره، وحصل على الجنسية المصرية، وجلس مجلس التلميذ أمام علماء الأزهر، فسمع منهم، وتلقى عنهم، وتقدم لنيل شهادة العالمية «الدكتوراة» من الأزهر، فمنحه شيوخه إياها، وسمحوا له أن يتصدر إحدى حلقات الجامع العتيد، فكان نعم الأستاذ علما وصلاحا وخلقا، وهكذا صار الرجل مصريًا أزهريًا لحمًا ودمًا[1].

توليته المشيخة:

فى حياة الشيخ «السيد محمد الخضر حسين» مواقف إسلامية ووطنية عظيمة، فظل طوال حياته كارها للاستعمار مناديًا بالتحرير، مندداً بالاستعباد، وأن الله سبحانه ما خلق الناس وشرع الجهاد إلا من أجل أن يعيشوا فى أوطانهم أحرارًا، وما قامت ثورة «٢٣ يوليو ١٩٥٢م» إلا للقضاء على الظلم والطغيان ومقاومته، وعدم استعباد الإنسان لأخيه الإنسان.. وقامت الثورة لا فى مصر وحدها.. وإنما فى العالم العربى كله.. وأعلنت شعار القومية العربية، وأسهمت فى استقلال السودان، وإجلاء الاستعمار عن مصر، وأعانت الثورة الجزائرية، ومدت يدها إلى هيئات التحرر فى البلاد العربية، والأفريقية والإسلامية، وفى مستهل عهد الثورة المصرية. رأت أن يتولى قيادة الأزهر مناضل عربى من زعماء علماء المسلمين ومن

(١) صوت الأزهر: دكتور عبد الله سلامة نصر صـ ١٢ ٢٨/ ٣/ ٢٠٠٨م.

قاتدهم فى مناضلة الإستعمار فى أقطار العالم العربى، فاستقر الاجماع على اختيار الشيخ «محمد الخضر حسين» وفى يوم الثلاء ٢٦ من ذى الحجة ١٣٧١هـ- ١٦ سبتمبر سنة ١٩٥٢م خرج من مجلس الوزراء أثناء انعقاده، ثلاثة من الوزراء توجهوا إلى بيت الشيخ فى شارع خيرت، وعرضوا عليه باسم الثورة مشيخة الأزهر، وهكذا ما كان أحد يتوقع الخضر حسين لهذا المنصب فى يوم من الأيام. ولقد قال هو بنفسه لأحد أصدقائه: ولقد سقطت المشيخة فى مجرى من حيث لا أحتسب وتولى الإمام الخضر مهام منصبه وفى ذهنه برنامج إصلاحى كبير، للنهضة بهذه المؤسسة الإسلامية الكبرى، وجعلها وسيلة لبعث النهضة الإسلامية العظمى التى يتطلع إليها العالم الإسلامى ويذكر العلماء وغيرهم ومن كانت لهم بالإمام صلة أنه أعطى المنصب حقه من الرعاية والتكريم، وأصبح اسم الأزهر عاليًا، كما كان لا يتهاون مع من يمس كرامة الأزهر، سواء من حاكم أو من محكوم، ولا كان يجامل على حساب عقيدته أو دينه، وكان هذا شأنه منذ نشأته، ومما هو مأثور عنه قبل ولايته لمنصب شيخ الأزهر: أن «الحبيب أبا رقيبه» رئيس تونس. . زار القارة وأرسل السفير التونسى إلى الشيخ طالبًا زيارة الرئيس التونسى، فقال للسفير: «ولماذا لا يأت الرئيس إلى زيارتى؟ بالرغم من المودة التى كانت تربطهما!! لأن الرئيس غير مرتبط باقامة التشريع الإسلامى -ويقول المؤرخون أنه استقال من منصبه عدة مرات، وأصر فى آخر مرة على ترك المنصب بسبب توحيد القضاء، لأنه كان من رأيه أن يندمج القضاء المدنى فى القضاء الشرعى، وليس العكس. . لأن الشريعة الإسلامية ينبغى أن تكون المصدر الأساسى للقوانين أضف إلى ذلك. . ضعف صحته وكبر سنه، ومهما يكن فإنه لم يكن أسير المنصب يومًا من الأيام.

فقد كانت عفته وعفافه مضرب الأمثال، وكثيراً ما قال: يكفينى كوبًا من اللبن وكسرة خبز. . وعلى الدنيا بعد العفاء».

ولقد استقال الشيخ الخضر من منصبه فى ٢ جماد أول سنة ١٣٧٣هـ- ٧ يناير ١٩٥٤م.

وكما ذكرنا أن الإمام كان فصيحًا بليغًا وصور نفسه وهمته فى أبيات شعرية رائعة فقال:

يرمى الهمام وما غير العلا هدفا ... ولا يباكر إلا الروض الأنفا

والناس كالشعر إن وافيت تنقده ... ألفيت سبك القوافى تأتلفا

كم بين شهم يدوس الصعب فى شمم ... وخامل بات فى مهد الهوى دنفا

ولقد ذكره د. عبد الحليم محمود فى قوله: «مؤمن صادق الإيمان، زاهد مناضل، جاهد فى صفوف الوطنيين، حتى حكم عليه بالإعدام، وجاء إلى مصر عالمًا ثبتًا فقيهًا لغويًا أديبًا كاتبًا، ولقد أسهم فى الحركة الإسلامية والفكرية بنصيب وافر، فلقد كان عالمًا تفرغ للعلم لم يشغله عنه شاغل من شواغل الدنيا أو الجاه أو السلطان، وحينما تولى مشيخة الأزهر لم يغير شيئًا من عاداته فلم يهتم بالمنصب، واستقالته كانت دائمًا فى جيبه وكان يقول: «إن الأزهر أمانة فى عنقى أسلمها حين أسلمها.. موفورة كاملة إذا لم يتأت أن يحصل للأزهر مزيد من الازدهار على يدى... فلا أقل من أن لا يحصل له نقص».

آثاره العلمية وتأثيره:

ولقد وفق الله سبحانه وتعالى الشيخ الخضر فى جميع مراحل حياته العلمية والعملية فحصل وهو فى مصر من الوظائف والرتب العلمية والأدبية على ما لم يحصل عليه غير القليلين من شيوخها وعلمائها المشاهير، فعين عضوا فى «مجمع اللغة العربية» ونال الإعجاب من زملائه لتمكنه من ناصية اللغة العربية شعرًا ونثرًا وخطابة ومحاضرة، كما عين عضواً فى «جماعة كبار العلماء» برسالة موضوعها «القياس فى اللغة العربية» ولقد أجاد فيها وأفاد وساعده فى ذلك ماضيه العلمى الواسع.

ومن جهوده العلمية والوطنية أنه لما قامت الحرب الطرابلسية بين الطليان والعثمانيين وقف قلمه ولسانه على الدعوة لنصرة العثمانيين ونشر بمجلته التى أصدرها الأزهر سنة ١٣٤٩هـ وسماها «نور الإسلام» وأسند إليه تحريرها من أول عدد ثم مجلة «لواء الإسلام» منذ صدورها سنة ١٣٦٦هـ وظل محرراً لها طول حياته، وقد نشر فى هذه المجلة قصيدة عصماء لمعاونة العثمانيين.

ردوا على مجدنا الذكر الذى ذهبا ... يكفى مضاجعنا نوم مضى حقبا

ثم رحل إلى الجزائر فزار مدنها الرئيسية ملقيا الدروس والمحاضرات ثم عاد إلى تونس وعاود دروسه فى جامع الزيتونة ونشر المقالات الدينية والأدبية فى الصحف، ورفض العمل فى محكمة فرنسية بتونس واتهم بعدائه للغرب وأحس بالخطر فسافر إلى تركيا، ثم ظل بعد ذلك متنقلاً من دولة إلى أخرى قائمًا بنشاطه العلمى والفكرى.. إلى أن أحس بزوال مجد الدولة العثمانية وهى تترنح تحت تأثير عوامل الفساد فنظم قصيدة بعنوان «البكاء على مجد ضائع» قال فيها:

أدمى فـؤادى أن أرى الأ	علام ترسف فى القيود
فهجرت قوما كنت فى	أنظارهم بيت القصيد
وحسبت هذا الشرق لم	يبرح على عهد الرشيد
فإذا المجال كأنه	من ضيقة خلق الوليد

وبعد سفره عدة مرات إلى ألمانيا استقر عزمه أن يستوطن القاهرة يلتقى مع أصدقائه من كبار العلماء وزعماء النهضة الوطنية والأدبية، ثم أصبح محرراً بدار الكتب المصرية وتجنس بالجنسية المصرية وتقدم كما ذكرنا لنيل الشهادة العالمية من الأزهر، وكلما تعمقت أسئلة اللجنة وجدت تعمقا فى الأجابة مع غزارة علم وقوة حجة وبلاغة رأى فنال «العالمية» وانضم إلى طليعة العلماء[1].

ثم أسس «جمعية تعاون جاليات شمال أفريقيا» وكان دائب الحركة، يرى نهضة الأمة الإسلامية مرتبطة بالدراسات العلمية والانتاج الصناعى، وقال شعرا فى هذا.

وفى سنة ١٣٤٣هـ مرض مرضًا شديدًا وبدأ المرض مهاجمة جمسه، كما أحس مع هذا بآلام الأسف على الوطن الإسلامى -وهذا ما تحقق اليوم- وهو بعد نظر من هؤلاء العلماء، يعتصر قلبه على هذا الوطن، ووقوعه تحت وطأة الاستعمار، وقال فى هذا شعرا رائعًا منشوراً فى «ديوانه» وبعد شفائه من مرضه ظهر كتاب «الإسلام وأصول الحكم» للشيخ مصطفى عبد الرازق، أحدث ضجة فى العالم الإسلامى، لمخالفته ما أجمع عليه المسلمون، فانتقد الكتاب بشدة، وأبرز ما فيه من أخطاء، كما نقد كتاب «الشعر الجاهلى» لطه حسين -كما كان من أول

---

(١) صوت الأزهر: دكتور عبد الله سلامة نصر صـ ١٢ ٤/ ٤/ ٢٠٠٨م.

المؤسسين لجمعية «الشبان المسلمين» ١٣٤٦هـ ثم أنشأ «جمعية الهداية الإسلامية» وذلك بعد نجاح جمعية الشبان المسلمين التى ضم إليها مجموعة من شباب الأزهر وشيوخه ومن طبقات المثقفين، وظل هكذا طول حياته بمواقفه المشهودة، ثم عين مدرسًا بكلية أصول الدين، وأفاد طلابه بعلمه، من مقالات ومحاضرات، جمع معظمها فى كتاب أسماه «رسائل الإصلاح» ثلاثة أجزاء، وأصبح عضواً فى «المجمع اللغوى» وعضواً بالمجمع العلمى العربى بدمشق.

مصنفاته ومؤلفاته:

«للشيخ الخضر حسين» مقالات وأبحاث ومحاضرات كثيرة.. نشير إلى بعضها:

١- المجاز والنقل وأثرهما فى حياة اللغة العربية مجلة المجمع.

٢- الاستشهاد بالحديث فى اللغة.

٣- طرق المصطلحات الطبية وتوحيدها فى البلاد العربية.

٤- رسائل الإصلاح وهو ثلاثة أجزاء.

٥- الخيال فى الشعر العربى.

٦- ديوان شعر خواطر الحياة.

٧- آداب الحرب فى الإسلام.

٨- تعليقات على كتاب «الموافقات للشاطبى» ألخ.

وفاته:

رحم الله هذا الرجل والإمام الفاضل، وأجزل له العطاء يوم توفى كل نفس ما كسبت، وبعد هذه الحياة الطويلة الزاخرة بالعلم والعمل لقى الشيخ الإمام -الخضر حسين- ربه راضيًا مرضيًا.

فى مساء الأحد ١٣ من رجب سنة ١٣٧٧هـ- ٢٢ فبراير ١٩٥٨م وخلاصة ما يقال فيه ما ذكره الشيخ «محمد على النجار» عضو مجمع البحوث -يوم تأبينه «إن

الشيخ اجتمع فيه من الفضائل ما لم يـجتمع فى غيره إلا فى النادر! فقد كان عالمًا ضليعًا مع علمه بأحوال المجتمع، لا يشذ عن مـقاصد الناس ومعاقد شئونهم، مع قوة الحـجة وحـسن الجدال، عف اللسان والعـلم، لا يتناول المنقود بما يخـدشه، ويكره مجادلة خصـمه، قال فيه صديقه -الكاتب الإسـلامى الكبير، محب الدين الخطيب: «هذا رجل آمن بالإسلام ودعوته، وأحب وهو فى صدر حياته أن يكون من الذين قال فيـهم الله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠] ومات رحـمه الله تعـالى -وهو لا يملك من حطام الدنيـا شيئًـا، مات وقـد قدم لاخراه النصيب الأوفر من حياته.. بل كل حياته.

ومن أراد وصف جنازتـه فلينظر المقـال «مـجلة الأزهر ص ٨ مـجـلد ٩ سنة ١٣٧٧هـ، حيث مشى فى موكب جنازته علماء الأزهر، وأعيان الأمة، والمنتسبون إلى العلم، حـتى بلغ النعش باب الخلق والموكب يفصـل فيمـا بينه وبين الأزهر، ودفن بجـوار صديقـه «أحمـد تيمـور باشا» بوصـية منه، رضى الله عنـه وأرضاه وأسكنه فسيح جناته.

وهكذا نجد أن موت الأمة.. فى موت عالم[1].

❁❁❁

---

(١) صوت الأزهر: دكتور عبد الله سلامة نصر صـ ١٢، ١١/ ٤/ ٢٠٠٨م.

٣٦- فضيلة الإمام الأكبر الشيخ عبد الرحمن تاج



قرر مجلس الوزراء فى جلسته المنعقدة يوم الخميس ٢ جمادى الأولى سنة ١٣٧٣هـ (٧ يناير سنة ١٩٥٤) الموافقة على قبول الاستقالة المقدمة من حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر السيد الخضر حسين شيخ الجامع الأزهر، واختار لهذا المنصب حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ عبد الرحمن تاج عضو جماعة كبار العلماء وأستاذ الشريعة الإسلامية فى كلية الحقوق بجامعة إبراهيم وعضو لجنة وضع مشروع الدستور.

وفى يوم السبت ٤ جمادى الأولى (٩ يناير) صدر قرار مجلس الوزراء الخاص بتعيين فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ عبد الرحمن تاج شيخًا للأزهر، وقد أبلغته السكرتارية العامة لمجلس الوزراء بهذا القرار.

وفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ عبد الرحمن تاج مولود بمدينة أسيوط سنة ١٣١٤ (١٨٩٦) ونال شهادة العالمية بالمرتبة الأولى سنة ١٣٤١ (١٩٢٣) وشهادة التخصص بالمرتبة الأولى أيضًا سنة ١٣٤٥ (١٩٢٦) وعين بعد تخرجه مدرسًا بمعهد أسيوط الدينى ثم نقل إلى المعهد الأزهرى سنة ١٩٣١ ثم اختير أستاذًا بكلية الشريعة سنة ١٣٥٢ (١٩٣٣). وفى سنة ١٣٥٥ (١٩٣٦) اختير عضوًا فى أول بعثة للأزهر إلى أوروبا ومكث فى فرنسا سبع سنوات وثلاثة أشهر. ونال الدكتوراة من جامعة السوربون، وعاد من فرنسا ١٣٦٢ (١٩٤٣) فاختير للتدريس فى قسم تخصص القضاء الشرعى، ثم عين مفتشًا للعلوم الدينية والعربية بالمعاهد الأزهرية، وعين شيخًا لمعهد الزقازيق الدينى، ثم شيخًا للقسم العام والبعوث الإسلامية بالأزهر، وعضوًا دائمًا وسكرتيرًا فنيًا للجنة الفتوى بالأزهر وقد كان فى عضوية هذه اللجنة منذ إنشائها فى سنة ١٩٣٥، واختير أستاذًا للشريعة الإسلامية بكلية الحقوق فى جامعة إبراهيم، وحصل على عضوية جماعة كبار

العلماء سنة ١٣٧٠ (١٩٥١) وكـان موضوع رسالـته «السياسـة الشرعية والفـقه الإسلامى». واختيـر عضواً فى لجنة وضع مشروع الدستـور الجديد عند تكوينها فى العام الماضى.

وفى صباح يوم الاثنين ١١ يناير توجه فضيلة الأستاذ الأكبر إلى إدارة المعاهد الدينية حـيث تسلم مهـام منصبه الجـديد، وكانت فى اسـتقبـال فضيلة جـموع حاشدة من أساتذة الأزهر وطلابه، وتعالت الهتافات بحـياة فضيلته وحياة رجال الثورة الأحرار.

وقـد أقبل أعـضاء جـماعـة كبـار العلماء وأسـاتذة الكليـات والمعاهد الدينيـة والموظفون الإداريون على مكتب فضيلته مهنئين. وبعد أن استمع فضيلته لكلماتهم أطل على جموع الأزهريين المحتشدين أمام مبنى الإدارة وارتجل الكلمة الآتية:

«أشكر لكم هذه الحفاوة البـالغة وهذا الاستقبـال الرائع. وإنى أرجو أن يوفقنى الله لأن أتقدم بالأزهر إلى المكانة العالية التى كان يتبوؤها من قبل.

وإنى أبشركم بأن بوادر هذا المستقبل الزاهر المرجو للأزهر قد لمستها فى جلسات قصيرة خفيفة مع رجال هذا العهد. فقد لمست فيهم إيمانًا خالصًا وضراعة إلى الله تعالى أن يعينهم على ما فيه خير الأزهر.

وقال عنه الدكتور عبد الله سلامة:

تحليل تاريخى.. ونتابع دور الأزهر ودور أعـلامه الأجلاء فى خدمـة الإسلام وأمته، وفـضل الأزهر، وحفاظه على اللغة العـربية والأمة الإسلامـية. تحدثنا فى التـقديم السـابق. أن الأزهر حافظ على لغـة القرآن زهاء الثـلاثة قرون -السـابع والثامن والتاسع الهجرى فى جميع البلاد العربية والإسلامية، فحفظ وجود اللغة، ورفع أو حد من سقوط الأدب، وجمع شمل العلم، ولولاه لانقطع ما بين الأدبين القديم والحديث، ولقد مرت المحنة الأولى على اللغة العربية اجتازتها بسلام.

أما المحنة الثـانية.. التى اتبليت بها اللغـة العربية.. وكـان للأزهر الفضل فى وقايتهـا وسلامتها، فهى مـحنة الغزو التركى -فى أوائل القرن العاشـر الهجرى، حين استـولى السلطان سليم الأول على مصر والشـام سنة ٩٢٣هـ من هنا تحولت

الخلافة من عباسية إلى عثمانية، والعاصمة «القسطنطينية» وليست القاهرة. . واللغة الرسمية -التركية- بدلا من العربية -وكما ذكرنا آنفا. . أن الغزو التركى لمصر على يد سليم هذا. . استمر ثمانية أشهر، نهب فيها أثمن وأغلى وأعز تراث مصر، من تحف وآثار وكتب، وصناعة وصناع، ونوابغ الفنانين، والنحاتين. . والعلماء والمؤلفين الذين تخرجوا فى الأزهر، وألفوا وانتجوا فى الأزهر، والفوا وانتجوا أعظم تراث من التأليف العلمى. على مدى ثلاثة قرون. . التى سبقت الغزو التركى. . ولقد أخذ الغزاة يغلبون لغتهم على اللغة العربية، فى الدواوين، ويطاردونها فى المدارس، وانتشر ذلك فى الشام والعراق، فتفشى فى اللغة. واختلطت فيها الألفاظ الدخيلة والعامية، وضاعت أساليبها من النثر والشعر. . فخيم جو كئيب من الظلم والظلام، وطغى على النفوس، فجمدت القرائح، وتبلدت الأذهان، وضعفت رغبة الحكام فى العلم، وانصرف الناس عن طلبه، وتقطعت الأسباب بهم. . واستطاع الأتراك تغيير كل شىء، وأصبغوه بالصبغة التركية، فى السياسة، والتعليم، وإدارة الجيش. كل ذلك حدث.

إلا الأزهر -فقد وقف شامخا- فقد راعهم ما أحسوا من جلاله، وما سمعوا عن مجده، فوقفوا على أبوابه خاشعين، يلتمسون منه العون عندما تلف حولهم الأحداث، وما ينجم من أمور، وعرف ذلك السلطان سليم وعرف قيمة الأزهر، فزاره مرارا وصلى فيه، وتبرك به. . والمعروف أن الأزهر استوعب كثيرا من علماء الأتراك، درسوا فيه، وتعلموا العربية وآدابها، وألف كثير من الأتراك كتبا عظيمة، منهم: «الفيروز أبادى- وأبى السعود- وملاخسرو- وخوجه زاده» وعشرات العلماء الكبار. . وكان سلاطين العثمانيين أنفسهم، يدرسون العربية وآدابها، ويحضر بعضهم الدروس أمام علماء الأزهر فى الأزهر نفسه ومع طلاب العلم. . لدرجة أن منهم من أقرض الشعر، مثل السلطان أحمد الأول، ولقد زاد ضعف اللغة العربية فى عهد السلطان محمود وابنه عبد الحميد الأول.

ومن هنا نرى أن اللغة العربية قد أتى عليها ستة قرون قضتها بين الاحتضار والموت. . ثلاثة منها فى العصر المغولى وثلاثة فى العصر العثمانى. . أزيلت وأمحيت تماما من بلاد «الهند وخراسان والعراق، وبلاد الروم والأندلس، ما عدا

مخطوطات نادرة حفظت على سبيل التاريخ» وبقيت اللغة العربية فى الأقطار العربية بقاء المريض المشرف على الموت، ولم يبق فيه إلا رمق، ذلك الرمق الذى كفله الأزهر، وتعهده وغذاه، وقواه ورعاه.

حتى إذا انحسر الحكم العثمانى عن مصر وأراد الله لشمس الحضارة أن تشرق مرة أخرى على وادى النيل، وبدأت الحياة تدب مرة أخرى فى أوصال اللغة العربية. فالأزهر كان ملاذها وسندها، وفى الأزهر كان بقاؤها وبعثها.

ثم جاءت «الحملة الفرنسية» ثم محمد على باشا وتمثلت قيادة شيوخ الأزهر الأجلاء فى «الشيخ خليل البكرى، وعبد الله الشرقاوى» والشيخ العطار، ثم طلاب البعثات إلى أوروبا، كالطهطاوى ومبارك» إلخ، وهذه حماية أخرى للأزهر، وفضله على بقاء اللغة العربية والنهوض بها. كما حفظها من السقوط قبل ذلك هاتان المحنتان اللتان عانتهما اللغة العربية، على عهدين متواليين.

ثم جعل الله نجاتها على يد الأزهر وفضله.. حفظا لكتاب الله، وصونا لدينه الحنيف، والمحنة الثالثة فى التحليل القادم.. بعون الله ونعود للحديث عن الإمام.. السادس والثلاثين للأزهر.. الشيخ عبد الرحمن تاج.

نسبه وبيئته ونشأته.. وتوليته المشيخة:

إن حياة الإمام الجليل الشيخ عبد الرحمن تاج. قد تناولها المؤرخون والكتاب، وسجلوا أغلب أعماله الصالحات، خاصة أنه تولى المشيخة فى عهد الثورة المصرية فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢م وحيث النهضة العلمية، وانتشار أجهزة الإعلام صوتا وصورة، سجلت له أعماله، بشمول ودقة، وسأحاول بسط صورة لحياته وأعماله وفقا للمنهج الذى اتبعته فى الترجمة للائمة السابقين.

لقد ولد الشيخ عبد الرحمن تاج بمدينة أسيوط ١٨٩٦م ونشأ بهذه المدينة، فحفظ القرآن الكريم، وهو فى سن العاشرة من عمره حفظا وتجويدا وتلقى بعض الروايات فى قراءاته على يد كبار القراء، بالإضافة إلى أنه كان ذا صوت رخيم، وتلقى بعض مبادئ العلوم الدينية والعربية، وحفظ عددا من المتون «كالأجرومية ومتن أبى شجاع، وألفية ابن مالك».

وانتقلت أسرته إلى الإسكندرية وهو معها، والتحق بالسنة الثانية الابتدائية بمعهد الإسكندرية الدينى سنة ١٩١٠م وكان هذا المعهد يمتاز عن بقية المعاهد بما تم فيه من إصلاح كبير خلاف المعاهد الأخرى وأساتذته الأجلاء المرموقين من العلماء، والذين أحسن اختيارهم فأجادوا وسائل الشرح والتوضيح والتوجيه السلوكى لطلابه، وكان هذا المعهد الكبير يضم جميع مراحل التعليم.

وظل الشيخ -تاج- يواصل الدراسة فى هذا المعهد، واتبع منهجا جيدا فى دراسته ومذاكرته، فقد كان يقرأ الدروس قبل شرحها مع أساتذته، ويناقشهم فيها أثناء الدرس، مناقشة الفاهم الواعى. ولهذا كان أساتذته يثقون به حتى أنهم طالبوه أن يلقى حصيلة الدروس فى آخر كل أسبوع على الطلبة أمام أساتذته، وذلك نيابة عنهم، وهذا له أثر بالغ فى تثبيت العلوم، والإلمام بها فى فكره وذهنه. . ويقول ابنه الأستاذ حسن عبد الرحمن: إن الجميع شهدوا له بالذكاء والنبوغ، من المشاهير من شيوخه، لما انطبع فيه من نفس ذكية صافية، وذهن مصقول. . إضافة لحفظه وفهمه للعلوم، وفهم الحواشى والتعليقات التى كتبها نخبة من العلماء، وكان ترتيبه الأول دائما فى مراحل دراسته. وبعد أن استوعب هذه العلوم حفظا وفهما: تقدم لنيل شهادة العالمية «الدكتوراه» فحصل عليها سنة ١٩٢٣م مع درجة الشرف، فى تلك الآونة كانت حركة الإصلاح فى الأزهر قائمة على قدم وساق، وكان من نتائج هذه الحركة. . إلغاء مدرسة القضاء الشرعى، وإقامة قسم للتخصص فى القضاء الشرعى، فالتحق به الشيخ تاج، ونال منه شهادة التخصص فى القضاء الشرعى سنة ١٩٢٦م بعدها ذهب للحج، وعقب تخرجه عين مدرسا بمعهد أسيوط الدينى، ثم مدرسا بمعهد الزقازيق الدينى ومعهد الإسكندرية، ثم نقل مدرسا بمعهد القاهرة الدينى سنة ١٩٣١م وفى ١٩٣٣ عين مدرسا بقسم التخصص للقضاء الشرعى فى كلية الشريعة، وفى سنة ١٩٣٥م عين عضوا بلجنة الفتوى ممثلا للمذهب الحنفى، مع قيامه بعمله فى كلية الشريعة، وفى سنة ١٩٣٦م وقع الاختيار عليه ليكون عضوا فى بعثة الأزهر إلى جامعة السربون بفرنسا، فصحب أسرته معه زوجة وثلاثة أطفال وأجاد اللغة الفرنسية.

ثم واصل دراسته الجامعية، وقامت الحرب العالمية الثانية واشتعل أوارها فلم تمنعه أهوالها من مواصلة دراسته والتعمق فيها، حتى نال الدكتوراة فى الفلسفة وتاريخ الأديان عن بحثه القيم البابية والإسلام، والبابية أساس البهائية. وعاد من باريس سنة ١٩٤٣م إلى القاهرة، فعين مدرسا بكلية الشريعة فى «قسم تخصص القضاء الشرعى» ثم عين عضوا بلجنة الفتوى، ثم سكرتيرا فنيًا لها، ثم مفتشًا للعلوم الدينية والعربية بالمعاهد الدينية، ثم قائمًا بإدارة كلية الشريعة، ثم عين شيخًا للقسم العام والبعوث الإسلامية بالأزهر، ثم مشرفا على البعثات المرسلة للدول الإسلامية بالأزهر. ونال عضوية «جماعة كبار العلماء» ببحث قيم تحت عنوان «السياسة الشرعية» سنة ١٩٥١، وأصبح أستاذًا بحقوق عين شمس مع بقائه عضوًا فى جماعة كبار العلماء، ولجنة الفتوى، واختير ليكون عضوا فى «لجنة الدستور» سنة ١٩٥٣م هذه نبذة موجزة عن حياة إمامنا الراحل الشيخ «تاج».

توليته المشيخة:

وبعد هذه السلسلة من الشهادات العلمية والمناصب المرموقة التى ارتقاها وأداها بجدارة فائقة وحياة ناصعة فى سبيل العلم وتأدية الواجب. صدر قرار جمهورى سنة ١٩٥٤ بتعيين الشيخ عبد الرحمن تاج شيخا للأزهر، وظل فى منصبه هذا حتى عين وزيرا فى الاتحاد العربى بين اليمن ومصر وسوريا واختير بعدها ليكون عضوا فى مجمع اللغة العربية المصرى سنة ١٩٦٣ مع تبحره فى العلوم النقلية والعقلية، وجمع بين الثقافتين الشرقية والغربية، وتعلم اللغات وقام بإدخال إصلاحات عظيمة بالأزهر منها أنه قرر تدريس اللغات الأجنبية فى جميع مراحل التعليم بدءا من المعاهد والكليات والدراسات العليا، واتفق على إنشاء مدينة البعوث الإسلامية لسكن الطلاب الوافدين للدراسة بالأزهر، من شتى أقطار الأمم، وتضم ٤١ عمارة ومسجدًا ومكتبة وعيادة طبية ومطابخ ومرافق وساحات رياضة إلخ.

وأدخل نظام «التربية العسكرية» بالأزهر، وله مواقف عظيمة تدل على اعتزازه بنفسه وكرامة علماء الأزهر وشموخهم وكبريائهم وحفظ حقهم، ففى سنة ١٩٥٥ تلقى الشيخ تاج دعوة رسمية من الرئيس سوكارنو رئيس جمهورية أندونيسيا لزيارتها والمشاركة فى احتفالها بعيد استقلالها، بوصفه شيخا للأزهر، مع من

يختــاره من علماء الأزهر لصحــبته، وفى الوقت نفســه تلقى مجلس قيــادة الثورة بمصر دعوة بإرســال وفد للمشاركة فى هذا الاحتـفال، فتألف وفد بقيــادة -جمال سالم- وكان مشهوراً بالحدة والعنف وعضوا بارزا فى -مجلس قيادة الثورة- ونائبا لرئيس الجمــهورية -جمــال عبد الناصر- وللظـروف سافر فى طيارة واحــدة وفد الأزهر برئاسة شيخه عبد الرحمن تاج.. ووفـد مجلس قيادة الثورة بزعامة جمال سالم وهبطت الطائرة بالوفـدين فى مطار «كراتشى» الباكـستانية، وكانـت المفاجأة المذهلة، حيث خـرجت مدينة كـراتشى -عن بكرة أبيها، لاسـتقبـال وفد الأزهر استقبالا منقطع النظير، وأقامت جماعة علماء باكـستان سرادقا كبيراً للحفاوة بهذا الوفد، وأعدوا للإمــام سيارة مزينة بالزهور والورود، وأحــاطوا أعناق وفد الأزهر بعقود من الورود، وعملات النقود، وغمروا الوفد بمظاهرة الحفاوة والتكريم، ولم يهتم الشعب الباكستانى باستقبال الوفد الآخر، وتكرر هذا الموقف فى كل بلد نزل به الوافـدان حتى وصل إلى «جـاكرتا» عاصـمة «أندونيـسيـا» فاسـتقبل الـشعب الأندونيسى وزعــماؤه وفد الأزهر أروع اسـتقبال ولم يطـق جمال سالم صـبراً.. فتحـدث إلى الشيخ الإمام قائلا: أنا رئيس الوفدين: أم أنت؟ فـقال الإمام كل منا رئيس فيــما جاء من أجله!! فـقال جمــال سالم: لابد من عـودة تلك الحفنة من الفقهاء الذين حضروا معك وإرجــاعهم إلى القاهرة، فقال له الإمام: هؤلاء علماء أفاضل، حـضروا لنشر الثـقافة الإسـلامية، فـإما أن أعود أنا وهم وإمــا أن نبقى جميعا: وأصر الشيخ على بقائه مع وفده.

وهنا انفصــل كل وفد عن الآخر.. إنه مـوقف شهم جـميل، يدل على لبــاقة وحكمة.. بعيــدا عن الرعونة والأنانية، ويدل على أن كرامــة الأزهر مرتبطة بعزته ولا كرامــة لمصر بدون الأزهر والعالــم لا يعرف مصــر إلا من خلال الأزهر، لأنه مهد الإسلام، وإلا فــجميع الدول أمام بعضها ســواء ولما عاد الوفدان إلى القاهرة علم الرئيس جمال عبد الناصر بما حدث، فاعتذر للإمام وطيب خاطره.

وأيضا هناك موقف أشد خطورة ففى سنة ١٩٥٧حاول على صبرى بإعياز من الشيوعيــين التدخل فى شئون الأزهر اعتماداً على سلـطاته الواسعة. ونفوذه التى منحها إياه رئيس الجمهورية وقتهــا من رئاسة وزراء وغيرها، فأبى الشيخ الخضوع

لهذا التدخل وقاومه فى إباء، وظل يقاومه، والمعروف أن على صبرى كانت ميوله شيوعية، ويريد القضاء على الأزهر.. كما حاول كثيرون غيره ولكن للأزهر رجاله.

وظل الشيخ الإمام عبد الرحمن تاج يواصل عمله فى صبر وأناة وهو وزير فى أنحاء الدول العربية، فى سبتمبر ١٩٥٨، وترك الأزهر وهو وزير ليس مستقيلا ولا مقالا، حتى تم الغاء الاتحاد عقب انفصال سوريا عن مصر سنة ١٩٦١، وظل فى مجمع اللغة والبحوث الإسلامية، وكتب أبحاثا قيمة ودراسات عميقة، وصحح كثيرا من الأخطاء الشائعة.

آثاره العلمية.. وتأثيره:

لقد عرفت أن الشيخ عبد الرحمن تاج جمع بين الثقافتين الشرقية والغربية، وأجاد اللغتين العربية والفرنسية، وجمع بين عضوية المجمعين الخالدين اللغوى والبحوث الأزهرى وهذا الشيخ يعد من طليعة العلماء الذين لا حد لتراثهم العلمى ولا غاية ينتهون إليها، وللشيخ رسائل ومصنفات كثيرة وقيمة فى الفقه المقارن، وتاريخ التشريع إلخ وسنشير لذلك.. ثم إنك تراه باحثا ودارسا فى ألوان عديدة من الثقافات المتنوعة كما تراه فى مراجعه ومؤلفاته، والدارس لآثاره العلمية العديدة، يرى ذلك واضحا جليا، فى كل بحث تناوله معتمدا فيه على المصادر الأصلية القيمة، ثم على ذهنه المتوقد، أو بصيرته الملهمة، وعقله المستوعب متحريا الوصول للحقيقة.. ويقبل المراجعة، ويعدل عن رأيه إذا رأى رأيا مصيبا أو أقرب إلى الصواب من رأيه، وهذه أمانة علمية وشجاعة أدبية، نفتقدها فى كثير من العلماء.

ولقد كتب عنه الأستاذ على عبد الرازق فى حفل استقبال الإمام الشيخ «تاج» بمجمع اللغة العربية، ونشر فى مجلة المجمع جـ١٩ ص١١٣ وما بعدها. قال فيه: «إن فضيلة الإمام، نال من الرتب العلمية والدرجات ما رفعه إلى مستوى لا يضطلع لكثير من الناس أن يصلوا إليه، لكنه هو نفسه استطاع أن يبلغه، ويبلغ من الفضل تماما فوق ذلك مظهرا، وأرفع قدرًا، تتهاوى دونه درجات العلماء،

ومقامات الخبراء، وقال: ذلك هو مقام العالم الناصع، إذ ما عضده الخلق الصالح، والعلم النافع، إذا خالط قلبا سليما، وطبعا طاهرا، ونفسا طيبة»، والمقال طويل جيد وشيق لا يتسع له المقام، ولك أن تنظره فى مصدره.

ولقد كتب عنه الشيخ على الخفيف مشيدا بعلمه وسمو خلقه، وسعة إطلاعه، وثقافته، وأنه إمام عظيم.. ولقد رثاه العلماء والكتاب، وإن الخطب فيه كان جللاً، وخسارة الأزهر فيه فادحة.

ومن آرائه العلمية.. عندما أصدر مجمع البحوث الإسلامية الجزء الأول من تفسير «الوسيط» راجعه فضيلته دون تكليف من أحد، ولاحظ عليه بضع ملاحظات.. تدل على علم غزير، وفكر راجح، وبعيرة ملهمة، وضمن ملاحظاته فى تفسير قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩].

فذكر أن ظاهر الآية يدل على أن الله سبحانه خلق الأرض ثم خلق بعدها السماوات لكن ما ورد عن خلق الكون فى سورة النازعات يدل على أنه خلق السماوات.

وبعدها خلق الأرض، وفى سورة فصلت، والأنبياء وغيرها، إشارات نذكر منها بعض التفصيلات، فاقترح فضيلته أن تجمع لجنة التفسير جميع الآيات المتعلقة بخلق الكائنات، وتستخرج منها الحقيقة، لأن الباحث المحقق لا يجد تعارضا بين الآيات الكريمة.

تآليفه ومصنفاته:

لقد ترك الإمام الشيخ عبد الرحمن تاج ثروة عظيمة من العلم والكتب بالعربية والفرنسية، بعضها مطبوع وبعضها منسوخ فى مجمع البحوت الإسلامية، أو منشور فى مجلة «مجمع اللغة العربية» ونشير إلى بعض مؤلفاته.

١- البابية وعلاقتها بالإسلام- باللغة الفرنسية، وهى رسالته التى نال بها «درجة الدكتوراه» من جامعة السربون، ولم يعرف هذا البحث حتى الآن.

٢- السياسة الشرعية فى «الفقه الإسلامى» نال بها عضوية -جمعية كبار العلماء».

٣- الأحوال الشخصية فى الشريعة الإسلامية.

٤- مذكرة فى الفقه المقارن.

٥- تاريخ التشريع الإسلامى.

٦- حكم الربا فى الشريعة الإسلامية.

٧- شركات التأمين من وجهة نظر الشريعة الإسلامية، وله مؤلفات فى اللغة العربية، والحروف التى يقال عنها إنها زائدة فى القرآن الكريم، ومن هذه الأبحاث بحث فى:

٨- لا التى قيل إنها زائدة فى القرآن الكريم وليست كذلك.

٩- الواو التى قيل إنها زائدة- بحث فى التفسير، استعرض فيه أقوال المفسرين وعلماء اللغة.

١٠- الفاء وثم، ودعوى زيادتهما فى القرآن الكريم، وهو بحث ممتع.

١١- حروف الزيادة وجواز وقوعها فى القرآن الكريم، وغير ذلك من المؤلفات والمحاضرات التى كتبت فى الصحف والمجلات وأُذيعت فى الإذاعات ما يزيد عن الأربعين، خلاف ما تركه المؤلفون والمؤرخون.

وفاته:

وبعد فإن حياة الشيخ «تاج» أوسع وأكبر من أن تلخص فى هذه السرد. وإنما فى حاجة إلى مجلدات كبيرة، تجمع أطراف هذه الحياة وتُعطيها حقها من الشرح والتفصيل، ولكننا نكتفى بذكر القليل سائلين الله سبحانه جزيل العطاء وعظيم الأجر والثواب للفقيد العظيم.

وكان رحمه الله يتمتع بخلق كريم، بجانب علم غزير، وقد صقلته التجارب العديدة التى خاض غمارها مع عقيدة راسخة مع تواضع جم، معتزاً بكرامته كل

الإعتزاز، خـاصة مع كبار المسئـولين، ولم تقعده الشيخـوخة ولا الأمراض، ولا أعباء الحـياة، عن مواصلة دراساته وأبحـاثه، حتى لقى ربه راضيا مـرضيا فى يوم السـبت ٣٠ ربيع أول سنة ١٣٩٥هـ الموافق ١٢ إبـريل ١٩٧٥م عقب فـراغـه من صلاة المغرب وهو يستغفر ربه، مسبحـا مكبرا، بعد أن قضى حياته مجاهدًا بقلمه ولسانه، فى سـبيل الله، ولقى ربه وهو فى خـتام الصـلاة، وفى يوم الأربعاء ١٠ جماد الأول ١٣٩٥هـ الموافق ٢١ مـايو ١٩٧٥م أقامت جميع المجـامع والمؤسسات اجتماعًا كبيرًا لتأبين الإمام الراحل تحدث وخطب فيه الخطباء ذاكرين شمائل الإمام العظيم. تغمده الله بواسع رحمته، وأسكنه فسيح جناته[١].

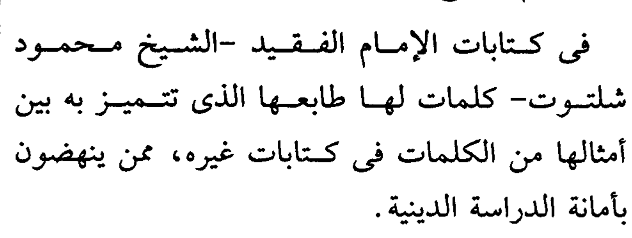
❁❁❁

(١) صوت الأزهر: د. عبد الله سلامة نصر ص١٢ ٢٥/ ٤/ ٢٠٠٨.

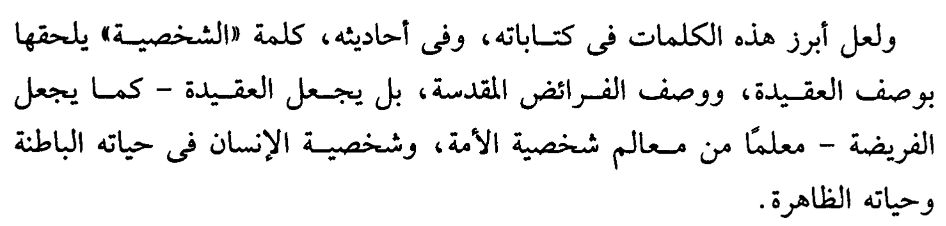
٣٧- فضيلة الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت

كتب الأستاذ العقاد فى مجلة الأزهر عن الشيخ شلتوت يقول بعنوان:

«الإمام المصلح محمود شلتوت»:



فى كتابات الإمام الفقيد -الشيخ محمود شلتوت- كلمات لها طابعها الذى تتميز به بين أمثالها من الكلمات فى كتابات غيره، ممن ينهضون بأمانة الدراسة الدينية.



ولعل أبرز هذه الكلمات فى كتاباته، وفى أحاديثه، كلمة «الشخصية» يلحقها بوصف العقيدة، ووصف الفرائض المقدسة، بل يجعل العقيدة - كما يجعل الفريضة - معلمًا من معالم شخصية الأمة، وشخصية الإنسان فى حياته الباطنة وحياته الظاهرة.

قال رحمه الله فى مفتتح مقاله عن رسالة الأزهر أن: «للإنسان فى هذه الحياة فردًا كان أم جماعة شخصيتين، حسية ومعنوية، ولا يحظى بالوجود الكامل إلا إذا نال حظه من الشخصيتين. وشخصية الفرد الحسية يكونها اللون والطول والعرض، وشخصيته المعنوية يكونها إيمانه ومبدؤه وهدفه فى الحياة، وماله من عقل وتدبير وثبات ومثابرة فى سبيل مبدئه وهدفه».

ثم قال عن شخصية الأمة الحسية: «إنها ترجع إلى إقامتها فى الإقليم الذى نشأت فيه، وإلى الأمل الذى تنتسب إليه»... «أما شخصيتها المعنوية فهى ترجع إلى روابطها القلبية والعقلية والشعورية، وعلى قدر ما يكون لها من التأثر بتلك الروابط المتفاعلة والحرص عليها وعلى معارفها التى تكونها، وعلى الإيمان بمصدر تلك المعارف... يكون لها بين الأمم من آثار الوجود المعنوى».

وكتب عن الصلاة فى فصل من فصول «الإسلام عقيدة وشريعة» فقال عنها: «إنها العنصر الثانى من عناصر الشخصية الإيمانية».



الشيخ شلتوت.. اعتراض بشدة

وعلى هذه الوتيرة كانت كانت كلمة «الشخصية» تتردد فى أحاديثه للدلالة على قوام كل «وجود» حتى يتميز به عقل الإنسان وضميره فى حياته الروحية، وهى لمحة من لمحات التعبير الباطنى تدل على معناها، وتدل مع هذا المعنى على مقدار شعوره بكرامة الشخصية واقترانها بحق الإنسان وواجبه وبالتبعة التى تناط بها الحقوق والواجبات، وتقرر له موقفه من الشخصيات الإنسانية الأخرى فى إبداء الرأى والاضطلاع بأعباء الدعوة والإقناع.

هذه واحدة من خصال العقل المجتهد، بل هى أولى تلك الخصال فى كل ترتيب لكفايات المجتهدين، من كان له رأى وعلم ولم يكن له نصيبه الأوفى من هذه الخصلة فلا سبيل له إلى الاجتهاد، لأنه يلقى العائق الأول عن أداء وظيفة الاجتهاد من قبل نفسه، ويحجم عن العمل فى سبيله قبل أن يصده غيره عن تلك السبيل.

وتلك هى الخصلة التى توافرت للأئمة الأسبقين من أصحاب الرأى والقياس فى الشريعة، وبفضل الثقة كانت تملأ نفوسهم، من هذه الخصلة كانوا يقولون لمن يستكثر عليهم التعقيب على أهل العلم من الصحابة والتابعين: إنهم رجال ونحن رجال.

وإذا اجتمع الاجتهاد فى كلمات معدودات صح أن يقال إنه هو القدرة على الرجوع إلى روح القرآن الكريم، أو أنه بعبارة أخرى تفسير المذاهب بمعانى القرآن الكريم، وليس هو تفسير القرآن الكريم بمعانى المذاهب أو بنصوصها أو بأقوال الرواة فيها.

ولقد كان هذا هو إيمان الإمام الفقيد بالكتاب المبين، وكان هذا هو منهجه فى الاحتكام بالمذاهب إلى آياته وأحكامه، مستقلة عما يضاف إليها من شروح المختلفين وتأويلات أصحاب الرأى أو أصحاب اللغة من المفسرين.

وقد لخص العالم الفاضل الدكتور محمد البهى هذا المنهج فى تقديمه لتفسير الإمام الفقيد فقال: «التفسير الذى نقدمه اليوم للمسلمين هو تفسير للمسلمين أجمعين، لا لمذهب معين من المذاهب الفقهية، ولا للون من ألوان العقيدة الكلامية ولا لاتجاه خاص من اتجاهات أهل الظاهر أو أهل الباطن».

ثم قال عن المنهج الذى اختاره الأستاذ المفسر واقتدى فيه بالمعلم المصلح العظيم محمد عبده فقال: إنه منهج «جعل السورة وحدة واحدة، يوضح مراميها وأهدافها وما فيها من عبر ومبادىء إنسانية إنسانية عامة»، وأنه لا يقحم فى القرآن على القرآن من رأى خارج عنه، أو مصطلح انتزع من مصدر آخر فجعل كلمات القرآن يفسر بعضها بعضًا كما أطلق الحرية للقرآن فى أن يدلى بما يريد دون أن يحمل على ما يراد.

وبهذه المثابة يصبح تفسير القرآن تفسيراً للمسلمين جميعًا، وعليه يقام أساس التوفيق بين المسلمين أجمعين، وهى أمانة لا يضطلع بها غير أهلها من القادرين على الاستقلال بالفهم وعلى مواجهة الخلاف بما ينبغى للمجتهد من الشجاعة الصادقة ووسائل الإقناع بإحسان، وما ينبغى للمجتهد المعلم خاصة من الصمود إلى غاية التعليم، وغاية المعهد العلمى الذى يتولاه.

وصف الإمام الفقيد رسالة الجامع الأزهر معهد العلم الإسلامى الأكبر. فقال بضع كلمات: «إنه معهد الدين وحصن اللغة المكين».

ومن أراد هذه الرسالة للجامع الأزهر، فقد عرف من قبل رسالة القرآن الكريم، بل عرف المعجزة الكبرى لهذا الكتاب فى ناحية إعجازه التى لا مراء فيها، وهى معجزة الأثر الخالد التى نستطيع نحن -أبناء هذا العصر- أن ندركها وأن يكون إدراكنا لها أقوى وأوضح ممن سبقونا إلى العلم بمعجزة الكتاب المبين.

معجزة الأثر فى ألف وأربعمائة سنة أقوى وأوضح من معجزته التى شهدها أبناء القرن الأول ثم شهدها أبناء القرون الأولى بعد عصر الدعوة. . . فإننا اليوم نستطيع أن ندرك تلك المعجزة التى لا نظير لها والتى تقاصرت عنها الهمم، ووقفت دونها دعوات الأفراد والأمم، وتم بها ما يتم بعمل إله وقول إله، وهيهات أن يتم بجهد الإنسان بغير معونة الله.

أربعمائة مليون من بنى آدم فرقتهم الأجناس واللغات والبقاع والأزمان، وجمعتهم كلمات القرآن.

وكلمات حفظت اللغة التى نزلت بها وليست هذه اللغة هى التى حفظتها، ولم يتفق قط للغة من اللغات أن عاشت بكتاب واحد مدى هذه السنين، فلم تعش لغة اليونان خمسمائة سنة بكتاب هوميروس، ولم تعش لغة اللاتين بعض هذه السنين بلغة فرجيل وهوراس، وذهبت لغة فارس ولغة الهند وفيها من الكتب ما لا يقرأه اليوم غير كهان المحاريب، وماتت لغات أخرى كانت تعيش قبل الإسلام وبقيت لغة القرآن حية فى عالم الديانة وفى عالم الكتابة وفى عالم الثقافة، وستحيا غداً كما حييت بالأمس، ما شاء الله عز وجل، وصح فيها قول الأستاذ الفقيه: «إنها ليست فى هذا المقام عربية الإقليم والجو ولا عربية النسب إلى أصل ينتسب إليه الجنس... وصارت عربية الشخصية المعنوية المكونة من عنصرى العروبة والإسلام...».

ولما تكلم عن غايته من التعليم فى المعهد الأكبر الذى تولاه قال: «نريد تخريج وتبريز لأئمة فى اللغة وفروعها وأئمة فى الفقه وأصوله، نريده تخريجًا أساسه النظر العميق والاجتهاد العلمى الذى يكون الشخصية الفقهية والشخصية اللغوية العربية، لا نريده تخريجًا نلتزم فيه مخلفات الماضى من آراء ومذاهب بل يجب أن نجتهد وأن نؤمن بأن فضل الله فى كل ذلك لم يكن وقفًا على الأولين».

ونستعير من أسلوب الفقيد فنقول إن الاجتهاد كما أراده هو الاجتهاد بعناصر «شخصية» على تمامها كما ينبغى أن يضطلع به المجتهد فى جميع العصور، وهو أتم من ذلك بالنسبة إلى عصرنا هذا الذى نعيش فيه، وبالنسبة إلى العصر المقبل الذى يواجهه المجتهدون عما قريب.

فما من عنصر من عناصر الاجتهاد إلا قد ظهر له فى هذا العصر باعث يستدعيه لم يكن ظاهراً بهذا الجلاء وهذه الضرورة فى عصر من عصوره الماضية.

فها هنا عنصر النظرة الموحدة إلى الكتاب المبين فى العصر الذى ارتفعت فيه حواجز الاستعمار الأجنبى ووجب أن تحل فى مكانها روابط القربى بين أمم الإسلام على تباعد الديار وتباعد الشيع والمذاهب التى لا بقاء لها مع توحيد النظرة إلى كتاب المسلمين أجمعين..

وها هنا عنصر اللغة فى عصر النهضة العربية وقوامها كله نهضة الثقافة العربية التى تتحد بها ثقافة الإسلام فى جميع اللغات.

وهاهنا عنصر «الاستقلال» فى عصر الحرية الفكرية أو عصر «الإنسان» الحر فى الجماعة الحرة، وقد مضت الجماعات فى طريقها إلى الخلاص من طغيان الاستبداد وطغيان الاستقلال.

وها هنا العصر الذى أصبح فيه معهد الإسلام الأكبر كما قال الشيخ رحمه الله: «يضم السودانى، والمغربى، والحبشى، واليمنى، والشامى، والفلسطينى، والأندونيسى، والتركستانى، والسعودى، والأفغانى، والتركى، والروسى، واليونانى، واليوغسلافى، والكردى، والعراقى، والكويتى، والإيرانى، والسيامى، والباكستانى، والفلبينى، والملاوى، والبرمى، والأردنى، واللبنانى، والزنجبارى، والأوغندى، والليبى، والتونسى، والجزائرى، والمراكشى، والأرترى، والسنغالى، والصومالى، والنيجيرى»... إلى غير هؤلاء ممن وفدوا إليه أو يتوافدون مع الأيام بلا انقطاع لا جرم كان من بشائر الأمل -كما أسلفنا فى غير هذا الموضع- أن ينهض الشيخ شتلوت بمشيخة الأزهر فى الزمن الذى تفتحت فيه الطرق بين البلاد الإسلامية بعد أن تحررت من الطغيان الأجنبى عليها وبين هذا المعهد الذى لا معهد فى العالم الإسلامى أولى منه بضم الشمل وتقريب مسافة الخلف بين المسلم والمسلم حينما كان فى أقاصى البلدان.

«ومن عرف الإمام الفقيد عرف أنه قد تزود لهذه الرسالة بزاد غير علمه الغزير وشجاعته الصادقة، وهو زاد القلب الطيب والسجية الكريمة، تجمع الخصوم على الألفة والثقة كما تجمع الأصحاب والأنصار».

ولقد عرفنا الشيخ الأكبر سنوات فى مجمع اللغة العربية فتعودنا أن نعرفه «قرآنيًا» فى دراسته لأسرار اللغة، قبل أن نعرفه «لغويًا» فى دراسته لأسرار القرآن، وكنا نسمعه يقول: إن القرآن معجز بما هو به «قرآن»، ويعنى بذلك نسقه الذى ينتظم به ألفاظه ومعانيه ويوحى من معانيها بما ليس فى مفردات الكلم ولا فى أجزائه التى يقتضيها الإعراب فى كل عبارة.. فليست الكلمة الواحدة هى محل

إعجاز، وليس محل الإعجاز هو الكلمتين أو الكلمات الثلاث التى تتم بها جملة الفعل والفاعل أو المبتدأ والخبر والجار والمجرور أو المضاف والمضاف إليه، ولكنه نسق دقيق يتخطى لوازم العلاقة بين الألفاظ فى النحو والصرف إلى لوازم العلاقة بين المعنى والوجدان، وبين الوحى والبصيرة، مما لا تدركه ولا تبلغ إليه بلاغة الإنسان. وبهذه البصيرة المتفتحة تسنى له أن يفهم القرآن كتابًا للمسلمين جميعًا يرجعون إليه فيرجعون إلى مصدر واحد يبطل فيه الخلاف، أو يختلف فيه المختلفون، ولكن كما يختلف العقل الواحد بينه وبين نفسه فى وجهات نظره بين حين وحين، وبين اعتبار واعتبار.

وبهذه النظرة «القرآنية» عمل الشيخ الأكبر فى تنظيمه الدروس بمعاهد التعليم، كما عمل على هذه الهداية فى علاقته بالأمم الإسلامية وعلاقته ببلاد العرب أجمعين. والجديد فى خطته على هذه الجادة القديمة أنه فهم أن اللغة العربية، أو اللغة القرآنية، شىء يتعلمه العربى المسلم كما يتعلمه المسلم غير العربى، فلم يكن على المسلمين غضاضة فى هذه المساواة الشاملة، ولم يكن للعربى إيثار على غيره؛ لأن عروبته فى هذا المنهج هى عروبة القرآن الذى يتساوى فيه المسلم والمسلم من كل جنس، وبكل لسان.

تولى مشيخة الأزهر بعد استقالة الشيخ عبد الرحمن تاج عام ١٩٥٨، وقد رحب بتوليه المشيخة العالم الإسلامى كافة، وظل فى المشيخة سنوات عديدة، وفى عهده صدر قانون تطوير الأزهر الشريف.

وقام برحلات كثيرة إلى بلاد العالم الإسلامى.

كان شيخ الأزهر محمود شتلوت على موعد لا يستطيع أن يتخلف عنه.. وتحدد هذا الموعد بالذات فى (ليلة الإسراء) و(ليلة الجمعة) وفى مستشفى العجوزة.. وفى نهاية اللحظة الأخيرة. لسبعين عامًا، وسبعة أشهر، وعشرين يومًا وخمس دقائق.. فقد صادف ميلاده الساعة التاسعة والدقيقة العشرين من مساء ٢٢ أبريل ١٨٩٣ فى منية بنى منصور بمحافظة البحيرة.. كانت الدقائق الخمس هى مدة النوبة القلبية المفاجئة التى أسلم فى نهايتها روحه إلى بارئها فى ١٣/١٢/١٩٦٣.

لم يكن الشيخ مرحا فى يوم من الأيام أكثر منه فى اليوم الأخير فى حياته.. فقد أفاق من العملية التى أجريت له فى الصباح بعد ٣ ساعات من إجرائها ودعا أسرته.. وظل ينادى كلا منهم باسمه ويداعبه.. كما استدعى أحفاده الصغار وظل يداعبهم ويبتسم لهم ابتسامة عريضة لم تفارق شفتيه طول اليوم حتى فاجأته النوبة.

وكان آخر ما عرضه عليه سكرتيره الخالص أحمد نصار ونجله المقدم الهادى شلتوت رسالة رقيقة من الخارج.. من الرئيس أحمد بن بيللا رئيس الجزائر، وبرقية داخلية بعث بها من طهطا محمود عبد العزيز رفاعة يستفسر فيها عن صحة شيخ الإسلام.

كما كان آخر ما كتبه بخطه ترجمة كاملة لحياته طلبتها إحدى المجلات فى الخارج وبحثًا جديدًا عن تنظيم النسل وحقوق المرأة فى الإسلام وصلاحية المرأة المسلمة للمساهمة فى بناء المجتمع.

وكانت آخر الدعوات التى تلقاها الشيخ شلتوت من الخارج ولن يتمكن من تلبيتها هى دعوات لزيارة الهند ويوجوسلافيا وجنوب أفريقيا والجزائر واليمن وإيطاليا وألمانيا.

كان الشيخ شلتوت دائمًا محل تقدير العالمين الإسلامى والمسيحى. وقد تلقى أخيرًا عرضًا من إحدى دور النشر بـ ١٥,٠٠٠ جنيه لترجمة بعض كتبه إلى اللغات الإنجليزية والفرنسية، كما ترجمت له عدة دول كتبه التى أصدرها وتعتبر مراجع هامة فى الشريعة الإسلامية.

وخلال رحلته الأخيرة للشرق الأقصى عام ١٩٦١ وضع رئيس جمهورية الفلبين طائرته الخاصة وياوره الخاص تحت تصرفه طوال رحلته..

وفى مؤتمر لاهاى عام ١٩٣٧ تمكن بأبحاثه التى قدمها للمؤتمر أن يحصل على قرار إجماعى بصلاحية الشريعة الإسلامية مصدرًا للتشريع فى العالم.

وقد منحته أربع دول الدكتوراه الفخرية كما منحته أكاديمية شيلى درجة الزمالة الفخرية وأهدى إليه رئيس الكاميرون قلادة تقديرًا لأبحاثه العلمية. وكان الأجنبى

الوحيد الذى رأس المجلس الأعلى لجمهورية أندونيسيا أثناء وجوده هناك. كما أصدر قرارًا خاصًا بتعيين قائد الجيش ووزير الدفاع إمامًا لمسجد سوكارنو بالقصر الجمهورى. وقد زاره فى منزله بمصر الجديدة عدد كبير من زعماء العالم الإسلامى ورؤساء الدول، منهم الرؤساء عبد السلام عارف والسلال وأحمد بن بيللا والإمبراطور هيلاسلاسى إمبراطور الحبشة.

إن نواب الرئيس وأعضاء مجلس الرياسة ورئيس المجلس التنفيذى والوزراء أبو إلا أن يشيعوا جنازته سيرًا على أقدامهم من المسجد الأزهر حتى الإمام الشافعى تكريمًا لرحلته الأخيرة التى ترك وراءها أماكن خلت بفقده هى عضوية كبار العلماء التى شغلها عام ١٩٤١ وعضوية المجمع اللغوى التى شغلها عام ١٩٤٦ وعضوية المؤتمر الإسلامى التى شغلها عام ١٩٥٧ وعضوية مجلس الإذاعة الذى شغله عام ١٩٥٠ ومشيخة الأزهر التى شغلها عام ١٩٥٨.

وقال عنه الدكتور عبد الله سلامة:

تحليل تاريخى: ذكرنا فى المقال السابق، وعند التقديم للإمام عبد الرحمن تاج، أن اللغة العربية تعرضت لمحنتين ووضحنا أسبابها وكان الأزهر سببًا رئيسيًا لنجاة اللغة من تلك المحنتين.. وهذه هى المحنة الثالثة، التى تجتازها اللغة العربية اليوم وتوشك أن تبلبل اللسان، وتعطل القرآن، وتقطع الدين عن أصله، وتفصل العربى عن أهله، وتهبط بالأدب من جبل الوحى، وهيكل عطارد حيث الترفع والسمو إلى حضيض المادية، حيث التبذل والفحش فى القول واللسان، وهذه المحنة تزامنت واتسع مداها فى عصر الإمام الشيخ محمود شلتوت وكيف عالجها الأزهر وعلماؤه الأجلاء.. تلك المحنة هى محنة تغلب استعمال اللغة «العامية» على الفصحى، وتؤثر أدب العامة على أدب الخاصة، وتريد أن يكتب الكاتب بأى لغة، وينظم الشاعر الشعر كما يشاء بعيدًا عن النظم والقافية، لا يتقيد بأية قاعدة من نحو أو قياس، ولا نظام من بلاغة ولا وزن من عروض ولهذه المحنة أساسان أو عاملان هما: الاستعمار والجهل.

أما الاستعمار فلأنه رأى أن الرابطـة بين المسلمين على اختلاف أقطارهم وتباعد ديارهم هى الدين واللغة وما دامت أمة محمد مرتبطة بالإسلام روحًا ولسانا واحدًا بالعربية، فإن استغلالها موقوف وإن طال، وإن استقلالها آت وإن تأخر، لذلك سعت فرنسا سعيها الدائب فى الجزائر لفتنة البربر عن دينهم وقطع العرب عن لغتهم بطردها من المدارس والدواوين ولكن دين الله كان أقوى من فرنسا والاستعمار كله، ولغة القرآن كانت أمضى من لغة السيف والمدفع، واهتمت بريطانيا على عادتها من الدهاء والسياسة بمحاربة الفصحى فدعت إلى العامية بلسان موظفيها ومبشريها ومستشرقيها، لأن اللغات أو اللهجات العامية تختلف من بلد إلى بلد فى البلاد العربية اختلافًا شديدًا. . لدرجة أن كل لهجة تعتبر لغة مستقلة، فإذا انهزمت اللغة الفصحى استحال التفاهم وضعفت القصيدة، وانقطعت الصلة، وتفرقت الوحدة، وبهذا يستطيع المستعمر التهام العرب لقمة سائغة، وفشلت دعوة المستعمر نتيجة الوعى فى العرب بفضل الأزهر. .

٢- العامل الثانى: الجهل وهو الأصل الثانى فى هذه المحنة، فقد ترك الاستعمار خلفه ركامًا رهيبًا من الخرافات، وزرع عادات وتقاليد لإلهاء الناس عن حقيقة وجرائم الاستعمار والمراد بالجهل هنا: جهل أبناء الأمة العربية بلغتهم التى فيها عزتهم وكرامتهم، ودينهم وانصرافهم عن علومها وآدابها، وهذه هى جناية المدرسة والمدنية الحديثة، من لبس البرنيطة ورطن بالإنجليزية والفرنسية، وهناك حكمة تقول: «أن من يترك لغته سهل عليه أن يترك دينه» ونحن لسنا ضد تعلم اللغات بل بالعكس. . نتعلمها لنأخذ ثقافات وعلومًا ومعارف جديدة مع الاحتفاظ بلغتنا، إننى أرى الآن بعد طول الزمن وكثرة التجارب فى تخريج القارئ الذى يقرأ بفهم والكاتب الذى يكتب عن علم، والمفكر الذى يفكر عن أصالة. . والدليل على هذا الفشل، أن الطالب يتعلم النحو والصرف والبلاغة وغيرها عشر سنين دأبًا، ثم لا يستطيع بعد ذلك أن يعبر عن فكره تعبيرًا صحيحًا، لا باللسان ولا بالقلم، فإذا دفعه استعداده الأدبى للكتابة. . فضل العامية على الفصحى ليتحلل من القواعد والقيود نتيجة فوضى العجز. . وكانت علوم اللغة العربية تدرس فى الأزهر ودار العلوم، ومدرسة القضاء الشرعى، وما يشابه ذلك فى لبنان وسوريا والعراق

والمغرب إلخ يدرسها دراسة عميقة تمكن الطالب المجتهد المستعد لفهم ما يقرأ ويعلم وينقد ويحلل، ومن هنا نجد الكاتب والشاعر المجيد المبدع، ومن هنا تقوى الحركة الأدبية وتزدهر وتسمو ليكتب لها الخلود، ولا تزال من هذه الطبقة فئة قليلة فى الأقطار العربية، والأزهر المسئول بحكم طبيعته وعلة وجوده حصن اللغة وحافظها فى الماضى والمستقبل والوضع الحالى وما يحدث فيه.. فكل شىء يبعث على التشاؤم.. فالتعليم سطحى مختصر.. لا هدف له فى التعليم.. فقط لاختيار الامتحان بأنه وسيلة، ولا يبقى فى ذاكرة الطالب إلا رموز على معان عائمة غير واضحة، وعلى هذا لا يرجى نفعه لأنه إذا أراد أن ينتج أدبًا أو علمًا يفيد الناس، ووجد فى نفسه الملكة الخارقة لكنه لا يجد فى لسانه اللغة التى تعبر، ولا الأسلوب الذى يؤثر وطالب العلم فى هذا العصر يتوخى السهل ويتعجل الإنتاج ولا يقيم وزنًا لقواعد اللغة، وإذا كان الناس يقرأون الصحيفة أو الكتاب ولا يقفون فيها على الخطأ الذى يفضح المستور ويكشفه، فالفضل لأولئك الجنود المجهولين من الأزهريين الذى يرابطون ليل نهار فى دور الصحف والنشر ويسمونهم المصححين الذين يمرون بأقلامهم الحمراء على المعوج فيستقيم وعلى العامى والمعجم فيعرف.. ونحن إذا تركنا الأمور تجرى كما تجرى انتهت بنا إلى تغلب العامية لغة البوابين ولغة الشارع والخادم. معنى هذا أنك فصلت الأدب عن الدين، وقطعت الحاضر عن الماضى.. نرجو ألا تكون لغتنا كلغة الهمج، لا تقوم على قواعد ولا تشعر بجمال ولا تجمعنا فى وحدة فذلك مذهب لا يقول به عاقل ودعوة لا يستجاب لها.

والأزهريون وحدهم هم القادرون على درء هذا الخطر عن اللغة العربية، فهم جند العربية فى كل وقت وفى كل أرض والله سبحانه قد ضمن للعربية بقاء البيان ببقاء القرآن الكريم، وعلى أيدى أبناء الأزهر المؤمنين برسالته.. وللحديث بقية.

ونعود للحديث عن علم من أعلام الأزهر فى العصر الحديث.. وهو الإمام السابع والثلاثون للأزهر الشيخ محمود شلتوت.

فى الحديث عن هذا الإمام أهمية وجوانب وفروع.. ومن الصعب جدًا أن نطرق جانبًا ونترك الآخر، والمقام هنا لا يتسع لذكر هذه الأحداث وعلينا أن نختصر مع العناية والتركيز على الأمور المهمة وما حدث فى جوانب حياته وما أبداه من آراء

فقهية مهمة حول التقريب بين مذاهب المسلمين من سنة وشيعة وغيرهما وهو الموضوع الخطير وموضوع الساعة الذى يشغل عقول وفكر المسلمين جميعًا من جميع الطوائف.. والشيخ قد طرق هذا الموضوع ونادى به منذ ستين عامًا.. ونحن الآن نجنى ثمار فكره وبعد نظره ولقد أبدى الأزهر اهتمامًا كبيرًا بهذا الموضوع وكون لجنة دائمة برئاسة الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية فضيلة الشيخ على عبد الباقى لمناقشة ما يستجد من القضايا التى تهم أمر المسلمين.

وإن أعمال الإمام محمود شلتوت جليلة وكثيرة ومتعددة الجوانب والمناحى، ومكانته العالمية الواسعة فى الدول الإسلامية شرقًا وغربًا وكذا دول أوروبا ولا يمكن أن نحصيها فى هذه العجالة لكن من أجل أن يعرف القارئ الكريم إمامًا وعالمًا من شيوخ الأزهر وائمته العظماء وما سجله فى كتاباته وخطاباته الرسمية تعتبر وثيقة تاريخية لا نستطيع محوه من سجل التاريخ وصفحاته[1].

نشأته وبيئته وتوليته للمشيخة:

هو الإمام الشيخ محمود شلتوت إمام جليل وفقيه كبير ومصلح اجتماعى عظيم، يمتاز بثقافته الواسعة، وشخصيته القوية وأسلوبه البديع، وصوته معبر، وحجته البالغة، وقد أفاض المؤرخون والكتاب فى الترجمة لحياته وأعماله وآثاره.

فى «منية بنى منصور التابعة لمركز إيتاى البارود. محافظة البحيرة، وفى بيت من بيوت العلم والسيادة. ولد الصبى -محمود شلتوت سنة ١٨٩٣ وحفظ القرآن فى قريته، والتحق بمعهد الإسكندرية الدينى سنة ١٩٠٦ وظهرت عليه علامات النبوغ والنجابة، فكان الأول دائمًا على فرقته، فى جميع مراحل دراسته، وبعد حصوله على الثانوية الأزهرية.

اتجه إلى القاهرة للإلتحاق بالجامع الأزهر، ودروس علوم الأزهر على علمائه المشهورين وأئمته الأجلاء، ولفت الأنظار إليه من زملائه وغيرهم من الطلاب وكبار أساتذته، ولما أتم العلوم الأزهرية فهمًا وحفظًا، تقدم لنيل درجة العالمية «الدكتوراة» فكان أول المتقدمين بامتياز. ثم عين مدرسًا بمعهد الإسكندرية الدينى سنة ١٩١٩.

---

(١) صوت الأزهر: د. عبد الله سلامة نصر ص ١٢ ٢٠/٥/٢٠٠٨.

وفى هذا العام قامت الثورة الشعبية المصرية بزعامة سعد زغلول ضد الاحتلال الإنجليزى، وشملت جميع القطر المصرى بكل فئاته من العامة والموظفين والعمال والفلاحين، وجمع تحت لوائها المسلمون والنصارى، وقام الشيخ شلتوت فيها بواجبه الدينى والوطنى، وشارك فيها بقلمه ولسانه وجرأته المعهودة فيه، فى هذه الفترة تولى الشيخ المراغى مشيخة الأزهر، فرأى الانتفاع بمواهب الشيخ شلتوت الفذة وثقافاته الواسعة وحبه الفطرى للتجديد والإصلاح، فنقله للقاهرة مدرسًا بالقسم العالى. وكان يرأسه وقتها الشيخ عبد المجيد سليم الذى تولى مشيخة الأزهر فيما بعد.. ولما تقدم الإمام الشيخ المراغى بمذكرته المعروفة لإصلاح الأزهر، كان الشيخ شلتوت فى مقدمة المستجيبين له. بل كان أول صوت أزهرى ارتفع بتأييد هذه المذكرة،، ولم يكتف بالتأييد الشفوى، بل أسرع بكتابة عدة مقالات فى جريدة «السياسة اليومية» يدعو فيها إلى الأخذ بالمبادئ القيمة فى المذكرة.

وكان من بين رجال الأزهر من يقاوم هذه الحركة الإصلاحية، وقد تعرضنا للحديث عن ذلك، وفندنا أسباب المعارضة وكان الملك فؤاد ملك مصر وقتها.. لا يرتاح لهذه الحركة، فقامت العقبات فى طريقها، فاستقال المراغى، على الرغم من مكانته العلمية بين المستنيرين من علماء الأزهر وطلابه، وتولى الشيخ الظواهرى المشيخة، وكان رأيه التأنى والتفاهم مع أولى الأمر، فقوبل بثورة عاتية، وكان عنيفًا ضد الثورة ففصل الشيخ شلتوت من منصبه، كما فصل العشرات من صفوة العلماء الذين كانوا فى طليعة المصلحين فاشتغل شلتوت بالمحاماة فى المحاكم الشرعية مع الشيخ على عبد الرازق وزير الأوقاف قبلها، واستفاد الشيخ شلتوت من عمله بالمحاماة دراية عميقة بطبائع النفوس، كما زاد فقهه للتشريعات القانونية إلى جانب خبرته ودراسته العلمية. وفى فبراير ١٩٣٥م أعيد إلى عمله بالأزهر مع من فصلوا.. فعين مدرسًا بكلية الشريعة، ثم وكيلاً لها.. ثم ظهرت له نشاطات كثيرة ومهمة قبل توليته المشيخة تدل على عقلية ناضجة، وفكر سليم، وفقيه مجتهد نال حب الناس وتقديرهم الخاصة منهم والعامة، ودعى الأزهر للاشتراك فى مؤتمر «القانون الدولى المقارن» المنعقد فى مدينة «لاهاى» فى هولندا سنة ١٩٣٧

وبدون منازع اختار المجلس الأعلى للأزهر فضيلة الشيخ شلتوت عضواً فى هذا الوفد الذى يمثله فى هذا المؤتمر، وكان البحث الذى ألقاه شلتوت تحت عنوان «المسئولية المدنية والجنائية فى الشريعة الإسلامية» وهى رسالة قيمة نالت استحسان أعضاء المؤتمر وإعجابهم، فأصدروا إقراراً بصلاحية الشريعة الإسلامية للتطور وأنها مصدر من مصادر التشريع الحديث- وأنها أصيلة ليست مقتبسة من غيرها من الشرائع الوضعية، كما أصدر المؤتمر قراراً بأن تكون اللغة العربية لغة هذه الشريعة، إحدى لغات المؤتمر فى دوراته المقبلة، وأن يدعى لهذا المؤتمر أكبر عدد ممكن من علماء الشريعة الإسلامية، على اختلاف المذاهب والأقاليم، وهذه المكاسب المهمة كانت بفضل الشيخ شلتوت وجهوده فى البحث الذى ألقاه فى المؤتمر، وأن الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان.

وفى سنة ١٩٣٩ عين مفتشاً بالمعاهد الدينية الأزهرية. فكانت ملاحظاته وتقديراته ودراساته شاملة نافعة لأحوال المعاهد الأزهرية فى مختلف النواحى العلمية والإدارية، وأعيد مرة أخرى وكيلاً لكلية الشريعة، وحقق فيها برامج إصلاحية مهمة، ولقد اعتلى فضيلة الشيخ شلتوت مناصب متنوعة، قبل اعتلائه مشيخة الأزهر على سبيل المثال لا الحصر.. ففى سنة ١٩٤١م نال عضوية «جماعة كبار العلماء» بالإجماع، وكان أول نشاط قام به فى هذه الجماعة.. أن تقدم إليها باقتراح «إنشاء مكتب علمى للجماعة». تكون مهمته معرفة ما يهاجم به الدين الإسلامى، والرد عليه، وبحث المعاملات التى جدت وتجد، ووضع مؤلف فى بيان ما تحتوى عليه كتب: «التفسير المتداولة»، وتنقيتها من الإسرائيليات، وتنقية كتب الدين من البدع والخرافات وهذا مما جعل الغرب يتهم المسلمين بالجهل والغباء، وغياب التفكير، وقد ألفت لجنة لهذا الغرض، برئاسة «الشيخ عبد المجيد سليم»، وكانت هذه اللجنة ارهاصاً بإنشاء «مجمع البحوث الإسلامية فيما بعد» والفضل للشيخ شلتوت فى هذا الاقتراح -وظهر المجمع- إلى الوجود أثناء توليه المشيخة، ولا يزال المجمع يؤدى دوره الخالد إلى الآن برئاسة الدكتور محمد سيد طنطاوى شيخ الأزهر والأمين العام للمجمع فضيلة الشيخ على عبد الباقى.

وفى سنة ١٩٤٦م صدر قرار بتعيين الشيخ شلتوت عضواً بمجمع اللغة العربية -وانتدبته جامعة القاهرة «فؤاد الأول» لتدريس فقه الكتاب والسنة لطلبة دبلوم الشريعة الإسلامية- بكلية الحقوق، فكان خير معلم، وفى سنة ١٩٥١م عين مراقبًا عامًا لمراقبة البحوث والثقافة الإسلامية بالأزهر، واستطاع فى فترة وجيزة أن ينهض بها وتوثيق صلاتها بالعالم الإسلامى -وفى سنة ١٩٥٧ اختاره الرئيس السادات فيما بعد- سكرتيراً عامًا للمؤتمر الإسلامى، واختاره مستشاراً للمؤتمر الإسلامى، ثم عين وكيلاً للأزهر، فنهض بأعبائه وأدى رسالته خير أداء، بالإضافة إلى عضويته فى اللجنة العليا، للعلاقات الثقافية الخارجية فى الإذاعة ووزارة الشئون الاجتماعية، والأهم من ذلك.. أنه كان المؤسس لدار التقريب بين المذاهب الإسلامية التى قامت لإزالة الجفاء وتوثيق الصلات بين الطوائف الإسلامية من سنة وشيعة، وكان له مكان الصدارة فى كل هيئة يشترك فيها بما يبذل من آراء قيمة، وجهود عمل مضنية، ودرارسات علمية عميقة، ومع هذا كله كان حديثه الصباحى فى الإذاعة المصرية لا ينقطع، ويحاضر فى شتى الجمعيات الثقافية مساء، ويكتب فى الصحف والمجلات، ويشارك فى مختلف الندوات العامة، ويخطب الجمعة كل أسبوع فى مسجد محمد على بالمنيل -ويفتى ويرد على الرسائل ويحل المشكلات، ويلتقى بزعماء المسلمين، ويحاضر فى الكليات ويؤلف الكتب والأبحاث. إنها شعلة نشاط وطاقة عظيمة فوق العادة. هذا هو الإمام الشيخ شلتوت خادم العرب والإسلام[1].

توليته للمشيخة:

علمنا فيما سبق أن أنور السادات قبل أن يكون رئيسًا لمصر، كان رئيسًا للمؤتمر الإسلامى، وكان فضيلة الشيخ شلتوت مستشاراً فنيًا للمؤتمر، وكان ممثلاً للأزهر فى «اللجنة العليا للعلاقات الثقافية الخارجية» هذه اللجنة كانت تؤدى دورها فى توثيق العلاقات الثقافية، بين مصر ودول العالم، ولقد توقف نشاطها منذ فترة وعرفه رجال الثورة وعلى رأسهم الرئيس جمال عبد الناصر ولمسوا فيه الثقافة الواسعة والإيمان العميق والأخلاق السامية والأدب الجم، والشجاعة الأدبية،

---

(١) صوت الأزهر: دكتور عبد الله سلامة نصر ٩/ ٥/ ٢٠٠٨.

والإقبال على العمل المتواصل الدائب فى خدمة العروبة والإسلام، فاتجهت أنظارهم إليه، وفى ١٣/ ١٠/ ١٩٥٨. صدر القرار الجمهورى بتعيينه شيخًا للأزهر، فكان بها جديراً وكانت به جديرة.. وما كاد يعتلى كرسى المشيخة ويرأس هذا المنصب الكبير.. حتى ركز جهوده فى إنشاء «مجمع البحوث الإسلامية» الذى كان يتطلع إلى إنشائه، ويرى فيه رابطة علمية وروحية وثيقة تشد أزر المسلمين جميعًا، وتزيل ما بينهم من الخلافات التى بثها الاستعمار، وجعلها تنمو على مر القرون بين العرب جميعًا والمسلمين. وبذل فضيلته جهوداً مضنية حتى استصدر قراراً جمهوريًا بالموافقة على إنشاء «مجمع البحوث الإسلامية» تحت رقم ٤٣٩٤ سرى. وتم انعقاد المؤتمر الأول للمجمع سنة ١٩٦٤ ولايزال يؤدى رسالته السامية فى قوة وثقة ويقين، وكان الإمام شلتوت يتطلع إلى تحقيق الوحدة الإسلامية كما تطلع إليها غيره بعد أن تفرق شمل المسلمين، ومزقتهم العصبيات الجنسية، والفروق المذهبية والخلافات الطائفية، فبدأ جهاده فى «جماعة التقريب» بين طائفتى السنة والشيعة الذين يناهز عددهم الآن حوالى ١٢٠ مليون مسلم يقيم منهم فى إيران أكثر من ثمانين مليونًا. كما أن ملايين منهم فى العراق واليمن وسوريا ولبنان والخليج العربى والهند وباكستان.

ولقد وسع الاستعمار شقة الخلاف بين الطائفتين ليتمكن من تمزيق شمل المسلمين، وتسخيرهم لخدمة أغراض الاستعمار المادية، ومن هنا بدأ الإمام الدعوة إلى التقريب مع من دعا إليها من زعماء المسلمين، ويقول الإمام فى ذلك: «إن دعوة التقريب هى دعوة التوحيد والوحدة، هى دعوة الإسلام والسلام، إن فكرة الحرية المذهبية الصحيحة على نهج الإسلام، والتى كان عليها الأئمة الأعلام فى تاريخنا الفقهى، كانوا يترفعون عن العصبية الضيقة»، وكان يقول: «هذا مذهبى وما وصل إليه جهدى وعلمى، ولست أبيح لأحد تقليدى، دون أن ينظر من أين قلت؟ كان يقول الدليل إذا استقام فهو عهدتى، والحديث إذا صح فهو مذهبى» والمقال طويل ومهم، ويوضح أن الأزهر الشريف.. ينزل علي حكم هذا المبدأ وهو «مبدأ التقريب بين أرباب هذه المذاهب الإسلامية جميعها دراسة تعتمد على الدليل والبرهان، خالية من التعصب، ومن الخير أن نسجل هنا فتوى للإمام الشيخ شلتوت، شاهدة للحقيقة والتاريخ سئل فضيلته.

إن بعض الناس يرى أنه يجب على المسلم لكى تصح عبادته أن يقلد أحد المذاهب الأربعة المعروفة وليس من بينها مذهب الشيعة؟ فهل توافقون فضيلتكم على هذا الرأى على إطلاقه؟ فتمنعون تقليد مذهب الشيعة الإمامية الإثنى عشرية مثلاً؟ فأجاب فضيلته: «إن الإسلام لا يُوجب على أحد اتباع مذهب معين.. بل نقول: إن لكل مسلم الحق فى أن يقلد بادئ ذى بدء. أى مذهب من المذاهب المنقولة نقلاً صحيحًا، والمدونة أحكامها فى كتبها الخاصة ولمن قلد مذهبًا من هذه المذاهب أن ينتقل إلى غيره -أى مذهب كان- ولا حرج عليه فى شىء.

فينبغى للمسلمين معرفة ذلك، وأن يتخلصوا من العصبية بغير الحق لمذاهب معينة، فما كان دين الله، وما كانت شريعته تابعة لمذهب أو مقصورة على غيره. فالكل مجتهدون مقبولون عند الله. فى عباداتهم ومعاملاتهم، وللحقيقة والتاريخ.. أن الإمام شلتوت لم يبتكر دعوة التقريب ولم ينفرد بها ولكنه قدم إليها من الدعم الفكرى والبحوث الفقهية ما دفعها إلى الإمام، ومكن لها فى النفوس المؤمنة فى جميع أقطار الإسلام، ولقد ذاعت شهرة الإمام فى ربوع العالم الإسلامى فانهالت عليه الدعوات الرسمية لزيارة الأقطار الإسلامية، فدعته إندونيسيا لزيارتها وقبل الدعوة بعد إلحاح كبير وذلك لظروف وقته الضيق وقتها.. فكان مشروع تطوير الأزهر هو الشاغل الوحيد، ودعته حكومة الملايو والفلبين، ولقيت البعثة استقبالاً حماسيًا من الرؤساء والزعماء والطبقات الشعبية، منقطع النظير وتهافت الجماهير على الإمام ومن معه من أعضاء البعثة، تغمرهم بالحب والمودة والتكريم، وزار ماليزيا والصين وفى كل دولة تزداد الحفاوة، وإضافة إلى هذا كان يستقبل طوائف من رؤساء هذه الدول فى مصر، ويكرمهم، ومنح بعضهم شهادات فخرية من جامعة الأزهر، مما جذبهم إلى مصر، وقويت صلاتهم بها، كما تلقى دعوات من جميع دول الغرب والشرق من روسيا والهند وأمريكا وألمانيا والبرازيل وباكستان ولم تمكنه ظروفه من تلبيتها جميعًا، لكثرة أعبائه وظروفه الصحية، وقد نال فضيلته «الدكتوراة الفخرية» من دول عديدة، وذلك يدل على منزلته السامية فى شتى أنحاء العالم.

آثاره العلمية وتأثيره:

شهد الناس للإمـام محمود شلتوت بالامتـياز فى خلقه وشخصـيته وفى فطرته الطبيـعية فَنُبُوغِـه فى فقه الشريعـة الإسلامية، أتاح له أن يكون المرجع الأكـبر فى عصره لطلاب المعرفة فى كل ما يتعلق بمشكلات العصر الحديث، وموقف الإسلام منها وقد أعانه على بلوغ هذه المنزلة عدة عوامل.. منها:

١- **مواهبـه الشخصـية**: فقد كـان يتمتع بذكاء حاد وذاكـرة قوية وحب للبحث والقراءة والاستيعاب، وبصيرة ملهمة فى فقه ما يستوعبه من دراسات.

٢- تأثر تأثرًا كبيرًا بالفـقيهين المجتهدين ابن تيمية، وتلـميذه ابن قيم الجوزية، وأيضًا بالإمامين جمال الدين الأفغانى ومحـمد عبده والإمامين المراغى وعبد المجيد سليم ولكنه لم يقلد أحدًا مـنهم، وإنما تأثر بهم، وأثروا فيه وإن التبس علـيه أمر عاد إلى الكتاب والسنة وكبار الباحثين[1].

٣- تعمق فى الدراسـة والبحث.. فدرس آراء أهل السنة والمعتـزلة والأشاعرة والمذاهب الأربعـة، ومذهب الشـيعة الإمـاميـة، والزيدية والظاهرية والأباضـية - وأعانته على ذلك بصيرته النافذة من إدراك الحقيقة فى ثنايا هذه المذاهب وغيرها.

٤- أفادته تجـاربه العديدة، وأبحـاثه ومقـالاته فى الإذاعة أو الجرائـد، والمشاكل الاجتماعية وحلولها فى نطاق الشـريعة الإسلامية، أضف إلى ذلك رحلاته وصلاته بكبار الزعـماء والمستشـرقين، ودائمًا حـركة الإصلاح والتجـديد فى الأزهر تواجه تيارات رجـعية تشـفق على الأزهر، وتخشى أن يقـوده التطور إلى فقد شـخصيـته العظيمـة، وكيانه المتميـز وقيادته التاريخـية المجيدة.. ولكن الزمن لا يـقف جامدًا والحياة لا تظل راكـدة خامدة، ،ومن لم يتحرك فـاته الركب، وانقطعت به السبل، ولما قامت ثورة يوليو سنة ١٩٥٢ فى مـصر وأعطت لأنصار التجديد آمالاً فـسيحة، وكان الإمـام الشيخ شلتوت فى طليـعة المنادين بالتجـديد والإصلاح، وهو من ألمع الناشـئين فى مدرسة الشيخ «مـحمد عبـده» «والمراغى» وسعى لدى كبار المسـئولين وخطب طالبًـا «أن يعاد النظر فى مناهج الأزهـر وكتبـه، لتسـاير النهضـة العلمـية

(١) صوت الأزهر: د. عبد الله سلامة نصر ١٦/ ٥/ ٢٠٠٨.

الحديثة، وقال فضيلته: «إن الذى نريده للأزهر هو فى وقعه انقلاب.. انقلاب محبب للنفوس الغيورة على المستقبل، ويصل بالعقلية الأزهرية إلى الفكر الأصيل، ويربط هذه العقلية الأزهرية الواعية بالحياة الواقعية التى يعيش فيها العالم اليوم، ويجب أن يقف العقل الأزهرى أمامها ليبقى للجامعة الإسلامية نموها».

ودعوته هذه وجدت آذانًا صاغية من رجال الثورة، فصدر القانون رقم ١٠٣ لسنة ١٩٦١ بقرار جمهورى ١٩٦١/٧/٥ ووضع القانون ليكون ملبيًا لحاجات الأزهر، فى أن يكون «جامعة كاملة النماء، ملبية حاجة العصر الحديث، بالطبيب والمهندس والفيلسوف والفقيه والإعلامى، ومنها: أن الأزهر هو الهيئة الإسلامية الكبرى التى تقوم على حفظ التراث الإسلامى ونشره إلى كل الشعوب، وإظهار حقيقة الإسلام وأثره فى تقدم البشرية، وكفالة الأمن وراحة النفس دنيا وأخرى إلخ إلخ.

ولهذا تميزت احتصاصات الأزهر، من شمول الدين مادة وروحًا.. ونصت المادة على أن شيخ الأزهر هو الإمام الأكبر وصاحب الرأى فى كل ما يتصل بالشئون الدينية والدراسات الإسلامية، ويرأس المجلس الأعلى للأزهر، ولقد اشتمل قانون تطوير الأزهر على مائة مادة. كل مادة تنبثق عنها مواد تفصيلية كلها فى منتهى الأهمية والدقة والنظام، وهناك أحداث جانبية حدثت فى حياة الإمام شلتوت كان لها أثرها الخطير فى حياة الأزهر، وتعتبر من العواصف والأنواء، وهى مدونة فى سجل تاريخ حياة الإمام والمقام لا يتسع للخوض فيها.

إن الإمام الشيخ شلتوت كان زاهدًا فى كل المكافآت التى يستحقها عن إنتاجه العلمى فى جهات كثيرة، من إدارات ثقافية وطبع مؤلفاته، وأحاديثه فى الإذاعة والصحف وإسهامه طوال حياته فى كل أنشطة الخير خدمة للدين والوطن.

مؤلفاته وتصانيفه

لقد ترك الإمام شلتوت ثروة طائلة من الأبحاث والكتب القيمة والدراسات والتى لا يزال بعضها مخطوطًا.

ومن أهم مؤلفاته المطبوعة:

١- فقه القرآن والسنة.

٢- مقارنة المذاهب.

٣- يسألونك إجابة عن أسئلة تلقاها عن طريق الإذاعة، وطبعتها وزارة الثقافة.

٤- منهج القرآن فى بناء المجتمع -نشرته الإدارة الثقافية بالأوقاف.

٥- المسئولية المدنية والجنائية فى الشريعة الإسلامية رسالة نال بها عضوية «جماعة كبار العلماء».

٦- القرآن والقتال.

٧- القر آن والمرأة.

٨- تنظيم العلاقات الدولية فى الإسلام.

٩- تنظيم النسل.

١٠- رسالة الأزهر.

١١- إلى القرآن الكريم.

١٢- الإسلام عقيدة وشريعة.

١٣- تفسير القرآن بأسلوب متميز.

خلاف آلاف الفتاوى، فى كثير من المشكلات العصرية والاجتماعية.

وفاته

وبعد.. هذه الحياة الواسعة الأرجاء، والمزدحمة بالجهود الكثيرة، المليئة بالعطاء فى سبيل الإسلام والوطن شرقًا وغربًا على السواء.. فقد عرف المرض طريقه إلى الإمام، ومع هذا لم يؤثر على روحه المعنوية ولا على ذكائه الوقاد، ولم يكن المرض عائقًا له عن أداء عمله، ثم استدعى المرض أخيرًا إجراء عملية جراحية تمت بنجاح، واستبشر الناس وأصدقاوه خيرًا.. ولكنها كانت خفقة الروح وصحوة الموت.. وكان أمر الله نافذًا لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه، ولكل أجل كتاب، فلبى نداء ربه وصعدت روحه إلى بارئها فى الساعة التاسعة وعشرين دقيقة من

مساء ليلة الجمعة ليلة الإسراء والمعراج، وأدى المصلون عليه صلاة الجنازة فى السابع والعشرين من رجب سنة ١٣٨٣هـ ١٩٦٣م.

فرضى الله عنه الإمام الشيخ شلتوت، وأسكنه فسيح جناته مع الصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقًا[(١)].

وعن جهود الشيخ محمود شلتوت فى التقريب بين المذاهب قال الدكتور عبد الله النجار عضو مجمع البحوث الإسلامية: إن الخلاف بين السنة والشيعة فى الآراء التى وقع الخلاف بشأنها ساعد على تشويه الصورة الإسلامية أمام العالم بما يزيدها صدعا وفرقة وربما وصل الأسى مداه حين بدأ العداء يتسرب من الصورة إلى المضمون، وكاد الكره أن يسيطر على قلوب أصحاب الاتجاهين حتى جاوز ما يلقاه أصحاب الملل الأخرى والمذاهب الملحدة، والنحل الضالة وأصبحت الصورة قاتمة، حتى بدأت فكرة التقريب تظهر، وقيض الله لها رجالاً آمنوا بالوحدة الإسلامية كمدخل أساسى للتقدم وتحقيق مقاصد الإسلام ووسيلة لإصلاح ما ران على قلوب المسلمين من مظاهر العداء ورأب ما فرق حياتهم من أسباب الفرقة والشتات.

وكان من أوائل هولاء الرجال العالم الجليل والإمام العظيم صاحب الفضيلة العالم العلامة شيخ الأزهر الأسبق الأستاذ الشيخ محمود شلتوت رحمه الله وطيب ثراه فقد آمن بفكرة التقريب ورعاها فكره وعلمه وكان صاحب سبق وريادة فى مجالها فعبَّد طريقها، ورعى أساسها ووضع الأسس التى تكفل نجاحها وتؤدى إلى تحقيق مقاصدها، ولأنه كان مع من شاركوه هذا العمل الإصلاحى الجليل من فقهاء الشيعة ورجالها، مخلصًا فى قصده ومتجردا لوجه الله فى عمله فقد كلل الله عمله بالنجاح، ونمت فكرة التقريب حتى علت وأثمرت وأصبحت واقعًا لا يمكن إنكاره، وشجرة مورقة مثمرة لا يسهل تجاهلها.

وقد أثبتت الأيام أن هؤلاء العلماء الأماجد كانوا أصحاب نظر ثاقب ورؤية إسلامية عميقة وبعيدة، فلم يكد يمر على فكرة التقريب هذه زمن يسير لم يتجاوز أربعة عقود

---

(١) صوت الأزهر: دكتور عبد ا سلامة نصر: ٢٣/ ٥/ ٢٠٠٨.

من الزمان حتى ظهرت الحاجة ملحة إلى إحياء تلك الفكرة وتدعيمها حتى تكون أداة لجمع شمل الأمة الإسلامية فى مواجهة التكتلات الدولية التى استقرت لغة الخطاب الدولى عليها لتكون هى التعامل الدولى فى مستهل الألفية الجديدة.

دار التقريب بين المذاهب:

وفى إطار دعم فكرة التقريب تم إنشاء دار التقريب بين المذاهب التى بدأت أعمالها بالقاهرة قبل أكثر من نصف قرن لتكون موئلا لتلك الفكرة ومنطلقا لها وقد أشار الشيخ محمود شلتوت إلى أهمية تلك الدار فى دعم فكرة التقريب فقال: إن تلك الدار يجلس فيها المصرى بجانب الإيرانى واللبنانى والعراقى والباكستانى أو غير هؤلاء من مختلف الشعوب الإسلامية حيث يجلس الحنفى والمالكى والشافعى والحنبلى بجانب الإمامى والزيدى حول مائدة واحدة تدوى فيها أصوات العالم والأديب، وفيها تصوف، وفيها فقه، وفيها مع ذلك كله روح الأخوة والمودة والمحبة وزمالة التعليم والعرفان.

وخلص الدكتور عبد الله النجار إلى أن دور الإمام محمود شلتوت فى تدعيم فكرة التقريب بين المذاهب لم يكن دورا متكلفًا ألم به عرضا وإنما هو دور قائم على إيمان قوى بالفكرة وأن تكوين شخصية الإمام الكبير رحمه الله كانت مفطورة منذ بواكير حياته العلمية والوظيفية على إدارك قيمة الوحدة الإسلامية فى تدعيم الأمة الإسلامية والأخذ بيد المسلمين ليكونوا كما أخبر الحق سبحانه فى حكم كتابه عنهم بقوله ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠] وليس أدل على ذلك من سعيه الصادق لإنشاء مجمع البحوث الإسلامية عندما عين شيخا للأزهر وذلك تحقيقًا لأمله فى دعم الوحدة التى يرى فيها خير الإسلام والمسلمين.

وفى بحثه حول الإمام محمود شلتوت وجهوده العلمية فى التقريب بين المذاهب قال الدكتور أحمد عمر هاشم عضو مجمع البحوث الإسلامية إن شخصية الشيخ شلتوت من أهم شخصيات الإسلام، وإمام من عظماء أئمة الأزهر الشريف وجدير بنا أن نقدم للكتابة عنه بالتنويه بالأزهر الشريف الذى يمثل إرادة إلاهية

شاء الله سبحانه وتعالى له أن ينهض حفاظا على الإسلام وعلى علومه وتراثه، فهو أحد الحصون التى شاء الله تعالى أن تنهض لتحفظ القرآن الكريم وسنة الرسول العظيم ﷺ ولتحفظ أشرف تراث فى الوجود تصديقًا وتطبيقًا لقول الحق تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] وحفظه يكون فى الصدور وفى السطور وبآليات وحصون تعكف على حفظه وشرحه وتفسيره فكان الأزهر الشريف.

حرصه وغيرته على الأزهر:

وقد كان الإمام محمود شلتوت حريصًا على أن يؤدى الأزهر الشريف رسالته العالمية على أكمل وجه وألا تعوق مسيرته عقبات وأن تكون تبعيته لرئاسة الجمهورية مباشرة ليسلم من الهزات ومن بين بعض الأساليب البيروقراطية فكتب كتابا للسيد الرئيس جمال عبد الناصر رئيس الجمهورية أنئذ فى ٢٠ يناير ١٩٦٣م.

السيد الرئيس جمال عبد الناصر.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد: فلعل مواطن الفخر لكم وبكم أنكم تقودون أمة أسلم الله إليها زمام دينه ولغة كتابه وشد إلى جانبها شعوبا شتى وأمما كثيرة بفضل ما أفاء الله عليها بقيام الأزهر الشريف على أرضها فجعلتم فى مقدمة العمل العظيم الذى تنهضون به توثيق الروابط وتأكيد الصلات بالعالم الإسلامى الكبير كما جعلتم فى مقدمة الوسائل الكفيلة بتحقيق هذه الغاية دعم الأزهر وجعلتم تبعيته لرياسة الجمهورية ليكون بعيدًا عن الهزات وبمنأى عن القلاقل.

كما كان للإمام محمود شلتوت جهوده فى خدمة القرآن وتفسيره فقد كانت له جهود فى خدمة السنة النبوية حيث وضح الأسباب التى ترجع الاختلافات إليها فحدد أنها ثلاث جهات:

١- جهة الرواية والنقل.

٢- جهة فعل الرسول ﷺ ودلالته بالنسبة إلى الأمة، وجهة تكييف التقرير الصادر منه ﷺ فقال الإمام:

أولاً: الاختلاف الذى يخص السنة من جهة النقل والرواية. . والاختلاف الذى يرجع إلى هذه الجهة يمكن إجماله فيما يأتى أن يصل الحديث إلى أحد الأئمة بينما لا يصل إلى غيره أو يصل إليهما، ولكن يصل إلى إحدهما عن طريق لا تقوم به الحجة بينما يصل إلى الآخر عن طريق تقوم به الحجة أو يصل إليهما من طريق واحد، ولكن يرى أحدهما أن فى بعض رواته ضعفًا لا يراه الآخر، أو يصل إليهما من طريق واحد متفق على أوصاف رجاله غير أن أحدهما يشترط فى العمل بمثله شروطًا لا يشترطها الآخر كعرضه على كتاب الله أو فقه المحدث أو اشتهار الحديث فيما تعم به البلوى وعدم الإرسال وغير ذلك.

ثانيًا: الاختلاف الذى يخص السنة من جهة الفعل: فإنه بالرجوع بالنص إلى فعل الرسول ودلالته بالنسبة إلى الأمة يتبين ما يأتى: فعل ثبت أنه من خواصه عليه السلام وذلك كوجوب صلاة الضحى والتهجد بالليل، والزاوج بما فوق الأربع أو بغير مهر وهذا القسم لا يدل فيه على مشاركة الأمة له، ولكن قد يقع الخلاف بين العلماء فى أن الفعل خاص به أو عام يشمل أمته.

وهذا القسم قد اختلف العلماء فى صفته بالنسبة إلى الأمة على أقوال: قيل يدل على الوجوب وقيل يدل على الندب، وقيل يدل على الإباحة أنه إن كان قربة أى من جنس ما يتقرب به إلى الله ولم يواظب عليه دل على الندب فى حق الأمة وإن لم يكن من جنس القربات دل على الإباحة بالنسبة لها وإنما كان هذا هو المختار لأن المتيقن من صدور الفعل منه ﷺ إباحته فلا يثبت ما زاد عليه إلا بدليل.

وبهذه القاعدة التى ذكرناها لأفعال الرسول ﷺ يعرف منشأ اختلاف الأئمة فيما ورد منها بالنسبة للأمة.

ثالثًا: الاختلاف الذى يخص السنة من جهة التقرير: أما التقرير وهو سكوته ﷺ عن الإنكار عند رؤيته شخصًا يفعل شيئًا فقد اتفق العلماء على أنه يدل على إباحة ذلك الفعل لأن النبى ﷺ لا يقر أحدًا على فعل منكر فى الدين وشرطوا لذلك أن يكون قادرًا على الإنكار وأنه لم يعلم تقدم إنكاره على ذلك الفعل، فإن

لم يكن قادراً على الإنكار أو كـان قادراً ولكن علم تقدم إنكاره عليـه فإنه لا يدل على إباحة الفعل.

الإمام شلتوت وقضية التجديد:

وفى بحثه حـول الإمام محمود شلـتوت وقضية التـجديد قال الدكتور مـحمد الشحات الجندى عضو مجمع البحوث الإسـلامية كان شلتوت من التلاميذ النابهين لمدرسة التجديد اقتـفى أثر أساتذته المصلحين أمثال رفاعة الطهطاوى ومـحمد عبده ومصطـفى المراغى وعبـد المجيد سليـم ومصطفى عـبد الرازق الذين وعـوا رسالة الإسلام فقامـوا بتنبيه وايقاظ النفوس وتحرير الإنسـان والوطن، من ربقة الاحتلال الاجنبى ومن سلطان الجمود والتـقليد واستعادة نهـضة الوطن والأمة ارتكازا على هدى الإسلام ورسالته الخالدة.

وانطلق شلتوت فى نظره للإسـلام وعرض مبادئه ومذهبـه فى الدين والحياة من حقيقة ناصعة هى أن هذا الدين هو دين العقل والعلم واليقين والحجة كونه يؤسس الإيمان عن بصر وبصيرة وعن تفكير وبرهان فهذا سبيل وطريق المسلم الحق: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨].

لذلك كان منهج الشيخ وتقريراته فى كل أحاديثه أو كتاباته أو بياناته أن الإسلام دين العلم يحارب الجهل ويتأبى على الخرافـة وأنه حرب على الجمود والتقليد وها هى عبارته الصريحة فى نبذ الجمـود بأبلغ تقرير يقول: فالجمود جناية على الفطرة البشـرية وسلب لمزية العقل التى أمـتاز بها الإنسـان وإهدار لحجة الله على عـباده وتمسك بما لا وزن له عند الله وانتـصر الشـيخ شلتوت لفكر الـتجديد الإسـلامى وانشغل بـه وأشاعه بين تلامـذته ومريديه وكـان إيمانه بالتـجديد نابعًـا من دعوة الإسلام أتباعه إلى سلوك طريقه وتكريس مذهبـه فى العقائد والعبادات والمعاملات وقد أرسى هذه الدعوة الرسول ﷺ: «إن الله يبـعث على رأس كل مائة عام لهذه الأمة من يجـدد لها أمر دينها» فـلابد من قائم به ممن تعمق فى فـقه الدين وتحلى بملكة العلم وفقـه مراد النص وحاز ذكـاء العقل وتوقد الذهن، وخـبر واقع الناس

وأدرك أحوالهم، وأحاط بمطالب الحياة، ومتطلبات العصر، وهو موجود لا محالة بعد كل مائة سنة وقائم على هذا الأمر.

وقد تعددت مناحى التجديد لدى الإمام ولقد خاض غمار بحاره حتى فى أصل الأصول فى الإسلام وهو العقيدة وتعداها إلى المعاملات واقتصاد الأمة وفى مسائل أخرى.

وفى بحثه حول الشيخ محمود شلتوت مجتهد الفتوى قال الدكتور محمود رأفت عثمان عضو مجمع البحوث إن الشيخ محمود شلتوت أحد الأعلام فى سلسلة الذين نادوا بإصلاح الأزهر وتطوير نظامه فمن المعلوم أن الأزهر الشريف ليس هو الهيكل المادى المكون من الأحجار والأخشاب وغيرها من مواد البناء الأخرى وإنما هو العلم والثقافة والفكر والتعرف على رياض الشريعة الغنَّاء فى العقيدة والتفسير، والحديث، والفقه، وأصول الفقه، والنحو، والصرف، والبلاغة، والأدب، والتاريخ، والمنطق، والفلسفة، وسائر ما يموج به هذا المعهد العريق من علوم وفنون وآداب.

وإذا كان الأزهر مثابة للناس فى بيان الأحكام وتدريس العلوم المختلفة فإنه بهذا الوصف يكون كائنا حيا قابلاً للنمو والتطور والتغير كما تتطور وتتغير سائر الأحياء لأن طبائع الأشياء تقتضى التطور وإذا لم يتطور الشيء بذاته احتاج إلى التطوير إلى الأفضل والأكمل فمبدأ التغيير قانون أزلى تخضع له الأشياء فالصحارى تتطور، والمدن، والقرى، والنجوع، والإنسان ذاته فى حياته أطوار، ولا يوجد موجود لا يجوز عليه التغيير إلا الخالق الأعظم تبارك وتعالى عن ذلك علوا كبيراً.

ولهذا المعنى وجدنا الأزهر الشريف تعتريه رياح التغيير والتطوير فى أدائه لمهمته العلمية الكبيرة فلم يكن فى عهد الأزهر الأول توجد امتحانات للطلاب بل كانت الاجازة العلمية يعطيها الشيخ لتلميذه للدلالة على أنه فهم نصًا معينًا وتؤهله هذه الإجازة للقيام بالتدريس وكان أول قانون نظم الدراسة فى الأزهر هو القانون الذى أصدره الخديو إسماعيل حاكم مصر سنة ١٢٨٨هـ الموافق ١٨٧٢م وآخر قانون ينظم الأزهر والهيئات التى يشملها هو القانون رقم ١٠٣ الصادر فى سنة ١٩٦١م.

فصل الشيخ شلتوت من الأزهر لمناداته بالإصلاح:

كان الذين ينادون بالتغيير والتطوير للأزهر الشريف يلاقون فى بعض الأحيان معارضة شديدة من بعض الشيوخ فى الأزهر الذين يتخوفون من التغيير ويحرصون على بقاء الموجود على حاله وينتهى الأمر بحدوث التغيير والتطور إلى الأفضل فى أداء الأزهر الشريف لمهامه العلمية.

الشيخ شلتوت فقيها:

على الرغم من أن الشيخ محمود شلتوت تعددت مواهبه العلمية فى مجالات مختلفة فنراه مفسراً للقرآن الكريم ومشتغلا باللغة العربية حتى اختير عضواً فى المجمع اللغوى بالقاهرة ونراه كذلك ناشراً للثقافة الإسلامية عن طريق الصحف والإذاعة وداعيًا إلى الإسلام فإننا مع ذلك نجد أنه غلبت عليه صفة الفقيه ولعل ذلك يرجع إلى نشاطه العلمى الذى قام به بعدما نقل من معهد الإسكندرية الدينى إلى القسم العالى بالقاهرة وتمثل هذا النشاط العلمى فى قيامه بالتدريس لمادتى «الفقه والأصول» وقيامه أيضًا بالتأليف فى مجال المسائل الخلافية ومقارنة المذاهب الفقهية الإسلامية وتصديه للفتوى فى المسائل التى ترد إليه من المستفتين وهى فى كثير من نواحيها مسائل فقهية فى أبواب الطهارة والعبادات والمعاملات وفقه الأسرة وغير هذا من قضايا تحدث للناس فى حياتهم اليومية الخاصة والعامة وليست قضايا عقدية إلا فى حالات قليلة بالنسبة إلى مسائل الفقه وقضاياه الكثيرة.

الشيخ محمود شلتوت مجتهد فتوى:

تحتاج الأمة الإسلامية فى كل عصر إلى من يبين للناس أحكام الدين فى معاملاتهم وصلاتهم بعضهم ببعض وصلاتهم جميعًا بالخالق تبارك وتعالى ومن المعلوم أن التصرفات تتجدد والأحداث تختلف من عصر إلى عصر ويحدث للناس والمجتمعات قضايا مختلفة باختلاف البيئات والأعراف والثقافات، فكان من اللازم وجود المجتهدين فى كل عصر ليساعدوا الناس على التعرف على أحكام دينهم ولهذا وجدنا علماءنا القدامى يبينون أن الاجتهاد فرض فى كل العصور، ويؤلف جلال الدين السيوطى كتابًا بعنوان «الرد على من أخلد إلى الأرض وجهل أن

الاجتهاد فى كل عصر فرض» وكان الشيخ محمود شلتوت أحد العلماء الذين دخلوا من باب الاجتهاد وثقف نفسه ثقافة علمية دينية عالية المقدار مما مكنه من أن يفتى الناس فى أمور دينهم.

فالشيخ محمود شلتوت لم يكن إذا مجتهدًا اجتهادًا مطلقًا ولا مجتهدًا اجتهاد مذهب ولكنه وصل بعلمه إلى درجة مجتهد الفتوى.

وفى بحثه قال فضيلة الإمام الأكبر الدكتور محمد سيد طنطاوى شيخ الأزهر أن هناك علماء منحهم الله -عز وجل- الإيمان الصادق، والعلم النافع، والقلب السليم، والعقل المستنير، والدفاع عن شريعة الإسلام بأسلوب حكيم، وبحجة تقنع «من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد» وعلى رأس هؤلاء العلماء فى العصر الحديث الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت -رحمه الله وطيب ثراه.

فقد كان -رحمه الله. . إلى جانب رسوخه فى العلوم الشرعية واللغوية -حافظًا للقرآن الكريم، وفاقها للسنة النبوية المطهرة.

ومن مؤلفاته فى تفسير القرآن الكريم كتابان لهما مكانتهما العالية فى هذا العلم.

أحدهما بعنوان: «تفسير القرآن الكريم» وعدد صفحاته تقارب سبعمائة صفحة وقد تم طبعه بمطابع دار القلم سنة ١٩٦٠م.

وقد ختمه بقوله: «وبعد: فنختم هذه الجولة فى كتاب الله، بالدعاء الذى علمنا إياه رسول الله ﷺ «اللهم إنى عبدك وابن عبدك، وابن أمتك، ناصيتى بيدك، ماض فى حكمك، عدل فى قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته فى كتابك، أو علمته أحدًا من خلقك، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبى، ونور بصرى، وجلاء حزنى وذهاب همى وغمى) اللهم آمين. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وهذا الكتاب النفيس تناول تفسير الأجزاء العشرة الأولى من القرآن الكريم:

وثانيهما بعنوان: «من هدى القرآن الكريم» وعدد صفحاته ثلاثمائة وستون صفحة وطبع بدار الكتاب العربى سنة ١٩٦٨:

وفى هذا الكتاب تناول فضيلته تفسير خمس وعشرين سورة مجملة، ثم اتبعها بأكثر من ثلاثين موضوعًا، جعل عنوانها «منهج القرآن فى بناء المجتمع» تحدث فيها عن:

- مكانة العلم فى نظر القرآن. .

- أساليب القرآن فى الدعوة إلى الإنفاق.

- القرآن وعلاقة الرجل بالمرأة. . إلخ.

- وفى هذا الكتاب الثانى وضح فضيلته الطريقة التى يرتاح إليها فى تفسير القرآن فقال تحت عنوان «الطريقة المثلى فى تفسير القرآن»:

لتفسير القرآن الكريم طريقتان: إحداهما: أن يسير المفسر بتفسيره مع آيات الذكر الحكيم وسوره على الترتيب القرآنى المعروف، فيفسر المفردات، ويربط بين الآيات، ويبين المعانى التى تدل عليها.

وهذه هى الطريقة التى عهدها الناس منذ كان التفسير وكان المفسرون، ومن مظاهرها: اختلاف طرق التفسير باختلاف روح المفسرين.

فمن بلغت عليه روح العلوم البلاغية عنى فى تفسيره بإعراب الكلمات وتصريفها.

ومن غلبت عليه الروح التاريخية، عنى بالقصص والأخبار.

ومن غلبت عليه الروح الفلسفية، حبب إليه البحث فى الكائنات.

ومن غلبت عليه روح الجدل الكلامى أو الفقهى، تأثر تفسيره بما غلب عليه، وبهذه الأساليب المختلفة، المتأثرة بهذه الاتجاهات المتعددة، صعب على الناظر فى هذه التفاسير، أن يجد هداية القرآن على الوجه الذى يطمئن إليه قلبه، ويشق له طريق الحياة، ويلهمه الرشد والسداد.

ولقد نجم عن هذه الطريقة، أن عدل ببعض الآيات عن معانيها وأغراضها التى سيقت لها، وكثيرًا ما يتم تفسير الآية على مقتضى القواعد الأصولية التى استخصلها أرباب المذاهب من الفروع الفقهية، واتخذوها أصولاً تحاكموا إليها فى فهم القرآن والسنة واستنباط الأحكام.

أما الطريقة الثانية فهى: أن يعمد المفسر أولا إلى جمع الآيات التى وردت فى موضوع واحد، ثم يضعها أمامه كمواد ويفقه معانيها، ويعرف النسبة بين بعضها وبعض، فيتجلى له الحكم، ويتبين المرمى الذى ترمى إليه الآيات الواردة فى الموضوع، وبذلك يضع كل شىء موضعه، ولا يكره آية على معنى لا تريده، كما لا يغفل عن ميزة من مزايا الصوغ الإلهى الحكيم.

وهذه الطريقة فى نظرنا هى الطريقة المثلى، وخصوصًا فى التفسير الذى يراد إذاعته على الناس، بقصد إرشادهم إلى ما تضمنه القرآن الكريم من أنواع الهداية، وإلى أن موضوعات القرآن ليست نظريات بحتة، يشتغل بها الناس من غير أن يكون لها مثل واقعية، فيما يحدث للأفراد والجماعات من أقضية، ويتصل بحياتهم من شئون.

وهذه الطريقة تمكن المفسر من علاج موضوعات علمية كثيرة، كل موضوع منها قائم بنفسه ولا يختلط بغيره، فيعرف الناس موضوعات القرآن بعناوينها الواضحة، ويعرفون مقدار صلة القرآن بحياتهم الواقعية.

وفى بحثه حول الشيخ محمود شلتوت تجديد الدنيا وتجديد الدين قال الدكتور محمد عمارة: إن الشيخ محمود شلتوت كان رائدًا من رواد النهضة الإسلامية، وواعيًا بأننا إذا لم نقدم الإسلام نموذجًا حضاريًا لنهضة الأمة الإسلامية، فإن النموذج التغريبى اللادينى، الذى يبشر به الاستعمار والمتغربون من أبناء الشرق، جاهز لملء الفراغ الذى يصنعه الجمود والتقليد، ولذلك كان جهاده -على امتداد ما يقرب من نصف قرن جهادًا كبيرًا من أجل تجديد دين الإسلام لتتجدد به دنيا المسلمين، وكثيرًا ما تحدث عن الإسلام باعتباره «دين الفكر، ودين العقل، ودين العلم» وعن رسول الإسلام ﷺ الذى لم يقدم حجة على رسالته إلا ما كان طريقها العقل والنظر والتفكير، والذى لم يشأ له ربه أن يحقق للقوم ما كانوا يطلبون من خوارق حسية تخضع لها أعناقهم.

فعندما تولى الشيخ محمود شلتوت منصب الإمام الأكبر شيخ الجامع الأزهر، ومن موقعه -كشيخ للأزهر- بدأ خطواته لتحقيق المشاريع الإصلاحية والتجديدية، التى طمح إليها.

ولم يتمكن من تحقيقها حتى ذلك التاريخ، ومن ذلك مشروع إنشاء «مجمع البحوث الإسلامية» الذى أراده الهيئة العلمية العليا الجامعة لكبار علماء الأمة الإسلامية على اختلاف أقطارهم ومذاهبهم -وهو المشروع الذى سبق واقترحه عندما عين وكيلاً للأزهر- فكان إنشاء هذا «المجمع» ضمن هياكل مشروع تطوير الأزهر، الذى صدر به القانون رقم ١٠٣ لسنة ١٩٦٦١م وهو التطوير الذى حلم به الشيخ شلتوت وتيار الإصلاح الذى بدأه الإمام محمد عبده والذى تمنى تخريج علماء يجمعون بين علوم الدين وعلوم الدنيا، ودعاة الإسلام: يجمعون -إلى فقه الدعوة- حذق العلوم التقنية والإدارية الحديثة والعصرية واللغات الأجنبية، وذلك لمواجهة حركات التنصير- خاصة فى إفريقيا وآسيا- تلك التى جمع قساوستها، وجمعت مدارس ارسالياتها بين علوم اللاهوت وتقنيات العصور وعلومه، فامتلك خريجوها المتنصرون زمام الدول ومؤسساتها، بينما وقف المسلمون، هناك بأبنائهم عند «الكتاتيب» و «الخلاوى» مكتفين بحفظ القرآن وشىء من الفقه والتفسير والحديث، تاركين الدولة ومؤسساتها للأقليات النصرانية، وذلك خوفًا على عقيدتهم من التنصير الذى اقترن التبشير به بدراسة علوم الإدارة، والتقنيات الحديثة فى مدارس الإرساليات التنصيرية!

فجاء قانون التطوير للأزهر -الذى رعاه الشيخ شلتوت والذى وضع مواده وكتب مذكراته الإيضاحية- واحد من أبرز الغيورين على الإسلام وفكره وتراثه، وهو الأستاذ محمد سعيد العريان ليجعل الأزهر مؤسسة الإسلام العالمية الكبرى، وليجعل جامعته بكلياتها الشرعية والمدنية- المنبع الذى يلبى احتياجات المسلمين فى علوم الدين والدنيا، فجاء فى المادة الثانية من هذا القانون -عند الحديث عن رسالة الأزهر:

الأزهر هو الهيئة الإسلامية الكبرى التى تقوم على حفظ التراث الإسلامى ودراسته، وتجليته ونشره، وتحمل أمانة الرسالة الإسلامية إلى كل الشعوب، وتعمل على إظهار حقيقة الإسلام وأثره فى تقدم البشر، ورقى الحضارة، وكفالة الأمن والطمأنينة وراحة النفس لكل الناس فى الدنيا والآخرة، كما تهتم ببعث الحضارة العربية، وإظهار أثر العرب فى تطور الإنسانية وتقدمها، وتعمل على رقى

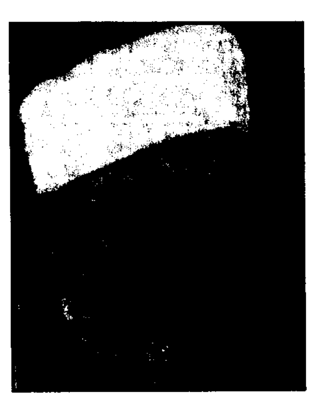
الآداب وتقدم العلوم والفنون، وخدمة المجتمع والأهداف القومية والإنسانية والقيم الروحية، وتزويد العالم الإسلامى والوطن العربى بالمختصين وأصحاب الرأى فيما يتصل بالشريعة الإسلامية، والثقافة الدينية والعربية ولغة القرآن وتخريج علماء عاملين متفقهين فى الدين يجمعون -إلى الإيمان بالله والثقة بالنفس وقوة الروح- كفاية علمية وعملية ومهنية، لتأكيد الصلة بين الدين والحياة، والربط بين العقيدة والسلوك، وتأهيل عالم الدين للمشاركة فى كل أسباب النشاط والإنتاج والريادة والقدوة الطيبة للمشاركة فى الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، كما تهتم بتوثيق الروابط الثقافية والعلمية مع الجامعات والهيئات العلمية الإسلامية والعربية والأجنبية[1].

... تغمد الله الشيخ بواسع رحمته ودائمًا نقول موت الأمة بموت العالم.

❁❁❁

(١) صوت القاهرة: تحقيق فى ص١٢ بتاريخ ٢٥/ ٤/ ٢٠٠٨م.

٣٨- فضيلة الإمام الأكبر الشيخ حسن مأمون



الإمـام الأكـبر شـيخ الجـامع الأزهر صـدر قـرار جـمهـورى فى شهـر صـفر ١٣٨٤هـ يوليـو ١٩٦٤ بتعـيين فضـيلة الأستاذ الأكبـر الشيخ حسن مـأمون شيخًا للأزهر، ويعتبر فضيلته الشيخ التاسع والثلاثين فى تعـداد شـيـوخ الأزهر، ومن الجـدير بالذكـر أن منصب شيخ الأزهر شاغر منذ ١٣ ديسمبر الماضى إثر وفاة فضيلة الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت.

وفضـيلة الإمام الأكـبر الشـيخ حسن مـأمون من مـواليد ١٨٩٤ بحى الخليـفة بالقاهرة، وظل يعمل فى مناصب القـضاء بمصر والسودان خمسـة وأربعين عاما، وفى عام ١٩٤١ عـين قاضيًـا لقضاة السـودان وظل فى منصبـه ست سنوات عاد بعدها إلى القـاهرة -بعد موقفـه الوطنى المعروف- رئيسًـا لمحكمة مصر الابتـدائية الشرعيـة، ثم عضوا فى المحكمة الشرعـية العليا ثم نائبًا لها ثم رئيـسًا، وفى عام ١٩٥٥ عين مفتيًا للديار المصرية خلفًا لصاحب الفضيلة الشيخ حسنين مخلوف إلى أن أحيل إلى الاسـتيداع وكـان أن صدر القرار الجـمهـورى فى أواخر شهـر يوليو الماضى بتعيينه إمامًا أكبر وشيخًا للجامع الأزهر.

وينص قانون تـطوير الأزهر الذى صدر فى يونيو ١٩٦١ عـلى أن شيخ الأزهر هو الإمام الأكـبر وصـاحب الرأى فى كل ما يتـصل بالشئـون الدينية والمشتـغلين بالقـرآن وعلوم الإسـلام، وله الرياسة والـتوجـيـه فى كل ما يتـصل بالدراسـات الإسلامية، ويرأس المجلس الأعلى للأزهر.

وقد صـدر مع القرار الجمهـورى قرار آخر فى ١٤ يوليو ١٩٦٤ كـان لصدروه بتعيين العالم الأديب فضيلة الشيخ أحـمد حسن الباقورى مديرًا لجامعة الأزهر هزة سرور غمرت الأوساط الأزهرية وغير الأزهرية.

والذى لا شك فيه أن الجامعة الأزهرية فى تطورها الجديد -حيث أريد لها أن تدخل معترك الحياة فى شتى ميادين المعرفة، كانت فى حاجة إلى عالم أديب كالشيخ الباقورى، عرف عنه بالإضافة إلى علمه، سعة أفقه، ومرونة تفكيره، وتمتعه بطاقة كبرى من الحيوية والنشاط.

وقال عنه الدكتور عبد الله سلامة:

تحليل تاريخى: كما تعودنا أن نقدم لكل موضوع أو بحث نبذة تاريخية عن العصر الذى عاش فيه شيخ الأزهر صاحب المقال. ودور الأزهر وعلمائه فى خدمة الإسلام والمسلمين. . نشير إلى أن الأزهر وعلمائه فى خدمة الأزهر ثالث المساجد الكبرى التى بنيت فى مصر منذ الفتح الإسلامى، والأزهر: معلم الدنيا فى الهداية والإرشاد، ومنار من منارات العلم والعرفان، ومن حصون الدفاع عن الأمة، ومن الثابت تاريخيا. . أن الفاطميين فتحوا مصر وخططوا لأن تكون منطلقا للدعوة إلى المذهب الشيعى، وبسطوا نفوذهم على مصر ومن حولها، فبنوا الجامع الأزهر، لإقامة شعائر المذهب الشيعى التى لم ترحب به الجوامع الأخرى، مثل جامع عمرو ابن العاص، وهو أول جامع بنى بالقاهرة، ويليه جامع ابن طولون، وبعد أن استقرت أقدام الفاطميين فى مصر جعلوا من الأزهر مركزا لبث مذهبهم، ونشر تعاليمه بين الناس، ولقد استفاد الفاطميون من تجربتهم فى بلاد المغرب وهى عدم إمكان فرض مذهبهم على السكان بالقوة، ولأنهم اصطدموا بردود الفعل الشعبية وبوقوف رجال الفقه، ورجال الدين فى وجههم، ولقد رصد الفاطميون لنشر مذهبهم الشيعى جهودا جبارة لكنهم لم يفلحوا، ولم نر له أى أثر على الشعب المصرى وعقيدته، واتجهت مصر إلى المذهب السنى، بفضل الأزهر، والأزهر هدية مصر للعالم الإسلامى، فقد فتح أبوابه لكل الأجناس وقدم العلم، والزاد والمأوى لأعداد لا يحصيها الحصر، ولم يوصد بابا أمام أى طالب علم، وخرج قادة وقمما فى الفكر والأدب والسياسة.

إن الكتابة عن الأزهر متعة يحييها أتباعه، وعارفو فضله، وأنا أقدم على كتابة هذا المقال كأنى أقدم على حفل بهيج أو روضة فيحاء، ولكن حبى للأزهر وولائى له وعمق اعترافى بفضله على شخصى وعلى المسلمين جميعا فى الماضى، تجعل من مقالى محاولة ليستكمل الأزهر جلاله، والله يشهد إنى لا أريد إلا الخير، وحديثى عن الأزهر وشيوخه، حديث عارف به، وأنا طالب أطلب العلم فيه وأستاذ به حديث رجل ارتبط به منذ الخمسينيات، وحتى نهاية الحياة، وأدعو الإخوة الأزهريين لدراسة ما أكتب دون حساسية، ولقد قدمت فى مقالاتى السابقة كثيرا من الاقتراحات ليكون للأزهر مكانه اللائق، وليصبح امتدادا عظيما لجذوره العظيمة. . ارتبط هذا بكل تقديم أمهد به للحديث عن كل إمام من أئمة الأزهر الأجلاء، ونحن الآن نكتب عن الإمام الثامن والثلاثين للأزهر الشريف.

«الشيخ حسن مأمون»

نسبه وبيئته ونشأته وتوليته المشيخة:

فى مدينة الألف مئذنة وفى بيت من بيوت العلم والسيادة، ولد الصبى «حسن مصطفى مأمون» فى ١٢ يونيو سنة ١٨٩٤م وكان والده الشيخ مصطفى مأمون من علماء الدين المعروفين، وكان إمام لمسجد الفتح بقصر عابدين وهو المسجد الذى يؤدى فيه الصلاة ملك مصر -الملك فؤاد، وبعده الملك فاروق- وإمام هذا المسجد يراعى فى اختياره العلم الغزير والخلق الكريم والأدب العظيم، وقد ورث الابن عن أبيه هذه الصفات ونماها بالدراسات العلمية، والتجارب العملية، وقد عنى والده بتربيته تربية دينية قويمة، فحفظ القرآن وجوده، ويقول المؤرخون. . إن الشيخ حسن قد دخل الأزهر فى بداية حياته، ولما قطع المرحلة الثانوية -اتجه إلى مدرسة القضاء الشرعى- وكانت غصنا يانعًا فى دوحة الأزهر الشريف، وحرص القائمون عليها على اختيار أفضل الأساتذة الممتازين للتدريس بها وجذبوا إليها صفوة طلاب الأزهر، وقد أقبل الشيخ حسن على الدراسة بها بجد ونهم، حتى تخرج فيها سنة ١٩١٨م وإضافة إلى هذا أتقن اللغة الفرنسية، وقد

درس فى الأزهر على مشاهير علمائه، فوجدوا فيه ذهنًا متفتحًا، وقريحة متوقدة، وعقلية قضائية، ظهرت بشائرها فى بواكير شبابه، وقد آثر دراسة العلوم الفقهية، وأحبه أساتذته وأحبهم وتنبأوا له بمستقبل زاهر فى القضاء، وفى الرابع من أكتوبر سنة ١٩١٩م، عين موظفًا قضائيًا بمحكمة الزقازيق الشرعية، وفى ١/ ٧/ ١٩٢٠ نقل إلى محكمة القاهرة الشرعية وفى ١٤/ ٣/ ١٩٢١م تمت ترقيته إلى قاض من الدرجة الثانية، ونقل إلى محكمة طنطا الشرعية وفى ١٨/ ١١/ ١٩٢٩ نقل إلى محكمة مصر الشرعية وفى نفس الشهر تمت ترقيته إلى قاض من الدرجة الأولى بمحكمة القاهرة الشرعية وظل بها حتى ارتقى إلى منصب قاض سنة ١٩٣٩م وكانت شهرته العلمية وفضائله الخلقيه، ومعارفه الفقهية كفيلة بلفت الأنظار إليه، فصدر مرسوم ملكى بتعيينه قاضيًا لقضاة السودان ٣/ ١/ ١٩٤١م فقام بواجبه خير قيام، وكانت له مواقف خير قيام، وكانت له مواقف وطنية رائعة، زعزعت المستعمرين، فحقدوا عليه، ولأنهم كانوا يخشون الثورات الوطنية فى الوقت الذى اشتدت فيه وطأة الحرب العالمية الثانية، فأصدر المستعمر قرارًا بعدم تعيين أحد المصريين فى هذا المنصب، وجعلوه مقصورًا على من يختارونه، من السودانيين ولما عاد -حسن مأمون إلى القاهرة، تم تعيينه رئيسًا لمحكمة القاهرة الشرعية الابتدائية فى ١٧/ ٢/ ١٩٤٧م فى نفس العام، تمت ترقيته إلى عضو بالمحكمة الشرعية العليا، وفى ١٣/ ٥/ ١٩٥١م عين نائبًا لرئيس المحكمة الشرعية العليا، وفى ٢٦/ ٢/ ١٩٥٢م عين رئيسًا لها، ولما قربت سن إحالته إلى المعاش فى ١٢/ ٦/ ١٩٥٤م طلب وزير العدل من مجلس الوزراء مد مدة عمله سنة أخرى للحاجة الماسة إليه، فوافق المجلس على ذلك فى ١٩/ ٥/ ١٩٥٤م وفى سنة ١٩٥٥ أسند إليه منصب «مفتى مصر»، للانتفاع بكفاءته الممتازة وواسع خبرته، ووافق مجلس الوزراء بقرار رقم ٣٢٣ لسنة ١٩٥٥م على إنهاء خدمته، وتعيين فضيلته مفتيًا للديار المصرية لمدة سنتين اعتبارًا من أول مارس سنة ١٩٥٥م[1].

(١) صوت الأزهر: د. عبد الله سلامة نصر ص١٢ ٣٠/ ٥/ ٢٠٠٨.

ومع المناصب العليا التى شغلها فإنه كان حريصا على القاء الدروس على طلبة قسم القضاء وبتخصص كلية الشريعة، وأيضا كان أشد سعادة وهو رئيس لمجلس إدارة مسجد الإمام الشافعى والذى ظل متمسكًا به طوال حياته.

توليته المشيخة:

وقد اعتلى الإمام الشيخ حسن مأمون -كرسى مشيخة الأزهر خلف للإمام الشيخ محمود شلتوت فعمل جاهدًا على إعلاء شأن الأزهر، وإزالة المصاعب التى كانت تعترض طريقه وتعوق تقدمه.. بعد أن صدر القرار الجمهورى فى ٢٦/ ٧/ ١٩٦٤م وكان القانون ١٠٣ لسنة ١٩٦١ الخاص بإصلاح الأزهر، قد سار خطوات فى سبيل التنفيذ، فقاد الإمام هذه الحركة الإصلاحية فى رفق ولين، وذلل كثيرا من العقبات التى اعترضت طريق التطوير، كما سخر قلمه ولسانه لحركة الإصلاح وكان ممن أحبوا الإمام محمد عبده، وآثروا منهجه فى البحث والدروس وطبق هذا المنهج ونفذه بكل دقة وأمانة.. وكان دينه أشد سلطانا عليه من منع الدنيا ومناصبها الزائلة، وضرب لهذا مثلا رائعا، فقد أراد أحد البارزين من مجمع البحوث الإسلامية، أيام الرئيس جمال عبد الناصر حيث طلب هذا العضو أن يقرر المؤتمر أن «الاشتراكية» هى روح الإسلام فغضب الإمام وأعلن فى المؤتمر أن الإسلام فوق الاشتراكية وغيرها من المذاهب الحديثة، وكان لا يشك فى أن هذا التصريح منه سيغير عليه المسئولين ولكنه كان لا يخشى فى الله لومة لائم، ولا سلطان حاكم، وكانت له مميزات أخرى كثيرة.. منها إنه كان حريصا على رئاسة مجلس إدارة مسجد الإمام الشافعى، وحضور ذكرى مولده كل سنة ومنها أيضا إشرافه على الموسوعة الفقهية التى كان يصدرها المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، حول المذاهب الفقهية الثمانية، وظل هكذا حتى فارق الحياة، ولا ننسى فتاواه التى أربت على أربعة آلاف مسألة، والتى كانت من الدقة والعمق بحيث نالت إعجاب العدو قبل الصديق، وكذا مواقفه الإسلامية والوطنية، التى يذكرها له التاريخ، ولما دبر اليهود إحراق المسجد الأقصى.. وجه الإمام حسن مأمون نداء قويا إلى المسلمين جميعا فى سائر البلدان، قال فيه: «إن

الله فرض الجهاد على كل مسلم عند أى اعتداء على أى بلد إسلامى، وهو فرض حتى يستردوا كل شبر من أراضيهم التى احتلها العدو، وإن إحراق بيت من بيوت الله وبخاصة هو أولى القبلتين، وثالث الحرمين «جريمة عظيمة لا تغتفر لكل من يتقاعس ويخذل فى الدفاع عنه».

ولما وقع العدوان على مصر سنة ١٩٦٧م وجه الإمام نداءًا متكررا إلى الحكام العرب والمسلمين.. ويناشدهم فيه باستخدام سلاح البترول، قال: «أيها المسلمون إن مصر لا تحارب إسرائيل وحدها إنها تكافح العدوان الموتور، الممثل فى أمريكا وبريطانيا»، وكان قطع البترول سلاحا فتاكا حقق النصر ورد للعرب كرامتهم.

آثاره العلمية.. وتأثيره:

إن من أبرز صفات الإمام حسن أنه فقيه مستنير، قد قضى كل حياته الوظيفية قاضيًا يستعرض أدلة الفقهاء، فى المذاهب المختلفة، ويوازن بينها موازنة دقيقة معتمدًا على نصوص القرآن الكريم والحديث الشريف والتشريع الإسلامى. وكان ذا بصيرة ملهمة فى فقه النصوص الدينية، يتجلى هذا فى فتاواه، كما يتجلى فى قضاياه، أما فقهه للقرآن الكريم.. فنراه واضحًا فى تفسيره لسور الضحى والانشراح، والقدر ونلاحظ أسلوبه فى التفسير.. أسلوبا موجزًا سهلا واضحًا.. يعنى بعرض المعانى الكلية دون دخول فى التفصيلات مع اتجاهه للتفكير المنطقى والدليل العقلى، دون تكلف أو افتعال.. وكذا إلمامه بالحديث الشريف. فيتجلى فى جميع فتاويه، فهو يستند فى كل رأى من آرائه إلى القرآن الكريم.

أما فقهه: فيبدو واضحًا فيما أصدره من فتاوى وفيما كتبه فى الموسوعة الفقهية التى يصدرها المجلس الأعلى للشئون الإسلامية وأنه لا يتقيد بمذهب معين، فهو يلتمس الحقيقة أنى وجدها فى أقوال بعض الصحابة أو التابعين، ويؤيد رأيه، بعد ذلك بالأدلة عقلا ونقلا.. ولو أمكن جمع فتاويه كلها وتنسيقها لكانت ثروة فقهية قيمة، ولأفادتنا فى حل كثير من المشكلات العصرية التى تشغل فكر كثير من الباحثين، ولقد طبع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

الجزء الأول منهـا. ولعله يطبع باقى الأجزاء وكان رحـمه الله ذا بصيرة ملهـمة وكان يخشى أن يلعب الاستعمار لعبته القـديمة، محاولا إيقاظ الفتنة والعصبية الدينيـة فى نفوس أقـباط مـصر، ويشـعل بينهم وبين المسلمـين نيران الخـلاف والانشقاق أثناء انشـغال الشعب الصرى فى صد العـدوان عام ١٩٦٧م وحدث ذلك فعـلا. . سنة ١٩٧١ فى عهد الشيخ الإمـام «الفحام» وكان الإمـام الشيخ حسن مأمون يخشى هذه الفـتنة، وكان ينتهز فرصة المواسم المسيحـية. . فيوجه فيها إلى المـسيحيين التهنئـة ويذكرهم بالروابط الوثيقة بين المسيـحية والإسلام، ولقد نهج هذا النهج وتوثقت الروابط والصـلات الجيدة فى عهد الإمـام الأكبر د. سيد طنطاوى والشواهد تؤيد ذلك.

ومن شدة حـرصه على الفتـوى ينظر فى أمر صـاحبهـا ليرى ماذا يقـصد من الاستـفتاء، فـإذا أيقن أنه يريد أن يستغـل الفتوى فى أمـر دنيوى، أو تدبير كـيد سياسى، امتنع أن يصدر فـتواه خشية أن يأخذها المستفتى كفرصـة كما يقال «كلمة حق أريد بهـا باطلا» والأمثلة كـثيـرة لا يتـسع المقام لحـصرها. . ولنسـوق بعض النماذج فى فتاوى تشغل أذهان الناس:

١- هل يصل ثواب قراءة القرآن الكريم للميت:

والمتفق أنه لم يرد. . وهناك مسائل خلافية فى هذا الرأى.

٢- سئل عن حكم الشرع فى ختان الإناث والذكور.

٣- هل تجوز الصلاة خلف المذياع والمقام لا يتسع الرد.

ومن أراد فلينتظرها فى مظانها.

وهذا يدل على سعة أفقـه وغزارة علمه، وقوة حجته فى عـبارات موجزة دون مثل. . كـما يدل أنه لا يحصر نفـسه فى نطاق مذهب معـين. . وإنما يبحث عن الحقيقة حتى يجدها.

٤- وأما مسـألة تحديد النسل فقد أدلى العلماء جـميعا برأيهم فيـها أما هو فلم يترك الأمـر على إطلاقه وأنه عـالج هذه القضيـة حسب ظروف الناس والمجـتمع والزمن بالدليل من القـرآن والسنة والإجـماع. ونسـتطيع أن نعـقب على هذا بأن الحكم يجب ألا يكون عاما.

مؤلفاته ومصنفاته:

على امتداد حياة الإمام حسن مأمـون منذ توليه وظائفه الكثيرة والمتنوعة.. نجد أنه ترك ثروة عظيمـة من العلم والمعرفة من إلقاء الدروس والمحـاضرات والندوات العامة، وزياراته للبلاد الإسلامية.. إنها حياة مليئة بالنشاط والثراء العلمى.

لم يستطع المؤرخون ومن كانوا حوله أن يسجلوا حـتى ولو نصفها، ونذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

١- الفـتاوى أصدر المجلـس الأعلى للشئـون الإسلامـية.. الجزء الأول منـها. وطبعـته دار التحـرير للطبع والنشر القـاهرة ١٩٦٩ والجزء الثـانى لدى أنجال الإمام معد للطبع.

٢- دراسات وأبحاث فقهية متنوعة، نشرها الإمام.. صدر منها بضعة عشر جزءا.

٣- السيـرة العطرة.. سلسلة أبحـاث كتـبهـا الإمام وأذاعهـا طبع منها الـبعض، والبعض الآخر مازال مخطوطا.

٤- الجهاد فى الإسـلام، دراسات كتبـها الإمام منها تسع مقـالات مكتوبة بالآلة ولم تنشر.

٥- تفسير موجز لسور «الضحى والانشراح.. والقدر» لم تنشر وغير ذلك كثير.. لم يتسع له المقام.

وفاته:

ظل الإمام حسن مـأمون يباشر عـمله فى ثبات واتزان بضميـر القاضى النزيه والعالم الخبـير، والفقيـه الرشيد، محـفوفا بالمحبـة والتقدير، حتى أثقلتـه أعباء

الشيخوخة، وتناوشته الأمراض، وأحس المسئولون حاجته للراحة فاستجابوا لرغبته، وفرغ الإمام للراحة والعبادة والعلاج، وكان يجد لذة كبرى فى الدراسات الفقهية، تنسيه ما يتعرض له من أمراض وآلام، ولقد أحبه الأزهريون جميعا، وإن كان قد قضى أكثر حياته بعيدا عن الأزهر ووظائفه، ولأنه كان يسوى بين الأزهريين فى الحقوق والواجبات دون تميز، ولا ننسى حب عامة الناس وخاصتهم له وفى يوم ٢٩/ ٥/ ١٩٧٣ لبى الأمام حسن مأمون، نداء ربه، ووافته منيته، فغفر الله له، وأثابه ثواب الأتقياء والصالحين، وتغمده بواسع رحمته، وأسكنه فسيح جناته، مع الأبرار والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا[1].

❁❁❁

(١) صوت الأزهر: د. عبد الله سلامة نصر ص١٢ ٦/ ٦/ ٢٠٠٨.

٣٩- فضيلة الإمام الأكبر الشيخ الدكتور محمد الفحام



قدم الأستاذ الأكبر الشيخ حسن مأمون استقالته من المشيخة وعين الشيخ الدكتور محمد الفحام شيخًا للأزهر وذلك يوم الثلاثاء ٤ رجب ١٣٨٩هـ- ١٦ من سبتمبر ١٩٦٩م.

لقد ولد الدكتور محمد الفحام بالإسكندرية فى ١٨ من سبتمبر سنة ١٨٩٤م وسلك فى تعلمه المسلك الذائع فى عصره، فحفظ القرآن الكريم، ثم لحق بمعهد الإسكندرية الدينى، وقضى به سنوات حصل فيها على شهادته الابتدائية والثانوية، ثم درس بالجامع الأزهر ونال شهادته العالمية سنة ١٩٢٢م.

فلما كانت سنة ١٩٣٦م اختار الأزهر بعثة من خيار المتخرجين فيه ليدرسوا فى باريس دراسة تمكنهم من الحصول على الدكتوراه فى الآداب، فكان منهم الدكتور محمد الفحام.

قضى فى باريس هو وأسرته عشر سنوات، صبر فيها على ما لقى من شدائد فى ظلمات الحرب العالمية الثانية، حتى حصل على الليسانس من السوربون، وعلى عدة دبلومات ثم حصل على الدكتوراه فى الآداب بدرجة الشرف الممتازة من جامعة باريس سنة ١٩٤٦م.

أما موضوع رسالته فكان (معجم عربى فرنسى لاصطلاحات النحويين والصرفيين العرب) وكان هذا المعجم مناط تقدير الأساتذة والمستشرقين وثنائهم، حتى إن أحدهم قال له: لست أظن أن عالمًا زار فرنسا أكثر إلمامًا باللغة العربية منك.

وعاد الشيخ إلى مصر، فوجد شهرته العلمية قد سبقته، فنهض بتدريس الأدب المقارن لطلبة كلية اللغة العربية بالأزهر، وبتدريس النحو بكلية الآداب بجامعة

---

(١) من كلمة المجمع اللغوى فى تأبينه -والكلمة للدكتور أحمد الحوفى.

الإسكندرية. وما زال يتدرج فى وظائف التدريس حتى صار عميدًا لكلية اللغة العربية إلى أن أحيل إلى التقاعد.

وحينئذ لم يركن إلى ما يركن إليه بعض المتقاعدين، بل انكب على البحث والدرس فى مكتبته الخاصة، نحو عشر سنوات، إلى أن إختارته الدولة إمامًا أكبر للأزهر الشريف سنة ١٩٦٩م، ثم انتخبه مجمع اللغة العربية عضواً به واحتفل باستقباله فى ١٢ من صفر سنة ١٣٩٢هـ (٢٧ من مارس سنة ١٩٧٢م).

وشاء الله سبحانه وتعالى أن يرتبط الفقيد بالعالم العربى والإسلامى ارتباطًا فكريًا وعمليًا فقام برحلات متعددة إلى كثير من الأقطار.

زار لبنان، ومثل الأزهر فى مؤتمر ثقافى سنة ١٩٤٧، وسافر إلى نيجيريا موفدًا من الأزهر لدراسة أحوال المسلمين بها، واقترح حلول لمشكلاتهم، وقضى هناك خمسة أشهر، ولم يثنه عن السفر ما زعمه له بعض المبشرين المسيحيين الذين زاروا نيجيريا من قبل أنها مقبرة الرجل الأبيض، بل خرج من داره يتلو قول الله تعالى: ﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ [النساء: ١٠٠].

وكانت رحلته ذات آثار طيبة، إذ اختار بعض أبناء نيجيريا ليتعلموا بالأزهر، وتخير طائفة من علماء الأزهر ليدرسوا هناك، ولم تلبث نيجيريا أن حفلت بعدة مدارس وبكثير من المعلمين العرب والقضاة العرب.

وبعد ذلك سافر إلى باكستان ثلاث مرات اتصل فيها بكثير من علمائها، وزار كثيراً من مدارسها ومعاهدها ومكتباتها.

ثم اتجه إلى موريتانيا، وأسهم فى إنشاء مكتبة إسلامية كبيرة بها وشارك فى مناقشات إسلامية، منحوه بعدها وثيقة مواطن موريتانى.

كذلك سافر إلى إندونيسيا ثلاث مرات ممثلاً للأزهر، وسافر إلى أسبانيا والسودان والجزائر وإيران وليبيا، وزار السعودية خمس مرات، مرتين للعمرة وثلاثًا للحج.

وللدكتور الفحام مؤلفات قيمة. أذكر منها مذكراته فى الأدب المقارن لطلبة كلية اللغة العربية بالأزهر، ومذكراته فى النحو لطلبة كلية الآداب بجامعة الإسكندرية التى ذللت مسائله المعقدة، وسهلت صعوباته.

وله كتاب عن سيبويه.

كذلك تفوق فى دراسة علم المنطق، فألف رسالة سماها (رسالة فى الموجهات) وهو طالب بالسنة الثانية الثانوية، جمع فيها بين العلم وسهولة عرضه، فأعجب زملاؤه بما كتب، حتى إن طلاب شهادة العالمية المؤقتة نهلوا من معين رسالته.

وكذلك تفوق فى دراسة الجغرافية.

وله بحوث نشر بعضها فى مجلة مجمع اللغة العربية مثل:

١- الشيخ خالد الأزهرى:

ذكر فيه المصادر الاثنى عشر التى تحدثت عنه، وعرض أسماء أساتذته، وأسماء مؤلفاته الستة عشر التى وصلت إلينا، ومنها المقدمة الأزهرية، وشرحها، وإعراب الأجوبة وشرحها.

٢- بحث آخر موضوعه سيبويه:

بدأه ببيان معنى كلمة سيبويه، فنقل ما ذكره القدماء، ثم نقل ما ذكره المستشرق كرنكو، ولم يعتمد على ما ذكره المستشرق، بل سأل علماء اللغة الفارسية، وانتهى إلى ترجيح أن كلمة سيبويه معناها تفاحة صغيرة لا رائحة التفاح، كما هو ذائع شائع.

وبعد هذا التمهيد الشائق ذكر عدة من العلماء اسم كل منهم سيبويه هم سيبويه الأصفهانى، وسيبويه المغربى، وسيبويه المصرى.

ثم انتقل إلى شيخهم سيبويه البصرى إمام علماء البصرة، وشيخ النحاة، وأول من لقب بهذا اللقب، فتحدث عن مولده ومكانه وتلاميذه والمناظرة التى كانت بينه وبين الكسائى.

سافر رحمه الله إلى فرنسا، ونال منها أرفع درجاتهـا العلمية، وعاش فيها عشر سنوات، كـان من المظنون أن تغيـر من عـاداته ومن صلاته ومن مظهـره، وزيه، ولكنه عاد إلى مصر حريصًا على أخلاقه الإسلامية الرفيعة، ومتكلفًا بعاداته الطيبة التى ورثها من مصـر المسلمة العريقة، ومـشوقًا إلى زيه العربى الذى يمـيز علماء الأزهر، فلم نره إلا معـممًا وفى جبة وقـفطان، وقد يستعيض عـن الجبة المعطف السابغ الذى يسمى كاكولة.

ولم يكن يتعامل بمعرفـته الفرنسية وبإجادته لها، فـيتكلف الرطانة بها حيث لا مسـوغ لرطانة، ويتصيد المفـردات منها ليحـشرها فى حديثه حـشرًا حيث تسعـفه الألفاظ العربية. وليس من عيب على العالم باللغات أن يستشهد بها، وأن يستعين إذا ما مست حاجته أو دعت مناسبة أو كانت ثمة مقارنة واستشهاد.

«بنهاية الحـديث عن الإمام الأكبر الدكـتور الشيخ محـمد الفحام حـيث انتهت ولايته لمشيخة الأزهر فى مارس سنة ١٩٧٣ بعد وفاته رحمه الله تعالى يقولون هو آخر الأئمـة من شيوخ الأزهر فى الألف عـام، أما فضيلـة الإمام الأكبر الدكـتور الشيخ عـبد الحليم محمـود الذى تولى مشيخـة الأزهر فى ٢٧ من مارس ١٩٧٣ ومن بعده الإمام الأكبر الدكتور الشيخ محمد عبد الرحمن بيصار فى آخر يناير عام ١٩٧٩ ومن بعده الإمام الأكبر الشـيخ جاد الحق على جاد الحق فى مارس ١٩٨٢ فالثـلاثة لم أذكرهم هنا لأنهم تولوا المشيـخة بعد الألف عـام، لذلك ذكرتهم فى دراسة وترجمـة فى الكتاب الثانى «الحـركة العلمية فى الأزهر فى القـرنين التاسع عشر والعشرين الذى تمّ نشره عام ٢٠٠٧ أما فـضيلة الإمام الأكبر الدكتور الشيخ محمد سيد طنطاوى أمد الله تعالى فى عـمره فقد أعتدت له نشره فى الجزء الرابع من هذا الكتاب الذى يضم الأحياء من أعلام الأزهر الشريف»[1].

---

(١) ذكرت هذا البيان فى الطبعة الثالثة لأوضح أن مجال الكتابة فى دائرة الألف عام الذى حددها المرحوم أ.د. محمد عبـد المنعم خفاجى فى الطبعة الأولى لكنى ساذكر هؤلاء الأئمـة الأربعة من شيوخ الأزهر وعددًا كبيرًا من أعلام الأزهر الذين لم يرد ذكرهم قبل ذلك لدورهم العظيم فى الأزهر الشريف وتاريخه المجيد لتمام الدراسة العلمية، د. على صبيح.

وقال عنه الدكتور عبد الله سلامة:

حياته وبيئته ونشأته وتوليته المشيخة:

الشيخ الدكتور الفحام علم من أعلام اللغة العربية البارزين وباحث من خيرة الباحثين فى علوم النحو والصرف والبلاغة والأدب.

ولد شيخنا ونشأ فى الإسكندرية فى ١٨ ربيع الأول ١٣٢١هـ/ ١٨ سبتمبر ١٨٩٤م ثم حفظ القرآن الكريم وجوده والتحق بمعهد الإسكندرية الدينى وكان هذا المعهد قد سبق غيره من المعاهد الدينية فى الأخذ بأسباب الإصلاح والتقدم، كما أنه يمتاز بضم نخبة من العلماء الممتازين وقد أستفاد الطالب محمد الفحام من هذا الجو العلمى البديع، وظهرت مواهبه المبكرة، ولفتت إليه انظار أساتذته، فكانوا يثنون عليه ويشيرون إلى نبوغه، ويهدون إليه بعض الكتب، والمؤلفات العلمية وكان يعتز بهذه الكتب كل الاعتزاز، ويحرص على صيانتها وحفظها والانتفاع بها وكان يطلع بعض أصدقائه على هذه المصنفات التى أهديت له من أساتذته ومنهم أستاذه الشيخ عبد الهادى الضرعمى وهو بالسنة الأولى الابتدائية وعليها إهداء بخطه وذكر أنه صحب معه هذه الكتب إلى باريس.

ولقد أفاض المؤرخون ورجال الفكر فى الحديث عن مفاخر هذا الإمام ومآثره وأعماله ومواقفه التى لا يكاد يحصيها العدد لكثرتها.. وقالوا عنه: «أنه كان أكبر من سنه فى شتى مراحل حياته، وأنا كاتب ومسجل هذا البحث الموجز عن حياة الإمام الدكتور الشيخ الفحام قد عاصرته ولازمته عندما كنت مندوبا للإعلام الخارجى بوزارة الأزهر -أيام الشيخ عبد العزيز عيسى سنة ١٩٧٣ فى حرب أكتوبر -قبل سفرى للخارج ومرافقا له عندما زار خط «بارليف» بعد انتصارنا فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ وعبرت مصر قناة السويس وحطمت هذا الخط الذى كانت إسرائيل وغيرها من دول الغرب تزعم أنه أسطورة حربية ولا تستطيع أى قوة فى العالم أن تحطمه أو تقترب منه ويجب على القارئ معرفة هذا الحاجز ومما يتكون وليعرف عبقرية الجندى المصرى.

ذهبنا للشاطئ الآخر من القناة فى عمق سيناء وكنا بصحبته التى شرفنا بها وكان مثالاً للعالم الفاضل وملاكا يمشى مع البشر على الأرض، وأدينا صلاة الظهر والعصر جمعا فى أحد مساجد القنطرة شرق وكان بصحبته الشيخ محمد الذهبى ولفيف من علماء الأزهر الأجلاء وكبار قادة الجيش الثالث وسجلت هذه الزيارة تصويرا وكتابة، ومازالت مذكرات هذه الزيارة معى لأننى غادرت مصر بعدها بشهر مبعوثًا للأزهر.

والإمام د. الفحام له طرائف أثناء حياته الدراسية تدل على نبوغه.. أن شيخ الأزهر الشيخ سليم البشرى زار معهد الإسكندرية الدينى ومعه لفيف من كبار العلماء وفى مقدمتهم الشيخ محمد أبو الفضل الجيزاوى شيخ معهد الإسكندرية الدينى فى ذلك الحين، وأصبح بعدها شيخا للأزهر كما أشرنا لذلك سابقا.. وكان الوقت وقت امتحان الطلبة فاهتزت هيئة لجان الامتحان، وكان الطالب محمد الفحام يمتحن أمام لجنة الامتحان الشفوى وهو طالب بالسنة الثانية الابتدائية ودخل عليهم الإمام الشيخ البشرى وسأل الطالب فى باب نائب الفاعل فقال الطالب: إن بعض النحاة يسميه «باب المفعول الذى لم يسم فاعله» فقال الإمام البشرى: أى العنوانين تفضل؟ فقال الطالب: أفضل عنوان نائب الفاعل لسببين: لأنه أوجز عبارة.. ولأن نائب الفاعل لا يكون دائمًا هو المفعول به.. قد يكون ظرفًا مثل قولك: سهرت الليلة أو مصدرا مثل: كتبت كتابة حسنة أو جار ومجرور مثل: نظر فى الأمر وكلما أفاض الإمام فى الأسئلة.. أفاض الطالب فى الإجابة.. فقال الإمام: هذا طالب بالسنة الثانية الابتدائية.. أم بالثانوية؟! ثم قرأ الفاتحة.. ودعا له بالخير والبركة.. وتنبأ له.

وكان الطالب مولعا بجميع المعارف والعلوم.. لا باللغة العربية وحدها، وبخاصة علم المنطق والجغرافيا فقد ألف رسالة فى المنطق هى كتاب «رسالة فى الموجهات» وهو طالب بالسنة الثانية الثانوية وقد تم طبعها فيما بعد سنة ١٩٣٢ وأقبل عليها الطلبة فى الإسكندرية وغيرها وانتفع بها طلاب «العالمية» المؤقتة وأما الجغرافيا فقد بلغ من شغفه بها أنه كان يستأذن أستاذه فى أن يذهب إلى حجرة

الخرائط ويغلقها على نفسه طول الليل ويضيئها بسراج من عنده ويظل يفحص ويدرس حتى الصباح كما كان يفعل الجاحظ فى مكتبات الوراقين فى بغداد، وقد حببته هذه الهواية فى الرحلات فطوف ما طوف فى أرجاء العالم دارسًا وباحثًا وداعيًا إلى الله على هدى وبصيرة ويقين.

وأثناء الدراسة لاحت أمامه فرصة للالتحاق بدار العلوم وكان هناك كثير من طلاب الأزهر فى ذلك الحين يفضلون ترك الدراسة فى الأزهر لصعوبة المواد وكثرتها ويلتحقون بدار العلوم أو القضاء الشرعى، رغبة فى التجديد، وطمعا فى مستقبل أفضل، واستشار الطالب والده، فقال له: إنى واثق فى جودة رأيك وحسن اختيارك فاتجه إلى ما تراه صوابا والله معك، أما أمه فكانت تتفاءل بالأزهر فأوصته بألا يتركه، واستجاب لوصية أمه، وظل متمسكا بها فكانت فيها الخير.. واصل دراسته بالقسم العالى بمشيخة علماء الإسكندرية ونال شهادة العالمية النظامية بتفوق، فى امتحان أداه بالأزهر سنة ١٩٢٢م.

ولقد حاز الإمام الفحام على كثير من المعارف والعلوم وتخرج فى الأزهر.. إلا أنه كره التقيد بالمناصب والوظائف الحكرمية، واشتغل بالتجارة، ونجح فيها نجاحا باهرا ولكن مواهبه العلمية من جهة ونصائح المخلصين من أصدقائه من جهة أخرى حمله على أن يعود للحياة العلمية.

وكان الأزهر قد أعلن عن مسابقة بين العلماء فى العلوم الرياضية ليعينهم مدرسين للرياضة بالمعاهد الدينية سنة ١٩٢٦م وامتحن وفاز بتفوق وعرض عليه مفتش العلوم الرياضية بالأزهر أن يعينه بمعهد دمياط أو غيره من معاهد الوجه البحرى فلم يرغب إلا فى معهد الإسكندرية الدينى، وفعلا عين فى المعهد فدرس فيه للطلاب علوم الحديث والنحو والصرف والبيان والحساب والجبر والهندسة لمدة تسع سنوات وهذا يدل على تعدد مواهبه وتنوع ثقافاته وبخاصة أن العلوم الرياضية كانت جديدة على علماء الأزهر فى تلك الفترة كما كان يدرس اللغة العربية لبعض الأجانب.. ثم نقل للتدريس فى كلية الشريعة بالقاهرة سنة ١٩٣٥م

فدرس للطلاب علم المنطق وعلم المعانى وفى سنة ١٩٣٦ اختير إلى بعثة علمية فى فرنسا، فرحل إليها ومعه زوجته وأولاده، وأثناء البعثة قامت الحرب العالمية الثانية لكنه آثر البقاء، وتحمل توابع الحرب وقيودها الصعبة فى سبيل التعليم ومواصلة الدراسة فى عزيمة وتصميم وانجب بنتين هناك واستطاع رغم الظروف المحيطة به أن ينال دبلوم مدرسة الأليانس فى باريس سنة ١٩٣٨ كما نال دبلوم اللغات الشرقية الحية فى الأدب العربى سنة ١٩٤١ ونال فى نفس العام دبلوم اللهجات اللبنانية والسورية ودبلوم التأهيل لتعليم اللغة الفرنسية، نال كل ذلك من جامعة «يورو» كلية الآداب سنة ١٩٤١م[1].

ثم نال درجة: «الدكتوراة» بأمتياز، من جامعة «السربون» بفرنسا فى يوليو سنة ١٩٤٦م، وكان موضوع الرسالة -إعداد «معجم عربى- فرنسى» للمصطلحات العربية فى علمى النحو والصرف، وقد نال برسالته هذه إعجاب وتقدير الأساتذة المستشرقين حتى قال له أحدهم: وقد رأى مبلغ تمكنه من أسرار اللغة العربية: «ما أظن أن قدما وطئت أرض فرنسا، أعلم منك باللغة العربية» ومن المعروف علميًا وفنيًا، أن ترجمة المصطلحات العلمية من أصعب الأمور، لأن لكل لغة خصائصها، ومميزاتها التى تنمو بنموها، على مر العصور».

وعاد الشيخ الفحام من فرنسا سنة ١٩٤٦م ليعمل مدرسًا بكلية الشريعة، ثم مدرسًا بكلية اللغة العربية للأدب المقارن، والنحو والصرف، وظل يؤدى عمله بها حتى رقى أستاذًا، ثم عميدًا للكلية، وفى سنة ١٩٤٧م طلبته لجنة المؤتمر الثقافى العربى الأول، المنعقد فى بيت «مرى» بلبنان يمثل الأزهر، وقد صحبه لفيف من علماء الأزهر، وخلالها زار سوريا، وعقد صلات مودة بينه وبين علماء سوريا، ولبنان، سنة ١٩٤٢م اتصل به المسئولون عن جامعة الإسكندرية، لنقله إلى كلية الآداب بها لتدريس النحو والصرف ووعدوه بترقية مالية كبيرة أكبر مما يأخذه من الأزهر، وتذكر وصية أمه له بعدم ترك الأزهر، ولهذا اعتذر ولم يقبل النقل، فاكتفوا معه بالندب مع بقائه بالأزهر، فجمع بين الأزهر وكلية آداب إسكندرية، فى سنة ١٩٥١م زار نيجيريا، وهى أكبر دولة إسلامية فى أفريقيا، بتكليف من

(١) صوت الأزهر: دكتور عبد الله سلامة صـ١٢ ١٣/٦/٢٠٠٨.

المجلس الأعلى للأزهر -فقضى بها خمسة أشهر- زار فيها أهم مدنها، وقابل علماءها وأمراءها، واستقبلته الجماهير بحفاوة منقطعة النظير، لدرجة أنه بكى تأثرًا وفى سنة ١٩٥٢م، زار باكستان ممثلاً للأزهر فى المؤتمر الإسلامى العالمى، المنعقد فى كراتشى -وألقى بحثًا فيها ممتازًا، نال إعجاب الجميع، وفى عام ١٩٥٩م صدر قرار بتعيينه عميدًا- لكلية اللغة العربية- وظل يباشر عمله فى العمادة والتدريس والتوجيه والإرشاد، حتى حان موعد إحالته على المعاش ١٩٥٩م فصدر قرار جمهورى بمد خدمته عامًا والملاحظ أن كل هذه الأعمال الجليلة والجهود العظيمة فى خدمة الإسلام والمسلمين والأزهر الشريف، كانت قبل توليته المشيخة، وأنه لم يكن رجلاً واحدًا، وإنما كان أمة فى رجل.

توليته مشيخة الأزهر:

ولقد ارتقى فضيلة الدكتور محمد الفحام كرسى مشيخة الأزهر بعد هذه الحياة الحافلة، وصدر القرار الجمهورى فى ٥ رجب ١٤٨٦هـ- ١٧ سبتمبر سنة ١٩٦٩ بتعيين فضيلته شيخًا للأزهر مدى الحياة، فنهض بأعباء المشيخة وسط ظروف قاسية وأمواج متلاطمة، وبين تيارات عنيفة.. فقاد السفينة بحكمة واقتدار، وفى هدوء واتزان، وفى هذه الأثناء ظهرت حركات التبشير عاتية عنيفة قوية فى أفريقيا، وآسيا، وقد استطاع الإمام أن يوائم بين واجبه الدينى بوصفه إمام أكبر للمسلمين، وواجبه الوطنى فى وحدة الصف ولم الشمل، وتأمين الجبهة الداخلية، وسنشير إلى ذلك فيما بعد.

وفى سنة ١٩٧٠م، بعد توليته مشيخة الأزهر.. زار السودان فقوبل بحفاوة منقطعة النظير، وفى السنة نفسها تلقى دعوة من علماء المسلمين فى الاتحاد السوفيتى، ورئيسهم «بابا خانوف» لزيارة الاتحاد السوفيتى، فلبى الدعوة، وزار أيضًا جمهورية «اوزبكستان -وطشقند- وكاجيكستان- وسمرقند- وموسكو- وليتجراد» وعقد أوثق الصلات مع المسلمين، وفى سنة ١٩٧١ زار إيران، والتقى بعلماء الشيعة وأعلامهم، واستقبلوه بحفاوة تتفق ومكانته ومنزلته، واتفقوا جميعًا على العمل فى سبيل الوحدة الإسلامية وتحقيقها.

وكانت شخصية الإمام الدكتور محمد الفحام فى عدة مناهج التزم بها، وساعدته مواهبه الفطرية على ذلك.. منها علمه الغزير، وتجاربه العديدة ودرايته بالعوامل الاقتصادية، والطبائع البشرية، أثناء اشتغاله بالتجارة ورحلاته المتنوعة وصداقاته بزعماء العالم الإسلامى وعمله بمجمع البحوث الإسلامية ومجمع اللغة العربية، وفى سنة ١٩٧٢م تم انتخابه عضواً بمجمع اللغة العربية، وعمل المجمع له احتفالاً كبيرًا مرحبًا به، وخطب الخطباء وتحدث المتحدثون، وأشادوا بالأزهر ورجاله، وأنه هو الطود الأشم للإسلام والمسلمين.. ثم ألقى الإمام الفحام كلمة رائعة نقتطف منها: «إن اللغة العربية دخلت فى صراع مرير مع لغات أخرى كثيرة، فكتب لها النصر دائمًا بفضل القرآن الكريم، والسنة النبوية، والحضارة الإسلامية، وظلت اللغة قوية فتية على مر العصور، وإن لها قدرًا ابتليت به هى وأهلها بأزمات استعمارية قاتلة: حين تسلط التتار على العراق، والصليبيون على الشام، والفرنجة على الأندلس، والأوروبيون على الوطن العربى، ولكنها لم تستكن، وقاومت مقاومة شديدة، فلم تذبل أو تندثر كما حدث للغات السامية واليونانية القديمة.. إلخ ثم تحدث عن العامية وهاجم أنصارها بالبرهان والمنطق.

وأما موقفه من الفتنة التبشيرية التى أشرنا إليها فى بداية اشتعالها فى عهد الإمام الشيخ «حسن مأمون» وأخمدت نارها بفضل جهود الإمام الفحام، وألقى بيانًا رائعًا.. بين فيه روعة الإسلام، وموقفه من كل الديانات السابقة وأنه اعترف بكل الكتب السماوية البعيدة عن التحريف، كما اعترف بجميع الرسل والأنبياء السابقين، وأن المسلم لا يكون مسلمًا إلا إذا آمن بكل ذلك.. وأن الإسلام لما دخل مصر عامل سكانها المسيحيين أكرم معاملة، فجعل لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم، وظل الأقباط يعيشون مع المسلمين بحرية فى دور عباداتهم، وكونوا ثرواتهم، وشيدوا كنائسهم ومدارسهم الخاصة، ولم يتعرض لهم أحد من المسلمين بسوء.. وأشار الشيخ الفحام فى بعض أحاديثه وخطبه لاخماد هذه الفتنة، وأخذ يوضح مدى الروابط الوثيقة بين الطائفتين قائلاً:

«والوحدة الوطنية دائمًا بين المسلمين والنصارى.. وأمثلة ذلك كثيرة. فعندما غزا «نابليون» مصر قاومه الأقباط مع المسلمين، وفى ثورة ١٩١٩م اتحد الأقباط مع المسلمين ضد الاستعمار البريطانى، وخطب القساوسة على منبر الأزهر مقدمين دماءهم.

وفى حرب ١٩٦٧ احتلت إسرائيل سيناء، وبدأ الاستعمار يخطط لاضعاف الجبهة الداخلية فى مصر، وذلك باشعال نار الفتنة.. وكان مصدر هذه الفتنة - أن قامت مؤسسة مريبة فى بيروت فأصدرت سلسلتين من الكتب التبشيرية.. أحداهما.. بعنوان «فى الحوار المسيحى الإسلامى».. والثانية.. «دراسات قرآنية» وكان الهدف من إصدار هاتين السلسلتين، إحداث فتنة طائشة عمياء.. وهنا عقد الإمام الفحام «جلسة مجمع البحوث الإسلامية» فى مارس ١٩٧١م، واختار من يرد على تلك «الشرذمة» وكتبهم التبشيرية، وبقوة شخصية الإمام، وسداد رأيه، وقوة منطقه وحجته، استطاع القضاء على هذه الفتنة، التى أوشكت أن تمزق الأمة، وبهذا سلمت الجبهة الداخلية من الانهيار، وعاد الشعب المصرى إلى وحدته.. وبهذا أتاح الله لجيش مصر أن يعبر القناة، ويحطم «خط بارليف» بمعاونة المسلمين والنصارى، وهذه وقفات يجب أن يذكرها التاريخ.

آثاره العلمية وتأثيره:

كان الإمام الدكتور محمد الفحام واسع المعرفة ذا علم غزير، وخلق كريم، وإيمان عميق، كل من عرفه لا يستطيع أن يبتعد عنه أو يقطع صلته به.. فهو ودود صدوق، فمن صادقه أحبه وازداد حبًا له يومًا بعد يوم.. لأنه خلق بطبعه مفطوراً على حب العلم وتحصيله، لم يخلد للراحة أبدًا أو السكون، بل واصل العمل، وكانت شهرته قد ذاعت -فأقبلت عليه الهيئات العلمية فى الداخل والخارج- ففى سنة ١٩٦١ حضر وزير أوقاف باكستان إلى القاهرة، واجتمع بلفيف من العلماء فى مكتب وزير أوقاف مصر، لاختيار أحدهم للقيام بوضع منهج

تدريس اللغة العـربية والعلوم الإسلامية بأكـاديمية العلوم فى باكسـتان، وكان من بينهم الدكتور محمد الفحام، وبعد يوم اتصلت به السفارة الباكستانية لمقابلة الوزير الباكستانى. . حيث تم اختياره لهـذه المهمة، وزاره وزير أوقاف باكستان بنفسه فى بيـته احـتـرامًا وتقـديراً، وقـال: «إن العلمـاء يجب أن يؤتى إليـهم -ولا يأتون لأحد». . وأخـبره الوزير باخـتياره لـلسفر إلى باكسـتـان لوضع المناهج المطلوبة. فقضى هناك ستة أشهر، أتم فيها مهـمته، وأدى واجبه خير أداء. . وانتهز الفرصة فزار مدن الهند، وقـابل علماؤها، والهيئـات الإسلامية فيهـا، ووثق الروابط بينها وبين الأزهر الشريف.

وعندما تريد أن تعرض جـهوده فى خدمة لغتـه ودينه، لا تدرى بأيها تبدأ! هل برحلاته وأسـفاره. أم ببـحوثه وتخصـصاته. أم الوظائف التى شـغلها. . والشهـادات التى حصل عـليها، والدعـوات التى وجهـت إليه من شتـى بقاع الأرض وأشرنا إلى بعض منهـا، فقد طوف فى شتى بلاد الله الواسـعة، وأفاد واستفاد من علمائها، فقـد زار «باكستان والهند وأندونيسيا» وكل ولايات ودول الاتحاد السـوفيـتى، ونيجيـريا وإسبـانيا، وموريتـانيا، واليـابان، وإيران وليبـيا والجزائر، وشـاهد الآثار العربية فى مـدريد، وطليطلة وقرطبة، ثم السـعودية، وحج ست مرات، وهذه الأسـفار قد نمت مـعارفه، وأنضـجت تجاربه، وزادته بسطة فى العلم والفـهم، وجعلت منه فـارسًا لا يجارى، ورائـدًا لا يبارى فى الدفع عن دينه[1].

ونسوق دليلاً على عظمة هذا الإمـام. . وتقدير العالم له، ففى سنة ١٩٦٣م زار مو ريتـانيا ممثلاً للأزهر لدراسـة أحوال المسلمين فـيها والوقـوف على مدى حـاجـتهم إلـى المدرسيـن من علمـاء الأزهر، والمنح المقـررة لهم من الأزهر، والمعروف أن علماء مـوريتانيا يتحدثون اللغـة العربية الفصحى ويحفظون كـثيراً من متون اللغة والشعر والنثر إلخ. ومن حب الموريتانيين للشيخ الفحام، منحوه لقب مواطن - مـوريتانى- وسـجلوه ووافق عليه وزير الداخليـة بلقب مواطن

---

(١) صوت الأزهر دكتور عبد الله سلامة صـ ١٠ ٢٧/٦/٢٠٠٨م.

«موريتاني رسمى». وفى سنة ١٩٦٤ كلفه الأزهر بالاشتراك فى المؤتمر الإسلامى فى «باندونج» بأندونيسيا، وتعرف إلى معظم زعماء وقادة العالم الإسلامى، وبفضله انتشر الإسلام فى اليابان. إن هذه السطور غير كافية للحديث عن الإمام الدكتور الفحام لنتناول طرفًا واحدًا من مسيرته وآثاره العلمية، فقد تقلد عمادة كلية اللغة العربية، وشيخًا للأزهر، وتدريسه للمنطق وعلم المعانى بكلية الشريعة، وأستاذ اللغة العربية فى الطليعة وعضواً فى مجمع البحوث الإسلامية، ورحلاته التى لا تحصى إلى العالم وأما تأثيره فى تلاميذه ونحن كنا فى حاجة إلى تسجيل بعضهم.. فهم كثيرون فمنهم من ينتمى للأزهر ومنهم من ينتمى لغيره.

تآليفه ومصنفاته:

إن الإمام الدكتور الفحام له مصنفات لا تحصى خاصة أنه تتلمذ على يديه رجال أعلام أخذوا علومهم منه، وأسقاهم من ينابيع معرفته، هؤلاء الأعلام قد ألفوا مؤلفات جليلة وعظيمة فى الأزهر عددهم لا يحصى، والباقى فى جامعتى الإسكندرية والقاهرة فكلهم انتفعوا بعلمه وتخلقوا بأخلاقه، ومن العلماء الذين جلسوا منه مجلس التلميذ من الأستاذ، فى رحلاته الكثيرة والتى سبق أن ذكرناها فلقد خلف رجالاً وعلمهم وأسسهم على كل ما وهبه الله من علم نافع ومفيد، فلم يؤلف كتبا كما فعل كثير من الأئمة قبله، لكن كانت له أبحاث ودراسات ومحاضرات، وإذاعات ولو جمعنا كل هذه المصنفات لبلغت عدة مجلدات حافلة بالعلم الغزير، والتفكير السديد والتوجيه الرشيد.. ومن أهم هذه المصنفات:

١- رسالة الموجهات فى المنطق.. ألفه وهو طالب وطبعت كثيراً، واستفاد منها كثيرون: طلابًا وعلماء.

٢- «سيبويه» هذا البحث مجتمع.. ناقش فيه آراء سيبويه، ومالاحظه عليه النحويون ومناقشة الدارس المتمكن الذى يتحرى الحقائق، دون ميل أو عصبية.

٣- **مقالات عديدة ومتنوعة، نشرها الإمام في مجلة «المعرفة»** التي كانت تصدر بالعربية، والفرنسية، في باريس، وفي مجلة منبر الإسلام ومجلة الأزهر ومجمع اللغة العربية، وغيرها من المجلات.

٤- **المسلمون واسترداد بيت المقدس** أصدرته الأمانة العامة للبحوث الإسلامية سنة ١٩٧٠.

٥- **أثر الإسلام في توجيه القادة والإداريين** محاضرة قيمة ألقاها في معهد الدراسات العليا لضباط الشرطة بالزمالك.

وهذه المحاضرة صالحة لأن تكون نواة كتاب جيد في التنظيم الإداري، كما رسمه الإسلام، هذا إلى جانب عدد كبير من الأبحاث والدراسات المهمة التي كتبها ولا تزال مخطوطة، ونسأل الله أن يلهم المسئولين من الباحثين لجمعها في كتاب أو عدة كتب، لينتفع بها طلاب العلم والمعرفة.

وفاته:

كان الإمام الشيخ الدكتور محمد الفحام من ذوي الأدب الرفيع والخلق الكريم، والإيمان العميق، ولو قدر لإنسان أن يسلم من عداوة أحد لكان هذا الإنسان.. هو الدكتور الفحام وهذا ما لمسه الناس فيه، وكان في إيمانه العميق.. يعلم أن الحياء شعبة من الإيمان، فيتمسك به خاصة في أماكن ممكن أن يطيش فيها حلم الحليم: فكان يدفع السيئة بالحسنة، ويقابل العدوان بالإحسان ويعالج المشكلات بالرفق واللين، مع الهدوء والاتزان، وكان دائمًا يختار الأيسر، فعاش حياته في جو من المودة والرفق، ولقد وصفه أحد أصدقائه قائلاً: «إنه رجل ذو نفس لوامة» يحاسب نفسه ويعاقبها، ويحاذر من إساءة الناس ويتسامح فيها، ليس عن ضعف وإنما هي نفس المؤمن.

وكان في غربته مثالاً لكل مصري يحب مصر، وكل عربي وكل مسلم، وكل أزهري.. وظل يكافح ويناضل، ويكتب ويتحدث ويحاضر، وهو في أشد

حالات المرض والضعف، حـتى وافته منيته، وخرجت روحـه إلى بارئها، فى عام ١٩٨٠، وشيع جـثمانه الطاهر إلى مـثواه الأخيـر فى الدنيا، فى موكب مـهيب. ودفن بالإسكندرية موطن رأسه البلد التى أحبها، ولم يفارقها طيلة حياته.. فسلام عليه يوم ولد ويوم وفاته ويوم يبعث حيًا[1].

❁❁❁

(١) صوت الأزهر: دكتور عبد الله سلامة نصر صـ ١٠ - ٢٠٠٨/٧/٤م.

فهرس الجزء الثانى

الموضوع | الصفحة

تابع الفصل الثانى من الباب الثالث فى الجزء الأول

❀❀❀